87
مجلة فصلية تصدرها وزارة الثقافة المغربية
يناير 2010 - 20 درهما

المناهل

87
يناير
2010

Al Manahil - Issn : 0851/0253 - Dépôt légal : 1974/6 Janvier 2010 - Prix : 20 Dh

كتابات تاريخية حول الحماية

المغرب من منظور كولونيالي

الحماية وانعكاساتها

قراءات

إضاءات

وثائق

محاولة تأطير تاريخي

منشورات
وزارة الثقافة

سمير بوزويتة
محمد المازوني
أحمد بوحسن
محمد أقضاض
علال ركوك
أحمد السعيدي
عز المغرب معنينو
محمد العربي المساري
عثمان أشقرا
أحمد زيادي
حسنة مازي
سلوى الزاهري
أحمد الوارث
إبراهي لخطيب
أحمد بن خالد الناصري
عبد الرحان ابن زيدان
أحمد المكاوي

منشورات
وزارة
الثقافة

تصميم الغلاف : ادريس برادة

الثمن :
20 درهما



87

مجلة فصلية تصدرها وزارة الثقافة المغربية

تصفيف وسحب : مطبعة دار المناهل.
الإيداع القانوني : 1974/6
ردمك : 025-0851

المراسلة :
مجلة المناهل : وزارة الثقافة
1، زنقة غاندي ـ الرباط
الهاتف : 90 40 27 -91 40 27 37 05 212+
الفاكس : 93 2740 37 05 212+
البريد الإلكتروني:
revuemanahil@minculture.gov.ma



الحماية الفرنسية في المغرب: إشكاليات ورهانات

- الكتابة الكولونيالية : (الجدوى والحدود)
- المغرب من منظور كولونيالي
- الحماية وانعكاساتها
- قراءات
- إضاءات
- وثائق
- محاولة تأطير تاريخي

تقديم

يشتمل هذا العدد (87) من مجلة (المناهل) على ملف تاريخي يقتفي خطى النهج الذي حددت معالمه الكبرى المدرسة التاريخية المغربية المعاصرة، كما تتجلى أساساً في أطروحات وندوات علمية تمت في رحاب الجامعات المغربية، وأخص بالذكر منها الندوة الدولية المنعقدة بكلية آداب الرباط سنة 1995 حول (الإصلاح وتوظيفاته) والندوة التاريخية بنفس الكلية، سنة 2005، وتناولت موضوع (من الحماية إلى الاستقلال: إشكالية الزمن الراهن).

في هذا الإطار العام، تندرج محاور هذا العدد تحت عنوان: **الحماية الفرنسية في المغرب: إشكاليات ورهانات**، موزعة كما يلي: الكتابة الكولونيالية: (الجدوى والحدود)، المغرب الحديث من منظور كولونيالي، الحماية وانعكاساتها، قراءات، إضاءات، وثائق.

كثيراً ما يقع المؤرخ، في محاولته اقتناص بعض الحقائق التاريخية، في تناقض بين الأهواء الذاتية والرهانات السياسية والإديولوجية من جهة، والضوابط والمعطيات العلمية الموضوعية من جهة ثانية.

ويدخل ضمن هذه الإشكالية، ذلك الجدال حول مسألة الحماية الفرنسية، وجهة نظر الاحتلال الذي كان يعلن أنها كانت ذات أهداف إصلاحية وتنويرية، بينما يرى البحث التاريخي أنها تمت في سياق نمو اقتصادي وتجاري أوربي، وبالتالي، فإنها، أساساً كانت ترمي لتلبية حاجات وتحقيق مصالح الدولة الحامية.

ومقارنة سريعة بين بنود معاهدة الحماية سنة 1912، ووثيقة المطالبة بالاستقلال 1944، تبرز البون الشاسع بين المنظورين: هناك في المعاهدة تأكيد على تأسيس نظام جديد في المغرب يرتكز على إصلاحات (إدارية وعدلية وتعليمية واقتصادية ومالية وعسكرية)، من أجل التهدئة والسكينة وتأمين المعاملات التجارية، ومن جهة أخرى، هناك دعوة في الوثيقة، إلى ضرورة استبدال نظام الحماية الذي، مارس، خلاف ادعاءاته التنويرية، الحكم المباشر، والاستبداد واحتكار خيرات البلاد وتحطيم الوحدة المغربية، من ثمّ المطالبة باستقلال المغرب لتحقيق إصلاحات في مختلف المجالات ضمن نظام (تحفظ فيه حقوق سائر عناصر الشعب وسائر طبقاته، وتُحدد فيه واجبات المجتمع).

لاشك أن التفاعل بين الأمم شرط لكل نموّ وتطور، لكن الاحتلال بمختلف أشكاله، والمتمثل أساساً في استعمال العنف وغصب الأراضي وتدجين الإنسان وسلب هويته، مرفوض، مبدئياً، حسب كل المقاييس القانونية والأخلاقية والدينية؛ غير أن ما يلاحظ أن ترسبات إيجابية تصاحبه، من باب تلازم الأضداد، تساهم في إحداث دينامية في مجالات مختلفة، وتعتبر، من وجهة نظر معينة، عاملاً مساعداً على بروز وعي بالعصر ومستلزماته، وإكراهاته، وبضرورة الانخراط في الصيرورة التاريخية.

في مواجهة الضغوط الأوربية اقتصادياً وديبلوماسياً وسياسياً، كانت هناك في المغرب، خلال القرن التاسع عشر، محاولات إصلاحية لترميم البناء الداخلي، فقدمت مشاريع إصلاحات: مشروع عبد الله بنسعيد 1901، ومشروع علي زنيبر

1906، ومشروع عبد الكريم مراد 1907، ومشروع مجلة لسان المغرب سنة 1908، ومشروع محمد الأمين بنسليمان التركي (التحفة الناضرة إلى الحكومة الحاضرة) 1910، في تأثر واضح بالدعوات الإصلاحية في الشرق وتركيا، خاصة؛ كما وضعت في نفس السياق سياسة للتكوين، من خلال إرسال بعثات علمية إلى أوربا، قصد التأهيل في مجالات عسكرية وإدارية ومالية، دون الحصول على نتائج لغياب محافل التلقي الواعية، داخل المجتمع المغربي.

مما لا شك فيه أن الحماية الفرنسية تركت بالمغرب آثاراً سلبية، وترسبات إيجابية تمس جزئياً الجوانب الاقتصادية والتنظيمية... إلاّ أنها، أكثر من ذلك كله، اصطنعت مشاكل ما زالت قائمة تتصل بمسألة الحدود الموروثة عن الاستعمار، والهوية المفتقدة، على مستوى اللغة والحضارة والانتماء.

المناهل



الكتابة الكولونيالية: (الجدوى والحدود)



مقاربة : كتاب "ليوطي ومؤسسة الحماية الفرنسية بالمغرب (1912 - 1925)"

سمير بوزويتة*

يعتبر كتاب دانييل ريفي "ليوطي ومؤسسة الحماية الفرنسية بالمغرب (1912 - 1925)" (**Daniel Rivet, Lyautey et l'institution du protectorat français au Maroc, 3vol., L'Harmattan, 1988**). من طينة الكتابة التاريخية التي تسترعي الانتباه إلى أسلوب قراءتها، حيث تحتضن محطات استراتيجية يستريح فيها السرد التاريخي من اشتغاله ليمارس نوعا من التفكير.

يمتلك هذا الأسلوب القدرة على الرفع من قيمة سلطة القراءة، فتتحول القراءة من قراءة لتجربة حماية من نوع خاص وإنتاجا لها إلى قراءة منتجة، واعية بحدود مجال انشغالها.

إن المحاولة التي تستحق الاعتبار هي ذلك المسعى الحقيقي لدانييل ريفي إلى القفز من فوق مأزق القراءة الكامن في التداخل الحاصل بين قراءة شخصية ليوطي وفلسفته الحمائية والاستراتيجية العامة للحماية الفرنسية بالمغرب.

---

* أستاذ باحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس.

لقد عانى دانييل ريفي من دخول خطابه في لغة الحيرة، لذلك نجده يتذرع بجعل شخصية ليوطي ذات قيمة مركزية، تتمحور حولها كل القيم، وتحكم كل العلاقات. وفي ظل هذه الشخصية المحورية، فإن الخطاب المدائحي يعتمد على تسويق صفات إنسانية واجتماعية وسياسية وعسكرية ج1 (13).

أصبح ليوطي في ظل هذا الخطاب الرجل الذي بمقدوره امتلاك المغرب وصناعة تاريخ جديد له. ينبه دانييل ريفي إلى الحالة التي بدأت فيها الأنا المندمجة تتحول من أنا (ليوطي) تقود الاستعمار وتوجهه وتندمج فيه إلى أنا تشعر أنها هي والمغرب شيء واحد.

إن جذور هذه النحن المزدوجة والملتحمة، ساهمت في الترويج لهذه الأنا المتضخمة التي لا تقوم إلا عبر التفرد المطلق، وهي الصوت المفرد الذي لا صوت سواه. فحينما ننظر (حسب دانييل ريفي) في معجم ليوطي نلاحظ حالة التطابق مع النموذج النسقي، فهو لا ينتسب للمغرب بمقدار ما ينتسب المغرب إليه. فهو ليس مقيما عاما بمقدار ما يكون المغرب ليوطيا.

تمنح قراءة دانييل ريفي إمكانية تفكيك طبيعة العلاقة القائمة بين ليوطي كموضوع للبحث والمغرب كفضاء للتجربة الاستعمارية الفرنسية، وتشتغل وفق الخط التالي:

- تفرض شخصية ليوطي واقعا وصفيا نسقيا يتماشى وحجم الإنجازات والمشاريع التي حققتها على أرض الواقع.

- ليس من شأن النسق أن يرى عيوب الشخصية الكاريزمية.

- إن سيرة ليوطي تقوم على ترقية الذات من فوق الآخرين بالضرورة، والآخرون في هذه الثقافة تابعين بالمطلق.

- صناعة ذاكرة وتهيئها ليحل فيها رجل أوحد لا يشاركه غيره فيها.

- يجري تحويل القيم في النسق من قيم تنتسب للعمل والفعل إلى قيم مجازية متعالية أسطورية.

- جرى خلق ليوطي الصنم، وقدم بمثابة التبرير الأخلاقي لأي سلوك قهري استعماري لا يقيم اعتبارا للآخر.

هذه إذن الأجواء التي اقتحم فيها دانييل ريفي موضوع بحثه، حيث داهم ذاك الفاصل الصامت بين واقع الاستعمار وواقع شخصية ليوطي المهيمنة عليه. وشدد أثناء ذلك على المعالجة التاريخية الداعية إلى التريث وعدم إصدار أحكام واستبعاد منطق الجزم والوثوقية المفرطة.

1- المغرب في استراتيجية الاحتلال الفرنسي

شرعت فرنسا مباشرة بعد احتلال الجزائر (1830) في صياغة استراتيجية دخولها إلى المغرب، فوظفت جميع إمكانياتها العسكرية والفكرية، فجندت الرحالة والمستكشفين والقساوسة والأطباء ورجالات القانون والأدباء والفنانين وعلماء اجتماع وأنثروبولوجيين ولسانيين وجغرافيين وطبوغرافيين وتجار للترويج لحالة الفوضى المزمنة التي تنخر المجتمع المغربي.

يحاول دانييل ريفي الإمساك بالمنطلقات التي حددت استراتيجية فرنسا الاستعمارية. وبهذا التوجه يقدم الكتابات الاستعمارية التي خططت لاستعمار المغرب وترسيخه، فروجت صورة مشجعة على التغلغل السلمي والعسكري. ووفق ذلك اعتمدت الاستراتيجية الاستعمارية العلم أداة للاختراق والتغلغل الاستعماري.

إن تقديم البناء النظري الذي اعتمدته استراتيجية الاحتلال، والذي شكل المفتاح السحري لغزو المغرب، لا يعدو أن يكون تبريرا للاستعمار وإضفاء الطابع الأخلاقي والإنساني عليه. يقف دانييل ريفي عند هذا المستوى ليوضح مدى قناعة

الغرب بحتمية الاستعمار الذي لا يعدو أن يكون عملية مساعدة شعوب عجزت عن تجاوز تخلفها، وتنتظر البديل الكامن في الاستعمار. وركزت استراتيجية الاحتلال ضمن هذا السياق على القواعد التالية:

ـ الترويج لحالة الفوضى واللاأمن وسيادة الانقسامات السياسية.

ـ التأكيد على تجزير المغرب إلى بلاد المخزن وبلاد السيبة واللعب على صراع مفتعل بين القوة الداخلية المكونة بين عرب وبربر.

توضح هذه الاستراتيجية أن فرنسا وهي تمهد لاحتلال المغرب وظفت كل طاقاتها وإمكاناتها المتوفرة لتصريف سياستها الاستعمارية بشكل يتماشى وإصرار منظري الاستعمار على تأسيس إيديولوجيا الاحتلال وفق أسس واضحة وذات مردودية سريعة.

أصبح المغرب ساحة عراك بين اللوبيات السياسية والاقتصادية المتنافسة في فرنسا، وغدا سؤال خطة الاحتلال موضع اهتمام هذه اللوبيات. وقد سطرت اللوبيات السياسة والعسكرية مخطط استراتيجيا ينبني على السياستين التاليتين:

ـ السياسة المخزنية: تجعل المخزن يتبنى سياسة الحماية.

ـ السياسة القبلية: تحقيق السلم مع القبائل المقاومة للاستعمار. ج1 (19 - 37).

أكد لوبي المقاولين الرأسماليين على الخطط التالية:

ـ توظيف شعار التحديث والحضرنة لأجل الاختراق الاقتصادي.

ـ جعل دبلوماسية القروض المالية)إدارة مراقبة الديون، السهر على قرضي 1904 و1910، إنشاء بنك المغرب) ذريعة للهيمنة وللتدخل العسكري.

ـ فتح آفاق جديدة للاستثمار بالمغرب (فرصة للبورجوازية الصغيرة). ج1 (51-43).

ينتهي دانييل ريفي إلى القول إن قضية الاستيلاء على المغرب كانت أمرا بالغ الأهمية بالنسبة للوبي الاستعماري. وقد نقلت الصحافة مختلف التوجهات والآراء السياسة والاستعمارية التالية:

- انتقال الصراع الفرنسي الألماني إلى المغرب.
- تعارض التوجهات الاستعمارية بين المناصرين والمعارضين للاستعمار.
- هيمنة الحزب الاستعمار على توجيه استعمار المغرب. (أوجين ايتيين).
- بداية صعود نجم ليوطي بالمغرب. ج1 (81).

لا يكتفي دانييل ريفي بتوصيف أزمة السلطة والمجتمع المغربيين، بل ينطلق في ذلك من مرجعية لها وزنها في الحقل التاريخي المغربي (كتابات جون لوي مييج، عبد الله العروي وإدمون بورك)، والهدف من ذلك رصد طبيعة النظام السياسي المغربي والمتمثل في مؤسسة المخزن التي لم تستطع نتيجة بدائيتها أن تقبض على الوضع الداخلي ولم يسمح نظامها الداخلي الانخراط في منظومة الحماية القادمة.

يبدو أن دانييل ريفي مقتنع بخطاب الأزمة الذي انبنت عليه استراتيجية الاستعمار، إذ لم يتساءل عن خلفية سقوط المغرب في بداية القرن 20 في فخ القروض الذي كان سببا في التعجيل باستعماره، فسياسة الإصلاح والترصيف السياسي والمؤسساتي استنزفت الخزينة من أموالها، فأصبحت الدولة الجديدة بحاجة إلى تغطية مالية من أجل دعم الإصلاح من جهة ومواجهة المشاكل الداخلية من جهة أخرى (تمردات بوحمارة والريسوني...)، وهكذا وجد المغرب نفسه في مصيدة لم يعد بإمكانه الإفلات منها، لا سيما وأن الاستخلاص القسري للديون التعاقدية بالإضافة إلى التملص من الضرائب نتيجة التجنيس ساهما في نسف المخزن وشل إمكانيات صموده في وجه التغلغل الأوروبي. وتحت ضغط هذه الوضعية، وجد المخزن نفسه أمام محاولات التغلغل الأوروبي عليه أن يختار بين حلين:

ـ أولهما: إما أن يلجأ إلى سياسة العزلة دون أن يستطيع إغلاق حدوده في وجه الضغوطات الأجنبية.

ـ ثانيهما: أو يفتح أبوابه للأجانب، وهذا يعني شل مقاومته وسلبه استقلاله، وفي كلا الحالتين، لم يعد بوسع هذه المؤسسة أن الصمود والحفاظ على السيادة المغربية، فتحطمت آمال التأقلم مع الوضع واندلعت أحداث فاس الدامية معبرة عن رفض سلطة المخزن وعدم شرعيته.

يعد تفكك المخزن وفشله في ضبط الوضع المرشح للانفجار، إعلان عن تفشي أزمة المجتمع وقطيعة مع الاستقرار الذي كان يعيشه مغرب القرن 19.

يرصد دانييل ريفي حيرة المجتمع المغربي وهو يواجه الاستعمار، ويفكك طبيعة هذه الحيرة انطلاقا من تعدد المواقف الشعبية تجاه المقاومة، ويقف عند ثلاث فئات من المجتمع جسدت الاضطراب الحاصل لديها وهي:

ـ فئة أعلنت الجهاد وسارت على خط المقاومة.

ـ فئة استسلمت للواقع وحاولت الحفاظ على مصالحها (البورجوازية التجارية).

ـ فئة ترددت في موقفها حيث كان قلبها مع المقاومة ومصلحتها مع الاستعمار (المحميون أغنياء المدن والإداريون...) ج1 (95).

يخلص دانييل ريفي أنه بالرغم من مقاومة الشعب المغربي للاستعمار سلطة وقاعدة، وبالرغم من مساهمة المخزن في تأطير مختلف أشكال هذه المقاومة (مقاومة دينية وعفوية ومخزنية) فإن الاستعمار نجح في الاستفادة من تشتت القوة الداخلية للشعب المغربي والتي حالت دون أن تشكل قوة تهدد الاحتلال. كما ينضاف إلى ذلك نجاح سياسة الاختراق في إلجام صوت الانتهازيين الذين انخرطوا عبر التجنيس للحصول على بعض الامتيازات النفعية في سلك المحميين التابعين للاستعمار. ج1 (106). في خضم الأزمة الخانقة التي عاشتها السلطة المغربية، كانت الفعاليات

السياسية والدبلوماسية الفرنسية تهيئ لمشروع عقد الحماية، بعدما حلت خلافاتها مع ألمانيا (مسألة التنازل)، وكانت تشدد على جعل العقد يكتسي طابع الشرعية الاقتصادية والسياسية، ولذلك فوضت صياغته إلى لجنة تتكون من إحدى عشر عضوا من الفاعلين الدبلوماسيين والعسكريين برئاسة E.Regnault، وأفرزت عملية الصياغة توجهين داخل اللجنة:

- توجه دعا إلى التطبيق الفوري للإدارة المباشرة (تجاوز المخزن وقد مثل هذا التوجه الجنرال G. Guiot).

- توجه تشبث بالإدارة غير المباشرة (الحفاظ على المخزن، وتزعم هذا التوجه Regnault). ج1 (113).

وأثناء تجاذب الأطراف الباحثة عن أرضية توافقية حول طريقة بسط الحماية بالمغرب، يقف دانييل ريفي عند هذه المرحلة التي اعتبرها مرحلة منعطف جذري في تاريخ المغرب المعاصر، وفترة فراغ حقيقي توقف فيها التاريخ المغربي ليبدأ تاريخ جديد.

إن هذه الوقفة تنطوي في ثناياها على التحقيب الجديد لتاريخ المغرب، والذي سيدشن عهدا جديدا يفصل بين عهد المجتمع التقليدي والمجتمع الحداثي. لكن هذا الانقلاب الجوهري لم ينتزع من يد المغاربة بالسهولة المتوقعة، بل جوبه بردود فعل اختلفت قوتها باختلاف أمكنتها وأزمنتها.

انطلقت عملية المقاومة من داخل القصر، حيث صعب على رينيو وعبد القادر بنغبريط والقنصل غايار إقناع السلطان المولى عبد الحفيظ بالتنحي عن السلطة بالكيفية التي يبتغونها. وفي ظل انتشار الإشاعات حدث "انقلاب عسكري" تبناه زمرة من الجنود المغاربة الذين أعلنوا الجهاد في وجه المحتل الفرنسي. وكان هذا الحدث بمثابة فتيل أشعل نار المقاومة التي انطلقت من فاس وضاحيتها لتعم جهات تازة وأزمور والأطلس المتوسط. أفرزت هذه المقاومة زعامات محلية ذاع صوتها

في مجموع التراب المغربي، أمثال الفقيه الحجامي الذي استنفر القبائل المحيطة بفاس لمقاومة الاستعمار شأنه شأن باقي الزعامات المغربية الأولى مثل أحمد الهيبة الذي تبنى الجهاد سنة 1910، واكتسح مناطق الجنوب إلى أن أشرف على مدينة مراكش، لتنتهي حركته الجهادية بهزيمته في معركة سيدي بوعثمان (1911) على يد مونجان.

يستنتج من طريقة تعامل دانييل ريفي مع المقاومة المغربية، أنه مؤمن بقدر الانتصار الساحق للآلة العسكرية الفرنسية التي يديرها جيش نظامي عصري على مقاومة لا تتمتع بقدرة التنظيم. وتماشيا مع هذا الطرح، يبرز مراحل التغلغل الفرنسي بالمغرب الذي تحكمت فيه فعاليات وازنة تمتعت بالقوة الاقتراحية، ساهم فيها الحزب الاستعماري بزعامة أوجين إيتيين(E. Etienn) والدبلوماسيين برئاسة رينيو (Regnault)، والعسكريين بقيادة شارل مونجان وليوطي.

إن القضية المهمة عند دانييل ريفي من سرد المراحل المؤسسة للحماية، تكمن في صعوبة رسم الجو العام الذي عاشه ليوطي الطموح بالفوز على غريمه رينيو (E. Regnault) المرشح الأول لشغل منصب المقيم العام بالمغرب.

تعتبر هذه المحطة أساسية لاشتغال الحقل السيري لدى دانييل ريفي، حيث ستمتلئ الكتابة بشخصية ليوطي الأكثر عمقا، وستحضر الصور في الكتابة عبر الذاكرة المفعمة بالتجارب السابقة والتي تؤهله للفوز بمنصب المقيمية العامة.

لا يتوانى دانييل ريفي في التعبير عن إعجابه بشخصية ليوطي التي تفرض على قارئها إيقاعا خاصا بها، وبالنظر إلى طبيعتها المركبة فإن سيرتها تأتي على شكل بنية ملحمية، حيث المشاهد تتراصف إلى جانب بعضها البعض، وكل مشهد هو وحدة مستقلة بذاتها، ولا يوجد رابط سببي بين المشاهد ولا حكاية واحدة تجمعها. لذلك لا يجدي نفعا البحث عن سيرة حياة خطية لليوطي بقدر ما يجدي التوقف عند أهم ملامح الشخصية ومواقفها المكتوبة وغير المكتوبة لكشف جوانب الشخصية

المحورية الفريدة والغريبة والساحرة بأفكارها وطباعها وسلوكها ومكرها. وفي سياق الافتتان بهذه الشخصية يتم تغييب النقد السلبي لفائدة التركيز على الصفات التالية:

- شخصية وازنة في الحقل الاستعماري.
- شخصية متمرسة ومحنكة صقلتها التجارب الاستعمارية السابقة.
- شخصية مستبدة وطاغية.
- شخصية تقدس التقاليد الأرستقراطية الملكية.
- شخصية زئبقية متقلبة ومزاجية.

وبالنظر إلى طبيعة هذه الشخصية، فقد صعب على دانييل ريفي القبض على حقيقة شخصيته وإدراك عمقها وكنهها. ولهذا نجده لا يهتم كثيرا بفريق العمل الذي يخضع لتوجيهات ليوطي وتوصياته، حيث كان أداة طيعة في يده إلى درجة يشبه طريقة الالتحاق بهذا الفريق بالمريدية. ج1(158).

إن قوة الشخصية كان لها حضور في فترة الاختناق حيث نجح في استثمار تجاربه الاستعمارية السابقة خاصة في أول تجربة اصطدم فيها مع القبائل المحيطة بفاس، فاعتمد على الخطتين العسكريتين التاليتين:

- خطة: تفضل العمل السياسي وتجعل من لغة السلاح الحل الثاني، ولا تستبعده بل توظفه عند الضرورة. لقد تبنى ليوطي هذه الخطة مقتنعا بجدواها ومردوديتها في اختراق القبائل المغربية المقاومة.

- خطة: تلجأ إلى التدخل العسكري على اعتبار أنه حل يمليه الموقف العسكري.

تؤكد خطة ليوطي العسكرية فطنته الماكرة التي استهدفت إفراغ المقاومة المغربية من محتواها الحقيقي، حينما لم يظهر بمظهر المغير للثوابت المغربية وأنه لا

يراهن على إصلاح الدولة وخلخلة المجتمع وإنما ينحصر دوره في الحفاظ على التوازن السياسي والاجتماعي، وقد أكد ذلك على أرض الواقع حيث حقق الأصعب والمتمثل في المتغيرات التالية:

- عزل المولى عبد الحفيظ بدون ردة فعل شعبية قوية.
- إعادة هيكلة الدولة المغربية.
- استمالة النخب المغربية.
- محاولة إقناع الشعب المغربي بشرعية المولى يوسف.
- الحفاظ على عادات القصر وتقاليده. ج 1 (175).

يتفحص دانييل ريفي عملية التحول إلى الحداثة والعصرنة ويسعى إلى إظهار المهمة الجديدة للاستعمار. حيث تطلب إصلاح المخزن البحث عن ترسانة من القوانين والسياسات الملائمة التي تناسب طبيعة الدولة الشريفة. وبالفعل اهتدى ليوطي إلى الاستراتيجية التالية:

- الحفاظ على المخزن لأن الأمر لا يتعلق بتجربة مصر وتونس.
- استمالة النخب وجعلها شريكا في تدبير شأن الحماية.

انطلقت استراتيجية إصلاح المؤسسة المخزنية على مراحل:

- تخلت المؤسسة الجديدة على وزير البحر والحرب.
- استبدلت بنيقة الشكايات بوزارة العدل (بوشعيب الدكالي).
- أصبحت مديرتي الأشغال العمومية والتعليم تابعتين للوزارة الكبرى.
- أما وزارة المالية (عبد الرحمان بنيس) فقد أسندت حقيبة مديرية الترتيب إلى محمد بن عباس القباج والديوانة إلى الحاج عبد الرحمان لحو.
- ألغيت مديرية الأشغال العمومية والأملاك المخزنية والترتيب والتعليم.
- تحولت مديرية الحبوس إلى وزارة الحبوس برئاسة أحمد الجاي. ج1 (178).

لقد نجحت استراتيجية الحماية في خلخلة البنية المؤسساتية التقليدية، التي كانت مرتبطة أشد ما ارتباط بانخراط كوادر مغربية في منظومة هذه الاستراتيجية، وكانت النتيجة الاجتماعية تغيير عميق في الخريطة النخبوية بالمغرب (هجرة النخبة الفاسية إلى طنجة). ج1 (181). وتحول قواد الجنوب الكبار إلى زعماء يحاربون القوة الداخلية المقاومة خاصة أحمد الهيبة وأتباعه. ج1(199).

نجحت مؤسسة الحماية نجاحا في تفعيل الاستراتيجية الناظمة للاستعمار لكنها فشلت في تليين موقف البادية المغربية وتخليها عن المقاومة.

تحاول هذه القراءة إبعاد التساؤل حول بربرية الحماية وسمات أخلاق الفرنسيين التي تبدو مرعبة ومجرمة، وتدخل في لعبة ذات الوجه المزدوج، استعمار القوة (التهديم) من أجل الإصلاح، وإظهار القوة لتجنب استعمالها. إنها لعبة بقعة الزيت التي سارت على خط جعل العسكري في خدمة السياسي.

يبدو أن المؤسسة العسكرية الفرنسية بالمغرب لم تكن مقتنعة تماما بتصور ليوطي للحرب في المغرب، وحاولت بعض القيادات العسكرية أن تشارك ليوطي في اتخاذ القرار العسكري، ومن أمثال هذه القيادات شارل مونجان Charles Mangin، الذي رفض الانصياع للقائد الأعلى والامتثال له، وأصبح بفضل انتصار سيدي بوعثمان 1911 (انتصاره على أحمد الهيبة) شخصية منافسة لليوطي، حيث قدم مشروعا توسعيا سقفه الزمني لا يتعدى سنتين.

لقد شكل هذا التحدي حافزا لإسراع ليوطي من أجل استعادة هيمنته على القرار العسكري، فأنشأ قيادة عليا بمنطقة الجنوب عين عليها الجنرال برولار (Brulard). وورط مونجان في معارك بتادلة ومناطق لم يكن له بها أية دراية، فحصد الهزائم التي استغلها ليوطي لإبعاده من الساحة المغربية نهائيا. ج1 (212).

يرصد دانييل ريفي في سياق خطاب التغيير والإصلاح مرحلة الانتقال والتحويل الجذري للمجتمع المغربي، وذلك بعدما تأكد أن خطاب الأزمة الذي

ألصق بالمغرب، قد أدى دوره على أكمل وجه، وأن المجتمع المغربي المصاب لم يعد يمتلك عيونا ليرى نفسه وكلاما ليقوله لنفسه وأذرع ليدافع عن نفسه.

يبدو المغرب في سياق هذا الخطاب محكوما عليه بالخضوع ولا ملجأ آخر له إلا فعله في إطار استراتيجية تقوم على صناعة دولة مغربية حديثة تبنى على المبادئ التالية:

- تبني سياسة مخزنية تقليدوية.

- ترصيف مؤسساتي يراعي التقاليد المؤسساتية ويدفع في اتجاه تحديثها وعصرنتها (تضم الإقامة العامة ثلاث مديريات، تشكل إلى حد ما وزارات مخزنية يشرف عليها أطر فرنسيون، أنشئت كتابة عامة للحماية مكلفة بالشؤون الإدارية والعدلية والأمنية وتعد بمثابة وزارة الداخلية، أما الكتابة العامة للحكومة الشريفة فكانت الوسيط بين المخزن والقصر، وفي نفس الوقت أنشئت مديرتي الأشغال العمومية والمالية). ج1 (222).

لقد هيمن العنصر الأجنبي (فرنسيون وجزائريون وتونسيون(على الإدارة الجديدة، وظل المغاربة في مناصب الظل (الدرجة الثانية)، الشيء الذي جعل من هذه الإدارة إدارة أجنبية غير متجذرة في المشهد المؤسساتي المغربي. وتطلب تحديث هذه الإدارة والمراهنة على الإصلاحات التالية:

- قانون يضمن مصالح جميع الجنسيات.

- تحديث القطاع القضائي، وذلك كالتالي:

- إصلاح المسطرة المدنية: ضبط مهام المحامين وأعوان القضاة.

- قانون التجنيس الذي يفصل بين الجنسية والديانة،

- إصلاح المسطرة الجنائية:

- استحداث لجنة جنائية تبث في القضايا الجنائية التي تهدد الوجود الفرنسي.

- تقييد حرية الصحافة.

- إصلاح قانون الملكية: تسهيل حيازة وامتلاك العقارات.

- إصلاح القطاع الضريبي: إعادة تنظيم الجبايات وتحديث الضرائب. ج1 (223).

تمكنت مؤسسة الحماية بهذه الإجراءات القانونية من ترسيخ الترصيف المؤسساتي بين الهياكل المؤسساتية الغربية والمحلية التقليدية. ج1 (235). ونفسه شهدته بنية المغرب الاقتصادية، حيث راهنت الإقامة العامة على تغيير هذه البنية عبر جلب الاستثمارات الخارجية، فلم تدخر جهدا في الدعاية للمغرب، وقد اعتمد ليوطي في تحقيق الإقلاع الاقتصادي على فعاليات فرنسية من مختلف القطاعات (في الأشغال العمومية السيد Delure ومن الإدارة المالية السيد Daum والسيد Billy ومن مهندسين كبار وتقنيين ماليين)، غير أن هذا المخطط الاقتصادي اعترته مجموعة من العراقيل منها:

- **العرقلة الأولى**: شكلت المنافسة الدولية لفرنسا حول المغرب العرقلة الحقيقية، حيث عارضت ألمانيا القرارات التي اتخذتها مؤسسة الحماية بخصوص بعض المشاريع الاقتصادية، وقد أدى ذلك إلى تعطيل إصدار ظهير بخصوص المناجم وتعديل بعض القوانين التي تخص الرسوم على الصادرات المنجمية، وكذلك رخص التنقيب عن المعادن. ج1 (238).

عرفت مشاريع تهم الأشغال العمومية العرقلة نفسها، مثل الكهرباء بفاس وتوزيع الماء الصالح للشرب بالدار البيضاء. فقد تدخلت ألمانيا وأنجلترا في عرقلة هذه المشاريع بحجة أن فرنسا تريد تفويت هذه المشاريع لصالحها. وتضاربت مصالح الدول الأوروبية في المجال الضريبي، وذلك عندما قررت الرباط إلغاء الضريبة على الواردات من السكر والكحول، مما أثار استياء إنجلترا بدعوى عدم مراعاة المساواة بين المحميين الأجانب وتهديد سيادة المخزن. ج1 (239).

ـ **العرقلة الثانية**: هيمنت ألمانيا على قطاع الاستثمار العقاري بالمغرب، وبالرغم من ذلك سيطرت الشركات الفرنسية على أوراش الموانئ والسكة الحديدية وبعض الصناعات. ج1 (241).

ـ **العرقلة الثالثة**: عدم تحفز الحكومة الفرنسية للمخطط الاقتصادي بالمغرب، مما شكل فرملة حقيقية لمشروع هذا المخطط، لكن ليوطي المتمرس استطاع أن يتخطى تماطل الإدارة الفرنسية، وعدم استجابتها لما يتطلبه المخطط من قروض ودعم مالي في الوقت المناسب. ج1 (245).

ساهمت هذه العراقيل في إيقاف عجلة الإقلاع الاقتصادي الذي كان ينشده ليوطي، وأحدثت خللا في التوازن بين وثيرة الإقلاع والبنية التحتية شبه المنعدمة. ج1(246).

راهن ليوطي في سياق خطابه التنموي على توفير الإمكانات المادية والبنية التحتية التي تفسح للاقتصاد ومجالا أوسع للتطور. وركب تحدي إنجاز ثلاث مشاريع كبرى تمثلت في ميناء الدار البيضاء،وقرض 1914 وخط السكة الحديدية (طنجة ـ فاس).

وتم اختيار مرفأ الدار البييضاء لعدة اعتبارات منها:

ـ استراتيجية الموقع بحكم وجوده بسهل الشاوية.

ـ تمركز جالية أوروبية مهمة بمدينة الدار البيضاء.

ـ المكانة الاقتصادية لهذه المدينة.

نجح ليوطي في كسب تحدي بناء ميناء الدار البيضاء، إذ خاض صراعات كبيرة، كادت أن تنسف هذا المشروع بخصوص القرض المالي لسنة 1914، فقد حصل عليه المغرب بعد مفاوضات عسيرة. أما مشروع السكة الحديدية، فإن طموح ألمانيا الطامعة في اقتطاع جزء من تراب الجنوب المغربي وطموح أنجلترا المتشبثة بحقوق مراقبتها لطنجة من خلال جبل طارق، حالا دون الإسراع في إنشاء

خط السكة الحديدية الرابط بين طنجة وفاس. وكان لابد من توقيع بروتوكول مع مدريد في 27 دجنبر 1912، يتم بموجبه منح الامتياز إلى شركة تقوم بالدراسة والبناء والاستغلال، وتقسيم باقي السندات بين فرنسا 60% وإسبانيا 40%. وانتهى المزاد باتفاق إسبانيا وفرنسا على إرساء المشروع على الشركة العامة للمغرب والشركة العامة الإسبانية لإفريقيا، وبإشراف الحكومة على بناء هذا الخط حسب الشروط السابقة. ج1 (256).

كان ليوطي يرغب في تحديث المغرب وإقامة دولة حديثة بكل مقوماتها، لذلك سارع إلى تبني المشاريع التي تهتم بتوفير البنيات الاقتصادية التحتية (جلب المستثمرين الأجانب إلى المغرب)، وقد تحمل مجابهة العراقيل المتمثلة في تصلب تصور التقنوقراطيين البارسيين الذين كانوا يرفضون تحديث المغرب بالوثيرة التي يرغب فيها ليوطي. ج1 (257).

2- العسكري والسياسي في احتلال المغرب

إن استخدام الجيش للقيام بعمليات عسكرية خارج مجاله الوطني ليس من الظواهر الجديدة في العلاقات الدولية. وإذا كان هناك اختلاف بين الاستعمار القديم والجديد، فإن تسمية التدخل العسكري قد اختلف في تسميته، وفي الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه.

يحاول دانييل ريفي أن يكشف عن قباحة وبشاعة الحرب الاستعمارية والتي طالما أضفي على مضامينها الطابع الإنساني الذي لا يتعدى عمليات تهدئة محدودة في الزمان والمكان. فيقدم معطيات إحصائية حول الجيش الفرنسي الذي تطور قوامه القتالي عبر المراحل التالية:

1907 - 1912: ارتفع العدد من 43300 إلى 72000.

1912 - 1914: ارتفع العدد إلى 90000.

1914: تقلص العدد إلى حدود 40000 بسبب الحرب العالمية الأولى.

1916 - 1919: ارتفع العدد إلى 100000.

1925: ارتفع العدد إلى 150000.

أما بنيته البشرية فتتكون من الجنسيات التالية:

1915 ـ السينغاليون: 22 %.

1912 ـ الجزائريون والتونسيون: 34% سوف تتراجع هذه النسبة سنة 1920 إلى 24%.

ـ الفرنسيون: فرق نظامية واحتياطية.

ـ البرطيرة (partisans) : الألمان والنمساويون والصرب والمغاربة.

واختلف دور الفرق العسكرية المكونة لجيش الاحتلال، وقد توزع دورها كالتالي:

ـ السينغاليون: قوة دعم.

ـ الجزائريون والتونسيون: قوات الجبهة.

ـ المغاربة: قوات الجبهة بامتياز، وقد تجاوزوا الجزائريين والتونسيين في المقدرة على الانخراط السريع في الجيش الاستعماري. وقد وصل عددهم في الحرب العالمية الأولى إلى 34000 قتل منهم 9000 وجرح 1700، وهي أكبر نسبة مقارنة بالفرنسيين التي لم تتعد 16.5 % والجزائريين 14.5%.

كانت هذه المؤهلات الدافع القوي لليوطي من أجل الإسراع إلى إدماج المغاربة في جيش الاحتلال، دون أن يصل ذلك إلى حد التجنيس، وقد كانت عملية عسكرة المغرب التي تبناها ليوطي حجة للكولون من أجل مطالبة المتروبول بتعويض المقيم العام العسكري بمدني. وعلى الرغم من ذلك تشبث ليوطي بتطوير المؤسسة العسكرية، وتفعيل دور الضباط، في السياسة الأهلية، لذلك حرص على

انتقاء أجود الضباط لإنجاح هذه المهمة.

لم تعتمد الاستراتيجية العسكرية الفرنسية بالمغرب على حركة الجيوش فحسب ولكنها اعتمدت على نتائج هذه الحركة أيضا، وتبقى هذه الاستراتيجية في جوهرها رهينة العلاقة بين الوسائط والأغراض، وتكييف الوسائل المتاحة والموارد والإمكانات البشرية والمادية والمعنوية المستخدمة. وركزت المؤسسة العسكرية على القوة الكامنة في الدفاع الذي يتميز بالقدرة على تحقيق المبادرة التكتيكية، ومن ثمة اعتبرت قوة الدفاع هي للتعويض فقط عن قوة الهجوم. يتضح أن الدفاع انبنى على أساسا حركي يحمل طابعا هجوميا يتمثل في التمسك بالخطوط مع توجيه ضربات معاكسة قوية في العمق، والمناورة لتعويض مجنبات العدو المهاجم وخلق الظروف المواتية وإنهاك العدو للانتقال المباشر للهجوم. وعموما يمكن تلخيص الركائز الأساسية للاستراتيجية العسكرية الناجحة التي اتبعتها القوات الفرنسية في:

- إنشاء وتوسيع التشكيلات الرئيسية الكبرى، أي الانتقال إلى قتال الفيالق مما سمح بتنسيق جبهات كاملة، وتنسيق التشكيلات وصنوف الأسلحة ضمن كل جبهة، ورافق هذا التحول إقامة قيادات جبهوية متحركة متصلة مباشرة بالقيادة العامة.

- اختلاف الخطط العسكرية من حملة إلى أخرى، حيث صار التركيز على محاصرة وتطويق موقع محدد في حملة أولى والاقتحام في حملة ثانية، وطلب الفدية والغرامات وحجز الأراضي وزرع العمل الجاسوسي في حملة ثالثة. وعلى الصعيد العملياتي والتكتيكي حلت الحركية العالية مكان العمليات المتنوعة والدقيقة والتي كانت بدورها قد حلت مكان الثبات والحشد الرئيسي. وما يجدر استخلاصه من هذه التجربة هو كيفية إدراك العناصر الأساسية في الموقف العسكري.

استعمل جيش الاحتلال أسلحة متنوعة، اختلفت باختلاف العمليات العسكرية التي يفرضها الموقف العسكري، فنجد مثلا:

- طلب ليوطي سنة 1912 تغيير مدفع 65.بمدفع 75.

- استعمال المدافع الرشاشة في الزحف على تازة.

- استعمال البنادق الرشاشة والدبابات في حرب الريف.

- استعمال الطائرات التي قنبلت قبائل الشياظمة لأول مرة سنة 1916 ج2(7-87).

كانت مسألة التحرر الوطني دون شك المهمة المركزية في نضال الشعب المغربي، وقد اتخذت المقاومة الوطنية أشكالا متعددة، يحاول دانييل ريفي رصد مظاهرها وطبيعتها والتفحص بدقة ظاهرة الاجتنابية (كره الأجنبي)، ويستخلص أسلوبين من هذه الاجتنابية وهما:

- تبني فئة من المغاربة فكرة المهادنة والإيمان بالخلاص الغيبي.

- تبني فئة من المغاربة فكرة المقاومة والإيمان بالمهدوية المنقذة، وقد تفشت هذه الاستراتيجية كفعل مقاومتي ضد الاستعمار والمخزن في مجموع أرجاء المغرب.)أحداث طنجة، تعيين سلطان جديد، فاس وتطوان رفض سكانهما سلطة المخزن، أما سلا فقد تبنى المعارضين فيها المقاومة الصامتة وفضلوا الهجرة الرمزية أي الرفض المطلق للاختلاط مع الأجنبي).

في ظل هذه الظروف المشحونة بالاجتنابية (حسب دانييل ريفي) انخرط العديد من الجماعات الطرقية كدرقاوة وهداوة في مقاومة الاستعمار. وينبه دانييل ريفي إلى طبيعة المقاومة المغربية التي تبنت خيار الجهاد كاستراتيجية موحدة بين مختلف أطياف الشعب المغربي، لكونه يؤكد بأن هذه المقاومة لم يكن لها القدرة التنظيمية على توحيد القوة الداخلية في خندق المقاومة المنظمة. ويوضح ذلك حينما يصنف الجهاد المغربي إلى الأسلوبين التاليين:

- الجهاد غير المنظم: عمت بالقبائل المغربية (إيموزار كندر نموذجا) ظاهرة قتل الفرنسيين والعملاء، واتخذت شكلا من أشكال الجهاد.

- **الجهاد المنظم**: شهد المغرب اندلاع موجة عارمة من حركة الجهاد التي عمت مختلف جهات المغرب ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

- جهاد الريسوني (1903 - 1908)، جهاد الهيبة، جهاد التوزونيني (1916 - 1919)، انتفاضة الغرب سنة 1912، جهاد مزيات بورغة سنة 1913، جهاد الريف سنة 1916، جهاد بني وراين سنة 1919، جهاد الشنقيطي بناحية تازة سنة 1913، جهاد عبد المالك بناحية تازة، جهاد موحى وحمو وسيدي علي امهاوش وسيدي المكي، وأولاد سيدي الطيبي وحنصالة...

يستخلص دانييل ريفي إلى أن الأسلوب الحربي لجهاد المغاربة كان سببا جوهريا في إضعاف استراتيجية المقاومة المغربية، وضياع المعنى الحقيقي للجهاد، حيث طغى على المقاومات السالفة الذكر (حسب دانييل ريفي) السمات التالية: حرب الطرق، حرب العصابات والفوضى والنهب والسطو. وينتقل من حالة الاحتلال العسكري إلى رصد معالم الاحتلال السياسي، حيث وضعت معاهدة فاس حدا نهائيا لاستقلال المغرب (حافظت المعاهدة على سيادة المغرب القانونية ونقلت سيادته الفعلية إلى سلطات الحماية). ولذلك التزمت فرنسا بالمحافظة على الوضعية الدينية للمغرب وحرمة السلطان وصون المؤسسات الإسلامية، ووفق ذلك سطر ليوطي سياسته الإسلامية والأهلية التاليتين:

1- سياسة ليوطي الإسلامية

ركزت سياسة ليوطي على سياسة إسلامية تحافظ على خصوصية المؤسسات الدينية وقد نظم ذلك بموجب ظهير يمنع تمليك المساجد والزوايا والمقابر والمؤسسات الدينية الأخرى، كما منع على الأوروبيين الدخول إليها أو تصويرها، إضافة إلى ذلك منع المسلمين من حمل المشروبات الكحولية أو شرائها وأمر أصحاب الحانات بإنشاء محلاتهم بعيدا عن المساجد والمقابر. وعلى نفس الخط تم التنصيص على

مراقبة النشاط التبشيري بالمغرب. تأسست هذه السياسة على خليفة الخلط والمزج بين العادات والقانون، فبإسم "القاعدة" (المسطرة الناظمة للسلوك الاجتماعي) حرص ليوطي على استمرار الهدية السلطانية واحتفالات مواسيم عيساوة وحفلات سلطان الطلبة، وألح على احترام تقاليد وحرمة الأسر والعائلات التقليدية، وفي نفس الصدد تم تقنين تجارة النخاسة.

نجحت المؤسسة الاستعمارية في اللعب على وتر التداخل الحاصل بين القاعدة والقانون، وتمكنت من اختراق المجتمع بكل مكوناته، سواء تعلق الأمر بالخاصة أو العامة، أما السلطان فقد اعترفت به كمالك وحيد للسلطة التشريعية، ويمثل بهذه الصفة الشعب المغربي بصورة مطلقة، والتعامل نفسه حظي به من طرف ليوطي الذي أدرك أن سلطة السلطان ليست صفة شخصية بل اجتماعية (الرجل المنارة)، واستمرت هذه السياسة إلى حدود 1916، إذ شهد العالم الإسلامي مجموعة من التغيرات، مثل فشل مشروع الحسين والمشروع العلماني لمصطفى كمال وخضوع شريف مكة للبريطانيين.

لقد كان لهذه المتغيرات أثر على تغيير سياسة ليوطي تجاه القصر، وأعلن على إعادة تأسيس مفهوم السلطنة وفق الأجندة السياسية والمؤسساتية للحماية. (يذكر دانييل ريفي بأن ليوطي أبعد عبد العزيز إلى طنجة في شتنبر 1914 خوفا من إمكانية تنصيبه على العرش من طرف الألمان في حالة انتصارهم في الحرب، أما بالنسبة لعبد الحفيظ فقد انتهى به المطاف أن قبل ليوطي استقراره بـ Enghien). ج2 (138).

نجح ليوطي في تقنين دور السلطان وجعله بمثابة واجهة سياسية من أجل إحلال البركة وإضفاء الشرعية على قرارات مؤسسة الحماية. وبذلك تحدد دوره في:

- تدشين المشاريع (معرض الدار البيضاء سنة 1915 ومعرض فاس سنة 1916 وتدشين طريق فاس - الرباط سنة 1923).

- تعيين الباشوات الذين رشحتهم سلطات الحماية لهذا المنصب.

وعندما يبادر السلطان إلى اتخاذ مبادرة فردية دون التنسيق والترخيص له من طرف سلطات الحماية، تشل حركته ومثل ذلك عندما أقر بمغربية مدينة طنجة، اتهم بإفساد المفاوضات بين فرنسا وإسبانيا وإنجلترا حول وضعية المدينة. ج2 (140).

قامت سياسة ليوطي الإسلامية على احترام هيئة العلماء وإدماجهم في تطبيق قرارات السياسة الداخلية للمغرب، وعملت على هيكلة مؤسسة الأوقاف، حيث سطرت الإجراءات التالية:

- مراقبة النظار عن طريق المراقبين.
- إحصاء ممتلكات الأحباس عن طريق لجان محلية.
- عدم تحويل أملاك الحبوس إلى الملك الخاص.

ولم يبق لمؤسسة الحماية إلا تقنين المؤسسة القضائية، فاتخذت الإجراءات التالية:

- إجراء اختبار للعدول وفق معايير أخلاقية محددة.
- فرض مسطرة من الإجراءات الصارمة.
- إقالة مجموعة من القضاة وتعويضهم بآخرين. (شملت هذه الحركة مدن الدار البيضاء والرباط وسلا ومشرع بلقصيري وطنجة وآسفي ووجدة).
- أصبح منصب القاضي منذ سنة 1915 رهين بإجراء مبارة، والشيء نفسه بالنسبة للعدول أما الوكيل فيجب أن يحظى بموافقة وتزكية وزير العدل.
- إدخال قوانين أجنبية في القانون المغربي.
- إجبار العدول على توثيق العقود في السجلات وتسهيل الإجراءات القانونية على الأطراف المتخاصمة. ج2 (145).

وقد اقتنع الفاعلون السياسيون بمدى أهمية انخراط مؤسسة الزوايا في

منظومة النظام الاستعماري الجديد، وتأكد ذلك على أرض الواقع، حيث التزمت المؤسسة الاستعمارية بـ:

- عدم تضييق الخناق على الزوايا.
- توظيف المخزن للضغط على الزوايا (الزاوية الوزانية نموذجا).
- استخدام شيوخ الزوايا والشرفاء حكاما في حل النزاعات الصعبة. ج2 (152).

2- السياسة الأهلية وصناعة تراتب اجتماعي جديد

قامت سياسة ليوطي الأهلية على خلفية اجتثاث الجذور الذي أصبح مخططا ومحو الثقافة مبرمجا والمحاكاة هي القانون الوحيد، وسعت هذه السياسة بكل ما أتيح لها من إمكانات إلى تدمير المعاقل الأخيرة للنظام التقليدي (المجتمع التقليدي) عن طريق تشريع ملائم يضمن استمرار الاستعمار بالمغرب، ومن ثمة تبنت الخطط التالية:

1- إنتاج نخبوي للساكنة الحضرية

حاول ليوطي إشراك النخب الحضرية في تسيير الشأن المحلي، فتأسس أول مجلس بلدي بفاس سنة 1912، وكان هذا المجلس مؤسسا على أساس خليط عرقي بين الفرنسيين والمغاربة واليهود. وبالنظر إلى نجاح التجربة فقد عممت على مختلف المدن المغربية ودشنت هذه المجالس حقبة جديدة في إطار عملية الترصيف المؤسساتي بين الهيكل الإداري الفرنسي والمخزن. فتوزعت الاختصاصات الإدارية حسب القطاعات، وظهرت وظائف جديدة مثل: أمين الأملاك ناظر الأحباس، المحتسب... وكان الهدف من استحداث هذه المناصب هو إشراك الأعيان المحليين في الإدارة الجديدة. ج2 (159). ولتفعيل هذه العملية، نشأت سلطات الحماية غرف الفلاحة والتجارة والصناعة سنة 1919، للمزيد من الانخراط الأهلي، ولنفس

الهدف سارعت سلطات الحماية إلى إدماج المغاربة في بعض المؤسسات الاقتصادية التي تديرها الحماية كمكتب الشريف للفوسفاط (امحمد المرنيسي، الحاج محمد بوهلال، محمد بن عبد السلام لعلو، عبد الواحد بن جلول).

2 ـ إنتاج نخبوي للساكنة القروية

اهتم ليوطي أيضا بإنتاج شريحة اجتماعية تتوسط الهرم الاجتماعي المغربي، وذلك بهدف خلق التوازنات المجتمعية بين الخاصة والعامة. ولتحقيق هذه الاستراتيجية سعت سلطات الحماية إلى مأسسة هذا التحول المجتمعي، فأنشأت وظائف جديدة تساهم في هذا التأسيس مثل التعاونيات والحنطات التي تلعب الأدوار التالية:

ـ الحفاظ على المجتمع الحرفي من الانقراض.

ـ الحفاظ على مجال المدينة القديمة.

ـ فرملة لهيمنة الاقتصاد العصري. ج2 (192).

كرست سلطات السياسة النخبوية المخزنية نفسها تجاه العالم القروي، فتم التعيين على أساس الوفاء والإخلاص للاستعمار، فداع صيت العديد من القواد والباشوات، وتفاديا لهيمنة شوكة هؤلاء، قررت الحماية تخويل القضاء للقواد في القضايا الجنحية التي لا يتعدى فيها الغرامة مائة بسيطة حسنية أو سنة سجن. ورغم التغيير الذي تضمنه ظهير 4 غشت 1918، والقاضي بتمديد مدة الحبس إلى سنتين والغرامة إلى ألفين بسيطة حسنية، فإن المحاكمات الصادرة عن القواد لم تكن سوى صورية، فيما كان المراقب المدني يضطلع بمهمة اتخاذ القرار. وخوفا من فقدان السيطرة على البادية لم تتدخل الحماية في منع الأعيان من تجميع الأراضي، حتى تضمن بذلك حليفا دائما لها، وبالنظر إلى تعارض مصالح الحماية مع مصالح هؤلاء الملاكين بادرت سلطات الحماية إلى تحويلهم من أعيان وأسياد البادية إلى مستثمرين فلاحين. ج2 (175). وأخيرا تأكد لسلطات الحماية أن السياسة القايدية أصبحت

تشكل عرقلة في تطوير البادية وتحديثها، لذلك حاولت إصلاح النظام القايدي دون إلغائه. ج2 (185). وموازاة مع ذلك، شددت سلطات الحماية على الحفاظ على البنية القبلية باعتبارها ركيزة اجتماعية أساسية للمجتمع المغربي، فعملت على مأسسة البنية العقارية حتى تضمن في أن واحد أراضي الجماعة وأراضي الكولون. ج2 (212).

3- السياسة الصحية

تعتبر السياسة الصحية من الوسائل الناجحة في تحرير المغربي من بعض الأمراض من جهة واختراقه من جهة أخرى. ومن المعلوم أن المغرب عانى من انتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة والتي كانت تحسب ضمن الأمراض التقليدية، وقد انضاف إلى ذلك أمراض انتقلت إلى المغرب عن طريق المهاجرين الأوروبيين:

- نقل المهاجرون الإسبان سنة 1918 مرض الزكام إلى مناطق جبالة، وانتشر المرض في مدن بكاملها خاصة الدار البيضاء التي عرفت عددا كبيرا من الوفيات. ج2 (227).

- انتشار أمراض الجهاز التنفسي بالمدن الداخلية نتيجة تكاثر العربات والسيارات.

وبالنظر إلى استفحال الأمراض، أنشأت سلطات الحماية مجلسا صحيا سنة 1913، يسهر أساسا على وضع أجندة لمواجهة الأمراض بالمغرب. وعلى الرغم من ذلك، فإن قلة الموارد البشرية والإمكانيات المادية حالت دون تفعيل دور هذا المجلس. (سنة 1912: 38 طبيبا و1921: 176 طبيبا. ج2 (234) و100 ممرضا ومساعدا، 1924: 495 طبيبا و80 ممرضا فرنسيا و215 ممرضا مغربيا و200 مساعد). وبالنظر إلى قلة الإمكانيات البشرية والمادية لجأت سلطات الحماية إلى محاربة الحشرات والباعوض وباقي الأوبئة وسطرت مواعيد للحملات الوقائية والتلقيحية في مجموع التراب المغربي.

لقد شكل التطبيب جسرا مهما لاختراق المجتمع المغربي بكل مكوناته وشرائحه، سواء في البادية أو المدينة، لكن ذلك لم يحقق إقبالا جماهيريا مهما، كون فئة عريضة من المجتمع المغربي التقليدي ظلت وفية للطب التقليدي. ج2 (241).

4ـ السياسة التعليمية

ساهم التراكم الذي توفر لفرنسا من تجربتها التعليمية بكل من الجزائر وتونس في الدفع بالفاعلين في هذا الحقل إلى تشديد الخناق على المؤسسات التعليمية التي أفرزتها الحركة الإصلاحية بالرغم من ضعف مردوديتها، فركزت على خلق تعليم نخبوي وظيفي، يرسخ قيم التغريب والأوربة، وتؤكد ذلك تعدد المؤسسات التعليمية التالية: التعليم الأوروبي، التعليم الإسرائيلي، التعليم الإسلامي، التعليم الفرنسي ـ البربري.

ويقف دانييل ريفي على فشل السياسة التعليمية، ويبرر ذلك كالتالي:

ـ فشلت سلطات الحماية في تفعيل التعليم الأوروبي، لأن المغاربة نظروا إلى المدارس الفرنسية بأنها مدارس المسيحيين الاستعماريين.

ـ إنشاء المدارس الإسلامية على خلفية إيقاف هجرة أبناء الأعيان إلى المشرق.

قامت السياسة التعليمية على صناعة شرائح اجتماعية مهجنة لها قابلية الاندماج أكثر في المجتمع الاستعماري. (المدرسة الإسلامية بالرباط وسلا). ج2 (246). وخلاصة القول، إن السياسة التعليمية نجحت في تدجين النخب الحضرية والقروية التي تفاوضت حول استقلال المغرب وتحملت تركة الحماية وعبء ما بعد الاستقلال. ج2 (252).

ينهي دانييل ريفي قراءته لسياسة ليوطي الأهلية بتلخيص استراتيجية الإلحاق التي قامت على الثوابت التالية:

1 ـ استمالة اليهود والمغاربة.

2 - توفير إمكانات الانخراط في منظومة الثقافة الفرنسية.

3 - فرض العصرنة بالقوة (الجنود المغاربة بأوروبا).

4 - ترسيخ سياسة تجزير المجتمع المغربي إلى بربر وعرب.

- إضفاء الطابع الشرعي والمؤسساتي على السياسة البربرية (المحاكم العرفية والتعليم البربري). ج2 (287).

3 - المجتمع والدولة الاستعماريين: نهاية الثقافة التقليدية وانتصار الحضارة الغربية

يعتبر دانييل ريفي الحديث عن المجتمع والدولة الاستعماريين محطة أساسية لفهم المتغيرات الحقيقية التي شهدها تاريخ المغرب المعاصر. وينطلق في دراسته ذلك من رصد الخريطة البشرية للمجتمع الاستعماري وسمكها ضمن نسيج المجتمع المغربي. ويقدم المجتمع الاستعماري بصيغة إيجابية تجعل من هذا المجتمع ذخيرة حقيقية وإيجابية في عملية تحديث المجتمع المغربي وحضرنته بشكل عام.

لقد حاول دانييل ريفي أن يدقق في عملية تكوين المجتمع الاستعماري بالمغرب، وبالطبع فإنها مرحلة مبصمة بشخصية ليوطي التي ساهمت في صناعة هذا المجتمع الذي خضع لوثيرة التزايد التالية: عام 1911: 9890 وعام 1926: 377 96 مهاجر أوروبي.

وشهدت هذه المرحلة المتغيرات التالية:

1 - 1911/1918 : انصب الاهتمام في هذه المرحلة على تشجيع الفرنسيين للهجرة إلى المغرب، وقد شكلوا في نهاية الحرب العالمية الأولى نسبة 58% سنة 1917، أما الجنسيات الأخرى، فقد شهدت تقلصا، حيث تراجعت الهجرة من 1911 من 30 % إلى 20 % سنة 1914.

إن هذه الظاهرة لم تعم جميع الأوروبيين فإن الإيطاليين تدفقوا

بشكل كبير على المغرب خلال هذه المرحلة. وعموما فقد حاولت الإقامة العامة تطبيق مبدأ الانتقاء على خلفية خلق طبقة استعمارية تتجاوب وطموحاتها الاستعمارية. ج 3 (10).

2 - 1919/1926 : اهتم دانييل ريفي برصد الهجرة النسائية إلى المغرب حيث وصل عددها إلى 400 مهاجرة اختلفت طبيعتها باختلاف وضعيتها الاجتماعية (زيجات الجنود، العمال، التجار، المياومين والفنانين والموظفين الفلاحيين).

يقف دانييل ريفي على طبيعة هذه الهجرة لا من حيث الكم أو النوع، فالقادمين الأوروبيين توزعوا على الشكل التالي:

- **الفلاحون**: 12,4%، الصناع: 5%، التجار:25,6 %، العمال:24,1%، البناءون: 34,4 %(11). أما الانتشار الجغرافي للمهاجرين الأوروبيين فقد تركز على الجهة الساحلية وخصوصا محور الدار البيضاء، الرباط، القنيطرة (سجلت في سنة 1914 حوالي 82,5%).

يستخلص دانييل ريفي أن الهجرة النسائية لم تكن مؤثرة في المجتمع الاستعماري، وعلى الرغم مما تخفيه المعطيات الكمية، فإنها أصبحت في المراحل اللاحقة تلعب دورا خطيرا في سياسات الاختراق خاصة في القطاعات الصحية والتعليمية وباقي الأعمال الاجتماعية. ج3 (13).

ويركز دانييل ريفي ضمن هذه الهجرة على فئتين مهمتين هما:

- **الكولون**: ركزت السياسة الاستيطانية على تشجيع الكولون ومنحهم امتيازات نفعية مهمة، والمعطيات الإحصائية تنطق بذلك:

- في سنة 1913: تم تسجيل 524 أوروبي يملكون حوالي 100 ألف هكتار من أجود الأراضي.

ـ أما سنة 1923 فسوف تتضاعف ثلاث مرات، فوصلت إلى 450596 هكتار.

وقد وصلت نسبة الفرنسيين على: 95,3%، توزعوا على المناطق التالية:

ـ الغرب: 25,4 %، الشاوية 23 %، وجدة: 11%، الحوز: 9,7 %، سايس: 10,3%. ونجحت سياسة الاستيطان في توفير المناخ الملائم لبروز شركات فلاحية ضخمة، ساهمت إلى حد كبير في تحديث قطاع الفلاحة بالمغرب وعصرنته. ج3 (18).

ـ **المستثمرون**: تدفق العديد من المستثمرين الأوروبيين إلى المغرب، وبالرغم من المساطر الصارمة التي كانت تفرضها الإقامة العامة، فإن سوق الاستثمار شهد رواجا مهما أكثر مما كان عليه الحال في الجزائر وتونس. وبالتوجيه الاقتصادي تعاملت الإقامة العامة مع الاستثمار في البادية التي كانت مستعصية في بداية الحماية، ولينتها نتيجة الترسانة القانونية التي فرضها ليوطي على هذا القطاع. ج3 (28-31).

نعلم مسبقا أن الحداثة مشروع شامل يمكن من هيمنة القطاع الاقتصادي، في حين أن التنمية ليست فقط سياسة اقتصادية بل هي أيضا إصلاح للمجتمع بأسره. وانطلاقا من ذلك فإن الاحتكاك الثقافي الذي يحدثه الاقتصاد يدمر على أوسع نطاق الهياكل والمؤسسات التقليدية، وبالرغم من ذلك فإن المخلفات تبقى كما هي وتتماسك وتقاوم، في حين أن الشروط الاجتماعية والسيكولوجية لعمل التراكم الرأسمالي تغدو بعيدة التحقق، ولذلك تسعى المؤسسة الاستعمارية إلى تفعيل تنمية الاندماج الاقتصادي وتدمير هياكل المجتمع التقليدي.

يرصد دانييل ريفي هذا المعطى حينما يتتبع طبيعة الإقلاع الاقتصادي الاستعماري الذي يركز على تطور الحركات الإنتاجية التالية:

ـ ارتفاع مردودية القمح والذرة والشعير سنة 1915 من 13,8 مليون قنطار إلى 22,2م ق.

- ارتفاع نسبة الأراضي الزراعية من سنة 1915 إلى 1924 من 460 ألف هكتار إلى مليونين و300 ألف هكتار. ج3 (65).

- ارتفاع رؤوس الأغنام من سنة 1915 -1925 من 3 مليون و146 ألف رأس إلى 9 م و277 ألف رأس. ج3 (67).

- نجاح الإقامة العامة في تغطية حاجيات السوق المغربية من المواد الأساسية:

- تطور استهلاك السكر بمعدل 2 كلم للفرد سنة 1912 ليرتفع إلى 17,5 غ سنة 1925 (الجنوب).

- تطور استهلاك الشاي من 2850 طن سنة 1912 إلى 5200 طن سنة 1925. ج3(76).

- محاولة الإقامة العامة تلبية حاجيات الأهالي من القطن والنسيج والشمع. ج3(78).

وضعت سلطات الحماية بفضل السياسة العقارية ركائز احتلال ملموس وفعلي للقطاع المغربي المنتج، ويبقى أن هذه السلطات لكي تكون سياستها ذات مرد ودية، يجب أن تشجع الاستثمار في القطاع العقاري، وبالفعل فقد منحت المقاولين العقاريين تسهيلات مشجعة، وتؤكد المعطيات الإحصائية التالية ذلك: استثمر 2,2 مليار فرنك ما بين 1920 و1932 في المقاولات الفرنسية بالمغرب وقد توزعت رقميا كالتالي: 39% في ميدان الفلاحة والصناعة والمعادن، والعقارات 15% و46% في المجال التجاري والمالي، ج3 (83) ومواكبة لتطور الاقتصاد الاستعماري، ظهرت شركات ومؤسسات مالية ومهنية جديدة. وقد تشكلت مظهرا من مظاهر عصرنة وتحديث الدولة والمجتمع المغربيين. ج3 (97) وتبعا لذلك ركزت الإقامة العامة على تنظيم وتوجيه الاقتصاد الاستعماري، وقد استندت على التدابير التالية:

- استقطاب البورجوازية الصغرى للمشاركة في الاستثمار.

- تقنين ودمقرطة القطاع الاقتصادي.

ولتفعيل هذه السياسة خلقت مصلحتين هما:

- غرفة التجارة والصناعة بالرباط سنة 1917.

- المكتب الشريف بباريس 1913 (الدعاية للاستثمار بالمغرب).

اعتمدت إدارة الحماية في سياستها الاقتصادية على عنصرين ومحركين أساسيين وهما القروض والميزانية.

- **القروض**: دشنت هذه السياسة ابتداء من:

- 1914: قرض 70 مليون فرنك بفائدة 4 %.

- 1918: قرض 170 مليون فرنك بفائدة 5 %.

- 1920: قرض 744,1 مليون فرنك بفائدة 5 %.

وقد وجهت غالبية القروض نحو قطاع المواصلات الذي كان يمتص أكثر من 55 % من مجموع قيمة القروض (امتص ميناء الدار البيضاء 30 %). ج3 (107) أما القطاع الفلاحي فيأتي في المرتبة الثانية بـ 17،3% من مجمل القروض. في حين يأتي القطاع الصناعي في المرتبة الثالثة من اهتمامات الإقامة العامة بنسبة 10 %، وأخيرا يمثل قطاع البريد والاتصالات المرتبة الرابعة من حيث الأهمية.

وما يثير الاستغراب هو التهميش الذي طال القطاعات غير المنتجة أي القطاعات الاجتماعية. فقطاع الصحة خصص له فقط 800 ألف فرنك لمواجهة بعض الأمراض، وبناء المستوصفات، خاصة بالمناطق التي يتواجد بها الأوروبيين. ج3 (108).

وساهمت مؤسسة الحماية في تطوير الاقتصاد بمؤسساتها التالية:

- 1925 بلغت مساهمة الدولة 1125 م فرنك ومن أهم المساهمين: القرض

العقاري الفرنسي، وشركة السكك الحديدية. بينما فاقت مساهمة القطاع الخاص الملياريين ومن أهم المساهمين: المؤسسة البنكية: مصرف المغرب.

2 ـ **الميزانية**: شهدت تطورا ملموسا تؤكده المعطيات التالية:

- 1912 - 1915: عجز.

- 1915 - 1925: ارتفاع.

- 1925: وصل حجم المبادلات بين المغرب وفرنسا مليار، ممثلا بذلك المرتبة الثالثة بعد الجزائر والهند الصينية. ج3 (113).

لقد رصدت ميزانية دولة الحماية لتفعيل المشاريع الضخمة التالية:

1 ـ ميناء الدار البيضاء: قررت سلطات الحماية جعل ميناء الدار البيضاء المنفذ البحري المهم بالمغرب، وخصصت له ميزانية ضخمة قدرت بـ 220 م أي بنسبة 85 % من مجموع الميزانية المخصصة لبناء الموانئ بالمغرب. وقد شغل هذا المشروع يد عاملة بلغت 1200 عامل سنة 1914 و2750 سنة 1921 و4000 عامل سنة 1925.

2 ـ الطرق: تمكنت سلطات الحماية من إنشاء 2500 كلم من الطرق الرئيسية و680 كلم من الطرق الثانوية سنة 1922.

3 ـ السكك الحديدية: شرع أول خط في العمل في شتنبر 1923 يربط الدار البيضاء بخريبكة وفي أكتوبر انطلق خط الرباط، فاس عبر القنيطرة. وفي سنة 1925 بين الرباط والدار البيضاء. ج3 (137).

انبنت فلسفة الخطاب التنموي لسلطات الحماية على المبادئ التالية:

- التنمية الاقتصادية لشعب تقليدي لا تنسجم مع الاحتفاظ بأعرافه وتقاليده.

- تمثل القطيعة مع المجتمع التقليدي شرطا أساسيا للتنمية الاقتصادية.

- المطلوب تحقيق انقلابات تدريجية في بنية المؤسسات وأنماط السلوك الاجتماعية والثقافية والدينية.

ـ تطوير الرغبات المؤمنة بالانفتاح.

وإيمانا بنفس التوجه اهتمت سلطات الحماية بالمجال الحضري حتى تواكب مخططات ومشاريع هجر الثقافة المحلية السلفية ومشاريعها بصورة تدريجية، فسطرت الاستراتيجية التالية:

ـ الحفاظ على المدن التقليدية.

ـ إنشاء مدن أوروبية عصرية.

وفي أفق تحقيق هذه الاستراتيجية سطرت الإقامة العامة مجموعة من القوانين الضابطة والناظمة لفلسفة التعمير، وقد تم الاستعانة بخدمات هنري بروست الذي ساهم في وضع تصميم مدينة الدار البيضاء. ج3 (153).

يستخلص إذن، إن الوصول إلى الحداثة يمثل نهاية الثقافة التقليدية وانتصار الحضارة، وأن فلسفة التمدين هي اغتيال الأصل الثقافي القبلي بالدرجة الأولى، وصناعة مجتمع تابع بالدرجة الثانية.

إن انتصار الحضارة حسب دانييل ريفي هو انتصار لفلسفة ليوطي الحمائية والتي نجحت في انصهار المجتمع التقليدي وتعايشه مع المجتمع العصري الحداثي، وكان السر الخفي في ذلك هو بناء الفلسفة الليوطية على أساس المتناقضات التي تصلح كمنظومة استعمارية للمغرب. فالافتتان بقوة شخصية ليوطي فرضت عليه أن يفسح لما مجالا أوسع ومكانا مركزيا في الكتابة. وهذه الكتابة هي مؤمنة بفردانية الشخصية وهيمنتها على المشهد الحمائي بالمغرب، فلا تكاد تحس بغياب شخصية ليوطي من أي سطر من أسطر الكتاب، فهي الحاضرة الغائبة. إن هذا الحضور القوي يرجع بالأساس إلى الإنجازات الخارقة التي حققها ليوطي على أرض الواقع سواء في استمالة الفئة البورجوازية وترسيخ سياسية تقليدية مؤمنة بالانغلاق والتفتح في الآن نفسه.

نجح دانييل ريفي في تجسيد صورة إيجابية لأفول نجم ليوطي، ولم يسع

قط إلى نقده وهو يعيش أزمة حرب الريف التي أبانت عن الاتجاه الجديد الذي أصبحت تتجه إليه دولة الحماية، والمتنافي تماما مع فلسفة ليوطي الحمائية. ونتيجة لذلك تراكمت المشاكل وبدت دولة الحماية مضطربة تبحث عن حلول مستعجلة للمشاكل التالية:

- عصرنة عرجاء لم تنجح في الاستنبات بأرض المغرب.
- هيمنة دعاة الإدارة المباشرة على المشهد السياسي.
- غياب الجيل المغربي المؤمن بفكرة الاندماج.
- انفلات دولة الحماية من هيمنة الفكر اليوطي. ج3 (201).

حاولت مؤسسة الحماية تجاوز هذه المعوقات عبر تسطير الأولويات التالية:

- توفير مناخ التعايش بين الأهالي والمستعمرين.
- فتح آفاق انخراط الأهالي في المنظومة الاستعمارية.
- توفير التمدرس في مجموع التراب المغربي.
- توفير الأمن والاستقرار. ج3 (211).

اتسمت هذه الإجراءات بالسطحية لكون الواقع الاستعماري مثقل بالإكراهات التالية:

- موقف الكولون المتشبث بالإدارة المباشرة.
- موقف الحركة الوطنية الشابة المتأثرة بالأحداث الدولية والمراهنة على الإصلاحات ج 3 (237).

في خضم هذا الجو المشحون بتشنج الموقفين المغربي والفرنسي، اندلعت حرب الريف التي أثارت ما يكفي من اهتمام دولي ووطني، وأكدت تحول الشعوب المقهورة من حالة الرضوخ إلى المقاومة. وفي هذا السياق ركز دانييل ريفي على ظروف حرب الريف وملابساتها وانعكاساتها الجيوسياسية سواء داخل المترو

بول أو داخل المغرب. وانطلق من رصد مراحل تطور الحركة الريفية والنجاحات العسكرية التي حققتها على حساب الجيش الإسباني (معركة أنوال)، ووفق ذلك أقر بصعوبة تحديد السمات الحقيقية لشخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي. (القائد والزعيم والأمير). ج3 (264). أما موقف ليوطي من الحركة الريفية، فإنه ظل يراقب تحركاتها ولم يعتبر انهزام معركة أنوال للرجال الأبيض. وإلى غاية 1923 لم يتخوف ليوطي من هذه الحركة للأسباب التالية:

- سيادة النظرة الباردة المطمئنة تجاه المقاومة المغربية التي تنطفئ بنار السلاح أو بواسطة الدسائس الاستخباراتية.

- غياب ليوطي من مسرح الأحداث بسبب مرضه (1923 - 1924).

- بالغ ليوطي في تخوفه من عودة عبد الملك إلى الضفة الشمالية لوادي ورغة ما بين (1921 - 1923)، وإنشاء دولة حقيقية، مما يعني خلق مجال سياسي جديد بين إسبانيا وفرنسا.

- تصلب موقف ليوطي من دعم الإسبان في حربهم ضد الخطابي. ج3 (269).

أبانت مواقف ليوطي تجاه الحركة الريفية، بأنه كان يساند هذه الحركة، حيث نشطت الاتصالات السرية بين الطرفين (زيارة محمد الحاج الهيتمي ومحند بن عبد الكريم الخطابي إلى باريس). فإلى أي حد تعتبر سياسة المؤازرة استراتيجية وضعها ليوطي لإلحاق المجال الريفي فيما بعد ؟ ولكن انقلبت الدائرة وأصبحت الحركة الريفية تشكل تهديدا واقعيا على الاستعمار الفرنسي، حيث شرع أتباع الخطابي يزحفون تجاه مدينة تازة. وإزاء هذا الموقف ناشد ليوطي باريس بأن تمده بقوة كافية لردع الحركة الريفية. ج3(287) فما هو رد فعل الرأي العام الفرنسي تجاه الحركة الريفية؟ وكيف تقبل المجتمع الاستعماري بالمغرب انهيار شخصية ليوطي الأسطورية ؟ تلك هي الأسئلة التي طرحها دانييل ريفي وهو ينسج أحداثا

ووقائع كان ليوطي مركزها، وقد رصد آخر لحظات انطفاء ضوء ليوطي، واحتضار مشروعه الحمائي بالمغرب.

شكل استدعاء المارشال بيتان كبديل لليوطي توجها جديدا في التعاطي مع حرب الريف. فتم التركيز على الحسم العسكري بدل العمل السياسي. وبالفعل فقد اقترح المارشال بيتان التحالف مع القوات الإسبانية للحسم في حرب الريف بصفة نهائية. ج3 (302). ولقد تأكد للمهتمين بالشأن السياسي والعسكري الفرنسي بالمغرب أن بركانا من الخلافات والصراعات سوف تنفجر داخل المؤسسة العسكرية وحتما سوف تضحي بمنجزات ليوطي. وبالفعل تحققت التخمينات بانتصار المارشال البيتان على محمد بن عبد الكريم الخطابي، ليضع بذلك حدا لتاريخ بطلين صنعا تاريخ المغرب المعاصر، وعموما فإن سنة 1925 شكلت الحد النهائي لمسيرتي ليوطي الذي عاد بخفي حنين إلى فرنسا ومحمد بن عبد الكريم أسد الريف الذي نفي إلى مصر.

يختم دانييل ريفي هذا العمل معترفا بتعاطفه وتأثره بقوة شخصية ليوطي، حيث لم يتوان في رسم الأمكنة والأحداث والرموز وكل العلامات الدالة على ليوطي أو التي تدور حوله، فتتحول الكتابة إلى صور تحضر عبر ذاكرة ليوطي بكل أشخاصها وأماكنها وأوقاتها وانفعالتها وإنجازاتها ومشاكلها، تحضر في صور تكاد ترى، وخاصة التركيز على لحظة توديع ليوطي "لمغربه". فأهمية دراسة شخصية ليوطي لا تكمن في عرض سيرتها بل في الآثار التي خلفتها والتي ظلت تشتغل في البنى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية لمغرب ما بعد الحقبة اليوطية. وهذا الاشتغال حمل معه حلم مد الجسور بين مجتمعين محصورين داخل صراع خلفه الاستعمار، ووهم ترسيخ قيم الاعتراف بإنسانية الآخر، حيث لا مكان للغة العنف والسلاح بل للحوار والتعايش. ج 3 (322).

❐ ❐ ❐

الكتابة التاريخية الكولونيالية
بين أطروحة الرفض والاستغلال المنهجي

محمد المازوني*

1. في أطروحة الرفض والاستغلال المنهجي

سمح الاعتماد المكثف والمسترسل للباحثين المغاربة ـ ومنذ ستينيات القرن العشرين[1] على الأرشيفات الفرنسية في إنجاز أطاريحهم الجامعية ودراساتهم الأكاديمية، بطرح قضية الكتابة التاريخية الكولونيالية على محك النقاش. وقد بدا لنا من باب إثارة هذا النقاش، أن نعرض لملامح هذه القضية في هذا التقديم الموجز، خصوصا بعد أن تعالت حولها في دوائر المشتغلين بتاريخ المغرب نقاشات وسجالات تباينت فيها المواقف والتبريرات، بين من يدعو إلى ضرورة تصفية التراث الكولونيالي وتحرير تاريخ المغرب من تركته الثقيلة، وبين من اعتبر النقاش حولها مجرد سجال لا قيمة له في ضوء المتغيرات الفكرية والعلمية والأكاديمية التي شهدتها المدرسة التاريخية المغربية الحديثة، على الأقل[2] منذ شرعت الجامعة المغربية في تخريج أفواج من الباحثين المؤطرين من طرف جيل الرواد من الأساتذة[3]، الذين عملوا على توجيه الطلبة توجيها علميا يروم وضع أسس جديدة للبحث

* أستاذ باحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير.

التاريخي والعمل على وضع النقاش حول جدوائية الكتابة التاريخية الكولونيالية في إطاره الصحيح.

من بين الرواد الأوائل الذين نبهوا إلى أن التعامل مع الكتابة الكولونيالية لا يجب أن يكون مجرد صرخة فكرية أو موقف سجالي، المفكر عبد الله العروي، الذي أكد على أن أمر تجاوز نظريات وتركة هذه الكتابة عملية ذات نفس طويل، وتستلزم توفير الكثير من الشروط التي يحتاج إليها البحث العلمي الوطني، "إذ لا يكفي النقد المجرد لإبدالها بتاريخ إيجابي موضوعي"[4].

لقد أضحى الاقتناع ثابتا لدى جميع المشتغلين بالحقل التاريخي أن الكتابة التاريخية الكولونيالية مثلت الغطاء الإيديولوجي للمخطط الاستعماري وأداة لتجسيد مشروعيته، لتصبح هذه النتيجة حقيقة تقريرية لا جدال فيها، بل قد يكون النقاش المعاد حولها من جانب الباحثين من باب تحصيل الحاصل، وكما عبر عن ذلك أكثر من موقف ف"أن يظل المؤرخون المغاربة في موقع السجال المجرد (...) فذاك أسلوب مؤداه تعتيم مقابل تعتيم"[5]، أو أن يرفض، تحت نفس الدواعي السابقة، كل المجهود العلمي الذي تحقق في فترة الحماية لمجرد أنه منطلق من قناعة استعمارية، فذاك أمر يحتاج إلى تقييم جريء وقدرة على إنكار حقائقه العلمية، أثبت الباحثون أنفسهم أنها كانت على قدر كبير من الفائدة[6].

انطلاقا من هذه الملاحظات الأولية، وبناء على ما تم الوقوف عليه في الكثير من الأعمال التاريخية المنجزة في الحقبة الأخيرة ـ والتي تميز أغلبها بتيقظ علمي وحس نقدي ـ أصبح الإقرار بالحقيقة الملتبسة للأرشيف الكولونيالي أمرا محققا، ومع ذلك، وبفضل الإدراك الواعي للطابع الإيديولوجي لتلك الكتابة والحذر في التعامل مع نوايا ومواقف أصحابها الخفية والمعلنة، لم يمنع من توظيفها في إعادة كتابة تاريخ المغرب وفق نظر فاحص وعقل ناقد، إذ لا يكفي الإعراض عنها من منطلق يحكمه الحس الوطني لتجاوزها أو القول بأنها كانت عديمة الفائدة.

فقد اقتنع الكثير من الباحثين المغاربة أن ما وفرته الكتابة التاريخية الكولونيالية يمكن أن يفيد البحث التاريخي الجاد، نظرا لغزارة المادة التي تحصلت بمجهودات الباحثين الذين تم توظيفهم من طرف إدارة الحماية وكذلك بفضل ما وفرته أبحاث رجالات البعثات العلمية الفرنسية حتى قبل وصول الجيوش الفرنسية للتراب المغربي، من اجتهادات في التحليل وطرح لمقاربات ونظريات تحليلية مستحدثة. لذا أصبح في حكم الثابت لدى جمهور المؤرخين، أنه من اللازم تجاوز وهم أن تكون هذه الكتابة عديمة القيمة. بل لقد مكنت هذه الكتابة، وعبر سجال علمي حقيقي، من أن تكون دافعا قويا لبلورة إشكاليات جديدة لدراسة تاريخ المغرب وطرح مقاربات تواكب المستحدثات المنهجية والمعرفية. وبالتالي أصبحت مسألة التحرر من عقدة التاريخ الاستعماري مجرد ذكرى في مسار هذا التجديد، على الأقل في وقت أصبح فيه للمدرسة التاريخية المغربية الحديثة معالم وجود حقيقي، عكسته طفرة الإنتاج والإدراك العلمي الرصين والقدرة على بلورة اتجاهات جديدة في البحث، مما جعل البحث التاريخي المغربي على عتبة التجديد الحقيقي.

وبناء عليه، يبدو من باب التوجيه المنهجي حصر النقاش حول الإنتاج التاريخي الكولونيالي في إطار مباحث الأسطغرافية النقدية، وبالتالي وجب اعتباره مجرد مرحلة ضمن مسار التدوين التاريخي المغربي، والتي تستلزم منا التعامل معها بمنطق النقد والفحص العلميين.

2. الأرشيف الكولونيالي: محاولة تصنيف تحليلي

اعتمدت أغلب الدراسات التاريخية المنجزة عن تاريخ المغرب المعاصر على مواد أرشيفية ضخمة مستقاة في أغلبها مما خلفته إدارة الحماية، وتنوعت هذه المواد بين أصناف من الوثائق، بعضها من صميم السياسية الاستعمارية والبعض الآخر متصل بجوانب الحياة الاجتماعية، على أن ما استوقفنا هو ما انطوت عليه الكثير

من تلك الدراسات من الوثائق المادية المتضمنة لمواد قابلة للتراكم والتكميم، ونخص بالتحديد الوثائق العددية (الرقمية) التي اشتملت على معلومات همت التجارة والهجرة والتعدين والنشاط الفلاحي ومداخيل الأسواق ومصادر الثروة... إي تلك الوثائق التي تمثل اليوم أرضية مصدرية قيمة لبلورة تصور تحليلي أقرب ما يكون تحليلا اقتصاديا لمادة تاريخية. ومما زاد من اقتناعنا بقيمة هذا الصنف من الوثائق، أنه سمح للباحثين بتحليل الكثير من التحولات الاقتصادية والاجتماعية، سواء قبل الحماية أو أثناءها، بل تمكن الكثير من الباحثين من اعتماد آلية إقتصادية في التحليل أسعفتهم في توسيع أفق البحث، من قبيل استخلاص استنتاجات عن حالة ألتضخم المالي والفروق في العملة وتباين الأسعار...

وبناء على ما وفرته تلك الدراسات من وثائق جديدة وما ميز تحليلاتها ومعالجاتها المتأنية لموضوع الأنشطة الاقتصادية والآثار الاجتماعية المواكبة للتحولات التي رافقت دخول المغرب في دائرة الاقتصاد الاستعماري، بدا من باب الإضافة المنهجية تقديم تصور أولي عن تصنيف تلك الوثائق المعتمدة وفق نظر زمني تحليلي يروم إعادة ترتيبها وفق زمنيات تاريخية ومقاربة منهجية وظيفية[7].

من المحقق أن إدارة الحماية انطلقت في تصنيف أرشيفات البلدان المستعمرة من مبدأ التمييز بين نوعين من الوثائق، صنف سماه البعض بالأرشيف السيادي[8]، ويهم الفلسفة السياسية للاستعمار ومخططاته ورجالاته والمتعاونين معه وأبعاد هذه السياسة الخفية، وأرشيف وظيفي - عملي، ترك للبلدان المستعمرة حرية التصرف فيه من دون رقابة، وهمّ هذا الصنف بالخصوص مجمل أعمال الباحثين الميدانيين والاجتماعيين وتقارير ضباط الشؤون الأهلية التي لا تمس بسيادة فرنسا. وقد اعتبر هذا الأرشيف من طرف المشتغلين بتاريخ الحماية أرشيفا عاديا، لأنه لا يتصل إلا بالمحقق من أعمال رجالات الاستعمار على أرض الواقع[9].

لقد أدرك الكثير من المشتغلين بتاريخ الحماية بالمغرب أن تنازل الدولة

الحامية للمغرب وغيره من البلاد المستعمرة، على قسم من أرشيفها لم يكن يتعدي هذا الصنف العادي، لأن غايتها من ذلك كانت تروم ضمان استمرار آليات عمل المؤسسات الاستعمارية القائمة التي ورثها المغرب عن المحتل واحتفاظ الفرنسيين على وجود فعلي فيها بعد الاستقلال[10].

لقد خلص دانييل ريفي[11] إلى أن تعاملنا مع الأرشيف الفرنسي جعلنا نواجه بازدواجية أرشيفية، صنف سيادي ملتبس ومعرض للشبهات، بسبب محتوياته، وصنف عادي مسجل، قد يكون بريئا إذا ما سلمنا بالغاية من إنجازه ومن طبيعته التدبيرية الواضحة، على أنه في المقابل من الضخامة والتنوع مما يجعله أرضية متينة لإعادة استنطاقه وتوظيفه وفق منهجية تحليلية متقدمة.

انطلاقا من تتبع توظيفات الأرشيف التاريخي الكولونيالي المعتمد في دراسات مختلفة، يمكننا أن نضعها في ثلاث مستويات زمنية/ وظيفية:

أ ـ صنف تتبع حدث الاحتلال ووقعه على البلاد الخاضعة، وهو مؤسس على وقائع سياسية وعسكرية مصاحبة للدعاية الاستعمارية أو لها صلة بالدعاية في مجال الصحة أو بناء الطرق أو توظيف الأهالي... وهو صنف محدود الزمن والوقع، لكنه مع ذلك مثل ذاكرة مسجلة لمنجزات الاستعمار.

ويبدو أن ليوطي كان مدركا لواقعية هذا الصنف التسجيلي ومداه في ترك أثر عفوي على مستعمله. فقد سعى ليوطي "لجعل مفهوم الحماية أمرا يتداوله الخاص والعام... فهي وسيلة تمكن دولة غير أوروبية من الحفاظ على وجودها"[12]، بل رسم لهذه السياسة غايات مبطنة تجعل نشر النفوذ الفرنسي مصاحبا لإشراك الأهالي في التدبير، مما سيساعد إدارة الحماية من تطويع البلاد بأقل التكاليف ويحقق لها نجاحات أكبر مما قد تنجزه الفرق العسكرية.

لقد كان ليوطي مدركا أن إدخال الأساليب العصرية على الدولة المستعمرة وخلق نماء اقتصادي، كفيلان باستجلاب ثقة المخزن والأهالي على السواء، وهي

آليات تمكن من ترك أثرها في النفوس، بل اعتبرها ليوطي بمثابة "مراهنة على الماضي لإعداد المستقبل"(13).

ب ـ صنف ثان، يعكس الاهتمام بالاقتصاد والمجتمع وأحوال الناس العاديين، لكن قدرته على التفسير كبيرة ومحكومة بكفاءة وصرامة تعكس قدرا من الإدراك العلمي. فقد عكست تقارير ضباط الشؤون الأهلية والدراسات الميدانية والتحقيقات المنجزة عن أحوال القبائل مستوى عال من التسلح بقواعد البحث وامتلاك ناصية منهجية منفتحة على حقول معرفية كثيرة، من لسانيات واقتصاد وعلوم الاجتماع وتراث شعبي..

وهكذا، وفرت هذه العينات من الباحثين، كما دلت على ذلك دراسات كثيرة، أصناف متنوعة من الوثائق الاقتصادية أو تلك التي تعكس معطيات المجتمع وسلوك الناس وردود أفعالهم إزاء التغلغل الاستعماري، أي تلك الوثائق التي همت الحوادث العادية والأمور غير الموجهة وغير المراقبة بسلطة معينة. إنه التاريخ العادي لبسطاء الناس في ثنايا الجبال المنعزلة والصحاري المقفرة، إنه الزمن المستمر والمعتاد، زمن الفعل الاقتصادي والاجتماعي الزمن المنفلت من صرامة التدوين الموجه.

ج ـ صنف ثالث، وهو الأرشيف المعبر عن الصورة العامة لسياسية الاحتلال في بعدها الفكري، أي صورة الاستعمار حامل لواء التحديث والتمدين والنهوض بالإنسان في البلدان المستعمرة.

لقد كشف هذا الصنف من الوثائق أنه مجرد آلية إيديولوجية تبحث للمشروع الاستعماري عن مبررات المشروعية "الإنسانية"، إذ هو لا يلامس العمق التاريخي بل يسعى فقط لانتزاع تاريخ المغرب من أصوله ومقوماته الحضارية التي تجمعه في عمق أبعد وأوسع تفاعلا مع الحضارة الإسلامية(14). وبالتالي يمكننا وضع هذا الخطاب في خانة الخطابات البعيدة المدى، لأن الاستعمار كان يهيئ رجالاته للتسلح بما يكفي من الحجج لمواجهة التاريخ حين تتهيأ الظروف لتقديم الحساب.

❐ ❐ ❐

هوامش

1 - دراسة الأستاذ عبد الله العروي "مجمل تاريخ المغرب" منطلق جاد للمعالجة النقدية الرصينة لمجمل الثرات التاريحي الكولونيالي.

2 - لا يجب أن يغرب عن بالنا أن مجهود الرعيل الأول من المؤرخين ومن بينهم على وجه الخصوص العلامة محمد المختار السوسي والمؤرخ عبد الرحمان بن زيدان والفقيه محمد داوود والعلامة محمد المنوني، كان موجها بإدراك معلن نحو كشف جوانب التضليل والتغليط التي انطوت عليها الكتابات الكولونيالية الأولى. كما أن أعمالهم عكست بحق رؤية وطنية ونهج نقدي لتفنيد مجمل الرؤى التي حملتها تلك الكتابات عن تاريخ المغرب، وإن بدت صورة ما قدموه في نظر الباحثين الشباب مفتقرة لآلية منهجية محكمة، فإنها مع ذلك جاءت معبرة عن موقف صريح رافض للتركة التاريخية الاستعمارية.

3 - نذكر منهم على سبيل التنويه كل من الأساتذة محمد حجي ومحمد زنيبر وإبراهيم بوطالب ومحمد القبلي وعبد الله العروي

4- العروي، عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ص. 25.

5 - السبتي، عبد الإله، "التاريخ الاجتماعي ومسألة المنهج: ملاحظات أولية"، في البحث في تاريخ المغرب، حصيلة وتقويم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، 1989، ص. 46.

6 - نشير هنا إلى الدراسة التقويمية التي نشرها الأستاذ محمد العيادي تحت عنوان: "المدرسة التاريخية المغربية الحديثة: الإشكاليات والمفاهيم"، ضمن ملف" البحث التاريخي بالمغرب"، دراسات مغاربية، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، 2005، ص. 36-9.

7 - استفدنا كثيرا من أعمال دانييل ريفي، وبالخصوص نظرته التقييمية لقضية الأرشيفات الكولونيالية والكتابة التاريخية، على أننا عملنا على وضع تصوره كمنطلق عززناه بما تيسر لنا من مطالعات لبعض الأطاريح الجامعية المنجزة عن فترة الحماية، خصوصا تلك التي اعتمدت أرشيفات رقمية. ونشير هنا إلى أطروحة الأستاذ إبراهيم ياسين عن قبائل واوزكيت، المنشورة عن دار أبي رقراق، 2003. يراجع: Rivet, D, Archives coloniales et écriture de l'histoire du protectorat، في "البحث في تاريخ المغرب: حصيلة وتقويم"، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1989، من ص. 33-25.

- Rivet, op.cit, p 25. 8

9- من قبيل الأرشيفات التي تهم الصحة والتطبيب وشق الطرق وتشغيل الأهالي وإنجاز المشاريع الكبرى.

10 - الدليل على ذلك واضح في سائر المؤسسات الاقتصادية التي تحولت لأيدي المغاربة، مع أن حقيقة تدبيرها ظلت تحت سلطة الفرنسيين.

11 - ريفي، م.س.

12 - هويسنطن، وليام، الحماية الفرنسية، بين الأوج والأفول، تعريب الأستاذ إبراهيم بوطالب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2001-2002. ص. 20.

13 - هويسنطن، م.س، ص. 23.

14 - ريفي، م.س، ص. 35.

❑ ❑ ❑

المغرب من منظور كولونيالي

المقاومة والتحول التجاري 1903 ـ 1907 *

ترجمة: أحمد بوحسن**

بعد معركة تاغيت، عَبَرَ الجيش الفرنسي جبل بشار في خريف 1903، وبدأ في مراقبة الأراضي الواقعة بين زوزفانة وكير السفلى. وبقي المجاهدون خلال الشهور الموالية في وادي زيز من دون حركة، وانتعشت التجارة بشكل مثير بين زيز والمراكز الفرنسية، وتبين أن مجال المقاومة في الجنوب الشرقي قد أخذ في التقلص. وبدا وكأن السوق والمحرك البخاري قد عَوَّض الرشاش والمدفع كأداتين أوليتين للغزو والمراقبة. ومع ذلك، فقد استمر نظام مولاي عبد العزيز في نفس الوقت في التداعي أمام الضغوط الأوروبية والاهتزازات الداخلية. فبينما كان العديد من الناس في الجنوب الشرقي يرغبون في الاستفادة من التجارة الفرنسية والتوغل إلى تاغيت، فإن السكان كانوا على أية حال بمنأى عن مد المعارضة المتصاعد عبر المغرب ضد التدخل الفرنسي والتنازلات الشريفية معاً.

---

* روس إ. دان، "المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي".

** أستاذ باحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، أكدال، الرباط.

"منهج ليوطي"

بعد معركتي تاغيت والمنگار، أثار الجيش الفرنسي، والمستوطنون الجزائريون و«الحزب الاستعماري»، ضجة كبرى ضد سياسة الحد من التحرك العسكري على طول الحدود التي سمحت باللصوصية واستباحة القانون دون القيام بأي ردع لذلك. ومن بين المطالبين بالعمل العسكري، الحاكم العام جونار الذي اطمأن إلى تعيين الجنرال لويس-هوبيرت-جونسالف ليوطي Général Louis-Hubert-Gonsalve Lyautey على رأس القيادة الفرنسية بعين الصفراء. كان ليوطي قد اكتسب شيئاً من الشهرة كجندي استعماري في طونكين Tonkin ومدغشقر. وربما كان جونار مقتنعاً بأنه يستطيع أن يفرض النظام في منطقة الحدود بشكل نهائي دون القيام بحملة دبلوماسية مكلفة وشاقة. بل ذهب جونار بعيداً فأعطى له الحرية الكاملة في التصرف تقريباً، حتى إن ليوطي كان يتصل مباشرة بالحاكم العام ووزير الحرب، دون احترام التراتب العسكري الذي يمر من قطاع وهران فالفيلق التاسع عشر.[1]

اشتغل ليوطي كحاكم للقسم الفرعي من 1903 إلى 1906، ثم حاكماً لقطاع وهران حتى 1910. لقد وصل إلى عين الصفراء دون أن تكون له خبرة في التعامل سواء مع المسلمين أو مع سكان الصحراء. وقد استعان خلال شهوره الأولى في الحدود بنصائح ضباط الشؤون الأهلية الذين كانوا متمرسين بالمنطقة.[2] وبمجرد ما تعرف ليوطي على الأرض والسكان، سارع إلى التراجع عن الأهداف العسكرية الحذرة للضباط الذين سبقوه بالمنطقة. فقد اشتغل ليوطي في طونكين ومدغشقر معاً تحت قيادة الجنرال جوزيف جاليني Général Joseph Galliéni وأصبح من المدافعين المتحمسين عن أفكاره عن الحرب الاستعمارية. كان يرى، مثل جالييني، أن تهدئة السكان «الأصليين» ليست مشكلة استراتيجية المعركة أكثر مما هي مشكلة المراقبة السياسية التي تؤدي في النهاية إلى التطور الاقتصادي والاجتماعي. ولما وصل إلى

عين الصفراء لم يكن مجرد جندي فقط، بل كان مُنَظِّراً استعمارياً كذلك. وكانت الحدود الجزائرية ـ المغربية هي التي سيختبر فيها فرضياته عن طبيعة المجتمعات «الأصلية» وأحسن الطرق لإخضاعها بأقل قوة ممكنة. وبعبارة أخرى، كان ليوطي يحمل في ذهنه مخططاً كبيراً لما تولى الحكم، وإن كان مخططاً فضفاضاً في الهندسة الإدارية والسياسية.

مَثَّلَ تعامل ليوطي مع حرب الصحراء تحولاً أساسياً بالنسبة للطرق التي استعملها الحكام الذين سبقوه. كان هؤلاء قد حددوا احتلالهم الفعلي في جبال القصور ووادي زوزفانة ـ الساورة وحصروه في دائرة ضيقة من الأراضي التي تحيط بالمراكز العسكرية. وكانت القوافل العسكرية تتنقل من مركز لآخر بخفر حربي كبير. ولذلك كانت الأطراف المغيرة تتحرك بحرية في مسافة قصيرة داخل المنطقة المحتلة وتهجم كما تريد دون أن تخاف من متابعتها بعيداً. كان لليوطي هدفان أساسيان في إعادة تنظيم النظام العسكري: الأول هو إبراز القوة العسكرية الفرنسية بطريقة تجعل المجموعات المعادية تطلب إقامة السلم بدون قتال. والثاني هو محاربتهم في عقر دارهم. كما كان يرفض استراتيجية «المعركة الحاسمة» التي استعملت في الحروب القارية، مفضلاً الاعتماد على التهدئة الشاملة وغير المتسرعة لمجموعة من الأراضي، الواحدة تِلْوَ الأخرى، باستعمال التقنيات السياسية والعسكرية كذلك.[3]

كان العنصر الأساسي في قوة التهدئة هو الشركات الصحراوية: كان تسليح هذه الشركات خفيفاً، وكانت تتكون من وحدات مجهزة من الراكبين لملاحقة العدو بسرعة وبشكل مباغت إلى مسافات بعيدة. وقد تكونت الشركة الصحراوية الأولى كلها من مجندي رجال القبائل المحلية في توات سنة 1902. وكان هدفها الأساسي هو حل مشكلة تنقل القوافل الكبيرة من الفرق العسكرية الهامة من القواعد الجزائرية إلى الصحراء الوسطى. كان الرجال في هذه الوحدات يتحملون

بأنفسهم مسؤولية خيولهم أو مهاريهم والمحافظة عليها، وكذلك التخفيض من عدد قوافل المؤونة. تكونت شركتان في منطقة الحدود في ربيع 1904. فاستقرت واحدة منهما في بني عباس بوادي الساورة وكانت تستعمل المهاري، أو الجمال. وكانت الأخرى تنطلق في عملها من مركز كولومب بشار Colomb-Béchar ، الذي أقيم بجانب قصر بشار في أكتوبر 1903. وكانت هذه الشركة تستعمل الخيول، مادامت الأرض تسمح بذلك. وكانت الشركتان تقومان بالتحرك في مدار واسع حول قواعدها.

كانت هذه الشركات مؤازرة من طرف القناصين والسّباهي (جنود أتراك غير نظاميين) تابعين للجيش الجزائري. وقد خصص ليوطي هذه الوحدات للصحراء، فأزاح عنها البذل المستعملة في الشمال وجعل أصحابها يتحملون مسؤوليتهم بأنفسهم. وقد ساعدتهم هيأتهم الخفيفة على التحرك بسرعة لمساعدة الشركات الصحراوية. وكان الخط الثالث في القوات الحدودوية هو فرق الخيالة من الفيلق الأجنبي. وكانت تستعمل كوحدات احتياطية متحركة في حالة عدم الوفاء من جانب كل وحدات المسلمين. وهناك في الأخير الجنود النظاميون الأوروبيون الذين يكونون حاميات المراكز، ولهم مسؤولية فرق المدافع الرشاشة ومدافع 75مم و80مم. وقد قلص ليوطي عدد المراكز في المنطقة، ولكنه قوّى من حجم المراكز الموجودة.[4]

ولما كانت فرق ليوطي مجهزة ببنادق لوبيل ذات الطلقات السريعة، وبالأسلحة الرشاشة، والمدافع، والذخيرة الكافية، وتتوفر على نظام لُوجِسْتيكي منظم وسريع، فإنها كانت بذلك تتفوق من الناحية التقنية بشكل كبير على أعدائها أينما وقع الصراع. ومن المؤكد أن ليوطي قد قام بغزو الجنوب الشرقي للمغرب بسرعة كبيرة بسبب تفوقه العسكري. ولم يركز ليوطي في تقاريره وكتاباته على هذه النقطة، ولكنه ركز على الطرق غير العسكرية التي طبقها في مسألة التهدئة والمراقبة. وكان

يرى أن مراكزه العسكرية كانت بمثابة «مراكز للجذب» لا «كأقطاب للردع»، مما يعني أنه كان يرمي أولاً إلى محاولة إقناع الفرق المعادية وقادتها على التفاهم بالعفو عنهم، وإعطائهم منحاً مالية، وتمكينهم من العناية الصحية، ومن فرص تجارية، وهو العنصر الأهم. ولاختبار نظرياته في «التدخل السلمي» اعتمد ليوطي على مساعدة فرقة خاصة من الضباط الشباب في مصلحة الاستخبارات Service de Renseignements المعروفة من قبل «بمكتب الشؤون الأهلية» Bureau des Affaires Indigènes الذي كان معروفاً قبل ذلك «بالمكتب العربي» Bureau Arabe. كان هؤلاء الرجال، الذين يعتبرون من تلاميذ ليوطي وأنصار منهجه، مدربين بشكل خاص على قيادة الوحدات العسكرية الخاصة بالمسلمين، والتفاوض على إخضاع قادة القبائل، وإقامة الإدارات والأسواق المحلية، والتعامل مباشرة مع السكان المسلمين بشكل عام. وكانوا يتكلمون العربية أو يستعينون بمترجم إلى جانبهم. وقد خصصوا كثيراً من وقتهم لجمع الأخبار الخاصة بأنشطة المقاومة والظروف السياسية في الجهات التي تقع غرب المنطقة المحتلة. كما كانوا يجمعون وينظمون قدراً كبيراً من المعلومات عن المؤسسات الاجتماعية والسياسية للقبائل غير الخاضعة وعن مجموعات الواحات. ويرجع الفضل إلى رجال ليوطي في إيجاد المادة الإثنوغرافية التي تم تدوينها في تلك الفترة.(5)

لم يختر جونار ليوطي بسبب مزاياه العسكرية فقط، ولكن بسبب جرأته على وضع الجيش مرة أخرى في حالة هجوم، ودهائه في الاستحواذ به بعيداً عن أعين وزارة الخارجية. وقد فضلت المجموعة الأوروبية في الجزائر وبعض الضباط في قطاع وهران «السياسة القبلية» على طول الحدود، لأنها مكنت الجيش من تجاهل السلطان وممثليه المحليين وأدت إلى التعامل مع القبائل والواحات ككيانات سياسية مستقلة. وإذا كان ليوطي قد أيّد «السياسة المخزنية» لديلكاسيه Delcassé فذلك لأسباب مختلفة تماماً عن تلك التي كانت في ذهن وزير الخارجية:

«أعتقد أنه يجب أن ننظر إلى الاتفاق الفرنسي-المغربي وفي الوجود الوهمي لقوة مختلطة للشرطة على أنه أمر مرن جداً، وواسع جداً سيسمح لنا بحماية أنفسنا كلما احتجنا إلى ذلك، وبذلك يمكننا القيام بالعمل في أماكن لا يمكننا أن ندخل إليها من دون هذا الاتفاق، ونتمكن من استعمال رجال الشرطة ؛ ورعياً لهذه الروح التي يقوم عليها هذا الاتفاق، أطلب أن يسمح لي بتطبيقه».(6)

لقد أخلص ليوطي للشكليات المعلنة في الاتفاقات حيث حافظ على الاتصال المنتظم مع عامل المخزن في فجيج (وبالمندوب المغربي في وجدة بعد 1906) فيما يتعلق بالتحركات العسكرية الفرنسية من أجل المحافظة على العمل المشترك. كما وافق على القيام بالنشاط العسكري داخل الحدود التي وضعتها وزارة الخارجية. ومع ذلك، فقد استمر في ضغوطه على الحكومة، للتوغل بعيداً في الأراضي المعترف بها من طرف الاتفاقات على أنها مغربية. غير أن حججه لم تكن جديدة في تاريخ الحروب الاستعمارية: لا يمكن الاطمئنان نهائياً إلى المنطقة المحتلة من دون إرسال الدوريات إليها وبناء المراكز في قلب المنطقة لحمايتها. وعندما تُحتل منطقة ما يصبح التراجع عنها أمراً غير مقبول، لأن إظهار أي علامة ضعف قد يشجع كثيراً قوات المقاومة. وقد وصلت العلاقات بين الجيش ووزارة الخارجية ما بين 1903 و1912 إلى نوع من الصراع المستمر حول حدود التوسع نحو الغرب. وكان جونار دائماً إلى جانب الجيش.

وكان الحدث المشهور في هذه المرحلة هو عدم الإذن لليوطي باحتلال رأس العين في يونيه 1904، وهو مكان وافر المياه في الهضاب العليا المغربية التي يستعملها بني **گيل**. كان ليوطي ينوي أن يقيم هناك مركزاً وسوقاً من أجل إخضاع بني **گيل**، الذين كانوا يُغيرُون على الأراضي الجزائرية طيلة عدة سنوات، ومن أجل وضع حدٍّ لتأثير بوعمامة. غير أن وزارة الخارجية قد أبطلت العملية، على غير ما كان متوقعاً، خوفاً من استثارة تدخل الألمان السريع والإضرار بالتأثير الفرنسي على مولاي عبد

العزيز. لم يحتج السلطان على هذه العملية، وإن كان ليوطي قد ادعى بأن له إذناً من المندوب المغربي في وجدة. كما استعمل ليوطي أسلوب التسويف ليبقى على جيشه في موقعه، وحصل بمساعدة جونار على موافقة الحكومة على الاحتلال في أكتوبر. تغير اسم المركز إلى **برگنت** Berguent، ما دام اسم رأس العين يشير إلى نقطة مغربية في اتفاقات 1902. ولم تتسبب هذه المسألة في إظهار الصراع بين ليوطي ووزارة الخارجية بباريس Quai d'Orsay حول سياسة الحدود فقط، ولكنها بقيت نموذجاً لأسلوب الاحتلال على مدى السنوات الثماني المقبلة. فعندما تعترف الحكومة بحق استعمال الجيش للاتفاقات كمظلة لحماية احتلال الأراضي المغربية، فإنها تستطيع إيجاد تبرير جاهز لذلك.[7]

لم يكن لليوطي هدف واضح ونهائي في التوغل داخل الأراضي المغربية. فخلال الشهور الأولى من إقامته بالحدود، كان يهدف إلى احتلال تافيلالت وتمديد خط السكك الحديدية إلى هناك في أسرع وقت ممكن. كان العديد من التوسعيين، في ذلك الوقت، لا يتحدثون عن مد السكك الحديدية عبر الصحراء الوسطى بقدر ما يتحدثون كثيراً عن مدها نحو الغرب، إلى الساحل الأطلسي كوسيلة لفصل المغرب عن الجنوب.[8] ومع ذلك، فمع حلول خريف 1904 اعتبر ليوطي أن عدد سكان تافيلالت كبير جداً وعداوتهم مستحكمة جداً، بحيث لا يمكن إخضاعهم إلا بحملة عسكرية عامة ومكلفة، ومجهزة بشكل كبير. ولذلك قرر عوض ذلك تشديد المراقبة الفرنسية على طول الحدود من البحر المتوسط إلى وادي الساورة والتقدم بتدرج، حتى يمهد الطريق لبناء خطوط السكك الحديدية الشمالية والجنوبية معاً، والتي يمكنها في يوم ما أن تسهل غزو كل المغرب.[9] لذلك، استمر الجيش في التقدم إلى الأمام لأن ليوطي كان يريد احتلال أكثر ما يمكن من الأراضي المغربية قبل إعلان فرنسا حمايتها على المغرب، ذلك أن كل تقدم صغير في الميدان يتطلب بشكل بديهي تقدماً آخر من أجل حماية التقدم السابق.

كانت استراتيجية ليوطي الأساسية على طول الحدود الجنوبية تتمثل في خلق خطوط أمامية من المراكز و«دوائر العمليات» لحماية السكك الحديدية والمنشآت في جبال القصور ووادي زوزفانة ـ الساورة. وهكذا احتل بشار في أكتوبر 1903، فسماه كولمب Colomb (الذي سيسمى، فيما بعد، كولمب بشار Colomb-Béchar) ليتحايل على شرط من شروط اتفاقات 1902 التي تجعل من بشار قرية مغربية.[10] أما المراكز الأخرى الأمامية التي أقامها فهي؛ فرطاسة الغربية، غرب جبل بني سمير (مارس 1904)، وبركنت في وسط الهضاب العليا (يونيه 1904)، وتالزازة، على بعد حوالي 72 كلم شمال كولمب بشار (أبريل 1905). وقد تمّ استعمال المركزين الأولين لضمان إخضاع بني گيل، فأنجز هذه المهمة بعمليات حربية محدودة مع نهاية 1904. وفتح خط السكك الحديدية في أكتوبر من ذلك العام بين بني ونيف وبن الزيرگ، وهي نقطة تقع في الممر الواقع بين جبل عنتر والنهاية الشمالية لجبل بشار. وتم تمديد الخط من هناك نحو الجنوب الغربي إلى كولمب بشار، الذي وصل إليه في يوليوز 1905، ثم أصبح مركز بني عباس، في الجنوب البعيد قاعدة تنطلق منها الشركات الصحراوية إلى المنطقة الواسعة غرب وادي الساورة. وبدأت الدوريات في 1904 تزور واحة تَابَلْبَلَة بشكل مستمر وتتجول مع شركات توات الصحراوية في عرق إگدي.[11]

وبمجرد ما استقرت قوات ليوطي في كولمب بشار عمد الحاكم العام جونار إلى إعادة تنظيم قسم عين الصفراء، فتقلص دور تاغيت، التي كانت من قبل مركزاً للدائرة، إلى مجرد مركز، ثم خلقت دائرة جديدة مع مقر للقيادة في كولمب بشار. وأصبح بني ونيف، عوَضَ جِنَان الدار، مركزاً لملحقة مسؤولاً مباشراً عن القسم. ومن الناحية العسكرية، أصبحت هذه التغيرات، تعني أن كولمب بشار سيكون مركزاً جديداً للعمل، وليس مركزاً هامشياً تابعاً لتاغيت. وأصبح ذلك، من الناحية السياسية، بمثابة إعلان بأن بني ونيف وكولمب بشار معاً يعتبران منذ ذلك

الحين جزءاً من الجزائر، وليس من المغرب. ومن المحتمل أن الحكومة في باريس لم توافق على هذه التغييرات حتى غشت 1905، خوفاً من الرد المعادي لها من طرف السلطان.[12]

كان ليوطي وأتباعه من الضباط يتصرفون على أساس الاعتقاد السائد آنذاك أن الرغبة في العدل ومشاعر الحب هي التي كانت تحرك الرغبة في التوسع الاستعماري. كما أن برنامجه القائم على «التدخل السلمي»، بطبيعة الحال، ينبني على قناعة بأن السكان على العموم يرغبون في التغييرات المتقدمة التي كان يتهيأ لإدخالها. وإذا كان قد أنكر أي أثر للسطلة المخزنية في الجنوب الشرقي، فإنه قد أيد بقوة الفكرة القائلة بأن المخزن كان الناطق باسم سكان المنطقة لما وقّع اتفاقات 1901 ـ 1902.

وتبعاً لهذه القناعات، فإن الجيش كان يرى أن المقاومة مجرد طاهرة شاذة وغير شعبية بصفة عامة. وكان تفسيره يقوم على ثلاث نقاط: الفوضى السياسية المزمنة في القبائل، وسوء الفهم المحلي لأهداف فرنسا، وتأثير «المشاغبين» العنيدين. فقد رُفضت معظم الغارات المتكررة ضد المراكز، والقوافل العسكرية، والقبائل المسالمة، واعتُبرت على أنها من عمل اللصوص المحترفين الذين لم يعاقَبوا من جراء غياب أية سلطة مغربية في المنطقة. ويرجع الجيش معظم المقاومة الأخرى، بما فيها حَرْكَة 1903، إلى الشعور بالخوف القائم على الجهل بمقاصد الجيش أو إلى عمل المتواطئين الذين يتمنون إفساد مهمة فرنسا لأسباب تتعلق بالمصلحة الشخصية أو بالتعصب الديني. وتشمل لائحة العملاء المناوئين موظفي المخزن الذين يمثلون العناصر المناهضة لفرنسا داخل الحكومة المغربية، وكذلك الأولياء والشرفاء، وأعضاء الزوايا، ورجال البلد والغرباء معاً، الذين يسعون إلى حماية نفوذهم وتأثيرهم بالدعوة إلى معاداة الأجانب. كما رفض الجيش بشكل مطلق فكرة أن سكان المنطقة الذين يشاركون في المقاومة يتصرفون دون أن يكون لديهم

وازع الإخلاص أو الارتباط بالدولة العلوية أو بالمغرب ككل.

لقد بقي تصور الجيش عن رد فعل المسلمين على هجومه، سواء كان مقاومة أو استسلاماً، محكوماً بالتصور الأبوي والعجرفة الثقافية والعرقية التي سيطرت على الفكر الأوروبي عقوداً قبل الحرب العالمية الأولى. وكان الأدب الاستعماري وصحافته في تلك المرحلة يقبلان عادة مثل هذه التصورات كذلك. وكنتيجة لذلك، نرى الأوروبيين يُقدِّمون عادة غزو الجنوب الشرقي المغربي كحدث من أحداث تاريخهم الخاص، متجاهلين الأزمات الشخصية والجماعية التي عانى منها البلد المعرض للغزو.

حماية فجيج

بعد قصف **زناگة**، خضع فجيج لعلاقة جديدة مع الفرنسيين، وهي علاقة تضمنت الخصائص الأساسية للحماية التي اتخذت صبغة رسمية بعد تسع سنوات. فقد بقي منصب الحاكم المخزني كما هو، والعمال المعينون في فاس يأتون إلى فجيج ويعودون. واستمرت القصور السبعة في تدبير شؤونها الداخلية كما كانت من قبل، ولم تنصب إدارة موحّدة على مجموع الواحة. وإن كان ليوطي قد أعلن بشكل واضح بأن المحافظة على الأمن في الواحة وحولها ستكون من مسؤولية مكتب الشؤون الأهلية والحامية المرابطة في بني ونيف. ولم يعد السكان أحراراً سواء في المشاركة في الدفاع عن المغرب أو في فض النزاعات الداخلية للواحة عن طريق الأخذ بالثأر.

كان ممثلو المخزن الذين يعملون في فجيج عاجزين دائماً عن فرض السلطة المركزية؛ بل أصبحوا الآن عاجزين عن منع الجيش الفرنسي من القيام بها في مكانهم. فلم يعد لهم أي تأثير يذكر سواء في السياسة الداخلية أو في أعمال مكتب الشؤون الأهلية في بني ونيف. فهم الآن ليسوا عملاء للفرنسيين (كما

هو الشأن بالنسبة لخلفائهم بعد 1912)، ولكن ليس لديهم قاعدة أساسية تؤيدهم سواء في فجيج أو في فاس حتى يتخذوا مبادرات فعالة من تلقاء أنفسهم. كان ليوطي يريد أن يؤدي لهم ثمن احترام الشكليات المقررة في الاتفاقات طالما لم يقفوا في وجه التهدئة أو يتخذوا مواقفهم كموظفي المخزن بشكل جدي. إن أهم ما كانوا يستطيعون القيام به، إلى جانب التملق للمندوب الفرنسي، هو إرسال إشارات دالة على العصيان من حين لآخر. ففي يناير 1904، مثلاً، استعمل مساعد العامل كوسيط في المحادثات السلمية في عين الصفراء بين الفرنسيين وبني كَيل. ولكن هذا الرجل أصبح عنيفاً جداً في تمثيله لبني كَيل (قبيلة مغربية بموجب معاهدة 1845) ويقوم بمساومات مستفزة مع الفرنسيين إلى درجة أن ليوطي أخرجه من هذا اللقاء.[13] وفي أواخر هذه السنة أغضب العامل محمد بن المجدوب ليوطي عندما باع أختام المخزن الرسمية، التي صنعها محلياً، لقادة بني كَيل غير تلك التي تفاوض فيها الفرنسيون معه. وكان يحاول، حسب الجيش، أن يقوض أثر الفرنسيين بين القبائل ويجمع الأموال لنفسه من ثمن الأختام.[14]

يبدو أن الحامية المغربية المستقرة في فجيج كجزء من تطبيق الاتفاقات أصبحت لا تفيد تقريباً لا العامل ولا الفرنسيين. فالفرقة التي تتكون من 102 جندي التي وصلت في أكتوبر 1904 كانت تتكون أساساً من المراهقين والشيوخ الذين تم تجنيدهم في طنجة.[15] ولا يختلف عنهم أولائك الذين عوضوهم طوال السنوات الموالية. فلم يكن هؤلاء الجنود مدربين تدريباً جيداً ولم يكونوا يريدون الامتثال للأوامر الصادرة عن العامل. وكان السكان لا يرتاحون إليهم، ولا يرغبون إلا في شراء بنادقهم. فأولئك الذين لم يفروا كانوا يقضون جل أوقاتهم في أعمال السرقة في قصر الوداغير، ويغيرون من حين لآخر على البساتين ويقلقون راحة السكان. ففي مايو 1906، مثلاً، بعث أعيان زناكة رسالة إلى السلطان يشتكون فيها من مجموعة من الجنود الذين قتلوا رجلاً في السوق.[16] وفي أكثر من مناسبة،

ذهب عدد من أفراد الحامية، إلى بني ونيف ليطلبوا الغذاء من الفرنسيين أو ليشتكوا لهم بأن أجورهم، التي أرسلت عبر السكك الحديدية، لم تصل إليهم حتى شارفوا الموت بالجوع.[17] ويبدو واضحاً أنه خلال السنوات الأخيرة من استقلال المغرب، كان الوضع في المغرب يتسم بالتمرد المزمن، مما جعل تجنيد الجنود المدربين بشكل جيد وإرسالهم إلى مركز خارجي مثل فجيج أمراً مستحيلاً. وقد وصل الأمر بليوطي لكي يظهر شيئاً من التعاطف مع جهد المخزن الرمزي، ولو أنه كان يسخر باستمرار من الحامية المغربية، إلى درجة أنه شبه الحامية المغربية بمجموعة «من الأشقياء المجندين من أجل تنشيط سهرة في مسرح ريفي رديء».[18]

لما وصل ليوطي إلى الحدود، كان الخضوع العسكري لفجيج قد تم، ولذلك، استطاع هو وملازموه القيام في الحين بإنجاز برنامج العمل الاجتماعي والاقتصادي الخاص بضمان المراقبة العسكرية على الأنشطة السياسية داخل الواحة، والزيادة في تبعية السكان لبني ونيف. وبنى في نفس هذا التوجه مستوصفاً هناك ليستفيد منه المغاربة. وفي 1905 بدأ الأطباء الفرنسيون يزورون فجيج للقيام بتلقيح السكان.[19] وكان ليوطي ورجاله يتجولون في الواحة أحياناً ويتناولون طعام العشاء مع العامل.

كان أهم مظهر لهذا البرنامج هو تشجيع التجارة عبر الحدود. وهكذا بنى مكتب الشؤون الأهلية في بني ونيف سوقاً أصبح أهم سوق في المنطقة بعد أن وصلت السكك الحديدية إلى هناك في ربيع 1903. وبدأ وكلاء الدول التجارية الفرنسية والجزائرية يقيمون هناك المتاجر والمنازل ويبيعون المواد المستوردة لسكان المنطقة المجاورة. فأخذ الرحل من قبائل بني ݣيل، وذوي منيع، وأولاد جرير يزورون السوق بأعداد كبيرة ويشترون الشاي، والسكر، والقهوة، ومواد النسيج، والمواد المصنعة المختلفة مقابل الأغنام، والصوف، والحبوب، والتمور. كما بدأت تصل القوافل من تافيلالت بأعداد تفوق تلك التي كانت تذهب إلى عين

الصفراء. وهكذا كانت تعمل في بني ونيف، في نهاية الربع الأخير من 1904، ست وعشرون شركة جزائرية تروج في تجارتها ما قيمته 1300000 فرنك. وكان يمر عبر هذا المركز، خلال 1904، 10600 رجل، و27047 جمل، وتتم المتاجرة في 20350 من رؤوس الأغنام.[20]

لم يتوان سكان فجيج، وبخصوص أهل زناگة، عن التكيف مع ظروف ما بعد ـ القصف والتدفق على السوق. ومن المواد التي كانوا يبيعونها هناك: التمور، والفواكه والخضر، والثياب المحلية المصنوعة من الصوف. وكانت تُصَدَّر هذه المواد إلى الجزائر وغيرها، أو تستهلك من طرف العسكريين أو موظفي السكك الحديدية في مختلف المراكز في المنطقة. ومع أننا لا نتوفر على إحصائيات حول عدد السكان الذين كانوا يترددون على السوق انطلاقاً من كل قصر على حدة، فإن السلطات الفرنسية قدَّرت عدد السكان الذين يذهبون من الواحة إلى السوق بحوالي ثلاثمائة.[21]

وقد ازدادت الأهمية التجارية لفجيج موازاة مع تجارة بني ونيف. فكان التجار يأخذون أحمال الصادرات إلى الواحة ويبيعونها في متاجر القصور. كانت تصل ما بين أبريل ويونيه من 1904 حوالي 170 طناً من الحبوب، والمواد الغذائية، والسلع إلى بني ونيف لترسل مباشرة إلى تجار فجيج. وربما استفاد الوداغير أكثر من هذا التبادل التجاري، لأنه كان دائماً مستودع فجيج الكبير، لأن نسبة كبيرة من سكانه كانوا من التجار المحترفين.[22] كما استفادت فجيج أيضاً من التجارة مع المغاربة في الغرب البعيد، بمافيهم الأمازيغ من سكان گير العليا ووادي زيز، الذين كانوا لا يرغبون في التعامل مع الفرنسيين في بني ونيف. غير أن معظم المواد التي كانوا يروجونها، وبالخصوص الغنم والصوف، كانت تصل في النهاية إلى بني ونيف في جميع الحالات. وقد أشار ليوطي إلى أن قبول القبائل المغربية بأن تتاجر مع الفرنسيين بشكل غير مباشر عن طريق فجيج كان أهم سبب في عدم احتلال الواحة.[23]

تر اجع ازدهار بني ونيف بشكل كبير بعد وصول السكك الحديدية إلى بن الزيرگ (فبراير 1904)، ثم بعد ذلك إلى كولمب بشار (يوليوز 1905). ويبدو أن الحجم الأكبر من التجارة مع المغاربة الرحل ومع تافيلالت كان يتتبع المحطة النهائية لخطوط السكك الحديدية، ولذلك لما أُستُحدث السوق في كولمب بشار، قضى على الأسواق الأخرى الموجودة خلف هذه المحطة. ومع ذلك، بقي التبادل المحلي بين فجيج وبني ونيف رائجاً. وفي أبريل 1906 قَبِلَ أعيان زناگة وتجارها من دون تحفظ مشروع بناء طريق للعربات بين بني ونيف والطرف الجنوبي للواحة.(24) وفي نفس السنة توصل السياح الأوروبيون، الذين كانوا في عطلة في الصحراء، بدعوة من الجيش لزيارة فجيج، بعد أن اقتنعوا من أن السلب والنهب قد أصبح شيئاً ينتمي إلى الماضي.(25)

وهكذا كانت فجيج أول أرض أمامية احتلتها فرنسا قبل وجدة والدار البيضاء للاستيلاء على المغرب. وإذا كان سكان الواحة قد أصبحوا رعايا فرنسيين «بشكل غير رسمي» بعد القصف، فإنهم قد وجدوا أنفسهم منذ ذلك الوقت يتوارون شيئاً فشيئاً خلف خطوط الغزو وينعزلون في النهاية عن قوات المقاومة الشعبية.

إقامة الصلح والتجارة في قلب أرض ذوي منيع

في خريف 1903، أمر ليوطي بأن يقام مركز جديد قرب بشار، ليكون كقطب الرحى لمنطقة عسكرية واسعة، والعصب المركزي للحرب السياسية والاقتصادية ضد ذوي منيع وأولاد جرير الذين لم يخضعوا للفرنسيين. وبدأت الشركات الصحراوية تنطلق من بشار في كل الاتجاهات لتتقفى أثر الأطراف المغيرة ولتظهر للقبيلتين، ولقادة المقاومة في تافيلالت، بأن جيش إفريقيا قد جاء ليبقى. وفي يناير 1904 زارت الدورية الأولى سهل فيض وادي گير. وأمر ليوطي كذلك

ببناء السوق في كولومب بشار، وأخذ يشجع التجار اليهود في تافيلالت على إقامة المتاجر هناك.[26] وفي أكتوبر 1905 بدأ خط السكك الحديدية بين كولمب بشار وبني ونيف في العمل. ومع حلول خريف 1906، كانت التحفظات الدبلوماسية قد كَفَّتْ، مما سمح للدوريات بعبور گير والتنقل في الحمادة. وفي أواخر 1907، أُقيم مركز صغير على سهل گير.[27]

لقد فرض احتلال حوض گير - زوزفانة على كل خيمة من خيام ذوي منيع وأولاد جرير إعادة النظر في وضعية علاقاتها السياسية مع الفرنسيين ومع جيرانهم في تافيلالت معاً. فاختيارات المقاومة أو الاستمرار في العزلة في تافيلالت وحولها قد بدت أمراً غير ممكن بعد فشل الحَرْكَة في تاغيت. ولاشك أن معنويات القبيلتين كانت لا زالت محطمة بسبب ذلك الفشل عندما بدأ الفرنسيون في بناء كولومب بشار. فبعد أن بدأت دوريات ليوطي المتحركة تعمل من هناك، أصبحت الغارات الصغيرة، التي تقل بكثير عن الحَرْكَات الشعبية، عمليات خطيرة جداً.

كانت مظاهر التغير الاقتصادي بالنسبة للقبيلتين تدفع إلى الجنوح للسلم. ذلك أنه مع إحداث كولمب بشار أصبحت فرنسا في وضعية تمكنها من مراقبة سهل فيض گير. فقيام فرنسا بمنع الحرث والحصاد هناك ستكون له نتائج اقتصادية وخيمة على معظم ذوي منيع. ففي 1904، اضطرت القبيلة للذهاب إلى حقولها باستعجال أكثر من المعتاد لأن الأمطار سقطت هناك في مايو بعد ثلاث سنوات من الجفاف.[28] أما أولاد جرير، الذين استطاعوا الانسحاب من وادي زوزفانة بخسارة قليلة نسبياً في اقتصادهم، فقد يفقدون الغلة الوحيدة من بساتين النخيل الممتدة التي يملكونها في بشار وفي المنطقة. وكانت الوضعية الإيجابية هي الفرص التجارية المغرية التي يوفرها الاحتلال الفرنسي. فقد أدى وصول السكك الحديدية إلى بني ونيف في 1903 إلى تطور كبير في تدفق المواد الأوروبية على الجنوب الشرقي، ويمكن لذوي منيع، بالاتفاق مع الفرنسيين، أن يهيمنوا على النقل في طريق فجيج -

تافيلالت، إلا أنهم الآن يمكنهم أن يأخذوا أحمالهم من عربات القطار التي تحملها إلى الغرب البعيد.

حصل كل ذوي منيع تقريباً، الممثلين بقادتهم، على الأمان من فرنسا، ما بين 1904 و1908، وحافظوا على اتصال منتظم إلى حد ما مع مكتب الشؤون الأهلية في كولمب بشار. وقد قدرت القيادة الفرنسية هناك أن اللقاء الأول مع ثلاثين قائداً في يناير 1904 يمثل اتصالاً مع حوالي 1250 خيمة، ومع 300 منها كانت قد خضعت من قبل في تاغيت، و450 كانت ما تزال في تافيلالت.[29] وقد أعطي لكل الخيام التي أقامت السلم في 1904 وفيما بعد وضعية سياسية خاصة تسمح لها بالتنقل بكل حرية بين گير وتافيلالت. وأصبحوا يدعون بالمنضمين ralliés، عوض الخاضعين حالياً للسلطات الفرنسية، وهو مصطلح يعني الحلفاء أو الأنصار. وهذا يعني أن قادتهم لم يعينوا من طرف الفرنسيين، ولكن زَكَّوْهُم فقط، واحتفظوا بالاستقلال الوهمي الذي قد يسمح لهم بالذهاب إلى تافيلالت لتعهد نخلهم أو للتجارة دون أن يتعرضوا لاعتداءات أيت خباش والعناصر الأخرى من المقاومة.[30] كان ذوي منيع المستقلين يتفقون بشكل عام بأن هذا المخطط يمكن أن يكون إجرائياً، ما دام عياش ولد موسى، قائد أولاد بوعنان الذي قاد معظم الخمس المتحالف مع أيت خباش حتى 1904، قد تفاوض مع الفرنسيين وقبل قانون المنضمين ralliés لأتباعه. وقد أرسل بالفعل ابن أحد إخوته إلى كولمب بشار بدل أن يذهب هو بنفسه، وذلك من دون شك ليحتفظ بموطن قدم في المعسكرين معاً حتى تتضح الوضعية السياسية أكثر.[31] والراجح أن بقاءه في تافيلالت كان يمكنه من التعبير عن الوفاء لأيت خباش والرجوع بكامل الإخلاص إلى المقاومة إذا كانت ستعمل على رد تقدم الفرنسيين.

انقسم أولاد جرير، الذين كانوا نشيطين بشكل خاص في الغارة على الفرنسيين في وادي زوزفانة، في ردهم على الهجوم الجديد. فخلال الحملة إلى

بشار في يونيه 1903، تفرقت القبيلة كلها تقريباً في الغرب رغم الجهود التي قام بها إبراهيم لترتيب المحادثات مع الفرنسيين.(32) ولأن أي خيمة لم تعد إلى موطنها بعد احتلال بشار، فقد صادر الفرنسيون محصول تمر القبيلة. ثم أخبروا القادة بواسطة مبعوث بأنهم إذا لم يقبلوا التفاهم مع فرنسا فإنه سيتم حجز كل أملاكهم. وفي غضون بضعة أسابيع، بدأت خيام المفَالحة، وهي فرع من القبيلة تملك معظم نخلها في كولمب بشار، في العودة إلى المركز. وخلال الشهور القليلة الموالية قام معظم المفالحة بالخضوع الرسمي، بإجراء الاتصال في بعض الحالات بواسطة السي إبراهيم. وأُعطي لهذه الخيام قانون الخاضعين Soumis، وطالبوا بالبقاء في نواحي كولمب بشار، ولو أن بعضهم كان يملك النخيل في تافيلالت.(33)

وبالمقابل، بقيت جُلّ خيام العساعسة، التي هي فرع كبير آخر، في الغرب. ولم تستطع فرنسا أن تمارس عليهم الضغوط الاقتصادية، لأن معظمهم لا يملك النخيل في بشار. والواقع، أن معظم العساعسة كانوا معروفين بأنهم يعيشون من سرقة الجمال، لذلك كان صعباً عليهم أن يَنْصِبُوا خيامهم قرب المراكز الفرنسية. وكان بعضهم من أنصار بوعمامة لمدة طويلة، ثم رافقوه إلى الشمال في 1904. وكان معظمهم من حلفاء أيت خباش، ويقومون بالغارات من حين لآخر على المنطقة المُرَاقَبَة من طرف الفرنسيين.(34)

بدأ ذوي منيع وأولاد جرير الذين عقدوا الصلح مع الفرنسيين في الاستفادة دفعة واحدة من التجارة الجديدة التي جاءت بها السكك الحديدية وأسواق ليوطي. كان ذوي منيع يشتغلون بنوعين من التجارة مثل السابق. فمن جهة يقومون بالتجارة لحسابهم الخاص، ويشترون مباشرة من التجار في المراكز الفرنسية ويبيعون بالربح في أبو عام. وكانوا يصدرون كذلك المواد من تافيلالت بنفس الطريقة. ومن جهة أخرى كانوا يقدمون خدماتهم كناقلين محترفين للتجار المسلمين واليهود في أبو عام، فيحصلون على مبلغ متفق عليه عن كل حمل بعير (ويقدر بما بين ثمانية عشر

وثمانين فرنكاً، حسب طبيعة الحمل ووزنه). وكان حجم القوافل يتراوح بين عشر وبضع عشرات من الدواب.[35] وكان ذوي منيع المحترفون يقومون بالبيع والشراء في كولمب بشار أو بني ونيف باسم تجار تافيلالت. وفي الأوقات الأخرى يعملون كوكلاء لبعض كبار تجار تافيلالت الذين يرسلونهم للإقامة في كولمب بشار.[36]

كانت السلعة المهمة التي تصدر من تافيلالت إلى محطة القطار الأخيرة هي التمر في أربعة أنواع أو أكثر. وتتكون المواد الأخرى من الجلد الفيلالي، والأغنام والماعز (معظمها لاستهلاك الحاميات الفرنسية)، والتبغ، والبلاغي (أحذية تصنع في تافيلالت)، وبرانس الصوف، والأثواب الحريرية (المستوردة من فاس). وكانت الصادرات الهامة من الأسواق الفرنسية، بالطبع، هي الشاي، والسكر، والقهوة، وأثواب القطن، والمواد المصنعة المختلفة.[37]

كان ذوي منيع والتجار معاً يحصلون على أرباح هامة في التجارة على الطريق. ففي 1905 ـ 1906، مثلاً، كان حمل التمر الذي يُشترى في أبو عام باثني عشر أو ثلاثة عشر فرنكاً يباع في كولمب بشار أو بني ونيف بعشرين أو ثلاثين فرنكاً. والأغنام التي تُشترى في تافيلالت باثني عشر إلى خمسة عشر فرنك تباع في المراكز الفرنسية بخمسة عشر إلى عشرين فرنكاً. وفي المقابل، كان السكر الذي يشترى بخمسة وثلاثين فرنكاً للقنطار يباع في تافيلالت بسبعين إلى تسعين فرنكاً.[38] ويستفيد كل ناقل بنسبة عدد الجمال التي يستخدمها في النقل. ويقال إن بعض الناس يوظفون الأجور التي يحصلون عليها من النقل لتوسيع قافلة نقلهم من عشرة جمال إلى ثمانين جملاً.[39]

لذلك، فإن معظم ذوي منيع الذين لم يخضعوا رسمياً للفرنسيين، خلال 1904 و1905، كانوا يميلون، مع ذلك، إلى التوافق السياسي مع الفرنسيين لحماية مواردهم في حوض كير وتوسيع تجارتهم. ولكن بالرغم من هزيمة تاغيت في 1903، كان عليهم أن يأخذوا بعين الاعتبار مقاومي تافيلالت، الذين وجدوا مساندة قوية

للقيام بالهجوم المضاد الجديد. ولما كان ذوي منيع موزعين بين الجيش الفرنسي من جهة وأيت خباش وحلفائهم من جهة أخرى، فقد أُرغموا في الأخير على الاختيار بين الاثنين.

إجهاض مقاومة 1906

خلّف الهجوم المحبط في تاغيت نوعاً من اليأس في وادي زيز بحيث أصبح السكان يراقبون ما كانت تقوم به فرنسا من احتلال لحوض گير-زوزفانة ودخولها في مفاوضات مع أغلبية ذوي منيع. وأما عائلة الحنفي، التي لم يكن لبركتها تأثير كبير كما كان منتظراً، فقد تراجعت إلى الخلف. ذلك أن مولاي مصطفى قد حاول في شتمبر 1904 أن يجمع حَرْكَة أخرى، ولكنه فشل في جمع تأييد كبير لها.[40] وكان لبروز القوة الفرنسية في تاغيت ما يكفي لإثارة الشكوك في نفوس الكثير من الناس حول الفائدة من المقاومة ذات الحجم الكبير في المستقبل. وقد وصل تقرير إلى بني عباس في دجنبر 1903 يقول بأن ممثلين من أيت خباش، وقبائل أيت عطا الأخرى، وقبائل أيت يَفْ الْمان المحلية، وبني گيل، وبعض المجموعات الأخرى قد عقدوا اجتماعاً في الصحراء جنوب تافيلالت لمناقشة البديل عن الحرب.[41] ويبدو أن الآراء قد اتفقت على البقاء على مناهضة فرنسا ما لم تُرفع الأعلام البيضاء في الشهور اللاحقة. ومع ذلك، فإن هذا الاجتماع كان علامة تدل على أن المفاوضات ليست أمراً غير ممكن حتى بالنسبة لقبائل الغرب الشرسة.

تحول جو الأزمة في تافيلالت إلى نوع من الحذر والتوتر الشديد خلال 1904 و1905، بينما كان ليوطي يوطد مراقبته على أراضي ذوي منيع، وأولاد جرير، وبني گيل ويبني أسواقه في بني ونيف وكولمب بشار. ثم في بداية 1906، بدأ المدافعون عن المقاومة، يحتلون مركز الاهتمام، بالدعوة إلى حَرْكَة شعبية أخرى ومقاطعة التجارة مع المراكز الفرنسية. ويرجع انتعاش روح المقاومة إلى تطورات وطنية ومحلية.

عرف المغرب من 1904 إلى 1906 مرحلة من الاحتقان والاستياء. فقد ازداد التدهور الاقتصادي في البلاد، وأصبح سكان المدن والقبائل معاً يدركون جيداً الأهداف النهائية من برنامج «التدخل السلمي» لفرنسا. فاتفاق الحكومة الفرنسية مع بريطانيا العظمى على مقايضة مصر بالمغرب، ومحاولتها فرض برنامج إصلاحي مقيد جداً على المخزن، وأخيراً، انتصارها الدبلوماسي على ألمانيا في مؤتمر الجزيرة الخضراء جعل معظم السكان يقتنعون بأن البلاد قد بيعت من طرف القوى الأوروبية الأخرى ومن طرف مولاي عبد العزيز.

وخلال 1905، كان سكان الجنوب الشرقي يُشاطرون ما كان يتوقعه كل سكان البلاد من أن الألمان سيتحركون للتدخل ضد فرنسا. فقد لاحظت قيادة عين الصفراء بدورها ظهور فتور مفاجئ بين المجموعات الموجودة تحت إمرتها أو مراقبتها. وذكر الجيش بعد زيارة القيصر فيلهلم إلى طنجة في مارس 1905، مثلاً، بأن المغاربة في فجيج ومنطقته بعدما كانوا يُظهرون التفاهم والتعاون من قبل قد أصبحوا مراوغين ومتحفظين.(42) وخلال نفس المرحلة أصبح العامل محمد بن مجدوب مناهضاً للفرنسيين بشكل غير معهود، حيث شجع سكان فجيج على قطع العلاقات مع الفرنسيين والقيام بتصريحات علنية حول نوايا الألمان في إنقاد استقلال المغرب. ولما أصبحت العناصر المناهضة لفرنسا في المخزن تعلن عن نفسها بشكل متزايد، فمن المحتمل جداً أن يكون مجدوب قد تلقى الأوامر من فاس للحث على المقاومة على طول الحدود.(43)

كان من نتائج الأخبار القائلة بأن مؤتمر الجزيرة الخضراء لم يقُم إلا بفتح الباب للتأثير الفرنسي القوي على شؤون البلاد أن دفع الناس إلى التسليم بالأمر الواقع في فجيج وفي المناطق الأخرى الخاضعة لفرنسا، في حين ولد شعوراً قوياً بالمقاومة في أي مكان آخر من البلاد. وخلال النصف الأول من 1906 حاول موظفو المخزن من أنصار الألمان إقناع السلطان من دون جدوى برفض اتفاقية الجزيرة الخضراء.

فعندما وقَّع هذا العقد في 18 يونيه، كان قد مهد فعلاً إلى البحث عن مرشح يطالب بالعرش على أساس الدعوة إلى الجهاد. وفي يوليوز وصل ابن مولاي رشيد إلى تافيلالت قادماً من فاس، وبدأ مباشرة في الدعوة إلى الهجوم على كولمب بشار.(44) وباختصار، فإن الدعوة إلى المقاومة الشعبية كانت في جزء منها رداً على الأحداث التي وقعت خارج الجنوب الشرقي.

وعلى المستوى المحلي، أضعف التدخل التجاري الفرنسي في تافيلالت روح المقاومة، لأن جزءاً مهماً من السكان كان يريد أيضاً ربط وادي زيز من الناحية الاقتصادية بالسكك الحديدية الفرنسية. وكان المدافعون عن توطيد العلاقات التجارية مع الفرنسيين يُذَكِّرون بوجود عدد من الامتيازات. فيمكن لتجار تافيلالت أن يستوردوا السلع الأوروبية من الأسواق الفرنسية بأثمان أقل بكثير من فاس، ولو أن مسافة السفر، إلى بني ونيف بخاصة، كانت ما تزال طويلة. وكان عدم وجود الضرائب في المرافئ الجزائرية، وانخفاض أثمان النقل على القطار إلى الجنوب، واستقرار الفرنك يجعل ثمن المواد في الأسواق الجديدة أرخص بكثير مما كانت عليه في فاس أو مراكش. ولما كان ذوي منيع يقومون بالتجارة عادة بين تافيلالت والسكك الحديدية، فلا وجود هناك لواجب الزطاطة، الذي يجعل الثمن مرتفعاً عبر الطريق التي تعبر الأطلس. وبالمقابل، كانت تمور تافيلالت، والجلد، والمواشي، والصوف تجد سوقاً جاهزة في المراكز الفرنسية. والأكثر من ذلك، أن الفرنسيين كانوا يدفعون بالفرنك (وإن كانوا يقبلون العملة المغربية)، ويخففون، إلى حد ما، عن العجز الحاد في العملة الصعبة في أبو عام.(45) وأخيراً، كانت الأسواق الفرنسية آمنة بشكل ملحوظ، بحيث كان ضباط الشؤون الأهلية يمثلون في السوق سلطة فعلية وغير منحازة ربما لم يعرفها أبو عام قط. وفي مايو 1906 كتب جيمس ماكلويد James Macleod، نائب القنصل في فاس:

«كنت ألاحظ، خلال الخريف الأخير، أن تمور تافيلالت تُصَدَّر، لأول مرة،

إلى وهران، فتصل إلى ذلك الميناء عن طريق سكك حديد صحراء الجزائر من بشار، وبني ونيف، وعين الصفراء.

وقد تقرر إرسال بعض هذه الكميات إلى الولايات المتحدة الأمريكية والبعض الآخر إلى الهند، ولكنه لا علم لي إلى أي ميناء ستتجه إليه في هذه البلدان، لأن مُصَدِّري هذه الكميات كانوا إما من تافيلالت أو من وهران، وليسوا من فاس.

ومع ذلك، فإن معظم الشحن من وهران يذهب إلى لندن كما قيل لي... ويقول هنا وكيل الشركة المغربية (الفرنسية) بأن فرع شركتهم في بني ونيف قد اشترى كميات هناك واشترى كميات هنا في وقت واحد معاً. وقد شُحنت الكميات كلها إلى لندن (بني ونيف عبر وهران، وفاس عبر طنجة وجبل طارق)، ولا تُدِرّ كميات فاس من الربح الصافي إلا ثلاثة في المائة فقط، بينما تدر كميات بني ونيف ربحاً صافياً بمبلغ خمسة وخمسين في المائة، وغالباً ما ينجم هذا الفرق الكبير عن ثمن النقل الباهظ من تافيلالت إلى فاس ومن فاس إلى طنجة».[46]

ازداد في 1904 عدد قوافل تافيلالت التي تذهب إلى الشرق عن السنوات الماضية. وانتقل عدد من يهود تافيلالت إلى كولمب بشار بتشجيع من ليوطي وأصبحوا وكلاء تجاريين ليهود آخرين بقوا في تافيلالت أو فتحوا لهم متاجر للبيع بالتقسيط.[47] وعندما تواصل نمو التجارة فيها في 1905 ـ 1906، سقط معظمها في أيدي قلة من التجار المسلمين المشهورين، كان لديهم ما يكفي من الرأسمال لشراء المستوردات بكميات كبيرة أكثر من اليهود أو من التجار المتواضعين الآخرين. وكان من أهم هؤلاء التجار، محمد بن إدريس التازي، الفاسي الذي برز بشكل واضح في تجارة فاس ـ تافيلالت.[48] كان التازي يحس بالضائقة المالية في علاقاته التجارية مع الشمال، مثل التجار الآخرين. وقد أرسل في أوائل 1906 ممثلاً عنه إلى كولمب بشار ليطلب أثواب القطن والحرير من الشركات الإنجليزية والفرنسية معاً. ومن المؤكد تقريباً أنه كان قد كسب ثقة شركات تصدير المصنوعات الأوروبية لما كان

يشتري كل سلعته من فاس. وكان لبعض أفراد عائلة التازي في فاس وكلاء مغاربة في أنجلترا يشترون المواد القطنية ويشحنونها. وكان واحد من العائلة على الأقل الشيخ السي عبد السلام التازي، وزير مالية عبد العزيز لاحقاً، يسكن في منشستر لعدة سنوات حوالي منعطف القرن التاسع عشر، كما زار كذلك باريس وليون.[49] وهكذا كان في إمكان وكيل ابن إدريس في كولمب بشار أن يطلب شحنات كبيرة بسرعة ومن دون المرور عبر الوسطاء الجزائريين. ففي صيف 1906، مثلاً، تعاقد ابن ادريس مع شركة في لندن لترسل له كل الملابس التي تنتجها من القطن الأزرق من نوع «غينيا». وقد حمل منها ذوي منيع في يوليوز ما قيمته 150000 فرنك إلى تافيلالت. وبفضل الأثمان المنخفضة والكميات الكبيرة منه، أصبح ابن إدريس بسرعة من أهم التجار الناجحين في الواحة. ولم يكن يشمل سوقه وادي زيز فقط، بل شمل كذلك منطقة درعة، حيث لم يعد في إمكان السكان الاعتماد على التزود من مراكش. ولم يسبق له أن اشتغل بتجارة التصدير من قبل، ولكن أصبح يستعمل جزءاً من رأس ماله لشراء المنتوجات الفيلالية لشحنها في السكك الحديدية. كان لا يشتري الصوف في السوق، ولكن يشتريها من مربي الأغنام مباشرة، فيحرم بذلك التجار والبائعين بالتقسيط من دخل متواضع آخر.[50]

ولما أصبح محترفو النقل من ذوي منيع والتجار مثل ابن ادريس أكثر ثراء، طلبت العناصر الأخرى في تافيلالت بأن تمنع التجارة كلها مع الفرنسيين. فعارض أيت خباش، وجزء من سكان القصور، التجارة على أساس سياسي، واتهموا ذوي منيع بأنهم يتآمرون من أجل جلب الفرنسيين إلى ضفاف زيز. أما التجار الآخرون، وبخاصة العدد الكبير من الشرفاء الذين كانت لهم علاقات قديمة العهد مع المدن الشمالية، فقد عارضوا التجارة عبر ـ الحمادة لأنها تؤثر على أرزاقهم بشكل كبير. وبعد أن تولى عبد العزيز السلطة، فقد المخزن تدريجياً المراقبة على البوادي، بما في ذلك التراب الذي تجتازه كبريات طرق التجارة الداخلية، وبالخصوص طريق

فاس ـ تافيلالت. وبالتالي كانت القبائل تفرض رسوم الزطاطة المرتفعة وتهجم على القوافل باستمرار. ولما لم يكن في مقدور السلطان أن يعالج الوضعية المالية المزمنة، فقد استمرت الأسعار في التقلب متجهة نحو التضخم المهول. وليس هناك من شك، في ظل هذه الوضعية أن أسعار الواردات في 1903 كانت مرتفعة جداً في أبو عام، وأن تصدير التمر والجلد إلى فاس قد تقلص. وكان التجار الذين احتفظوا بعلاقاتهم مع الشمال في وضعية حرجة. ومع ذلك، لم يكن في استطاعة الكثير منهم، وبخاصة الشرفاء، من الناحية السياسية والتجارية أن ينتقلوا إلى التجارة عبر ـ الحمادة، التي قد تنقد عملهم التجاري.[51]

في أوائل 1906 نجحت القوى المعارضة للتجارة، بموافقة مولاي رشيد، في فرض منع التجارة مع كولمب بشار. وقد أمر تجار تافيلالت الذين كانوا يتعاملون هناك بأن يعودوا إلى تافيلالت بكل السلع التي كانت في حوزتهم. وفي يوليوز انهارت الحركة التجارية في كولمب بشار.[52] وكان ابن إدريس في هذا الوقت قد طُرد من أبو عام وكان عليه أن يؤدي مبلغاً كبيراً لضمان سلامة تنقله خارج الواحة. وربما كانت بالنسبة إليه نقمة في طيها نعمة. فقد اتجه إلى كولمب بشار واستقر هناك، وعاش هناك كتاجر ثري حتى وفاته حوالي 1925.[53]

لم يَنْجُ العديد من أصحاب القوافل من ذوي منيع من الأزمة بسهوله. وأخبرهم مولاي رشيد، باسم المجموعة المناهضة للتجارة وبالأحرى باسم المخزن، أنه عليهم أن يقطعوا كل التجارة مع الفرنسيين ويعودوا مؤقتاً إلى تافيلالت وإلا سيتعرضون لمصادرة بساتين نخلهم أو تدميرها في منطقة الغرفة.[54]

كان رجال القبيلة الذين يملكون النخيل، وبخاصة رجال أولاد بوعنان، في وضعية حرجة مماثلة من جراء هذه التطورات، مادامت مصادر تمرهم لم تكن أقل أهمية من حقول زرعهم في كَير. وفوق كل هذا قررت القيادة الفرنسية في مايو 1906 أن تطلب من كل ذوي منيع في منطقة كَير بأن يتخلوا عن وضع «المنضمين»

المبهم، ويعلنوا خضوعهم بشكل رسمي. فالتقى قائد دائرة كولمب بشار مع قادة بعثة ذوي منيع في سهل گير، وأعطى لهم مهلة ستة أشهر يختارون فيها بين الخضوع للسلطات الفرنسية ومغادرة المنطقة جميعاً طبقاً لبروتوكول 1901. وكان الضباط الفرنسيون يعرفون جيداً أن الاختيار الأخير كان اختياراً مستحيلاً.[55]

قضى جزء من القبيلة ما تبقى من السنة في إرسال البعثات إلى الفرنسيين في كولمب بشار وإلى مولاي رشيد معاً وإلى قادة المقاومة في تافيلالت، محاولين بذلك ربح الوقت وتحقيق نوع من التراضي.[56] فقدم ليوطي في يوليوز تقريراً عن تصرف قادة أولاد بوعنان يكشف فيه محاولتهم الاحتفاظ بموطن قدم في المعسكرين معاً حتى اللحظة الممكنة الأخيرة:

«لقد قرر أولاد بوعنان... قتل أي واحد منهم يتعامل مع الفرنسيين من دون أن يخبر الجماعة الترقيق مني. ويبدو أن هذا يدل على أنهم لم يفقدوا كل أمل في الاستقرار. ولكن كان عليهم أن يتجنبوا التظاهر بأنهم يبادرون إلى فعل يدل على الخضوع ويتظاهروا، بدل ذلك، بقبول التنازلات المقدمة من طرفنا. هذا في الحقيقة تصور يعبّر عن الذهنية الأهلية. إضافة إلى أنهم أثاروا في كل محادثاتهم الأجل الذي أعطيناه لهم. ويبدو أنهم شعب متردِّد، يرفضون أي قرار نهائي حتى انتهاء هذا الأجل المحدد مؤملين بشكل خفي أن شيئاً ما سيحدث في المستقبل».[57]

لم تكن المقاطعة التجارية إلا علامة واحدة على حملة تسعى إلى تنظيم حركة مقاومة شعبية أخرى. كان من أشهر المجاهدين في هذا الوقت مولاي محمد، ابن مولاي رشيد؛ ومولاي عبو، مساعد الخليفة؛ وسيدي البخاري، شريف من منطقة الغرفة الذي اختير ليكون كقائد للحرب لمدة ثلاثة أشهر.[58] كان مولاي رشيد ما يزال يحبذ سياسة التراجع، ولكن المقاومين، وبخاصة مولاي عبو، أقنعوه في الأخير بقبول المقاطعة والحَرْكَة الجديدة معاً.[59] وقد طُلبت المساعدة من قبائل الأطلس في مسعى لإقامة حركة قبلية أكبر بكثير من تلك التي قام بها قادة قوة

تاغيت.[60] وفي غشت، ذهبت بعثة إلى تلْوات في الأطلس الكبير لتطلب من المدني الكلاوي الالتحاق بالحرْكَة.[61] كان قادة الشرفاء يعرفون بأن القوة العسكرية للكلاوي والقواد الكبار الآخرين كانت تكبر بسرعة. وربما كانوا يعرفون أيضاً أن الكلاوي قد تخلّى عن عبد العزيز في أوائل 1903 ويتهيأ لمساعدة مولاي عبد الحفيظ، أخ السلطان المناهض للفرنسيين، كمطالب للعرش. كان من المؤكد تقريباً أن الكلاوي كان يؤيد الحَرْكَة، وإن كان قد حاول ايقاف حَرْكَة سابقة في 1901. ولكنه لم يذهب إلى تافيلالت ولم يبعث أياً من الجنود، ربما لأنه كان منشغلاً بمهمة أخطر، تتمثل في نشر قواته حول مراكش، لأنه كان يتوقع أن عبد الحفيظ سيتولى السلطة.

يبدو أن المسيرة الشعبية إلى كولمب بشار كانت قريبة، ولكنها بدأت تتصدع في وقت ما خلال شهر نوفمبر. وكان عبد العزيز مسؤولاً عن ذلك جزئياً. فقد بعث بالرسائل من فاس إلى السكان يدعوهم فيها إلى التزام الهدوء، فشجعت هذه العملية مولاي رشيد على تغيير موقفه وتراجع عن الحَرْكَة.[62] وكان السلطان والخليفة يعرفان معاً أنه إذا فشل الهجوم ورفع الفرنسيون عَلَمَهُمْ في تافيلالت، فإن ثورة واسعة النطاق ستتبعها من دون شك. ومن جهة أخرى كانت سمعة السلطان قد وصلت إلى مستوياتها الدنيا مع حلول 1906، ولذلك كان من الصعب عليه إيقاف الحَرْكَة بمجرد الأمر بذلك. ومن المحتمل جداً، أن القادة المحليين لم يكن في مستطاعهم أن يحلّوا المشاكل الكبيرة المتعلقة بتنظيم، وتموين، ونقل جيشهم قبل أن يفتر حماس الناس وتبدأ الفرق المحاربة في السير.[63] وربما كان غياب القيادة القوية عاملاً آخر، مثلما حصل في 1900. وحتى إذا كان كل القادة الكبار من الشرفاء، فلم يكن فيهم ولي واحد مشهور. كانت جماعة شرفاء تافيلالت منقسمة إلى حد كبير، وكان مجموع سكان الواحة منقسمين حول مسألة التجارة مع الفرنسيين. ومهما كان من تداخل الأسباب الداخلية والخارجية، فإن الاستعدادات للحرب قد تم التخلي عنها في دجنبر.

ولما انهارت الحَرْكَة، تم رفع الحظر التجاري جزئياً، واغتنم ذوي منيع الفرص السانحة لتحقيق مصالح اقتصادية في طرفي لحمادة معاً حيث أصبح في إمكانهم الاختيار بين تافيلالت والفرنسيين. وقد تفاوض قادة القبائل على التفاهم مع مولاي رشيد، بالسماح لأصحاب القوافل باستيراد السلع الأوروبية ما داموا يشترونها ويبيعونها لحسابهم. لم يكن في مقدورهم القيام بالتجارة أو نقل المواد باسم التجار المحترفين، ولا يستطيعون تصدير المنتوجات الفيلالية إلى الأسواق الفرنسية.(64) وفي نفس الوقت تقريباً قرر ليوطي بأنه يستطيع أن يضمن العلاقات الجيدة مع القبيلة بجعل المنضمين ralliés يحتفظون بوضعيتهم السياسية.(65) ونظراً لهذه التوافقات، استطاع ذوي منيع، باستثناء الخيام الخاضعة، أن يبقوا لعدة سنوات لا يدينون بالولاء ظاهرياً لا للجزائر ولا للمغرب، ويحتفظون بمواردهم، ويشتغلون بالتجارة إلى درجة ما على طرفي الحمادة.

وإذا كان جزء من أهل القبيلة يتحملون احتلال قلب أرضهم دون أن يصبحوا رعايا فرنسيين، فإن أياً من معظم المحاربين الأشداء لم يعد بعد 1906 مستعداً للمشاركة في المقاومة. وكان محصول الزرع الاستثنائي الذي أنتجه سهل كير في خريف 1907 حجة إضافية لصالح السلم،(66) ولما اجتمعت الحَرْكَة الشعبية في 1908، لم يكن فيها إلا عدد قليل من ذوي منيع.

كانت التوافقات الدفاعية لذوي منيع تتناقض مع سلوك أيت خباش، الذين واصلوا تمسّكهم بالمقاومة بصورة أقل ولكن بنوع من الإصرار، رغم انهيار حركة 1906. وكانت الأطراف المغيرة، تنطلق من غرب قواعد منطقة الدوريات الفرنسية، وتتكون من أقل من عشرة رجال تقوم بالهجوم عن طريق الكر والفر على أهداف منطقة كير - زوزفانة. وكانت العصابة تقود عادة عدة جمال محملة بالمواد الغذائية إلى موضع خفي قرب المنطقة الفرنسية. ثم يستكشفون المنطقة، ويراقبون تحرك الشركات الصحراوية، ويطوفون في المكان حتى يعثروا على هدف غير محروس:

قافلة، قطيع من الجمال، حارس معزول. فكانوا يُغيرون فجأة، فَيَقْتُلون أو يأخذون غنيمتهم، ثم يرجعون إلى الخلف حيث كانوا أخفوا جمالهم ويرتدّون هاربين عبر الحمادة.(67)

استطاع أيت خباش أن يستمروا في هذا النوع من المقاومة بخسارة أقل من أجل عيش القبيلة. فلما كان ذوي منيع مضطرين للتوقف عن المقاومة عندما احتل الفرنسيون قلب أرضهم، كان ما يزال وراء ظهور أيت خباش أرض أيت عطا الواسعة. ولا يفسر جزئياً تحرك هؤلاء المحاربين ومهارتهم القتالية إلا إصرارهم العنيد على قهر الجيش الفرنسي. وبخلاف أية قبيلة في المنطقة، كانوا ملتزمين بالمقاومة تمشياً مع طبيعة تاريخهم. وكان ذوي منيع يحاولون دائماً حماية مزارعهم في قلب أرضهم. وكانت المجموعات المنتجعة الأخرى في المنطقة منحصرة بصورة أقل أو أكثر في مدار محدد من أرض الرعي. ومن جهة أخرى، ما يزال أيت عطا في مراحل التوسع الضاري في نهاية القرن التاسع عشر. وكانت مقاومة أيت خباش تعبيراً عن استمرار العنف القبلي أكثر مما هي تعبير عن الرد الدفاعي، الذي كان يصطدم في الشرق مع الحائط الصلب للقوة العسكرية الفرنسية.

في نهاية 1906، كانت القوات الفرنسية قد امتدت على طول وادي گير، وعلى بعد عدة كلمترات غرب أي خط يُقام بدعوى الدفاع عن الجزائر. فلم يعد يفصل الجيش عن تافيلالت سوى 128 كلم من لحمادة الجدباء. وقد تم هذا التقدم من زوزفانة إلى گير من دون أية مواجهة عسكرية. والأكثر من ذلك أن ليوطي وفريقه من الشؤون الأهلية بادروا بسرعة ليُدْخِلُوا إلى الأراضي المحتلة الجديدة التجهيزات التي تعلن عن حضور الاستعمار: المكاتب الإدارية، والمستوصفات والأسواق والسكك الحديدية.

عمل ليوطي على توسيع التجارة الفرنسية ـ الجزائرية إلى الجنوب الشرقي للمغرب في البداية كجانب من جوانب استراتيجية ليوطي السياسية والعسكرية.

وكان مقتنعاً بأن إقامة الأسواق من أنجع الطرق لاستماله رجال القبائل المعارضين والمرتابين إلى المراكز الفرنسية، حيث يوجد رجال الشؤون الأهلية مستعدين لجمع المعلومات، والشروع في المفاوضات، وضمان الخضوع السياسي أو الاتفاقات السلمية. وقد طور الجيش بوعي، فعلاً، في الحدود المغربية (ثم عبر مجموع البلاد فيما بعد) الأسواق والنقل التجاري كأداة «للتهدئة» والمراقبة أكثر من أي مستعمرة إفريقية فرنسية أخرى.

كان ليوطي بهذا المجهود على وفاق تام مع المصالح التجارية الجزائرية ومع مختلف أعضاء «الحزب الاستعماري» الفرنسي، بما فيهم أوجين إتين Eugene Etienne، نائب وهران والوجه الأساسي في «لجنة المغرب» Comité du Maroc. لم يكن الهدف الأولى الأسمى بالنسبة لهؤلاء الأشخاص في المغرب هو الغزو العسكري في حد ذاته ولكن بالأحرى التوسع التجاري، والمالي، والتأثير الدبلوماسي. كانوا يشيدون بنجاح ليوطي في التدخل الاقتصادي، Pénétration économique، وفي المقابل كانوا ينتقدون بشدة المجهود العسكري المكلف للبحرية الفرنسية في السودان الإفريقي الغربي، الذي يبدو أن غزوه لم يشجع إلا على تجارة العبيد.[68] كان رجال أعمال وهران وتجاره متشوقين بطبيعة الحال لتتبع الجيش إلى الجنوب الشرقي للمغرب، وهم يستوردون المواد الأوروبية من أجل تحويل تجارة تصدير التمر والجلد التي كانت تمر عادة عبر فاس أو مراكش.[69] فوجدوا الجنوب الشرقي، بفضل وصول السكك الحديدية إلى عين الصفراء، مستعداً لقبول معاملاتهم التجارية أكثر من أي مكان آخر في المغرب أو في الصحراء الغربية. كانت السلسلة الأطلسية، قبل منعطف القرن، تحمي المنطقة نوعاً ما من الرجات الاقتصادية التي كانت تهز الأجزاء الشمالية والوسطى للبلاد. ومع ذلك، فقد سمح هجوم ليوطي للتجارة الدولية لتدور حول أطراف الأطلس وتدخل مباشرة إلى أطراف الصحراء. فقد دخل الغزو والتجارة في وقت واحد، وظهر الأثر

السريع للتجارة الجديدة في الخطوط الأساسية للعمل العسكري. ولذلك، جعل قدوم الفرنسيين مجموع السكان في المنطقة يشعرون بتداخل التهديد المعقد وغير الواضح مع الفرص الاقتصادية والتجارية التي يتيحها.

لا يستطيع أحد في الجنوب الشرقي، أن ينكر ما تعد به الأسواق التجارية الفرنسية والسكك الحديدية من آمال، وأقلهم جميعاً أصحاب القوافل والتجار، بالقياس مع الوضعية المقلقة التي توجد عليها شبكة الطرق التجارية الموجودة. فقد كانت التجارة عبر الصحراء تحتضر. وكانت توات تُمَوَّن بصورة استثنائية من طرف القبائل الجزائرية، وكان المرور عبر الأطلس قد أصبح خطيراً ومُكَلِّفاً، وكان السكان في المنطقة قد تذوقوا في نفس الوقت طعم الشاي، والسكر، والمستوردات الأوروبية الأخرى، التي أصبحت توفرها السكك الحديدية بأثمان منخفضة أكثر من تلك التي يمكن الحصول عليها في فاس. بالإضافة إلى ذلك، كانت أكبر المجموعات القاطنة بالواحات تتوفر على فائض من التمر والمواد المحلية الأخرى لبيعها خارج المنطقة. واستجابة لذلك، جعلت مكاتب الشؤون الأهلية سياسة أسواقها تقوم على شراء كل المواد المغربية المعروضة للبيع بأثمان مغرية. وحتى إذا لم تكن الإحصائيات المقارنة متوفرة، فإنه من الواضح أن الحركة التجارية بين 1903 و1906 قد بدأت تنتقل من الطرق العابرة لجبال الأطلس إلى الطرق المرتبطة بالسكك الحديدية. ويبدو أن أبو عام، وريث سجلماسة، قد تحول من مستودع أساسي للجنوب الشرقي إلى سوق يدور في فلك الشبكة التجارية الفرنسية ـ الجزائرية. وعادت فجيج، إلى وضعية ما قبل 1845، إلى حد ما، كثغر تجاري للجنوب الوهراني.

وإذا كان التدخل التجاري الفرنسي قد وصل إلى ما وراء دائرة المنطقة العسكرية المراقبة، فإنه لم يتم كما كان متوقعاً. فقد تدهورت التجارة بين تافيلالت وكولمب بشار بشكل خطير جداً في صيف 1906 وبقيت حتى 1910 في مستويات

أقل مما كان يتنبأ به الجيش في البداية. ومما يدل على بساطة نظرة ليوطي إلى الواقع المحلي أنه كان مقتنعاً بأن مجموع السكان بين زيز وزوزفانة سيستجيبون بحماس كبير لإغراء الأسواق الجديدة، وأن المقاومة ستذوب مباشرة في الازدهار التجاري. فالإصرار على المقاومة وعلى معارضة التجارة الفرنسية ـ المغربية لم تنتج عن التعصب الشديد لفئة قليلة، كما ادعى ليوطي، ولكنها ناتجة عن الحسابات العقلانية والظروف السياسية والاقتصادية الخاصة. ويظهر هذا بالأساس في التوسع الشرس المستمر لأيت عطا، أمبريالية الرحل التي تتنافس مع الفرنسيين؛ وفي جهود التجار الذين يعبرون الأطلس لحماية أسواقهم ومقاومة شركات أمثال محمد بن إدريس؛ والاستجابة الشعبية لفورة احتجاج البلاد ضد الدسائس الأمبريالية الفرنسية. لذلك، فبالرغم من الهزيمة العسكرية، وفشل القيادة المخزنية، وإغراء الربح التجاري، فإن المدافعين عن المقاومة ما يزالون يسيطرون في زيز في نهاية 1906.

ومع ذلك، فقد كان السكان، من زوزفانة إلى گير، في هذا الوقت، وبالخصوص سكان فجيج وذوي منيع، مجبرين على التفاهم مع السلطة الاستعمارية. صحيح أن الإجراء الذي اتبعته كل مجموعة، أو حتى كل فرد، في التفاهم مع الجيش الفرنسي، عوض صيغ المقاومة المسلحة، يكشف عن خصوصيات دينامية العمل السياسي في هذه المنطقة. ففي النهاية لم تكن أزمة الغزو الاستعماري مسألة مقاومة تلقائية بقدر ما كانت مسألة توافق وملاءمة مع التغير السريع الذي عرفته الظروف الاقتصادية والسياسية.

لم يكن سلوك ذوي منيع وأهل فجيج يمثل في أقصى الأزمة لا المعارضة العنيدة ولا الاستسلام الحتمي، وإنما كان يمثل بالأحرى حذراً، ومحاولة للتوافق المشوب بالغياب الظاهر للوحدة الجماعية والعمل الفعّال. وقد نتج جزء من هذا السلوك عن طبيعة الغزو الفرنسي الذي لا يستقر على حال. ويرتبط، فوق ذلك، بطبيعة

البيئة ذاتها وضرورة الاستمرار في البحث دوماً عن الموارد الاقتصادية وحمايتها. ولم يَدَّخِر الفرنسيون جهداً في إقامة الدليل على أنهم يستطيعون مصادرة وتدمير بساتين النخيل، وأنظمة السقي، وحقول الزرع، أو المواشي، والتسبب في كارثة لأية قبيلة أو جماعة قصر يختارونها. وكانوا يهيئون، في نفس الوقت، الظروف الملائمة لإقامة السلم بين القبائل ومن أجل توسيع التجارة. وباختصار، لقد أضاف قدومهم إلى تقلب الطبيعة الشديد وضعية جديدة تقوم على عدم استقرار الموارد الاقتصادية. وبالتالي، فإن كل قبيلة أو قصر، وبالطبع، كل مجموعة كبيرة أو صغيرة، تجمعها مصالح الموارد المشتركة، كانت مضطرة للتفكير الممعن في نوع الردّ على الجيش الفرنسي حتى لا تتأثر بذلك أحوالها الاقتصادية في اتجاه أفضل أو أسوأ. لم تنتج الأزمة تأجيلاً للصراع للتغلب على البيئة، ولكن أدت إلى تكثيفه، كما سعت المجموعات المتعاونة والأفراد في نفس الوقت إلى حماية مواردها الحيوية وتفادي الخضوع غير المشروط للجيش الفرنسي المتقدم.

ولما كانت العلاقات السياسية ملتبسة وغير قارة في كل الظروف والأوقات، بسبب هذا الصراع، فإن إضافة هذه التهديدات الجديدة قد حاولت أن تجعلها كذلك أكثر من أي وقت مضى. وبالفعل، فإن مسلسل التوصل إلى الاتفاق النهائي مع الفرنسيين قد أبرز بحدة أسلوب السياسة القبلية، وبخاصة النزوع نحو التحالفات، داخل القبائل أو فيما بينها، للتوسيع، والتعاقد، والتغيير استجابة للحاجات الاقتصادية التي تتطلبها ظروف اللحظة، ولتجنب القيام بالتزامات مع جانب أو آخر لا يمكن الرجوع فيها بالنسبة للأفراد. وقد اتبع ذوي منيع هذا السلوك بشكل مثير لما وجدوا أنفسهم محاصرين بين مجاهدي وادي زيز من جانب والفرنسيين من جانب آخر. يمكن لإيديولوجية الوحدة العسكرية عبر علاقات القرابة أن تكون ناجعة جداً في الغارات الظرفية والحروب ضد القبائل المجاورة، في غياب السلطة المركزية. ولكن فائدتها تقل في الظروف التي يتوقف فيها العيش

أساسياً على قابلية المجموعات ومواردها المشتركة أن تلائم سياساتها مع مصالحها الاقتصادية، عبر سلسلة متناقضة من الهجوم المتقطع، والتوافقات والتملصات. فخلال الفترة الواقعة بين 1900 و1906، التي اشتد فيها التغيير وسادت فيها الحيرة، لم يندمج ذوي منيع في وحدة قبلية مشتركة نهائياً، بل ظلوا تجمعاً غير منتظم من القادة والأتباع المترددين فقط. وكانوا كلهم يحسبون الامتيازات التي سيحصلون عليها من جراء القيام بهذا العمل أو ذاك. في ظل هذه الأوضاع، لم تكن مقاومة الفرنسيين اختياراً مطلقاً، ولكنها كانت مجرد اختيار من بين الاختيارات الممكنة في التخطيط لاستراتيجية المحافظة على البقاء.

لقد أظهر كل من ذوي منيع وأهل فجيج خلال هذه السنوات السبع أن مصلحتهم الأساسية لم تكن هي المقاومة، ولكن مواجهة الأزمة حتى لا يؤدي بهم هذا المسلسل المعقد والمقلق إلى الانقطاع عن استغلال أرضهم. فلم تكن نظرتهم محدودة حتى يعجزوا عن الاعتراف بامتيازات المساومة والتراضي والنتائج المريعة للمقاومة المتصلبة. وقد كان من المحتمل أنهم لو لم يتصرفوا كذلك، بالنظر إلى رغبة الجيش الفرنسي بإنجاز الغزو بأي ثمن، لكان القتل والاختلال الاقتصادي والبؤس أكبر بكثير مما حصل.

❑ ❑ ❑

هوامش

1- Louis-Hubert-Gonsalve Lyautey, Vers le Maroc: Lettres du Sud-Oranains, 1903-1906 (Paris, 1937), p. 13.

2- Lyautey devant le Maroc: Lettres inédites du général Lyautey au Colonel Reibell (1903-1908): Présentation de Jean Brunon (Marseille: Vert et Rouge, Revue de la Légion Etrangère, n.d.), p. 13.

3- كتب الكثير عن منهج ليوطي. ويوجد عرضها الكامل- وربما الأكثر تفصيلاً، في أعمال ليوطي الخاصة، وبخاصة Vers le Maroc وانظر كذلك: Jean Gottman, «Bugeaud, Gallièni, Lyautey: The Development of French Colonial Warfare», in Edward M. Earl, Markers of Modern strategy (Princeton, 1943), pp. 238-49; Kim Munholland«, The emergence of the Colonial Military in France, 1880-1905«, diss. Princeton .University, 1964

4 - E. Arnaud and M. Cortier, Nos Confins saharien: Etude d'organisation militaire (Paris, 1908), pp. 77-84, 156-60; Blaudin de Thé, Historique des compagnies méharistes (Algiers, 1955); Augustin Bernard, Les Confins algéro-marocains (Paris, 1911), pp. 197-200; Lyautey, Vers le Maroc, pp. 48-56.

5ـ كان ضباط الشؤون الأهلية يجمعون الأخبار السرية بصورة منتظمة من الجواسيس المسلمين والمخبرين. وكان الجزائريون الذين يعملون لصالح الفرنسيين يسافرون أحياناً إلى المناطق المعادية للاختلاط بالناس والتقاط الأخبار المهمة. كما كان المخبرون المغاربة يأتون خفية أحياناً أخرى إلى المراكز العسكرية فيؤدى لهم الثمن حسب قيمة الأخبار التي يقدمونها. وكانت الأخبار السرية تؤخذ كذلك من التجار وأصحاب القوافل. وغالباً ما كانت تسجل هذه الطرق في التقارير الميدانية من طرف ضباط الشؤون الأهلية. وكان ضباط ليوطي يقدمون كذلك رشوة مهمة من أجل ضمان خضوع أو تعاون القادة المسلمين. وكان ليوطي يعتبر هذه الوسيلة مهمة للغاية ويشتكي أحياناً من عدم كفاية [الصناديق السرية]. فقد كتب في 1904 إلى جونار Jonnart [أن ليس هناك مقاطعة في حاجة ماسة إلى الصناديق السرية أكثر من فرع قسمي. فقد صرف القائد بيرون Pierron، في ثلاثة أشهر، الـ 600 فرنك التي أرسلتها له قبل شهرين. إذ كان عليه أن يطور الاتصالات السرية مع تافيلالت، وتنظيم أحسن قسم للاستخبارات، والأداء بسخاء للمبعوثين، وشراء المخلصين المترددين، عند الافتضاء (لنتكلم بصراحة)... فليس هناك من أمر محزن أكثر من التقصير في الجزاء السخي، عندما تقدم مائة فلس لأناس يستضيفونك بكل كرم عندما تزورهم، بعد أن ضمنوا لك عميلاً مهماً]. AMG. Alg. 1904, Lyautey to Gov. Gen., Janv. 13, 1904, n°1. 16, Sit. Pol.، كما حصل ليوطي على تمويلات خاصة من أجل الرشاوي وعلى تمويلات من لجنة المغرب Comité du Maroc، التي تعتبر فرعاً من الحزب الاستعماري. وكان جونار يعرف كل شيء عن هذه التمويلات. انظر: C.M. Andrew and A.S. Kanya-Forester, «Th French "colonial Party": Its Composition, Aims and Influence, 1885-1914», The Historical Journal, 10, n°1(1971), p. 116.

6 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1904, Lyautey to Gov. Gen., Jan. 13, 1904, n° 1.

7 - Kim Munholland, «Rival Approaches to Morocco: Delcassé, Lyautey, and the Algerian-Moroccan Border, 1903-1905», French Historical Studies, 5, n°. 3 Carl V. Confer, «Divided Counsels in French imperialism: The Ras-el-Ain Incident in 1904», Journal of Modern History, 18 (March 1946), Lyautey, Vers le Maroc, pp. 75-120. [انظر كذلك، عكاشة برحاب، من أسواق الحدود المغربية - الجزائرية، عين بني مطهر 1845-1912، الرباط نيت، المغرب، 2004، ص.7-40]م.

8 - Bernard, Confins, pp. 274-8; Munholland, «Rival Approaches», p. 339.

9 - Lyautey, vers le Maroc, pp. 56, 58, 111, 213-15.

10 - Lyautey, Vers le Maroc, p. André Collier, Notre Protectorat Marocain, (Paris, 1930), p. 68.

11 - انظر فيما يتعلق بالتوغل في الصحراء غرب وادي الساورة وتوات، Capt. Augiéras, «La pénétration dans le Sahara occidental», Ren. Col. (July 1923), pp. 225-9. [وكذلك أحمد العماري، توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850 إلى 1902، 1988 ؛ محمد أعفيف، مرجع مذكور ص. 335-350]م.

12 - قد يرتبط تأجيل موافقة الحكومة في الشهور القليلة بالمفاوضات بين انجلترا وفرنسا التي ستؤدي إلى التفاهم الودي بينهما. وربما كانت وزارة الخارجية تتمنى تجنب أي تقدم إلى الحدود حتى توافق انجلترا في الأخير على الاعتراف بالمصالح الفرنسية في المغرب مقابل تسوية القضية المصرية. فخلقت الحكومة في غشت 1905 أراضي الجنوب Territoires du Sud التي أعطت للصحراء إدارة منفصلة عن إدارة الجزائر. وكان فرع مقاطعة عين الصفراء قد تغير إلى تراب عين الصفراء، التي فصلتها عن مقاطعة وهران. وبعد أن أصبح ليوطي قائد المقاطعة في أواخر 1906، كان ما يزال يحتفظ بقدر كبير من المراقبة على قيادة عين الصفراء. Frank E., Trout, Morocco's saharan Frontiers (Geneva, 1969), pp. 59-62, 94-7.

13 - AMG. Alg. 16, Sit. pol. 1904, Lyautey, to Gov. Gen., Jan. 13, 1904, n°1; Gov., Gen., Feb. 1, 1904; n° 6. Lyautey, Vers le Maroc, p. 42.

14 - AMG. Alg. 16, Sit. pol. 1906, Quiquandon (Provisional Com. Subdiv.) to Com. Div. Oran, Sept. 21, 1904; Lyautey, to Min, War, Sept. 27, 1904, n° 17M.

15 - AGGA, 30H. 51, Maroc-Figuig, Lyautey, to Gov. Gen., Nov. 7, 1904, n° 282.

16 - AMG. Alg. 16, Sit. pol. 1906, Gov. Gen., to Min. War, May 19, 1906, n° 1411.

17 - AGGA. 30H. 51, Maroc-Figuig, Pariel (Chief of Beni-Ounif Annex) to Lyautey, Nov. 26, 1904, AMG., Alg. 16, Sit. Pol. 1909, Pariel to Lyautey, Feb.1, 1909, n? 118. Doc. Dip., I, 158, 177, 187, 188, 195.

18 - AGGA, 30H. 51, Maroc-Figuig, Lyautey, to Gov. Gen., Nov. 7, 1904, n° 282.

19 - AMG. Maroc C17, Maroc-Frontière-Figuig, Jonnart to Min. War, Dec. 27, 1904, n° 2248; Sit. Pol. 1908, Jonnart to Min. War, Oct. 15, 1908, n° 3506. «Dans l'Ouest et le Sud-Oranais», Af. Fr. (March 1905), p. 118.

20 - «Le Mouvement Commercial des confins oranais», Ren. Col. (June 1905), pp. 227, 228.

21 - «Algérie: la situation dans le Sud-Oranais», Af. Fr. (Feb. 1904, p. 55; «Algérie: le marché de Béni-Ounif», Af. Fr. (Aug. 1904), pp. 226, 267.

22 ـ الاستجواب رقم 28.

23 - Louis-Hubert-Gonslave Lyautey, Paroles d'action (Paris, 1927), pp. 38, 39.

24 - AMG. Alg. 16, Sit. pol. «Algérie, dans l'Ouest et le Sud-Oranais», Af. Fr. (May 1906), pp. 128, 129.

25 - Algérie: dans l'Ouest et le Sud-Oranais, p. 128

26 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1904, Lyautey to Gov. Gen. Janv. 13, 1904, n° 1.

27 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1906, Min, of Foreign Affairs to Gov. Gen., Oct. 11, 1906, n° 108.

28 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1904, Jonnart to Min. War, June 1, 1904, n° 1218.

29 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. Jonnart to Min. War, Jan. 9, 1904, n° 42.

30 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. Pierron to Lyautey, May 17, 1906.

31 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. Jonnart to Min. War, Dec. 1903, n° 2507; Jan. 9, 1904, n° 42.

32 - AMG. Alg. 15, Opération dans le Sud-Oranais 1903, Col. D'Eu, «Rapport sur les opérations effectuées par la colonne de Béchar du 16 Juin au 3 Juillet 1903».

33 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1904, Lyautey to Gov. Gen., Jan. 13, 1904, n° 1; Jonnart to Min. War, June 1, 1904, n° 1218.

34 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1904, Lyautey to Gov. Jan. 13, 1904, n° 1; Jonnart to Min. War, June 1, 1904, n° 1218; Alg. 19, Sit. Pol. 1912-14, Gov. Gen. Lutard to Min. War, April 17, 19013, n° 1191, F. Albert, «Les Ouled Djerir», BSGAO, 25 (Oct-Dec. 1905), pp. 396-8.

35- Canavy, «Notes sur le commerce de Colomb-Béchar avec l'Ouest», BSGAO, 26(Janv-March 1906), p. 69 De Clermont-Gallerande, «Le Mouvement commercial entre Beni-Ounif et le Tafilalet», BSGA (1905), p. 547.

36 AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1906; Jonnart to Min. War, Aug. 9, 1906, n° 2209; Pierron to Lyautey, May 17, 1906; Canavy, «Notes dur le commerce», pp. 69, 70; De Clemont-Gallerande, «Le Mouvement commercial», p. 542.

37- L. Mercier, «Notice économique sur le Tafilalet», Ren. Col. (June 1905), pp. 215-7.

38- AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1906, Pierron to Lyautey, May 17, 1906;

39- AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1906, Jonnart to Min. War, Aug. 9., 1906, n° 2209.

40- AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1904, Lt. Col. Quiquindon (Provisional Com. Subdiv.), «Résumé succint des rapports annuels», Sept. 20, 1904.

41- AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1904, Lyautey to Gov. Gen. Jan. 31, 1904, n° 1.

42- AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1905, Pariel to Lyautey, Oct. 27, 1905.

43 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1905, Pariel to Lyautey, Oct. 27, 1905; Gov. Gen. To Min. War, Nov. 17, 1905, n° 1768; Sit. Pol. 1906, Gov. Gen. To Min. War, Jan. 4, 1906; Pariel to Lyautey, Aug. 13, 1906, n°1073. كتب باشا طنجة إلى عامل فجيج، في فبراير خلال مؤتمر الجزيرة الخضراء، يخبره بأن الألمان سيساعدون المغرب على إرغام فرنسا عن التخلي عن كل الأراضي التي احتلتها منذ 1900. AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1906, Lyautey to Gov. March 2, 1906, n° 35C.

44 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1906, Jonnart to Min. War, July. 27, 1906, n° 2075.

45 - «La situation au Tafilelt», Af. Fr. (Oct. 1902), pp. 363, 364. يقول المقال بأنه بدأ يتسرب مبلغ اثني عشر ألف فرنك إلى خمسة عشر ألف إلى مراكش من الجنوب الشرقي كل أسبوع، نتيجة للتجارة بين تافيلالت ونهاية خط السكك الحديدية في دوفيريه Duveyrier. ويمكن أن يكون هذا الرقم غير مضبوط، ولكن من المؤكد أن انتقال الفرنك إلى الجنوب الشرقي قد ازداد بشكل قوي من 1902 وما بعدها.

46 - FO 174/267, MacLeod to Lowther, May 16, 1906.

47 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1906, Jonnart to Min. War, July 27, 1906, n° 2075. De Clermont-Gallerande, «Le Mouvement commercial», pp. 542, 543. وخلال العقدين الموالين، هاجر عدد كبير من يهود تافيلالت إلى شرق كولمب بشار أو إلى مناطق أخرى في الجزائر، لا للبحث عن وضعية اقتصادية أحسن فقط ولكن للبحث أيضاً عن حرية سياسية واجتماعية. وقد مثلت هذه الهجرة في نفس الوقت خسارة اقتصادية هامة لتافيلالت.
L. Céard, «Gens et choses de Colomb-béchar», Archives de l'Institut Pasteur d'Algérie, 11, n°1(1933), pp. 81, 82.

48 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1906, Jonnart to Min. War, Aug. 9, 1906, n° 2209. والاستجواب رقم20.

49 - Charles René Leclerc, «Le Commerce et l'Industrie à Fez», Ren. Col. (July 1905), pp. 231, 249, 250; «L'Evolution du Makhzan: la famille Tazi», Af. Fr.(Feb. 1904), pp. 50, 51.

50 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. Jonnart to Min. War, Aug. 9., 1906, n° 2209; Jonnart to Min. War, Dec. 31, 1906. Cap; Canavy, «Notes sur le commerce de Colomb-Béchar avec l'Ouest», BSGAO, 26 (Jan-March 1906), pp. 69, 70؛ والاستجواب رقم 20.

51 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1906, Jonnart to Min. War, Aug. 9, 1906, n° 2209; M. Marchand, «La Situation commercial à Fez», Ren. Col. (Dec. 1906), pp. 421, 422; Bernard, Confins, pp. 298, 299; Lyautey, Vers le Maroc, pp. 294, 295.

52 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1906, Pierron to Lyautey, May 17, 1906; Jonnart to Min. War, July. 27, 1906, n° 2075; Aug. 9, 1906, n° 2209; Oct. 1, n° 2690 Lyautey, Vers le Maroc, pp. 289, 290, 294, 295.

53 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1906, Pierron to Com. Terr., Dec. 6, 1906. والاستجواب رقم 20 و27.

54 - انظر هامش 52.

55 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1906, Jonnart to Min. War, Oct. 1., 1906, n° 2690.

56 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1906, Jonnart to Min. War, Aug. 22, n° 1906, n° 2327; n° 232; Pierron to Lyautey, Dec. 23, n° 731; Sit. Pol. 1907, Pierron to Lyautey, Dec. 23, 1907, n° 770.

57 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. Jonnart to Min. War, Aug. 1, 1906, n° 2125.

58 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. Jonnart to Min. War, Aug. 1, 1906, n° 2206, n° 2206; Set. 20, 1906, n° 2608; Lt. Bauger (Native Affairs officer at Forthassa) to Lyautey, Nov. 15, 1906, n° 193.

59 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1906, Pierron to Lyautey, Aug. 2, 1906; Bauger to Lyautey, Nov. 15, 1906, n° 193; Doury (Native Affair chief at Colomb-Béchar), «Renseignements généraux», Nov. 20, 1906.

60 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol.1906, Pierron to Lyautey, Aug. 2, 1906, n° 669.

61 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol.1906, Bauger to Lyautey, Nov. 20, 1906, n° 193.

62 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1906, Doury, «Renseignements généraux», Nov. 20, 190; Lyautey to Gov. Gen., Dec. 15, 190 n° 1235; Jonnart to Min. War, 15, 1906, n°3528; Pierron to Lyautey, Dec. 6؛ تقول التقارير التي وصلت إلى المراكز الفرنسية في أواخر الصيف إن السلطان كان يساند الحَرْكة. ويمكن أن يكون قد أيدها بكلام عام لمدة قصيرة. وقام بين يونيه وأكتوبر ببعض المحاولات للتشويش على آثار عقد الجزيرة الخضراء،

الذي وقعه بضغط من الفرنسيين، للتعبير رمزياً عن تأييده للمقاومة. Edmund Burke, III, Prelude to Protectorate in Morocco: Precolional Protest and Resistance, 1860-1912 (Chicago, 1976), pp. 87-90. (تمهيد للحماية في المغرب: الاحتجاج والمقاومة قبل الحماية، 1860-1912) هذا الكتاب هو الصياغة المراجعة والموسعة للأطروحة التي قدمها في جامعة برنستون Princeton سنة 1970، بعنوان «Moroccan, Political Responses to French Penetration, 1900-1912» (ردود الفعل السياسية المغربية على التدخل الفرنسي، 1900-1912).

63 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1906, Pierron to Lyautey, Dec. 11, 1906, n° 731.

64 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1906, Lyautey to Gov. Gen. Dec. 15, 1906; Sit. Pol. 1907, Pierron to Lyautey, dec. 23, 1906, n° 770.

65 - Lyautey, Vers le Maroc, pp. 334-7.

66 - AMG. Alg. 16, Sit. Pol. 1907, Lyautey to Gov. Gen., Sept. 21, 1907, n° 661.

67 - الاستجواب رقم 9.

68 - A.S Kanya-Forestner, The Conquest of the Western Sudan (London, 1969), pp. 207-9.

69 - انظر مثلاً، Édward Dechaud, L'Hinterland commercial de l'Oranie, (Oran 1909)، كان ديشو Déchaud كاتباً للغرفة التجارية لوهران، وقد نشرت اللجنة الوهرانية للمغرب، Comité Oranais du Maroc دراسته.



"المغرب المجهول" لموليراس
تخييل استقصائي ومقصدية استعمارية

محمد أقضاض*

المغرب المجهول:

لقد مر أكثر من قرن على انطلاق البحث السوسيولوجي والأنطولوجي والأنتروبولوجي الذي قام به باحثون أوربيون، فرنسيون وإسبان في الغالب، حول المغرب، قصد التعريف بهذا البلد الغامض المجهول وقصد تمهيد الطريق للهيمنة الأوربية عليه. ورغم هذا الزمن الطويل لم يبدأ اهتمام الباحثين المغاربة كثيرا بذلك البحث بل ولم يبدأ نقله إلى اللغة العربية إلا في السنوات الأخيرة. ومن أهم البحوث التي أنجزها الباحثون الفرنسيون بهدف التمهيد للهيمنة الفرنسية على المغرب نجد كتابات أوجيست موليراس وعلى رأسها كتاب "المغرب المجهول"[1].

"المغرب المجهول"، هو كتاب لا يختلف عنوانه كثيرا عما هو مألوف عند المستشرقين الغربيين الآخرين الذين كتبوا على "الشرق الغامض"، أي الشرق الذي يجهله الأوربيون. ورغم أن المغرب هو أقرب بلد إسلامي إلى أوربا، فقد بدا، إلى حدود بداية القرن العشرين، أكثر غموضا من باقي بلدان الشرق. ولم يكن المغرب مجهولا عند الفرنسيين فحسب، بل كان مجهولا عند جميع الأوربيين وبالأساس

* أستاذ باحث، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط.

عند الشعب الإسباني الذي لا يبعد عنه إلا بأقل من عشرين كلم، والأخطر من ذلك بقي غامضا، في إسبانيا، إلى حدود أواخر القرن العشرين، كما ينص كتاب "جنوبي طريفة"، حين يشير إلى "الصورة المضببة" و"جغرافية منسية"[2]، وهو يتناول علاقة إسبانيا بالمغرب.

هذا الجهل الأوربي جعل المغرب غريبا ومختلفا، وكلا الغرابة والاختلاف أدخلاه في مجال التوحش والفوضى والسطو والقتل. "فالمغاربة قساة، دمويون وأبطال على طريقتهم، لصوص، حين يسرقون يقتلون ويمثلون بجثث القتلى. ويعتقدون أن قتل المسيحي هو أفضل القرابين التي يقدمونها لربهم"[3]. هكذا جاء في كتاب لمؤرخ إسباني صدر في نفس تاريخ صدور "المغرب المجهول"، أي سنة 1895. ويرى نفس الكاتب الإسباني، أن الريف هو أكثر مناطق المغرب توحشا: "فالريفي رهيب، فظيع ولا إنساني"[4]. وهو ما يلخصه وزير الدولة الإسباني آنذاك السيد موريت Sr. Moret في، "ما يناسب أولئك المتوحشين هو الرصاص وليس سجلات التفاوض"[5]. وصفة التوحش تتكرر كثيرا أيضا في كتاب "المغرب المجهول"، خاصة حين يتحدث عن قبائل الريف، فيقول موليراس: "هذا البلد المتوحش شبه المجهول... هناك حيث لم يسبق لأي أحد أن وضع أرجله فيه"[6]. أو يقول: "وصل الدرويش عند هؤلاء المتوحشين"[7].

لقد نتج هذا الحكم على المغرب عموما، والريف على الخصوص، عن جهل الأوربيين لهما، كما رأينا، وعن إسقاط ثقافة المجتمع الأوربي الحديث على ثقافة شعوب أخرى لم ينته بها تطورها إلى مجتمع رأسمالي بثقافة قوية ومؤسساتية ونسبيا منظمة وخاضعة لقوانين وضعية مدونة. لذلك ورد في "المغرب المجهول"، "والمثير في الأمر أن نجد الأهالي مسلحين ببنادقهم في الجزء الغربي [المغرب][8] ومنزوعي السلاح في الجزء الشرقي [الجزائر المحتلة]. فمن جهة، هناك الحرية اللامحدودة والغياب التام للحكومة وسيادة قانون الأقوى والفوضى العارمة التي تعم ملايين

الأشخاص الذين لا يجمعهم سوى شيء واحد هو الإيمان بالإسلام.

ومن جهة أخرى، هناك الحضارة الأوربية التي تمثلها سلطة عطوفة وقوية، لا تفرق بين القوي والضعيف ولا بين الغني والفقير، وتشيع الوئام بين أربعين مليون من الأشخاص الخاضعين لإدارتها والذين تختلف معتقداتهم، لأنها أقرت إيمانا جديدا وهو: الإيمان بالوطن الفرنسي"[9]. وإلصاق صفة التوحش بالمغاربة وتلميع صورة فرنسا يخفيان التطلع إلى تصدير الحضارة الأوربية، أي الاحتلال، كما سنرى من خلال هذا الكتاب. وهو الأمر الذي نجده أيضا في الكتاب الإسباني المذكور نفسه حيث نقرأ، "... يمكن أن ندرك مدى استفادة هذا البلد [المغرب] وهو مهد التوحش، من حضارة الأوربي الأقرب منه، وهو يشكل الآن مركز عيون بلدان أوربية أخرى تتنافس للانقضاض عليه"[10]. يقصد الكاتب بالأوربي الأقرب من المغرب إسبانيا. هما دولتان، فرنسا وإسبانيا، تتنافسان على "نقل الحضارة" الحديثة إلى المغرب لإزاحة صفة التوحش والفوضى عن المغاربة. ويمكن أن نقارب طبيعة هذا النقل من خلال كتاب مولاي راس، كما يسميه الدرويش محمد بن الطيب المتنقل في المغرب لينقل له كل شاذة وفاذة عن قبائل الريف، وهو يهيئ كتابه "المغرب المجهول" وغيره من الكتب.

حقيقة كان موليراس، وغيره من الفرنسيين، يجهل المغرب، والريف على الخصوص، قبل أن يقدمه له مراسله القبايلي السيد محمد بن الطيب الذي يعرفه الكاتب بلقب الدرويش. وبينما يقدم أحد الإسبان الريفيين، وهو يتعاطف معهم حسب ما يبدو، بكونهم "رجالا شجعانا وأوفياء ونشطين وأذكياء ومتواضعين وذوي كرامة وصبورين وقساة"[11]؛ يحشد لهم موليراس أهم صفات التوحش، ويركز أكثر على الطابع الفوضوي لجميع سكان المغرب، ولا يهتم إلا نادرا بتقسيم المناطق المغربية إلى مناطق السيبة ومناطق المخزن، كما فعل أغلب من اهتم بالمجتمع المغربي فيما بعد. ولم تكن الفوضى التي ركز عليها الكاتب هنا، مطلقة كما اعتبرها

هو، حيث يرى أن "المجتمع الريفي فوضى منظمة، بكل المتعارضات والمتناقضات المحلية لمفهوم من هذا النمط، ويمكن اختزالها بالأساس في غريزة الدفاع وفي روح التعاون"[12].

صحيح أن المجتمع الريفي والمغربي، في عمومه، عاش متناقضات كثيرة بل ومفارقات وهي من الخاصيات المميزة لكل مجتمع دينامي. وفي نفس الوقت، كما يؤكد إمليو إيثاكا، أن كل فوضى في المجتمع الريفي هي فوضى منظمة، بمعنى هو مجتمع منظم بطريقته المختلفة عن التنظيم الأوربي الحديث. تنظيم عادة ما يعرفه الباحثون الذين اهتموا بالريف بـ "ديمقراطية بدائية". لذلك تبقى أحكام موليراس تلك، على المجتمع المغربي غريبة: تسقط الحالة الثقافية والتنظيمية الفرنسية الحديثة على المغرب، وحين يجده مخالفا في ذلك يحكم عليه بالتوحش والفوضى. في مقابل هذا تبقى الإدارة الفرنسية رحيمة عطوفة متسامحة مع كل الثقافات والديانات. وفي نفس الوقت تغض تلك الأحكام الطرف عن حقيقة ما كان يجرى في المستعمرات الفرنسية، خاصة الجزائر، من جرائم إدارية وعسكرية وهيمنة معمريها، سواء بالقمع الوحشي للأهالي أو بانتزاع الأراضي الخصبة منهم واستعباد المزارعين الأصليين، أو تقسيم البلاد إلى جزائر فرنسية ذات الخيرات الوافرة التي يستفيد منها المعمرون والإدارة والجيش؛ وجزائر الأهالي في الصحراء القاحلة، جزائر المنفى والتجارب العسكرية..

الأعراق المغربية:

وبناء على تلك الأحكام قسم موليراس سكان المغرب إلى عدة أعراق، أهمها عرقان أساسيان: هما العرب الذين "يمثلون ثلث الشعب المغربي"، حسب ما يرى؛ والأمازيغ الذين جعلهم ثلثي الشعب المغربي. وحين وقف عند العرق العربي ألصق به كل الصفات الأخلاقية المنحطة، فهم "غير منضبطين خلقوا فقط من أجل

الحرب والدسائس"[13]. ألفوا الحرية والفوضى المطلقتين، ولم يعرفوا ثقافة التنظيم، فصاروا "نصف متوحشين يحبون الحرية دون قيد ولا حد"[14]. لذلك جبلوا على الدسائس والقتل والفوضى. "هكذا جعل موليراس سكان القبائل العربية في المغرب أناسا خطيرين، لصوصا، وقطاع طرق، أذكياء بشكل كبير وحاذقين... ومنافقين، محتالين ومفترين ووقحين وشاهدي زور"[15]. وحين قام أحد قواد بني يزناسن بالتمرد على السلطان جعل الكاتب ذلك تمردا "ضد العربي المنافق"[16]. لذلك اعتبر الكاتب كثيرا من الصفات المنحطة التي يتصف بها الأمازيغ في المغرب، من مثل التعصب الديني والكذب أخذوها عن العرب[17].

ورغم أن موليراس جعل كل المغاربة متوحشين، كما رأينا، إلا أن الأمازيغ منهم لهم خصالهم الحميدة الخاصة، فهم يشبهون سكان جنوب أوربا، بما فيه فرنسا، "إن الأمازيغ المغاربة الذين رأيتهم (الريف، سوس، مراكش، درعة)، هم على العموم أقصر قامة من العرب، فطولهم قريب إلى حد ما، من طول الفرنسيين، وتجعلهم خصائصهم الجسدية، شبيهين بأعراق جنوب أوربا، مع ملامح صلبة أكثر بروزا مما هو عليه الأمر لدى القرويين الفرنسيين"[18]. ويبذل الكاتب كل جهده ليميز الأمازيغ عن العرب، فالأمازيغ اليوم "يشكلون عرقا متميزا، ذكيا، شغالا، ويتصفون بعبقرية أكثر عملية من عبقرية العرب"[19]. والأمازيغي في الغالب "لا يتوفر على مكر ودهاء العربي، إنه يمثل الأمازيغي الصارم الذي لا يعرف المزاح ويكره النفاق والكذب. وهو قاس أحيانا إلا أنه يظل دوما صريحا وواضحا وعنيفا"[20]. الأمازيغ هم عرق يحب الحرية ويقدس أرضه ويرفض سيطرة الأجنبي، "هو عرق من أكثر أعراق العالم صلابة، عرق لم يخضع أبدا للأجنبي؛ ولربما كان العرق الوحيد على الأرض، الذي لن يقول عنه التاريخ أي سوء. فهذا الشعب الصغير، تمتع باستقلال في كل الحقب. لذلك فإن الريفي يعشق موطنه إلى حد العبادة. وهو يحمل حقدا دفينا لإسبانيا التي نجحت في الاستيلاء على بعض

صخور هذه الأرض المقدسة والاحتفاظ بها. لكن بأي ثمن..؟"(21). إنه شعب، حسب موليراس، مستعد أن يتعامل مع الفرنسيين، وسيكون فعالا في خدمة فرنسا. لقد تحامل موليراس، ربما مجانا، على العنصر العربي وقلص حجمه إلى ثلث سكان المغرب.

ويبدو أن هذا التقسيم للشعب المغربي إلى عرقين، شكل مدخلا خطيرا لتفكير فرنسا في التخطيط للتمييز بين العنصرين العربي والأمازيغي بعد احتلال البلاد؛ العرب الذين يخضعون للشريعة ويحملون الثقافة العربية وأخلاقياتها، والأمازيغ الذين يخضعون للعرف وبالتدريج للقانون والثقافة الفرنسيين. ويبدو أن موليراس كان، مثل الإدارة الفرنسية، فيما بعد، جاهلا بطبيعة الشعب المغربي في مواجهة الأجنبي، لم يعرف أنه شعب منصهر وموحد، بكل فئاته، في ثقافة مغربية تفاعلت فيها عبر القرون مكونات عديدة أمازيغية وعربية وأوربية وإسلامية وإفريقية.. والمفارقة الكبيرة في قراءة موليراس للشعب المغربي هي وقوعه في اضطراب وأحيانا في تناقض، فجعل هذا الشعب متوحشا حينا ثم ربط التوحش بالعرق العربي فيه، ليتحول العرق الأمازيغي أقرب من الأوربيين وأكثر إنسانية..

المغرب الرائع/الخصب/الغني:

ولكن ما أهمية هذا المغرب، الذي رآه الكاتب في البداية "مجهولا" و"متوحشا"، أو نصف متوحش في أحسن الحالات، الذي "يمزقه عدم الانضباط والفوضى" و"الفوارق العرقية"؟، أهميته كبيرة جدا، يركزها في مقدمة الكتاب، فيبينها:

في موقعه؛ فالمغرب يوجد في شمال إفريقية يحيط به بحران كبيران من جهتهما تأتي أمطار غزيرة. موقع يجعل مناخه معتدلا وألطف في العالم العربي. وتصبح الدولة المهيمنة عليه تتحكم في الطرق التجارية العالمية.

وفي تضاريسه؛ حيث يتوفر على جبال عديدة رائعة "يسمح لها ارتفاعها بالتوفر على الثلوج بشكل دائم"، والتي تجعلها خزانا مائيا لا ينفد على مدار العام. تكسو تلك الجبال غابات شاسعة، عالية الأشجار، تتخللها أدغال خطيرة تعيش فيها الحيوانات المفترسة.

وفي خصوبة تربته؛ خصوبة لا مثيل لها، وقد كان من الممكن أن يكون هذا البلد، الموجود في منطقة معتدلة، مخزنا زراعيا غنيا بالنسبة لكل إفريقية الشمالية، لأنه لا توجد أرض غنية ومعطاء، مثلما هو الشأن في المغرب.

وفي ثروته الزراعية الفائضة، وثروته الحيوانية الوافرة من خراف وماعز وأبقار وجياد وبغال وجمال، ترعى في مروج واسعة تنمو فيها الأعشاب.

وفي ثروته المعدنية؛ ثروة تشكل مفاجأة للجميع وتسيل لعاب المصانع الأوربية، و"تنتظر الأسياد المحتملين للمغرب... فنجد في هذا البلد بكثرة، كلا من الذهب والفضة والنحاس والرصاص" والحديد والشب والكبريت.

وفي طبيعة ساكنته؛ فقد أنتج المغرب "أو جذب إليه مبكرا أعراقا نشيطة ومحاربة بشكل كبير". ويتوفر على أكبر عدد من السكان بالكيلومتر المربع. ويمكن لمنطقة الريف وحدها أن توفر 250 ألف رجل قادر على حمل السلاح.

هكذا بدا المغرب، وضمنه منطقة الريف، لموليراس الذي ألف الكتاب "خدمة لوطنه فرنسا"، بلدا مثاليا ورائعا؛ بموقعه الجغرافي على بحرين كبيرين. وبمناخه المعتدل الألطف. وبجباله المكسوة بالثلوج والغابات وبوحيشه المتنوع. وبخصوبة تربته المثالية. وبثروته الحيوانية والرعوية. وثروته المعدنية الغالية. وبنموه الديمغرافي وساكنته الصلبة النشيطة والشجاعة. وبجماله وغناه وتنوعه الثقافي.

الريف وفرنسا:

ويبث المؤلف بين أعطاف كتابه عبارات تؤكد العلاقة، غير المباشرة، بين أهل

المغرب، خاصة الريفيين، وبين فرنسا، فيشير إلى أن المهاجرين المغاربة إلى الجزائر قالوا له مرات عديدة: "إننا لا نحب عجرفة وبرودة الإنجليز ونكره تعصب وقصر النظر الإسبان والتهور التراجيكوميدي للإيطاليين وثقل ظل الألمان. ورغم طيش الفرنسيين وميلهم نحو اليهود، إلى حد ما، فإن فرنسا هي التي سنختار لتحكمنا، إذا ما أجبرتنا الظروف على ذلك"[22]. فالمغاربة يفضلون فرنسا على كل بلدان أوربا، حسب موليراس، ويتمنون أن تحكمهم إذا اضطروا إلى ذلك، خاصة، "إذا ما صدقنا محمد، يقول موليراس، فإن شعورا بالتعاطف ينتظرنا في هذه القبيلة [قبيلة بني سداث]"[23]، وهو يفضل تصديق ذلك بدل الذهاب بنفسه للتأكد من هذا الأمر، بل يضيف أن أحد شيوخ هذه القبيلة صرح لمحمد بن الطيب الدرويش، بأن أجدادهم كانوا فرنسيين[24]. ويعمق فكرة ارتباط بعض القبائل الريفية بفرنسا حين يرى أن بعض الأساطير تشير "إلى أن أهالي زرقت وتاركيست [غرب الحسيمة] من أصل فرنسي. فهل يرجع ذلك إلى كون هذه المنطقة اللطيفة، شبيهة بمناطقنا الألبية الجميلة؟"[25]. إمكانية هذا التشابه بين أراضي الريف وأراضي فرنسا، يجدها الكاتب في قبيلة كزناية شرق مدينة الحسيمة، فيقول: "ويا له من بلد جميل، فالجبال ذات القمم العالية، ترسم في سفوحها وديانا شاسعة مزروعة، كما هو الشأن في فرنسا العزيزة، حيث تتوالى بساتين الخضر والفواكه المسقية بكثرة بواسطة المنابع العديدة التي تنبثق بقوة من المنحدرات العميقة للأطلس"[26].

ويكثر من التلميح بإمكانية استعمال فرنسا للأراضي المغربية في الريف واستغلالها؛ فحين يتحدث عن قبيلة بني ورياغل يشير إلى "أن خليج المجاهدين المحمي من الرياح الشرقية والغربية ينتهي عند رأسين Cap quilates وCap des maure. والسؤال المطروح، يقول الكاتب، هو: هل من الممكن مستقبلا استعمال هذه البوتقة الشاسعة التي تنفتح بشكل كبير على ريح الشمال، عندما تحل الحضارة المتسامحة محل التعصب؟"[27]. وحسب الأفكار السابقة فإن الحضارة المتسامحة

هي الحضارة الفرنسية. ويؤكد أن أراضي "قبيلة تمسمان، شرق الحسيمة، شديدة الخصوبة وهي مزروعة بعناية من طرف ساكنة مجدة ومسالمة، تذكرنا بتلك المناطق الفرنسية التي يزرع فيها كل شيء، ولا يترك أي شبر من الأرض دون زراعة. فلماذا نبحث بعيدا وتحت مناخ قاتل، عن أشياء لا تساوي ما يوجد تحت أيدينا وبجوارنا، في منطقة رائعة، يستنشق فيها إنسان الشمال الهواء المنعش للمحيط وللبحر الأبيض المتوسط؟"[28]. بل إن بعض القبائل في الريف ينبغي أن تكون فرنسية، فيقول موليراس صراحة: "ولأن ملوية كانت تشكل الحدود القديمة لموريطانيا الطنجية، فإن كل المنطقة الرائعة الواقعة ببني يزناسن [قبيلة مجاورة لمدينة وجدة] وجب أن تشكل جزءا من إفريقية الفرنسية. ونتساءل لماذا عوض واد كيس الصغير، أثناء رسم الحدود النهائية، المجرى الهائل الذي كان يعتبر منذ القديم، كفاصل طبيعي بين عالمين مختلفين جدا وهما: المغرب الأقصى (أي المغرب الحالي)، والمغرب الأوسط (أي جزائرنا الحالية). ويعترف المغاربة فيما بينهم فقط، بأنه كان من حق فرنسا بعد انتصارها بإسلي، أن تطالب بكل المنطقة الممتدة حتى ملوية. وقد أدركت من اعترافهم هذا، كيف أننا خدعنا مرة أخرى من طرف الدبلوماسية العربية"[29]. حين نقرأ هذه الفقرة يتبدى لنا وكأنها كلام أحد جنرالات فرنسا الاستعمارية في الجزائر، فموليراس هنا يتحدث عن رسم الحدود واستغلال انتصار فرنسا على المغرب في معركة إسلي، وعلى انخداع الفرنسيين بالدبلوماسية "العربية" في المغرب. أما في قبائل قلعية فعلى الأقل توجد تلك البحيرة الجميلة التي أثارت اهتمام موليراس، فيمكن لقربها "من البحر [الأبيض المتوسط] أن يجعل منها مستقبلا ميناءا طبيعيا رائعا أو بيزرت أخرى، لكنها أكبر بخمسين مرة من الميناء الجزائري، حيث يمكن أن تكون مرسى آمنة لمئات السفن الكبيرة"[30]. هي بحيرة، مثل خليج الحسيمة أو أحسن، تغري الفرنسيين.

ويتحسر المؤلف على كون فرنسا لم تنشئ أسواقا حرة على حدودها

لتستقطب القوة الشرائية للريفيين الذين يتبضعون السلع الإسبانية والإنجليزية، فيتساءل "لماذا لم ننشئ من جانبنا أسواقا حرة بنيمور Nemours وندرومة وللامغنية وتلمسان وعلى طول كل حدودنا الوهرانية، في كل مكان توجد فيه قرية أو قبيلة وحيث يمكننا أن نقيم معاملات تجارية؟ إنها ستكون ضربة مميتة لتجارة جيراننا لما وراء المانش.."[31]، متطلعا للقضاء على تجارة الإنجليز في المغرب.. ولمواجهة تأثير مليلية التي اعتبرها "مستودعا كبيرا لا يتبضع منه القلعيون وحدهم بل كل أهالي الريف الشرقي والدهرة وكل الجزء الشرقي من جبالة. ولا يمكن مناهضة هذه المنافسة الخطيرة إلا بخلق أسواق حرة على طول حدودنا مع المغرب. ونأمل أن تفهم الحكومة عاجلا ضرورة خلق مثل هذه الأسواق"[32]. فقد أدرك أهمية التغلغل الاقتصادي الذي سيروج للثقافة والسياسة الفرنسية المتربصة بالمغرب في عمومه وبالريف، قبل فوات الأوان.

ضرورة معرفة هذا المغرب:

هذا المغرب المجهول، الغريب، المتوحش والرائع والخصب والغني، لم يسبق لأي فرنسي إلى حدود كتابة "المغرب المجهول"، بل ولأي أوربي، أن عرفه. وحتى منطقة الريف القريبة جدا من القارة الأوربية، يجهلها الأوربيون كل الجهل. وكي يكتشفوا هذا الكنز الأسطوري، لابد من التماهي مع ساكنته، فالأوربي الذي يريد أن يعرف هذه الساكنة عليه أن يتصرف مثلها ويتخذ لباسها، أن يتقن لغاتها، يجب عليه "معرفة العربية الكلاسيكية، يقول موليراس، بشكل لا بأس به ومعرفة العربية الدارجة بشكل جيد". بل وأكثر من ذلك يجب أيضا أن يعرف "القرآن الكريم برمته تقريبا، وحفظه عن ظهر قلب وقراءته وفق قواعده". ولابد من الدراية بالسنة النبوية وأخبار الصحابة، ومعرفة عناصر من التشريع الإسلامي، بل وإمامة المسلمين في المساجد والمشاركة في الجنائز... إن معرفة العربية وحدها

توازي معرفة أكثر من عشرين لغة. وإن هذه المعرفة تحتاج إلى دراسة الأدب العربي الصعب[33]. والتمكن من هذه اللغة يسمح بالتمكن من ذهنية متكلميها وبكشف الحجب عن هذا الشعب المتميز والغامض، وقادر على تمهيد الطريق للهيمنة عليه. لذلك لابد أن يغير الفرنسيون، والأوربيون عموما، نظرتهم إلى هذا الشعب، الذي اعتقدوا دائما أنه أجوف وبليد وكسول. فكم "سنكون مخطئين، يقول موليراس، لو تصورنا أن وكر النمل هذا، الذي يعج بالرجال، لا يتوفر على أفكار ورغبات وأهواء وأنشطة، أو تمثلناه كبلد مصاب ببلادة لا أمل في الشفاء منها... إن المغرب يشبه خلية نحل منغلقة بشكل محكم"، ولكي تعرف المغرب لابد "أن تكون نحلا في الخلية لرؤية الحياة النشيطة داخل شبه التابوت هذا"[34].

وقد يقترف الفرنسيون خطأ أفدح إذا هم فكروا في تنصير هذا الشعب وتجريده من إسلامه. ولا بد أن نعرف أن المسلم غير قابل للإدماج في المجتمع الأوربي المسيحي. "فلنتركه، يقول المؤلف، مع أفكاره ومعتقداته المحترمة إجمالا بشكل كبير، ومع عاداته وقوانينه وأعرافه العتيقة وأحواله الشخصية وأحكامه المسبقة التي تشكل سعادته الوحيدة في هذا العالم..". إن غاية فرنسا الأساسية ليست هي تحويل هذا الشعب من محيطه الديني واللغوي والطقوسي وعامة سلوكه، إلى محيط ديني وثقافي جذري، وإنما غايتها أن يسهم معها "في ثلاثة أعمال أساسية وهي: الحرب والزراعة والرعي"، وأيضا في العمل بالمصانع. ففي الحرب مثلا توجد فرنسا محاطة بالأعداء، لذلك ستحتاج إلى إضافة 300 ألف مسلم من أشرس المحاربين إلى جيشها، "ونحن نعلم بأن شهامة المسلمين، يضيف المؤلف، لا تضاهى، كما نعرف احتقارهم للموت". غير أن ذلك يتطلب من فرنسا "الاحتفاظ لهم بقوانينهم وأعرافهم ومحاكمهم"، ومعاملتهم "بطيبوبة وعدل مع الصرامة"[35]. ولابد أن تدرك أن المغرب يساوي وحده، في أهميته، أكثر من باقي بلدان شمال إفريقية مجتمعة. ويتمنى المؤلف "أن يكون هذا البلد الإفريقي الذي لا مثيل له، في

يوم، أجمل زخرفة على التاج الاستعماري لفرنسا"[36].

هذه الخلاصة التي انتهى إليها موليراس في هذا الكتاب تتطلب من فرنسا أن تبذل كل جهودها لاكتشاف ومعرفة المغرب عموما، والريف على الخصوص، بالتغلغل في خلاياه الداخلية. ولابد أن تكون وسائل هذا التغلغل هي نفسها وسيلة موليراس أو شبيهة بها، وهي بث رجال أكفاء في عمق المجتمع، من مثل محمد بن الطيب المعروف بالدرويش، رجل قبائلي يحسن العربية الكلاسيكية ومتمكن من العربية الدارجة ومن الأمازيغية. كانت مهمته أن يجول في أعماق الريف ومناطق أخرى من المغرب، على شكل طالب علم لابسا الأسمال مستجديا السكان في المساجد والأضرحة والزوايا، سالكا نفس سلوك طلاب العلم المحلين في قبائل الريف. لاحظ كل فئات المجتمع الذي نزل فيه وحاور شيوخه وشبابه وطلابه، واستوعب العادات والأعراف، مؤكدا دائما انه ينتمي إلى نفس القبيلة التي يحل بها أو إلى قبيلة مجاورة. لقد نقل هذا الدرويش عبر ذاكرته، صورة منطقة الريف بكل تفاصيلها وجزئياتها على المستوى الجغرافي كما على المستويات الاقتصادية والعسكرية والديمغرافية والثقافية والتشريعية... ومن خلاله، ومن خلال بعض الريفيين الذين كانوا ينزلون في نواحي وهران للاشتغال في ضيعات المعمرين الفرنسيين "مقابل ثمن زهيد"[37]، تمكن موليراس من إنجاز هذا الكتاب وكتب أخرى حول المغرب، دون أن تطأ قدمه أي شبر من أرض هذا البلد الرائع.

التخييل الاستقصائي:

أشرنا سابقا إلى أن موليراس كتب ما كتبه من كتب على الريف والمغرب بتفصيل، دون أن تطأ قدمه أي شبر من هذه الأرض العجيبة، ولكنه اعتمد على ثلاثة دعائم كونت إرادته وقدرته على الإنجاز، وهي:

1 ـ ميلاده في الجزائر، وبالضبط في تلمسان قرب الحدود الجزائرية المغربية

وتعلمه اللغة العربية الكلاسيكية واللغة العربية الدارجة الجزائرية واللغة الأمازيغية القبائلية، وتمكن منها كلها، بل تمكن من معرفة القرآن والسنة. بل كان أستاذ كرسي للغة العربية وآدابها. ولأنه نشأ بين الجزائريين وعرف عاداتهم كما عرف لغاتهم، تخيل البلد المجاور، غربا، أنه ليس مختلفا عن الجزائر إلا في روعته وعدم سيطرة فرنسا عليه.

2 ـ اكتشافه لمحمد بن الطيب "نموذج الرحالة النادر"، فموليراس لم يكن يتوقع العثور على هذا الرجل المناسب من قبل[38]. لقد اكتشف حقا رجلا نموذجيا يعرف العربيتين الكلاسيكية والدارجة إلى جانب الأمازيغية، وسلك طريقة مناسبة جعلت الناس في المغرب عموما، والريف على الخصوص يحترمونه، وهو ارتداء الأسمال والمشي حافيا في غالب الأحيان، يتحمل الطريق الطويلة في الهجير والجوع والعطش وعنف قطاع الطرق وصراع القبائل. يلجأ إلى المساجد وأحيانا إلى الأضرحة والزوايا يقتات مع الطلبة وعابري السبيل. تمكن بجولاته الكثيرة من معرفة قبائل الريف وأساليب إنتاجها، وطبيعة أراضيها ودرجة خصوبتها وجغرافيتها ومناخها ومعادنها وطريقة طبخها ولباسها وأعرافها وعاداتها، وحروبها وأسلحتها، وأشكال ثقافتها... عموما عرف كل شيء عن هذه القبائل، ونقل ذلك إلى مشغله موليراس. وفي الكتاب مقاطع يتتبع فيها موليراس حياة هذه الشخصية وكأنها بطل رواية، بل هي أشبه بشخصية سيدي الحاج محمد بن سور الناصري في رواية "عيطة تطاوين" للكاتب الإسباني لبنيتو بيريس كالدوس (Benito Pérez Galdós)[39]، الذي ألفها تقريبا في نفس تاريخ كتابة "المغرب المجهول" أو بعدها بقليل[40]. شخصية أصلها من إسبانيا، تعلمت اللغة العربية الكلاسيكية واللغة الدارجة واتخذت الإسلام دينها فعرفت محيطها في المغرب الذي اتخذته موطنا لها، وهي مختلفة بعض الشيء عن شخصية درويش موليراس، حيث أصبحت من علية القوم ثقافة وسياسة ومكانة اجتماعية. وقد استخدمها كاتب الرواية كراو يقدم

المغرب بكل دقة خلال حرب إسبانيا على تطوان خريف سنة 1859. لذلك يمكن أن نخمن بأن هذه الشخصية قدمت صورة عن المغرب عمقت تخييل الكاتب وأعطته عمقا واقعيا...

3 ـ خدمة فرنسا، وهذا بيت القصيد. لقد كتب موليراس هذا الجزء من مشروعه وهو لا ينتظر مكافأة "إلا أن تنتفع فرنسا بهذا العمل، إذا ما كان مفيدا لها"[41]. أن تنتفع بما يقدمه حول المغرب في أفق ارتمائه في أحضان فرنسا، فتستفيد من خصوبة أرضه ومن ثروته المعدنية ومن ساكنته الشجاعة في الحروب والنشيطة في العمل والإنتاج. لذلك فإن المساعدة التي قدمها الدرويش للكاتب لا يمكن أن تنساه فرنسا، ورغم عدم ثقته في قدرته بعض الشيء فقد أحسن كثيرا! فليتابع مشواره داخل هذه الإمبراطورية الغامضة. أكيد أن الوطن الكبير [فرنسا] سيفكر فيه...[42] هي خدمة عظمى قدمها موليراس ومعه الدرويش الذي لم يكن يعرف أهمية ما ينجز.

لقد ركب موليراس بحثه هذا من استعداده الوجودي الذي سمح له أن يتخيل المغرب، ومما استقصاه من الرحالة الذي استخدمه ومن العمال الريفيين في الجزائر، ومن تعميق التفكير في مساعدة الدولة الفرنسية لتحتل المغرب أو تحتل الريف على الأقل. فتشكل هذا البحث من القدرة على التخييل ومن الرغبة الذاتية لمساعدة دولته ومن استقصاء الأخبار الواقعية الدقيقة..

العلم وسيلة:

لقد فرض الكاتب على نفسه من أجل بلده ومن أجل العلم[43] هذا العمل الشاق وهو إنجاز الكتابة على البلد الجار، المغرب. فوظف موليراس نسبيا منهجا علميا بالبحث والاستقصاء والمقارنة، من خلال استعمال الدرويش والإنصات للمهاجرين الريفيين إلى الجزائر. فالتزم بهذا المنهج ليحدد خرائط القبائل ومواقع

خصوبة الأرض وفلاحتها إلى جانب مواقع الثروة المعدنية المختلفة، وعدد الرجال المحاربين في كل القبيلة، وطبيعة نظامها الإداري والاجتماعي. لقد عرَّف الكاتب بقبائل الريف وبكل المغرب أيضا؛ قدمه في شخصية أبنائه وعاداتهم المختلفة، على الأقل للفرنسيين،... وقد حاول تحري الحقيقة في كل ذلك، عبر هذا الدرويش القبايلي. وهو عمل يستحق عليه كل التقدير، خصوصا وأن منطقة الريف لم تكن معروفة في أوربا إلا كمنطقة يسكنها مجموعة من المتوحشين الملتصقين بالجبال والأدغال، إلى أن اشتغل عليها موليراس، مهما كانت مقاصده. غير أن "الجانب الذاتي في عملية سرد الوقائع والأحداث، قد طغى كثيرا، بل إن مزاجية المخبر كانت هي المحددة في بعض الأحيان لأحكامه وتصوراته"، كما يقول المترجم[44]. هي مزاجية حكمت الرجل القبايلي وموليراس معا..

ومن خلال هذا المنهج انتهى الكاتب إلى أن فرنسا "بإمكانها أن تحصل على هذا البلد [المغرب] دون إراقة قطرة دم"[45]. ويتعلق ذلك بعمق معرفة الشعب المغربي وتغيير فرنسا لسلوكها تجاهه. وإلى الدعوة الصريحة لاستعمار المغرب والريف بالذات، ففي الفقرة الأخيرة قبل خاتمة الكتاب، يخلص موليراس إلى هدفه من الكتاب فيقول: "إذا كان القدر المكنون سيحتم على بلد الحريات هذا، بأن يخضع لسيطرة الأجنبي، فإن ما نتمناه هو أن يحكم من طرف فرنسا، لأن وطننا الدائم، اللطيف مع رعاياه المسلمين، دأب على معاملتهم بشكل جيد، أفضل بكل تأكيد، مما هو عليه حال الرعايا المسلمين الآخرين الخاضعين للأمم الأوربية الأخرى"[46].

لذلك نخلص إلى أن ذلك المنهج العلمي المتداخل مع المقصدية الذاتية والرؤية الإيديولوجية الاستعمارية، هو وسيلة مهمة لبسط فكرة أهمية المغرب، وفي مقدمته قبائل الريف، للدولة الفرنسية. فكل ما في هذا البلد يغري باحتلاله في أقرب وقت وبكل الوسائل، خاصة الوسائل السلمية..

❑ ❑ ❑

هوامش

1 ـ المغرب المجهول، الجزء الأول، اكتشاف الريف، ترجمة وتقديم د. عز الدين الخطابي، منشورات تيفراس ن ريف، طبعة 2007.

2 ـ الفونصو ذي لاسيرنا، جنوبي طريفة: المغرب وإسبانيا سوء تفاهم تاريخي، ترجمة، إسماعيل العثماني، طبعة دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2008.

3 - Rafael Guerrero, cronica de la guerra del Riff, tercera edicion, librerias "Paris-Valencia", 1998, p. 69.

4 ـ نفس المصدر، ص. 68.

5 ـ نفسه، ص. 36.

6 ـ المغرب المجهول، ص. 22.

7 ـ حين حديثه عن قبيلة بني خنوس غرب الريف. ص. 63.

8 ـ المعقوفتان من عندي

9 ـ نفسه، ص. 184.

10 - Rafael Guerrero, p. 71.

11 ـ إمليو بلانكو إيثاكا، عن دافيد مونتجمري هارت، "القانون العرفي الريفي"، ترجمة د. محمد الولي، طبعة المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الترجمة ـ رقم3، مطبعة المعارف الجديدة ـ الرباط، 2004، ص. 17.

12 ـ نفس المرجع، ص. 21.

13 ـ ص. 34.

14 ـ ص. 34.

15 ـ ص. 186-187.

16 ـ القائد هو ولد البشير أو مسعود وبعد أن تمكن بالمال والأتباع وقضى على القياد المناوئين له ببني يزناسن وأنجاد أراد أن ينفصل على السلطان، وواجه جيش المخزن فانتصر عليه وازداد نفوذه وبطشه. ولم يتخلص منه السلطان إلا بمكيدة محكمة.. أنظر صفحتي 198-199. من كتاب "المغرب المجهول". ص. 199.

17 ـ ص. 31.

18 ـ ص. 31.

19 ـ ص. 33.

20 ـ حين يتحدث عن قبيلة بقوية غرب الحسيمة. ص. 197.

21- ص. 46.
22- ص. 39 - 40.
23- المعقوفتين من عندي حيثما وجدت في هذه المادة.
24- ص. 69.
25- ص. 90.
26- ص. 126.
27- ص. 104.
28- ص. 111.
29- ص. 194.
30- ص. 155.
31- ص. 140.
32- ص. 176.
33- ص. 14-15.
34- ص. 38.
35- ص. 40.
36- ص. 41.
37- ص. 21.
38- ص. 19.
39- انظر http://es.wikisource.org/wiki/Portada
40- صدرت طبعتها الأولى سنة 1905.
41- ص. 28.
42- ص. 26.
43- ص. 18.
44- د. عز الدين الخطابي، مقدمة المغرب المجهول.
45- ص. 45.
46- ص. 206.

❑ ❑ ❑



المؤرخ والأدب الكولونيالي بين جدوائية المساهمة وحدود التعامل

الأدب الكولونيالي ظرفية النشأة

علال ركوك*

تندرج الرحلات التي قام بها الأوربيون إلى المغرب ما بين القرن 18 وبداية القرن 20 ضمن المخططات الرامية إلى التوسع المجالي في أفق السيطرة على مناطق حيوية من العالم، وفق استراتيجية الاقتراب والتفتح على شعوب مختلفة قصد التعرف على اقتصادياتها وتركيباتها الاجتماعية وعاداتها وغير ذلك.

وما فتئت ظاهرة الاقتراب تتوسع وتتطور لتفسح المجال أمام اجتياح دور الاقتصاد والتجارة الأوربية للمغرب على أساس أن هذا الاستقرار السلمي بداية سيسمح بتوسع عسكري في مرحلة ثانية، يتوج بسيطرة تامة.

وتعتبر هذه التوسعات إحدى النتائج المباشرة لتطور النظام الرأسمالي الأمبريالي التي عرف انطلاقته منذ القرن XIX. فخلال هذه الفترة كان المغرب على علاقة وطيدة بأوربا عن طريق مجموعة من المعاهدات الدولية التي سمحت باستقرار جالية أوربية على أرضه للتبادل التجاري، لكن مجموعة من العوامل ساهمت في اضطراب الوضع داخل المغرب الذي أصبح يعيش في فوضى عارمة

* أستاذ باحث، المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط.

ظهر من خلالها عجز المخزن عن التحكم في دواليب الدولة وتدبير الأزمة.

لقد تظافرت مجموعة من المشاكل على خلق عدم توازن داخل البلاد سواء منها العوامل الطبيعية كالجفاف والجراد وغيرها أو عوامل اقتصادية مثل أزمة العملة أو سياسية مثل الحروب أو المالية أو التمردات التي خلقت متاعب متعددة بالنسبة للمخزن وجعلته في موقف ضعف أمام الأوربيين الذين ساهموا في تعميق الأزمة لاستغلالها. وهكذا أصبح المغرب محط اهتمام الدول الأوروبية التي بدأت تتصارع وتتفاوض حول من سيستولي على المغرب.

وتبين منذ الوهلة الأولى للأوروبيين أهمية التعرف عن قرب على المغرب وبنياته وهياكله السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وفي هذا الإطار قام مجموعة من الرحالة بشكل فردي بزيارة المغرب وتدوين مشاهدهم مثل دوشونيي سنة 1789 وتبعه آخرون أمثال دوفوكو سنة 1884 وغيرهم، وابتداءا من بداية القرن 20 جندت مؤسسات البحث والدراسات والأشخاص والمخبرين للتعرف على المغرب. وبذلك كانت هناك عدة رحلات أوروبية للمغرب، منذ بداية القرن XIX وقبيل الحماية.

وسعت السلطات الفرنسية إلى مأسسة هذه التحركات بإنشاء هيئات علمية تتكلف برصد وثائقي ومعلوماتي حول المغرب كفيل بإعطاء صورة تقريبية عن المغرب والمغاربة لهذه الغاية ثم خلق البعثة العلمية سنة 1901 برآسة دوشاتولي ومجموعة تدريس الآداب بالجزائر وعلى رأسها إيدمون دوتي وباسي وآخرون، هذه المؤسسات لقيت دعما من طرف الأحزاب الاستعمارية الفرنسية التي شجعت هذا النوع من الأبحاث.

ومع انطلاق هذه المؤسسات المدعومة تقاطر على المغرب مجموعة من الأوربيين خصوصا الفرنسيين منهم والذين كانوا يقضون فترات طوال في المغرب لاستكشاف عوالمه والاقتراب من مكوناته والتعرف على عقليات سكانه وغنى

ثرواته وغيرها.

وخلال فترة قصيرة نسبيا تكون وثائقي حول المغرب والمغاربة كفيل بتقديم صورة كافية عن هذا البلد العجيب الغريب كما صوره الأوروبيين، ساهم أو شكل المنطلق الأساس لوضع استراتيجية التدخل العسكري في المغرب تم عمليات الغزو والسيطرة وإخضاع القبائل والمدن التي انتفضت لأول وهلة.

مميزات الكتابة:

تروم هذه الكتابات نقل أدق التفاصيل حول مجال المغرب من جبال وأودية ومسالك وتتطرق إلى الإنسان بكل مكوناته الإثنية والسلالية وعاداته وتقاليده.

كما ترتكز على جانب السلطات المتدخلة في الحكم سواء على الصعيد المركزي أي المخزن أو ممثليه على الصعيد المحلي والجهوي من قياد وباشوات.

كما تسجل حضور مؤسسات أخرى فاعلة في الحقل الديني وأدوارها السياسية في حالات الخلل السياسي مثل الزوايا والتي كان المخزن يعمل على استغلال وساطة بعضها لتوطيد نفوذه السلطوي والتواصلي مع مجموعة من القبائل.

ولا تفوت هذه الأبحاث فرصة الوقوف عند التركيبة الاجتماعية للمغاربة مثل الأعيان والخاصة والعلماء وطبعا تكون هناك إشارات هامشية إلى العامة من الكادحين والمهمشين.

وعن طريق تسجيل هذه المعلومات تضع هذه التقارير أو الدراسات أحكام قيمة وأحكام جاهزة تكشف عن دونية المغاربة وتخلفهم وتؤكد على تلك النظرة الاحتقارية للآخر، وبالتالي تدعو وتشجع على ضرورة التدخل لنشر الحضارة في هذه الربوع.

ويبدو من خلال ذلك الزخم الكبير والمتنوع لهذه الأدبيات والمونوغرافيات أن اطلاعهم على واقع المغرب جعلهم يتعاملون معه بنظرة غرائبية وعجائبية تظهر من خلال عناوين دراساتهم، مثل "اكتشاف المغرب" "وبين القبائل"، "وعلى عتبة المغرب الحديث"، "ومغرب اليوم"، "والمغرب المجهول"، "والمغرب زمن المحلات". وغيرها ويستشف من خلال هذه العناوين رغبة الكتاب في إبراز الجديد أو إثارة الانتباه إلى هذه الربوع لاستغلالها والاستحواذ على خيراتها.

وبالرجوع دائما إلى هذه الكتابات نسجل اهتمامها الذكي بمختلف المجالات الجغرافية للمغرب، وبهذا نلاحظ وجود كتابات اهتمت بالمدن الكبرى والعواصم التقليدية القديمة مثل، مراكش لدوتي وفاس للوتورنو. وكتابات اهتمت بناحية الشاوية مثل كتابات آدم وكتابات اهتمت بسوس مثل روبيرمونتان، وكتابات اهتمت بناحية جبالة مثل زيكونزاك وغيرها من المناطق.

إضافة إلى بعض الكتابات التي توخت جانبا أكاديميا في تناولها الحديث عن المغرب والتي اهتمت بالتنقيب عن تاريخه في عصور مختلفة مثل كتابات كزيل وكاركوبيون ودوسان مرثان وتيسو وغيرهم كثير.

الإنجازات:

لقد قامت تلك الهيآت والمؤسسات بإنجاز مجموعة من الأبحاث بشكل منظم ضمن مجموعة من الإصدارات المتخصصة، وهكذا أصدرت البعثة العلمية ابتداء من سنة 1904 مجموعة الأرشيف المغربي ثم مجموعة الأرشيف البربري وسلسلة مدن وقبائل المغرب في أكثر من مجلدين وبعض المجلات المتخصصة مثل مجلة العالم الإسلامي.

نحت هذه الكتابات مَنْحىً مغايرا لكسب مصداقية رسمية وذلك بمحاولة الدفاع عن إيديولوجية الدولة ويتجلى هذا في تجنيدها لتبرير أطروحات الغزو

الذي تنعته هذه الكتابات بمصطلح التهدئة pacification للتخفيف من حدته وتبرير الوجود الفرنسي بأنه ينحصر فقط في إخماد الفوضى التي كانت سائدة في البلاد. لكن واقع الأمر يبرز غير ذلك لأن ربوع البلاد لم تكن تعيش كلها على إيقاع الفوضى وعدم التنظيم وإن كان أغلب ما يصدر عن القبائل هو مجرد ردود فعل ضد التدخل الأجنبي بمعنى أن الوجود الفرنسي هو العامل الأساس الذي كان يساعد على انتشارا نعدام الأمن وعصيان القبائل والتي لم تجد بدا من النداء بالجهاد.

إن واقع أمر التهدئة هو التعتيم ومغالطة الرأي العام الفرنسي والدولي والتأكيد على أن وجود فرنسا في المغرب يهدف لتأهيله حضاريا واقتصاديا، وزادت من تبريرات وجودها أن المغرب بلاد المتناقضات لوجود كيان خاضع للمخزن وآخر خارج عن سلطته بلاد المخزن/بلاد السيبة ومن تم نفي الوحدة المغربية التي يجب أن تعيدها فرنسا عن طريق التهدئة التي تستمد شرعيتها من معاهدة الحماية الذي استغلت بنودها فيما بعد للسيطرة التامة على البلاد.

الاهتمام الكولونيالي بالمغرب:

مع بداية القرن 19 ونشاط الإمبريالية الأوروبية التي كانت تروم الاستحواذ على أهم حصيلة من المستعمرات برزت الإرهاصات الأولى للاهتمام الأوروبي بالمغرب والذي تطور إلى تنافس حوله بين الدول الأوربية، وقد برز الاهتمام بالمغرب بشكل أكبر منذ سنة 1830 بعد استقرار فرنسا بالجزائر وبداية الاحتكاك والقرب من المغرب.

ساهم هذا الوضع الجديد الذي تحكمه علاقة الجوار بين المغرب وفرنسا في ازدياد الاهتمام بالمغرب وتعميق التعرف عليه وفي هذا الإطار ظهرت مجموعة من الدراسات التي كانت غاياتها تسهيل عمليات الاستحواذ والغزو الأمر الذي جعلها تعمل على نهج الطرق الاستخباراتية وتجميع المعلومات.

لقد مرت هذه الإنتاجات بمراحل متعددة تطورت بتطور مواقف فرنسا وسياستها اتجاه المغرب، ويمكن أن نركز بشكل عام على ثلاثة مراحل تظهر أساسية ضمن هذه الكتابات:

المرحلة الأولى: وهي التي يمكن أن نصطلح عليها بأدب الرحلة حيث كانت أغلب الكتابات حول المغرب عبارة عن رحلات أو أسفار أي سرد لمجموعة من الأحداث حول حياة المغاربة ومكونات المغرب وحضور الفرنسيين وإنجازاتهم بالمغرب، ومع مرور الوقت أصبحوا يسايرون أهداف الدولة الفرنسية الاستعمارية بالكشف عن مكونات العقلية المغربية.[1]

وفي هذا الإطار ندرج أعمال دولاكروا والذي يجسد الإرهاصات الأولى لتشكيل صورة فنية عتيقة في زيها الروماني أي الحضور الروماني بالمغرب فالأخذ بهذه الصورة يجسد إلى حد كبير تمثيل الإمبريالية الفرنسية بالمغرب.[2]

كتابات دولاكروا:

وصل دولاكروا إلى المغرب سنة 1831 ضمن بعثة دومورني لدى السلطان عبد الرحمان (2218- 5918) حول قضية بيعة أهل تلمسان للسلطان.

ويعتبر دولاكرو فنانا عرف بمواقفه ضد السياسة الفرنسية التوسعية، بدأ رحلته من مدينة طنجة حيث سلك طريقا مخزنيا في اتجاه مكناس، ويبدو أنه اهتم أكثر بوصف الإنسان المغربي أكثر من الطبيعة المجالية رغم معاناته زمن إقامته بالمغرب جراء العداء الذي كان يكنه المغاربة للأجانب والمسيحيين، وقد جاءت أعماله عبارة عن وصف ذلك الفضاء الضيق الذي زاره.

ولعل نظرة دولاكروا للمغرب لا تترجم فقط من خلال لوحات رسمه الخاصة بالمغرب وإنما تظهر كذلك من خلال رسائله التي كان يبعثها إلى أصدقائه في فرنسا والتي كانت تساهم في تفسير مضامين رسومه حول المغرب حيث أدرك

أن أصل الحضارة لازال حاضرا في الشرق في الوقت الذي انتقل إلى أوربا.[3]

كتابات بيير لوتي:

زار لوتي المغرب ضمن بعثة Patenotre في مارس 1889 وحل بطنجة وكان اهتمامه يبتعد عن كل ما هو سياسي ودبلوماسي ولكنه يركز على مشاهدات أخرى وذلك في المدن التي زارها مثل طنجة وفاس، ونشر كتابه تحت عنوان سنة 1890، الملاحظ أن كتاب لوتي هذا قد أحيى صورة المغرب الشرقية التي حملتها الكتابات قبله.

المرحلة الثانية

الكتابات العسكرية:

لقد خصت الكتابات العسكرية المغرب بجانب مهم من الدراسات وذلك منذ بداية الاحتكاك مع الفرنسيين على الحدود على أساس أن هذا النوع من الكتابات سيعرف توسعا كبيرا خصوصا مع انطلاق عمليات الغزو بعد 1907 ثم بشكل رسمي سنة 1912.

نتطرق إلى نموذج من الكتابات العسكرية المواكبة لعمليات الغزو يتعلق الأمر بكتابات الكولونيل Voignot. تناولت هذه الكتابات مراحل الغزو من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب.

يشير في بداية كتابه أن المغرب يفتقر إلى الوحدة السياسة وينفي المشروعية عن المخزن الذي لم يستطع توحيد القبائل مما فسح المجال لانتشار ظاهرة السيبة، ومن هنا يعطي الكاتب الأهمية لدور فرنسا في إعادة تنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

يعتمد الكاتب منطق الإقصاء ونفي أهلية الأجهزة الحاكمة خلال مرحلة ما قبل الغزو الأوربي.

نفس الأحكام تنطبق على الصور والنعوت التي يخص بها المؤلف المشاركين في هذه الحملات مثل المتعاونين أو المقاومين حيث يخصهم بمعجم خاص يكرس تلك النظرة الدونية التي نلمسها في كتابات الرحالة أو رجال البعثات، مثل Partisants، suppletifs، أو Pillard أو agitateurs أو dissidents وغيرها من قبل هذه الألفاظ.

نسجل كذلك مجموعة من الأحكام مثل أنه من بعد عمليات الغزو بإمكان المغرب أن يلج باب الحضارة، وأن فرنسا قدمت مجموعة من الضحايا في سبيل تنظيم المغرب الذي تحول بفضل الجيش الذي سيسهل عملية الاستغلال ولهذا فهو يدعو لإقامة النصب التذكارية اعترافا بخدمات الضباط والجنود الفرنسيين.

ونفس الملاحظة تنطبق على كل من A.Guillaume في كتابه: "les bérbères et la pacification de l'Atlas central 1912 – 1933", ed. René julliard séquana. 1946.

و R. Peyronnet في كتابه: "Tadla – Pays Zaian moyen Atlas".

أدب المقاومة في الكتابات الكولونيالية:

معلوم أن المواجهة التي كانت بين الغزاة والمقاومين قد اشتد وطيسها وكانت لها آثار جانبية على بنى المجتمع بمختلف مكوناته، ولقد خلفت لنا عمليات المقاومة التي خاضها مختلف القبائل مخزونا هاما من الأشعار ومرددات والأزجال تدخل فيه إطار ما نصطلح عليه بأدب الحرب أو أدب المقاومة.

إن حصيلة هذا الأدب ضخمة ومتنوعة وقد تضمنتها هذه الكتابات الكولونيالية التي كانت تقوم بتدوين هذا النوع من الأدب الذي يعتبر موقفا رافضا

لمأسسة علاقة جديدة بين نظم وبُنَى مألوفة وأخرى جديدة ودخيلة الأمر الذي خلق عدم توازن وقوبل بالرفض والمقاومة.

هناك مجموعة من الأعمال الكولونيالية التي تضمنت عددا من أشعار أدب المقاومة ضمن مؤلفاتها ويمكن أن نشير إلى بعض نماذج هذه الأعمال التي اطلعنا عليها ونسوق منها بعض النماذج.

- BASSET H.: "Essai sur la littérature des berbères", Alger, Jules, 1920

- BEAUVIEUX R.: "Chants de femmes arabes", Plon Paris, 1942.

- BIARNY.S. : "Notes d'éthnographie et de linguistique nord africaines", Plon Paris, ed. Ernest le roux, 1924.

* "Notes sur les chants populaires du rif," archives berbères,Vol. 1, 1915. Pp. 22 – 29.

- BOUVERT: "Chansons Marocaines du Sud", in Maroc – Médical 15 Avril 1926. PP(142-144) 15 juin 1926 (PP 202-204) 15 novembre 1926, p. 452.

- CHAULENT .P.: "Les poésies du bled Marocain, Maroc catholique", Mai 1937. Pp. 131-132.

- CHIMENTI.E :"Chants de femmes Arabes".(Renniat ennessa), plon /s.d , Paris(s-d).

- COLLAC : "Chansons bérbères de la région d'Azilal", France-Maroc1920. Pp. 147-149.

- DERMENPHEN.E: "La guerre au Maroc et la littérature populaire du rif". Europe 15 juin 1928, pp.153-201.

- Drowin . J.: "Un cycle oral hagiographique dans le moyen Atlas marocain" Pub, de la Sorbonne, imp. nationale, Paris, 1995.

- DUQUAIRE H.: "Anthologie de la littérature marocaine", Paris, Plon, 1943.

* "Chants de femmes Arabes", Fontaine, 13 mars 1941, PP. 255-261.
- JUSTINARD L.: "Nọte sur la littérature et la poésie chez les rifains", B.E.P.M; Janvier 1926.
- LAOUST E.: "Chants bérbère contre l'occupation française", mémorial
- Henris Basset, Paris Genthner, I.H.E.M. Vol 2, 1928, PP. 920.
- ROUGET G.: "Chansons berbère", France-Maroc; Fevrier 1920, p. 57.
- SEGHROPoème de la résistance berbère, receuillis par Galimache Et J Robichz, les temps modernes, Dec, 1949, Pp. 973-987.

الملاحظ هنا أن الأجانب قد اهتموا بهذا النوع من الأدب ضمن مؤلفاتهم وتقاريرهم وسجلوا مجموعة من النصوص التي تعتبر ذاكرة ضمن سياق معني ومجال معني كما ذكرنا.

جاءت هذه النصوص التي هي عبارة عن أشعار ضمن أجناس مختلفة من مكونات الأدب الشعبي المغربي الفني والمتنوع.

نجدها ضمن شعر إزلان وتاماوايت وتامديازت وأحيدوس وغيرها. والملاحظ أن هذه الألوان الغنائية التي أتينا على ذكرها تعتبر من أهم مكونات الغناء في المجالات الجبلية والمجالات الناطقة بالأمازيغية وهذا ما يبرز أهمية فعل المقاومة بهذه المناطق بعنف ولمدة طويلة.

إن الأهمية التي أعطاها الأدب الكولونيالي لأدب الحرب لم يجعله يغفل الجوانب الأخرى من الظواهر الاجتماعية الحاضرة بشكل يومي بل نجد أن الحيز المخصص لها هو مهم جدا ويمكن كذلك من تتبع مجموعة من القضايا المتنوعة.

الأدب الكولونيالي والتاريخ:

لا يمكن إقصاء نصوص الأدب الكولونيالي من عمل المؤرخ بل يمكن اعتباره أحيانا نقطة الانطلاق في تناول حدث معين في انتظار مقارنته أو تكملته بمعطيات

أخرى وفي حالات مماثلة قد يكون المتن الكولونيالي هو الوحيد المتفرد بتناول الحدث.

وبما أن المؤرخ يعتمد في عمله على دراسة واستنطاق الوثائق المكتوبة فإن المعطيات الجديدة في حقل التاريخ دفعت به إلى اعتماد واستغلال كل ما من شأنه أن يفيد أبحاثه أو يكملها وقد يكون في بعض الأحيان المنطلق الأول للبحث.

إن المشكل الذي يعوق مجهود المؤرخ في مجتمعنا هو معضلة الوثيقة وهذه الإشكالية في بلدنا قائمة نظرا لقلة ما هو مكتوب أو لضياعه أو لعدم وجوده من الأصل فالكتابات الرسمية قليلة أما الوثائق الإدارية المخزنية فينتابها شح على الرغم من ندرتها، ولذلك كان على المؤرخ الوطني خصوصا الذي يهتم بالفترات المعاصرة أن يوسع في نوعية الوثائق المعتمدة مثل اعتماد الصور والأغاني والأشعار والصحافة والأدب وغيرها.

وحينما يروم المؤرخ التعامل واعتماد هذه الأنواع من الوثائق الجديدة يجد نفسه مضطرا للتعامل مع نصوص الأدب الكولونيالي نظرا لغناه من جهة وكذلك نظرا لتفرده بمجموعة من الخصوصيات التي ذكرناها.

حدود المساهمة ومسؤولية المؤرخ

هذه النصوص التي يتضمنها الأدب الكولونيالي غنية ومتنوعة ولا يمكن للمؤرخ تجاوزها إلا أن الاعتماد عليها يفرض تعاملا معينا ومنهجية علمية تتوخى الاقتراب من واقعية الحدث ما أمكن.

- إخضاع النص للمقارنة مع ما هو موجود من الوثائق على اختلاف أنواعها والمصادر بتنوعها والقيام بفحص معلومات النص أو المتن انطلاقا مما توافر وعن طريق المقارنة يمكن تنقية النص مما يشوبه من زوائد وقضايا مفروضة وغيرها.

بعبارة أخرى تكمن مسؤولية المؤرخ هنا في تحقيق النص والتأكد من محتواه وتدقيقه وترميمه فيصبح وثيقة معتمدة في البحث العلمي.

ـ الخطوة الثانية ضرورة وجود المؤرخ الذي درس الفترة وخبر حدودها وكسب دراية وتجربة تمكنه من تطبيق منهج علمي يضمن له سلامة وصحة وواقعية الأحداث التي يتضمنها النص الكولونيالي.

ـ من جهة أخرى لا يمكن نعت كل نصوص الأدب الكولونيالي بالمغالاة وإبراز المركزية الأوروبية وتحقير الآخر وتقديم أحكام قيمية وغيرها من النعوت الجاهزة، مع ذلك نسجل في بعض النصوص ـ وإن لم تتوافر فيها شروط النزاهة التامة ـ حياد الكتّاب حول قضايا كانت تثير نقاشات مثل خدمة الأطروحة الاستعمارية وغيرها والأمثلة هنا كثيرة جدا.

خلاصة

لم يجد المؤرخون المغاربة خيارا أمثل عن هذه الكتابات التي خلفت رصيدا ضخما لا يمكن تجاوزه.

ورغم الاعتماد على هذه الكتابات فإن المؤرخ يتعامل معها بنظرة نقدية قصد المراجعة والتدقيق ومناقشة ما ورد فيها من أفكار كانت تخدم ظرفية معينة، وجدير بالذكر أن الضباط الفرنسيين الذين قادوا عمليات الغزو لم يكونوا يسجلون فقط العمليات العسكرية بل على العكس من ذلك قد تجد في كتاباتهم وتقاريرهم معلومات تاريخية وانتروبولوجية وإثنية وغيرها.

❒ ❒ ❒

هوامش

1- انظر سمير بوزويتة، مكر الصورة المغرب في الكتابات الفرنسية 1832-1912، ص. 11-12.

2- نفس المرجع، ص. 23.

3 - بعثة أرسلها الملك الفرنسي لويس فيليب الى السلطان مولاي عبد الرحمان سنة 1832 وكان على رأسها دوموري شارل.

4- سمير بوزوتية، مكر الصورة، مرجع سابق، ص. 63.

❐ ❐ ❐

بيبلوغرافيا :

- سمير بوزويتة، مكر الصورة، المغرب في الكتابات الفرنسية (1832 - 1912) منشورات إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2007.

-BASSET H.: "Essai sur la littérature des bérbères", Alger, Jules, 1920

- BEAUVIEUX R. : "Chants de femmes arabes", Plon Paris, 1942.

-BIARNY.S.: " Notes sur les chants populaires du rif, archives berbères",Vol. 1, 1915

- COLLAC: "Chansons bérbères de la région d'Azilal", France-Maroc1920, pp. 147-149.

- Guillaume a les berbères marocains et la pacification de l'atlas central; 1912-1933, ed, rene julliard-sequana1946.

- JUSTINARD L.: "Note sur la littérature et la poésie chez les rifains", B.E.P.M; Janvier 1926.

- LAOUST E.: "Chants bérbère contre l'occupation française", mémorial.

- Henris Basset, Paris Genthner, I.H.E.M. Vol 2, 1928, pp. 920.

Peyronnet, r : adla-pays zaian-moyen atlas.

- SEGHROPoème de la résistance berbère, receuillis par Galimache.

- Et J Robichz, les temps modernes, Dec, 1949, pp. 973-987.

Voinot 1 : "sur les traces glorieuses des pacificateurs du maroc charles"- lavauzelle editeurs 1939 Paris.

❐ ❐ ❐

من الكتابات الاستعلامية عن سوس

تقرير الكابتان سارتر عن "إيرزان" بنواحي تارودانت

أحمد السعيدي*

توطئة:

كانت منطقة سوس آخر ما احتُلَّ في المغرب وذلك سنة 1934، إذ لم يلبث الاحتلال ثمة سوى ما يزيد عن عقدين بقليل بعد اعتماد سياسة التهدئة la pacification التي رآها المحتل أسلم لمرحلة ما بعد تحطيم القبيلة Détribalisation. هذه الوضعية المختلفة بالنسبة لمنطقة سوس عن بقية المناطق الداخلة في عِداد السياسة الحمائية، جعلها مختلفة عن المراكز التي أشبعها ضباط الاستعلامات وقبلهم الرحالة والمستشرقون بحثا. ويؤكد هذا أحد الأنثربولوجيين الأمريكيين بقوله: "لقد اخترنا هذه المنطقة [سوس] بالأساس، لأنها وعلى خلاف مناطق المغرب الشمالية الغنية، لم تحظ باهتمام السلطات الاستعمارية الفرنسية خلال الفترة الممتدة من سنة 1912 إلى سنة 1956. ومن ثم ظلّت في اعتقادنا أقلّ تحوّلا من الناحية الثقافية والاقتصادية. ولذلك نفهم كيف أن هذه المنطقة لم تحظ إلى الآن إلا بقليل من الاهتمام من قِبَل المختصّين في العلوم الاجتماعية من الأوربيين والأمريكيين."[1]

---

* باحث، أكادير.

وإن تاريخ كتابة تقرير الكابتان سارتر المؤرّخ بثلاث سنوات قبيل الاستقلال (1953)، دليل على تأخر عمل الاستعلامات في هذه المنطقة (إيرزان وقبيلة أرغن عموما). فهذا المقال محاولة في التعريف بإحدى ثمرات ضباط الشؤون الأهلية خاصة، وإدارة الحماية عامة في مغرب القرن العشرين، متمثلة في تقرير أنجزه ضابط فرنسي عن قبيلة أرغن وضمنها إيرزان التي تهمّنا أكثر، والتي جاءت في تضاعيف مقاربة هذا الضابط للمنطقة في جولة لم تتعدَّ ثلاثة أيام.

نبذة عن مصلحة الاستعلامات الفرنسية وأقطابها:

اقترنت سياسة الحماية الفرنسية بالمغرب عموما، بالمقوّم العلمي، حيث دأبت بعض المراكز الحمائية على تخريج شخصيات عسكرية وعلمية لدراسة المناطق المستهدفة بسياسة الحماية في شمال المغرب وجنوبه، وهم ضباط الشؤون الأهلية الفرنسيون الذين تخرّجوا من معهد الدروس العليا بالرباط. وكانت مهامهم استعلامية أساسا، مما أنتج رصيدا مهمّا في مجال التقارير والمؤلفات الفرنسية عن المغرب[2]، يقول جرمان عياش: "إن العلم هو أحد الأسلحة وأول سلاح يتعيّن توظيفه، لأنه هو الذي سيعمل على تعبيد الأرضية التي يتعيّن الزحف إليها."[3]

ومن هؤلاء نذكر: هنري بيريو (H. Berriau) رئيس مصلحة الاستعلامات ومؤلف كراسة "أدوار ضابط الاستعلامات أثناء الحماية على المغرب" سنة 1918، وميشو بلير Michaux-Bellaire، وجوستنار Justinard، وجورج سبيلمان[4] G. Spillman.. يقول بيريو: ".. إذ عليه [ضابط الاستعلامات] إضافة إلى مؤهلات عسكرية ثابتة أن يكون ملمّا بكل شيء، فيكون في آن واحد ديبلوماسيا ومهندسا ومعماريا ورجل أموال ومزارعا واقتصاديا ومستعربا ورجل قانون. لكن عليه قبل كل شيء أن يكون راجح العقل."[5]

وقد تعددت الكتابات الكولونيالية عن المغرب بمختلف مناطقه، نقتصر على

ذكر ما يتعلق منها بمنطقة سوس، ومن ذلك:

1. تقرير عن الوضعية السياسية بجنوب المغرب وعن أحداث سوس بين 1914-1915، من إنجاز ألبير Alibert.

2. بطاقة أهل تزنيت، من إنجاز دو بلمار 1929، De Bellemare.

3. أهل جزولة، من إنجاز جوستنار Justinard (القبطان الشلح)، 1933.

4. مملكة تازروالت: سيدي أحمد أوموسى وورثته بالجنوب المغربي من إنجاز بيارد 1937 ،Biard.

5. مونوغرافية أهل تزنيت، من إنجاز دولابواسيير 1940، De la Boissière.

6. تاريخ قبيلة مرابطة في الأطلس الصغير، قبيلة أيت عبد الله أوسعيد، من إنجاز جان شومي 1952، Jean Chaumeil.

7. بطاقة قبيلة أهل تزنيت، من إنجاز شارل دومنيك، Charles Dominique، 1953.

التعريف بتقرير الكابتان سارتر:

- **وصفه:** مرقون على الآلة الكاتبة باللغة الفرنسية في 32 ص، ويضم خريطة غير واضحة لقبيلة أرغن مع عدد من الجداول والإحصاءات. وقد كتبه إثر جولة قام بها لمدة ثلاثة أيام من 24 إلى 26 من شهر يناير سنة 1953. وقد أرسله كاتبه الكابتان سارتر إلى الكابتان رئيس مكتب الشؤون الأهلية بتارودانت بقوله:"لي الشرف أن أبعث إليكم المعلومات التي تمكنتُ من جمعها في إطار جولة لثلاثة أيام من 24 يناير إلى 26 منه سنة 1935 في قبيلة أرغن. وقد جمعت هذه النقط المشفوعة برسوم وفق العناوين الآتية:

I. لمحة جغرافية Aperçu géographique

II. لمحة إثنوغرافية Aperçu ethnographique

III. لمحة اقتصادية Aperçu économique

IV. دراسة مختلف الأقسام (أقسام القبيلة) Etudes des différentes fractions

V. ملحق - جدول الزعامات Annexe -tableau de commandement

- تاريخ الفراغ منه: ذيل سارتر تقريره بقوله: "تارودانت في 25 مارس 1953"، مما يعني أن كتابة التقرير وصياغته استغرقت ربما شهرين، منذ انتهاء الجولة المنجزة من 26 يناير إلى 25 مارس.

- صاحبه: الكابتان سارتر Le capitaine Sartre، ضابط ملحق بمكتب الشؤون الأهلية في دائرة تارودانت، إقليم أكادير، منطقة مراكش.

- مصدره: إحدى خزائن الأرشيف بفرنسا، وقد صوّرته من هناك الباحثة الأمريكية كاترين هوفمان Katherine E. Hoffman[6]. وقد أمدّنا به مشكورا السيد عمر المالح الذي أنجز بحث الإجازة في كلية الآداب بأكادير عن إيرزان[7].

معطيات تاريخية عن إيرزان[8]:

لم يخص الكابتان سارتر منطقة إيرزان بالتقرير وحدها، وإنما درسها ضمن دراسته لقبيلة أرْغَنْ (هرغة) كلّها، التي ركّز فيها على دورها خلال عصر الموحدين وخاصة مدشر تيغمرت، الذي ينتسب إليه المهدي ابن تومرت. ويفصّل سارتر في الحديث عن أرغن، تاريخيا وجغرافيا واقتصاديا وإثنوغرافيا واجتماعيا.. هكذا ينزل كاتب التقرير من الجبل (= أدرار) إلى السهل (= أزغار)، أي من أرغن إلى إيرزان[9].

ويتّبع سارتر نفس المنهج في مقاربته لإيرزان بالحديث عنه وفق النقط الآتية:

I. **لمحة جغرافية** Aperçu géographique

يتقابل في تقرير سارتر من حيث جغرافية المكان المدروس، السهل (أزغار أو الوطا) والجبل (أدرار)، الأول للأمازيغ، والثاني للعرب. وهذا ما يوضحه سارتر في تقسيمه قبيلة أرغن إلى:

- تجمّع الجبل (أدرار) Groupement de la montagne: أيت تنارت وأيت عثمان = الحفاظ على التقاليد الأمازيغية العتيقة.

- تجمّع السهل (أزغار) Groupement de la plaine: إيرزان والجرف = تعرّبتا بقوة لعلاقتهما بقبيلتي المنابهة وأولاد يحيى.

II. **لمحة إثنوغرافية** Aperçu ethnographique

يتحدث سارتر في هذه النقطة عن تزاوج الشرف (الانتساب إلى آل البيت) والإمامة (الانتساب إلى مؤسس دولة الموحدين) في قبيلة أرغن.. ويبسط تاريخ ابن تومرت ويركّز على شخصيته، ثم على تاريخ المنطقة إلى حدود بداية القرن العشرين، بغية استلفات الأنظار إلى أهمية المنطقة من الناحية السياسية والتاريخية والعرقية. وبما أن إيرزان تنتمي - حسب سارتر- إلى الجزء السهّلي، فإنها تعربت بقوة مثلها مثل الجرف، لأنهما كانتا متصلتين بقبيلتيْ المنابهة وأولاد يحيى، ومن ثم فقد أصبح السكان مزدوجي اللغة.

وبالنسبة للتنظيم السياسي لإيرزان فقد كان بيد الشيوخ والمقدَّمين، على عكس قبائل الجبل التي ابتكرت نظام إينفلاس. أما التنظيم القضائي فلم يتمكن سارتر من إبرازه بشكل كبير حيث يقول: "من الصعب الحصول على معلومات مفصّلة عن التنظيم القضائي لأهل أرغن."[(10)]

ونلحظ أن سارتر ظل محكوما في مقاربته هذه بمنطق الجبل والسهل، وتحكمهما في النظام المعيشي لتجمع سكني بعينه.

III. **لمحة اقتصادية** Aperçu économique

حاول كاتب التقرير إعطاء نظرة سريعة عن بعض ملامح الأنشطة الاقتصادية لسكان إيرزان والمتمثلة أساسا في:

ـ **الفلاحة**: تتميز إيرزان بإنتاج الشعير والذرة والقمح وبعض الخضر: جزر، لفت، فول، طماطم..

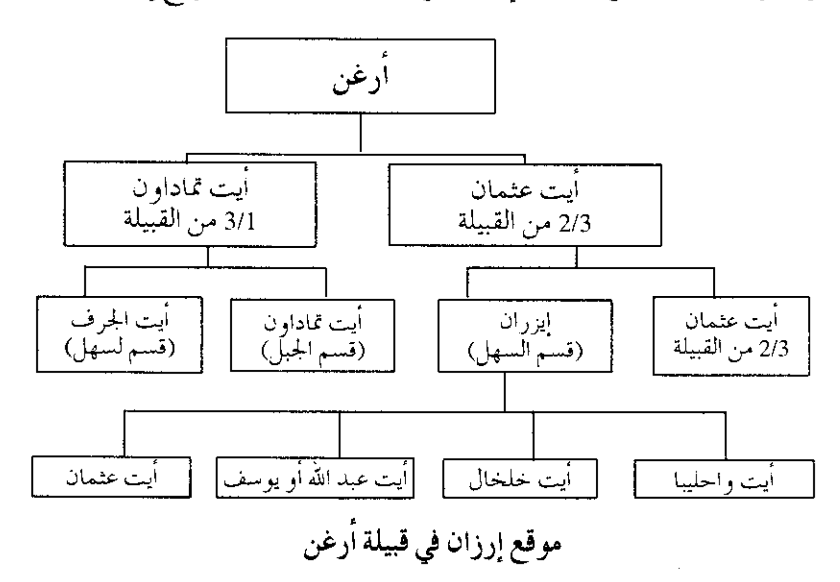
ـ **الغابات**: أشجار الزيتون على خلاف الجبل (أشجار اللوز).. مع غياب تنظيم لهذا المجال: غياب حماة الغابة Forestiers.

ـ **الأسواق**: أهمها سوق الخميس بإيرزان (لحوم، جلود، صوف، زيت الزيتون، زيت أركان، فواكه جافة..)

ـ **الطرق**: يقترح سارتر إنشاء طريق تربط إيرزان بتييوت..

IV. **دراسة مختلف الأقسام (أقسام القبيلة)** Etudes des différentes fractions

ينطلق سارتر في مقارباته السابقة من الجبل في اتجاه السهل، وهو في نزوله هذا، يقارب قبيلة أرغن في مظاهرها المتنوعة، حتى في المجال النَّسبي، حيث يقسّم الأُسَرَ الأرغنية الجبلية والسهلية إلى مجموعات نَسَبيَّة محدّدا موقع إيرزان منها:



موقع إرزان في قبيلة أرغن

تتكون أسر إيرزان - حسب سارتر- من: أيت واحليبا، وأيت خلخال، وأيت عبد الله أويوسف، وأيت عثمان. وهذا تعريف بهذه الأسر:

- أيت عبد الله أويوسف: يعيشون في دوار منفرد ببضع مئات من الأمتار في الجنوب الشرقي لإيرزان.

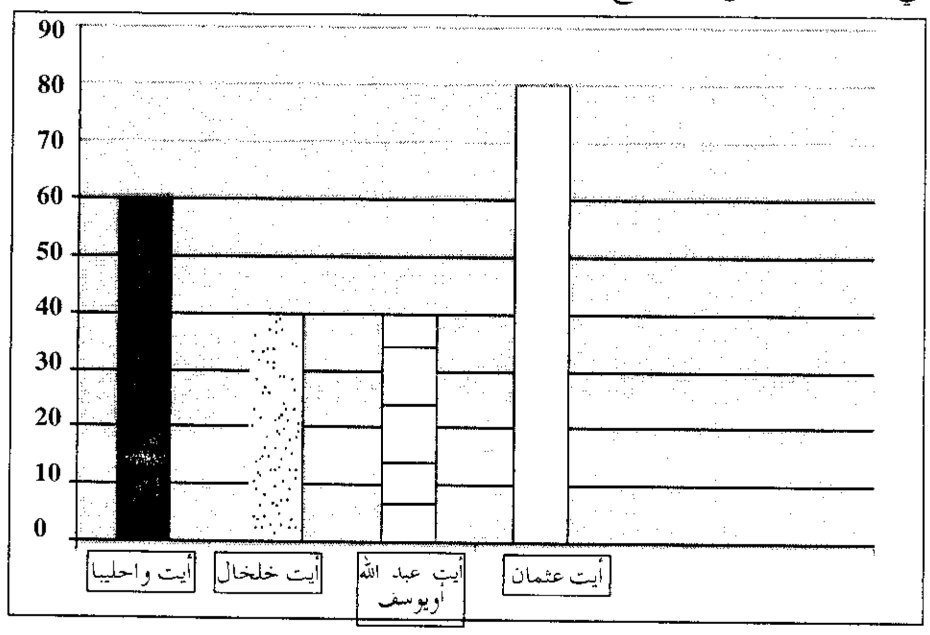
- أيت عثمان: يوجدون بين الدوارين المتقدمين وتناعورت (تسمى أيضا تباينوت) على الضفة اليمنى لوادي سوس قبالة إيرزان. وتمتلك هذه الأسر عزائب في الجبل قرب المجرى السفلي لـ (أسيفْ نْ وَرْغَنْ) وهي:

- **أيت واحليبا**: تاسيلا وأيت واحليبا (عزيب القائد).

- **أيت خلخال**: تاسيلا وأيت وَمُوشْ.

- **أيت عثمان**: أزديم، إِلْكَماضْنْ، أيت بن أحمد، مكريزن، تكَانت، إسَفارن.

وقد كانت هذه العزائب دواوير كبرى، ومن المحتمل أن هذه الأسر استقرت في هذا المكان قبل استرجاع أراضيها السهلية بأولاد يحيى والاستقرار بإيرزان.



خلاصة التقرير:

يعد إيرزان المركز الأكثر أهمية في أرغن وبه سوق الخميس الكثير النشاط، كما يضمّ مدرسة يسيرها السي عبد السلام بن محمد التّملي، ويدرس بها حوالي خمسين طالبا، وكذا زاوية تيمكيدشت، مقدّمها هو السي العربي بن الحنفي، وملاّح يضم ثلاثين كانونا. وتُعَدُّ أسرة أيت واحليبا من الأسر الكبرى، إذ إليها ينتمي قائد القبيلة السي عبد السلام نايْتْ بُوزِّيت. وينحدر أيت واحليبا وأيت خلخال من أصل واحد هو سيدي محند أموسى، الذي ينحدر هو الآخر من مولاي إدريس. وقد نزلت الأسرتان قبل استقرارهما بإيرزان، بدوار إيمولا (وهو أحد الدواوير الدّارسة)، وقد امتزجتا في تكتّل سكاني بإيرزان. يقول بيريو: "وبديهي أنّ اختيار تلك البقعة مشروط أول الأمر بالاعتبارات العسكرية.. بحيث يسيح فيها النظر وتكون منافذها سهلة، بل ينبغي أن يكون لها مساس بالمصالح الجوهرية للقبيلة، وأن يرتبط بها مفتاح الناحية فتكون في قلب منطقة ضرورية للحياة الاقتصادية للقبيلة."(11)

V. ملحق- جدول الزعامات Annexe -tableau de commandement

يجرد سارتر في هذه النقطة الأخيرة، بعضا من أسماء الزعامات في المنطقة من قواد وشيوخ ومقدّمين وإينفلاس (أيت أُرْبْعين). كما يُحصي عدد الكوانين في كل دوار، ويسوق بعض ملحوظاته. يقول: "إيرزان عبارة عن تكتّل سكني مكوّن من عدة دواوير وهي: أيت واحليبا، وأيت خلخال، وأيت عثمان، وأيت عبد الله أُويُوس(12) (أويوسف)". ثم ينتقل إلى وصف حال الطرق بالمنطقة، والموارد المائية وكيفية استفادة السكان منها. ويعرج على أصول السكان ونمط حياتهم وأنشطتهم.. كما يشير إلى بعض المواسم ومنها موسم الطريقة الدرقاوية بإيرزان..

ويُلحظ التعجّل على سارتر في هذه النقطة الأخيرة (جدول الزعامات)

بخلاف النقط السالفة، وإن كان يتبيّن حرصه على مدّ إدارة الحماية بمعلومات دقيقة ومختصرة عن الزعامات السياسية والموارد الطبيعية والطرق والسكان.. وتصنيف ذلك في جداول منظمة، يقول عبد الله العروي: "الواقع أن كتّاب عهد الاستعمار . وأغلبهم فرنسيون، كانوا يميزون دائما ما هو من التاريخ وما هو دونه، ما يعتبرونه مادة تستحق أن تدرس بالطرق المستحدثة الدقيقة، حتى في أبسط جزئياتها، وهي تلك التي تهم الديبلوماسيين والقواد العسكريين والتجار والمعمّرين، لأن نشاط هؤلاء هو الذي خلف تلك الأكوام من الوثائق المحفوظة في خزانات أوربا وعواصم المغرب تحت نظر الإدارة الاستعمارية."(13)

خلاصات:

- كاتب التقرير كان تلميذا وفيا لنصائح أستاذه بيريو حين يقول: "فإنه أمام ميدان يكاد لا يعرف عنه شيئا وساكنة مستقلة يكاد يجهل عنها كل شيء.. فإنه يجمع المعلومات الجغرافية والطوبوغرافية، ويتأكد من صحتها ويتممها من خلال أكثر ما يمكن من الجولات الريادية التي يقودها بنفسه مع فرقه من القوم والمشايعين بحيطة وحذر، ساهرا على توسيع دائرة الجولات شيئا فشيئا، ويشرع في ذات الوقت في الدراسة الإثنوغرافية والإثنولوجية للقبائل المراد اجتذابها.."(14)

- بذل جهدا كبيرا في الاستقصاء والبحث على الرغم من قصر المدة الزمانية لجولته في أرغن.

- متحكّم في موضوع تقريره من حيث المنهاج ودقة الملاحظة وشمولها وحسن الاستنتاج..

- استعان بمصادر كتابية في تقريره إضافة إلى مصادر شفهية في الغالب منها:

- تاريخ ابن خلدون.

- الاستقصا، للناصري.

- La reconnaissance du Maroc, Charles De Foucauld.

- Les Berbères el le makhzen dans le sud du Maroc, R. Montagne.

- استطاع الإحاطة بموضوع تقريره، وقدّم لسلطات الحماية خدمات جليلة في معرفة قبيلة أرغن، وقدّم خدمات أيضا للباحثين في تاريخ المنطقة وكل ما يتعلق بها، إذ وفّر لهم مصدرا موثقا عنها بمختلف مكوناتها ومظاهرها المتنوعة، ولا يمكن لأي باحث في تاريخ سوس عامة، وأرغن خاصة، وإيرزان على الأخص أن يغضّ الطرف عن هذا التقرير وغيره من الكتابات الكولونيالية عن المغرب.

❑ ❑ ❑

هوامش:

1 - حوارات مغربية، كيفين دواير، ص. 27، ترجمة: محمد نجمي ومحمد حبيدة، الدار البيضاء، 2008.

2 - ما زال الأرشيف الفرنسي في نانت وفانسين يحبل بعدد كبير من هذه التقارير والمؤلفات، ولم يترجم منها إلا القليل جدا. ينظر "وثائق عهد الحماية، رصد أولي"، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1996، وكتاب:

Jacques Meunie, le Maroc Saharien des Origines à 1670, 1982.

3 - دراسات في تاريخ المغرب، جرمان عياش، ص. 13، الدار البيضاء، 1986.

4 - عرف أيضا باسمه المستعار Georges Drague.

5 - أدوار ضابط الاستعلامات: 155، ترجمة: إبراهيم بوطالب، مجلة كلية الآداب بالرباط، ع 18/1993.

6 - أستاذة باحثة في الأنثربولوجيا بجامعة Northwestern بالولايات المتحدة، لها دراسات عديدة عن المغرب تنظر على الانترنت. من مؤلفاتها الصادرة حديثا:

We Share Walls: Language, Land and Gender in Berber Morocco, Blackwell Studies in Discourse and Culture, Malden: Blackwell Publishers, 2008

7 ـ عنوان البحث "دراسة سوسيو مجالية لمنطقة إيرزان" أنجز بالاشتراك مع رشيد الصالحي، إشراف: ذ. سليمان أزيكي، السنة الجامعية: 2001-2000.

8 ـ تقع جماعة إيرزان على الضفة اليسرى لوادي سوس على بعد 30 كلم من مدينة تارودانت. وتحدها شرقا جماعة لمهارة وجماعتا إكلي وأولاد عيسى شمالا، وجماعتا توغمرت وسيدي أحمد أوعبد الله جنوبا، بينما تحدها من جهة الغرب جماعتا افريجة وتيوت. مونوغرافية إيرزان: 1، معلمة المغرب: 310\1.

9 ـ يعتمد سارتر صيغة أرزان Arrazen أو Arazen بفتح الهمزة، وينطقها آخرون بكسر الهمزة "إيرزان"، وهي معتمدنا هنا، لأنها تتفق مع الأثل الأمازيغي للكلمة، ومستعملة إلى اليوم في المنطقة.

10 ـ تقرير الكابتان سارتر: 5.

11 ـ أدوار ضابط الاستعلامات: 148.

12 ـ تختلس الياء من "يوسف"، ونلحظ الظاهرة نفسها في نواحي صفرو حيث توجد قبيلة أيت يوس.

13 ـ مجمل تاريخ المغرب: 3/109، الدار البيضاء، 1999.

14 ـ أدوار ضابط الاستعلامات: 147-148.



النظرة النشاز التي رسمها الآخر عن سلا "المدينة المقفلة"

عز المغرب معنينو*

عموما حظيت المدن المراسي المغربية وخاصة التي احتضنت أنشطة الجهاد البحري أو "القرصنة" باهتمام الباحثين الأوربيين لأسباب معروفة، وفي مقدمتها مرسى وادي أبي رقراق لشهرة رياسها القتالية، واتساع مجال تحرك سفنها، وعدم تمكن القوى الإيبيرية من احتلالها مقارنة مع باقي الثغور المغربية الأخرى. ومن خلال ما كتبه الأوربيون عن حقبة "القرصنة" بالمغرب علما بأنها كانت ظاهرة عالمية، نستنتج أن الحيز الذي خصص للعدوتين - وهما حسب الخلط الواقع في أسماء مدن أبي رقراق(1) ببعض المصادر الأوربية وهو تسمية سلا الحالية بسلا القديمة والرباط بسلا الجديدة(2)(Salé le vieux et salé Neuf) - كان أكبر حجما مما كتبوا عن باقي المدن الأخرى، ناعتين سلا القديمة في مصادرهم ووثائقهم بأنها ذات عقلية "مقفلة"، والحياة الحضرية داخل أسوار سلا سرمدية توقف عنها الزمان، وحكم عليها بالجمود الأبدي؟ لكون سكانها من أصول قديمة همجية يميلون إلى الانغلاق على ذاتهم؟ ويكنون العداء للنصارى؟ عكس سكان الضفة الرباطية الأندلسيين الطارئين المتفتحين.

---

* أستاذ باحث، المدرسة العليا للأساتذة بالرباط.

موقع سلا كمرسى نهري ومجاز سهل للعابرين لنهر أبي رقراق أهلها بعيد الفتح الإسلامي للمغرب لتكون قاعدة للجهاد البري ضد المارقين البرغواطيين، ومنطلقا للجيوش المتوجهة بحرا للجهاد ببلاد الأندلس، أهمية جعلت سلا تتعرض لأول غزوة مسيحية دامية في تاريخ المغرب سنة 1260م، احتلال دام حوالي نصف شهر، قتل المهاجمون القشتاليون خلالها الكثير من رجالها، وأسروا نسائها، وأحرقوا ديارها، خراب سلا مسح آثاره المرينيون بإقدامهم على تحريرها بسرعة، وإعادة بنائها وإعمارها[3]. غزوة همجية تركت جرحا غائرا في ذاكرة المدينة. وإبان سقوط الأندلس سنة 1492م وتعرض السواحل المغربية إلى الحصار والاحتلال الإيبيري منذ مطلع ق 15م تمكنت مرسى أبي رقراق بقوتها الذاتية من المحافظة على استقلالها، مما أهل العدوتين بعيد انهيار الدولة السعدية في مطلع القرن 17م، بأن تصبح محطة لرجال التصوف والأولياء الراغبين في الجهاد. وفي غمرة ذلك تندرج تجربة المجاهد العياشي التحريرية[4]، وكذلك التجربة الديلائية[5]، والحركة الجهادية البحرية المدعومة بالمهاجرين الموركسيين[6]، فتحولت سلا في القرن 17م إلى شبه مدينة حدودية تعيش على إيقاع الكر والفر، قبل أن تنساب بهدوء تحت سلطة الدولة العلوية الموحدة للتراب المغربي. فمدينة سلا وإن كانت تبدو ظاهريا كعالم صغير محدود بأسوار تعود إلى قرون غابرة، فإن إشعاعها الديني والتجاري كان ينتشر عبر فضاء بدوي واسع يمتد إلى حدود مكناس والعرائش.

هذا الاصطدام العنيف والمتواصل مع الآخر المسيحي جعل كمية الوثائق والإخباريات القديمة كثيرة ومتنوعة ومتوفرة بمكتبات الأديرة وباقي الأرشيفات الأوربية، إلا أن تعميم اسم سلا على حاضرتي أبي رقراق، جعل اسمها (Salé) في معظم المصادر الأوربية يقترن في حقبة القرصنة بتاريخ الرعب والدماء والعذاب في حق المراكب والأسرى المسيحيين، بداية بشهادة الأب دان[7] المتحدث عن وقائع الجهاد البحري بمصب أبي رقراق منذ تأججه في النصف الأول من القرن 17م،

ورحلة معاناة الأسير مويط Mouette في ركاب المخزن المغربي[8]، ورواية الأديب الأسير الانجليزي روبنسون كروزو، ووصولا إلى دراسات روجي كواندرو[9] وهانري دوكاسترى[10] وجان كايي[11] وبيير دولانك[12] وجان كوستي وكنيت ابراون... وغيرهم، وبطبيعة الحال ما كتبه الآخر يتناقض مع النظرة المثالية الذاتية للمؤرخين السلويين، مثل أحمد الناصري[13] ومحمد بن علي الدكالي[14] وجعفر بن أحمد الناصري.[15]

إلا أن الاهتمام الأوربي بأحوال سلا تقلص نتيجة تدهور أنشطة مرسى أبي رقراق الملاحية قبل وبعد إبطال السلطان مولاي سليمان لسنة الجهاد البحري لأسباب احترازية وعالمية سنة 1817م، الأمر الذي دفع بحريتها وطبجيتها وسكانها إلى الانكماش داخل ابراجها وأسوارها من أجل حماية شواطئها من الغزو العسكري الذي أصبح احتماله جد وارد، خاصة بعد احتلالهم مدينة الجزائر سنة 1830، وميلان ميزان القوة بشكل طافح لفائدة أساطيلهم البخارية المتطورة، والتي ما فتئت تتحين كل فرصة للانتقام من سلا التي ارتبط اسمها تاريخيا بالقرصنة كما أشرنا له سابقا، وذلك إما بمحاصرتها من جهة ساحلها الأطلسي مرارا وتكرارا، أو بقنبلتها مباشرة وبشكل عشوائي وعنيف كما فعلت الأساطيل الفرنسية سنتي 1765م[16] و1851م. وفي المقابل تحولت الضفة الرباطية اليسرى مع بداية انفتاح المراسي المغربية على التجارة الخارجية في عهد السلطان مولاي عبد الرحمان بداية من العقد الثالث من القرن 19م[17] إلى مجال يستقطب أنشطة الاستيراد والوسق مع المراكب الأوربية ومقرا لإقامة التجار الأوربيين وقناصل دولهم، تحول يعزى لعوامل طبيعية تفسر في توحل الضفة السلوية اليمنى بالترسبات الطينية والرملية أكثر منها عوامل بشرية "اختلاف أصول سكان العدوتين مثلا".

كل هؤلاء الوافدين الجدد على الرباط تمكنوا من تدوين أنواع جديدة من النصوص والتقارير المختلفة عن حياة سكان الرباط وأنشطتهم التجارية، دون

الاكتراث بما يقع في الضفة السلوية البئيسة والمعزولة عن أنشطة المرسى الجديدة[18]، والتي تمنع الباحثين والمستكشفين الأوربيين من الاستقرار بها أو حتى التجول بحرية داخل أحياء ودروب المدينة، لرفض سكانها الاختلاط معهم لأسباب نناقشها في هذه الدراسة.

إذن إقفال السلويين لأبواب مدينتهم يمكن إدخاله في إطار ديني كان سائدا آنذاك في العالم الإسلامي، وما سلا إلا نموذج مصغر لذلك الواقع، الاختلاط بالآخر حسب اعتقادهم في ذلك الزمان يفسد الأخلاق ويتيح للمسيحيين المتعصبين الراغبين بقوة السلاح غزو دار الإسلام وإذلال أهلها، ولإبطال ذلك وجب منعهم من كشف عورة أهلهم وديارهم، أو التجسس عن حصونهم ومعرفة مواطن ضعف قدراتهم العسكرية التي أصبحت متجاوزة.

ممانعة صارمة جعلت الباحثين الأوربيين في أخبار المغرب يكتفون باجترار ما كان عالقا في ذاكرة مؤلفيهم القدامى من شوائب وصور مشوهة ونمطية عن السلويين، دونها المساجين المسيحيون أيام أسرهم بالمغرب، والرهبان المتعصبون الذين ما فتئوا عن جهل ينعتون الإسلام والمسلمين بأفحش الألقاب وأحط الأوصاف، وكنموذج عن هذا النوع من الكتابة أذكر مؤلف "إفريقيا" لصاحبه الإسباني مارمول كرفجال[19] كتبه في القرن 16م بعد مقامه كجاسوس بشمال إفريقيا اثنتين وعشرين سنة، تعلم أثناءها العربية والأمازيغية، وأسر خلالها من طرف الشرفاء السعديين، ورغم حقده على الإسلام فمؤلفه لا يخلو من أهمية.

داخل هذا الإطار التاريخي العام تبرز مدينة سلا في كتابات الآخر القديمة كمعقل للتعصب الديني، والغريب في الأمر هو أن هذه النظرة الأحادية ستستمر حية في كتابات الباحثين الأوربيين إلى فترة إعلان الحماية، مقارنة مع ما كتبوه عن مدن ساحلية أخرى كتطوان وطنجة وأصيلا والعرائش والرباط والدار البيضاء والجديدة وآسفي والصويرة، والتي استقر بها عدد من القناصل والتجار والدور

التجارية الأوربية، وأحدثوا بها مراكز للبوسطة أو البريد الأجنبي، كما اشتروا بها العقارات والأراضي الفلاحية المجاورة لها، تطبيقا لما ورد في اتفاقية مؤتمر مدريد 1880م وفي غيرها، باستثناء مدينة سلا التي تملصت من هذه القرارات الدولية التي وافق عليها المخزن تحت الضغط، معتبرة أن مرسى أبي رقراق الجديدة تقع جهة الضفة الرباطية وسلا ليست من ضمن مجالها، وبذلك ظلت مقفلة في وجههم إلى أن تم احتلالها إبان توجه الحملة العسكرية الفرنسية من الدار البيضاء والرباط إلى فاس لفك الحصار على السلطان مولاي عبد الحفيظ أواسط سنة 1911م.

وقد تمكنا من رصد هذه القطيعة العدائية مع الآخر بسهولة في تقارير الدبلوماسيين الفرنسيين في المغرب، فمثلا التقارير القنصلية والمراسلات الديبلوماسية القليلة حول سلا في القرن 19م،والتي عثرنا على بعضها بصعوبة في أرشيف وزارة الشؤون الخارجية بباريس، تبين أن أصحابها اعتمدوا في كتاباتهم إما على الأخبار التي كان يروجها التجار والمخبرون المحليون، أو على ما شاهدوه عيانا أثناء زياراتهم الرسمية القليلة والقصيرة للمدينة. فبعد أن يحدد عامل سلا يوم زيارة أحد تجار أو قناصلة أوروبا للمدينة، تبدأ في الصباح باستقبال رسمي تحت حراسة مشددة، وذلك بعد عبور الضيف لوادي أبي رقراق ونزوله بالضفة السلوية وأثناء تنقل موكب الضيف الأوروبي بين أحياء سلا الهامشية يحاط بكوكبة من الحرس المخزني والمحلي لحمايته من كل إهانة قد يتعرض لها من قبل سكانها، وعند المساء يعود الضيف بسرعة للمبيت بالرباط تفاديا لما قد يتعرض له من اعتداء في جنحة الظلام. وتشير تصريحات قناصلة وسفراء فرنسا المعتمدين بالمغرب بصراحة إلى ذلك، منهم قنصلها بالرباط Doazan الذي ذكر في تقرير رفعه لوزارة الخارجية بباريس[20] عن زيارته الرسمية لسلا بتاريخ 18 دجنبر 1849م، أنه بعد عبوره من الرباط إلى الضفة السلاوية وجد في استقباله خمسة عشر جنديا كلفوا بمرافقته "وحمايتي من متشددي سلا، الذين كما لا يخفى عليكم، يتقززون من

رؤية مسيحي داخل أسوار مدينتهم"[21] نفهم من كلامه أن وزيره في الخارجية كان هو الآخر على معرفة بغلو السلويين حسب وجهة رأيهم، نفس النظرة استمرت حتى بداية القرن 20م، مثلا نجد مبعوث فرنسا ووزيرها المفوض في طنجة د هـ مونبيل De Monbell يصرح في محضر اجتماع عقده مع عامل سلا عبد الله بن سعيد السلوي أيام كان مندوبا مخزنيا بدار النيابة بطنجة سنة 1897م "أنهم يجدون في الكتب أن أهل سلا يكرهون النصارى كثيرا"[22] بل طالب سفير فرنسي آخر هو رينيو Régnault بعزل بنسعيد السلوي من منصبه الدبلوماسي لأنه من المتعصبين المتشددين المعارضين للمصالح الفرنسية بالمغرب[23]، وهذا ما حصل فعلا.

أما التجار والرحالة الأوربيون الذين مروا بمرسى أبي رقراق، فقد واجهوا معارضة عنيفة عند إقدامهم على الدخول إلى مدينة سلا، وأولى هذه الزيارات الجريئة تعود إلى ما بعد نكسة احتلال ثغر الجزائر واندلاع مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري، وذلك لما أقدم التاجر ربي ماريوس Rey Marius على زيارتها رغم علمه المسبق بشراسة سكان سلا أكثر من أهل الرباط حسب تعبيره، فبعدما أقنع عامل سلا بذلك مكنه من إثنتى عشر جنديا سلاحهم السيوف والعصي، وأضاف التاجر ستة من الخدم اليهود، واتفق مع صاموئيل بن دهان الموظف بقنصلية فرنسا بالرباط، ليصاحبه أثناء تجواله بسلا ويحضر له وجبة غذاء داخل ملاحها، ولما أشرف موكبه على بوابة سيدي بوحاجة يقول رايي " احتطت للطوارئ، و أنا على يقين أن لا أحد غيري مستهدف"[24]، لذلك أحاط نفسه بالحراس اليهود ثم بالجنود كدرع بشري، وحين تجاوزوا باب المدينة، فجأة على صوت وهو يصرخ نصراني نصراني، بسرعة أحاط بهم ثلاثمائة أو أربعمائة من الرجال و الأطفال، وعلت النساء السطوح وبدأ الهجوم عليه بإلقاء الأحجار " تصب علينا متتالية من ذات اليمين واليسار... والعصي تلوح مهددة"[25]، وبفضل مجهودات الجنود استطاع ربي الاختباء بداخل ملاح اليهود، إلى حين قدوم قوة مخزنية أخرى أطرته حين عودته إلى الرباط، وسط غضب عارم. عنف لم يستثن حتى سفير انجلترا بالمغرب جون درومندهاي الذي نجا

من الموت بأعجوبة داخل أسوار سلا[26]، لما حل ضيفا على تاجرها قاسم حصار.

حدة مواجهة الزوار الأجانب بالعنف خفت بعدما تعرضت سلا لقصف بحري عنيف كانت الرباط أثناءها في حياد تام سنة 1851م، قنبلة عشوائية كادت أن تدمرها بالكامل لولا ما أبداه سكانها من مقاومة ذاتية زمن القحط والمسغبة، نفذتها البارجة هنري الرابع Henri IV صاحبة المائة مدفع، والفرقاطتان البخاريتان كومير Comer وساني Sané، والطرادة له كاطون Le caton، والزورق السريع نارفال narval، بدءا من العاشرة صباحا يوم 26 نوفمبر إلى أن غربت الشمس بساعة[27].

رغم كل ذلك بقيت أبواب سلا مقفلة في وجه إمكانية تجول النصارى بحرية داخلها، و بالأحرى الاستقرار بين سكانها، وتؤكد لنا ذلك تقارير الرحالة الأوربيين الذين زاروا العدوتين في مطلع القرن العشرين، اخترنا كنماذج منها رحلة A.Brives المنقب الجيولوجي بالمغرب، يقول عرضا "... في الضفة الأخرى توجد المدينة المقدسة سلا... المتعصبة التي لا يمكن لأي أوربي أن يتجول بها دون أن يتعرض إلى الأذى ... ومتى تجرأ الأوربيون وحاولوا التوغل داخل المدينة، فإنهم يعرضون أنفسهم للقذف ولسوء المعاملة"[28]، ونفس الرأي عبر عنه Edmond Doutté أثناء زيارته للعدوتين سنة 1901م، مضمنه أن سلا من أكثر المدن المغربية تعصبا وحقدا على المسيحي "... والوحيدة على الساحل ذات الأهمية، التي لم تطأها أقدام الكفار (الأوربيين) ... إذ لا وجود لأي أوربي بها... فهي تنزوي بشكل رائع داخل محيطها المتعصب..."[29]. وبذلك تكون سلا آخر مدينة مغربية ساحلية تفتح في وجه الأوروبيين. أما المستشرق G.Salmon فقد أرجع تميز سلا بطابع ديني متعصب ومغالاة في التعبد إلى كثرة عدد الصلحاء والأولياء والزوايا بداخل أسوارها وخارجها[30]، وتعمق اكثر في هذا الرأي L.mercier متشككا فيما قد يعتقده البعض من تواجد تلاحم وانسجام في العقلية الدينية بمنطقة العدوتين وأحوازها[31]، محاولا التفريق بين تدين العوام والأعيان داخل المدينة من جهة،

واختلاف الإسلام الحضري عن القروي من جهة أخرى، رغبة في عزل المدينة عن محيطها القروي لأنه يسندها عند الحاجة ضد أي خطر خارجي. أما المستكشف الفرنسي م.مونتي الذي كان قادما من مهدية إلى الرباط في خريف 1900م، وجد نفسه صدفة بصحبة المخزني المرافق له وبدون سابق إنذار في وسط مدينة سلا، رغم أنه كان يتحاشى الدخول إليها والاقتصار على المرور بمحاذاة أسوارها إلى المجاز، لما سمعه عن تعصب سكانها، وصف أزقتها بأنها متسخة ومتشعبة كالمتاهة، وأن من يسألهم عن مخارج المدينة يدلونه على اتجاهات خاطئة "أما استقبال الأهالي لنا، فلم يتسم بالعنف الذي تصورناه، أجل، لقد شتمنا البعض ولكن بصوت منخفض، كما أن مجموعة من الأطفال بصقوا لما اقتربنا منهم ليعبروا عن مدى تقززهم من رؤيتنا..."[32]. وفي سنة 1906م وصف الباحثان Daniel Sourin et Albert[33] Cousin سكان سلا بالتعصب والهمجية.

مواقف أحادية النظرة وأحكام جاهزة ترمي إلى فرض إيديولوجية معينة بالقوة، من أجل الهيمنة والسيطرة، تفتقد إلى وثائق للقياس والاستنتاج، ففي نفس الفترة التاريخية وبالضبط قبيل بداية الحماية، تطلعنا رسائل دبلوماسية متنوعة، عثرنا على العشرات منها مبعثرة ما بين وثائق الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، الفرنسية منها تكشف عن أطماع فرنسا الاستعمارية من خلال أسلوب الخطاب الآمر المستفز والمتعجرف لممثلها بالرباط **LERICHE** مع عامل سلا وقاضيها وأعيانها، بسبب مواقفهم الرافضة لكل تدخل في شؤون مدينتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وفي تزامن مع ذلك وبسبب رهان السلويين على مواقف القادة الألمان المساندة لبقاء المغرب دولة مستقلة[34]، نجد مراسلات قنصل ألمانيا بالرباط **ENDORFER** مع بعض أعيان سلا، تعبر عن مدى الصداقة والترحيب الذي كان يلقاه داخل المجتمع السلوي، والضيافات والنزهات التي أقيمت على شرف عائلته وأصدقائه من التجار، بغض النظر عن كونهم مسيحيي الديانة، وهذا يتناقض مع ذكر أن السلوي يعتبر المسيحي عدوا بسبب اختلافه الديني !

بعد احتلال الحملة العسكرية الفرنسية لمدينة سلا سنة 1911م،[35] أبدى ممثلو فرنسا بالرباط رغبة ملحة في التعرف على أبناء المؤرخ أحمد الناصري السلوي المحتضنين لخزانته الخاصة، وقام القنصل الفرنسي Graulle بترجمة القسم الأول من مؤلف الاستقصا إلى اللغة العربية، وترجم القسم الثاني منه المستشرق Colin، بغرض ملء الفراغ الوثائقي الحاصل عندهم حول مدينة سلا. ومباشرة بعد عقد الحماية سنة 1912م، طلب رئيس قسم الاستعلامات الفرنسية والمكلف بأشغال مدينة سلا وأحوازها رسميا من عاملها الصبيحي بأن يبذل كل جهوده للمساعدة على معرفة حقيقة أصل سلا وتاريخ بدايتها واسم مؤسسها واسم القبائل التي استوطنتها أو بنت فيها، والتعريف بكل حومة بها وباسم القبيلة التي تقطن بها وبصنائعهم ... الخ[36]، وبالفعل مورست ضغوط على ممثلي المخزن المحلي بسلا وعلى كبار أعيانها من أجل التعاون مع الباحثين الفرنسيين في هذا المجال، واعتقد أن المعلومات التي يكون العامل والناظر والمحتسب وقواد القبائل المجاورة للمدينة وغيرهم، زودوا بها إدارة الاستعلامات الفرنسية بالرباط، هي التي شكلت أرضية وثائقية اعتمد عليها في ما نشر عن سلا وأحوازها الممتدة إلى مهدية، في سلسلة مدن وقبائل المغرب "Villes et Tribus du Maroc"[37]، وللإشارة فإن منظر هذه السلسلة ميشو بلير Michaux - Billaire بعد أن تظاهر باعتناقه الإسلام فضل السكن بالقرب من المسجد الأعظم بسلا لبضعة سنوات كباحث في خبايا المجتمع السلوي والمغربي عامة، وذكر أن سلا من المدن المغلقة في وجه الأوربيين وأن السلاطين لا يقيمون بها، وأصول سكانها قديمة تنحدر من أصول متعاقبة حسب تقادم التاريخ ويتشبثون كثيرا باستقلاليتهم. وقدمت تلك الدراسة معطيات جغرافية عن موقع سلا وأسوارها وأبوابها وأبراجها، وإحصائيات اقتصادية مدققة عن مداخيل أحباس المدينة الكبرى والصغرى، باعتبارها العصب الرئيسي المتحكم في كل أنشطتها الدينية والاجتماعية والاقتصادية، وأخرى تخص مساحات الأراضي الفلاحية حسب نوعية تربتها ومنتوجها ومدى انتشارها عبر قبائل عامر وحصين وبني

احسن والسهول، وكذا أشكال هياكلها العقارية وحدودها وعدد رؤوس الماشية ونوعها ومدا خيل أسواقها الأسبوعية، وبعدها تناولت بشكل سطحي طبيعة الحركة الثقافية داخل المدينة، مع ذكر أسماء مساجدها البالغة أكثر من ستين، والتعريف بأهم زواياها وأضرحتها وكتاتيبها القرآنية، وأسماء المدرسين بها والقيمين عليها، وتواريخ مواسمها ومدى إشعاعها الديني داخل الوسط السلوي وفي البوادي المجاورة لها، مع الإشارة إلى الحالة المزرية التي أصبحت عليها سقايات وشبكة قنوات الماء التي تزود المدينة بالمياه الجارية، وفي الأخير أشارت إلى شرائح المجتمع السلوي وأهم العائلات الفاعلة بداخله، ونشرت هذه الدراسة سنة 1918م[38]، وهي تدخل في إطار خدمة الاتجاه الكلونيالي وليس التعريف بمدينة سلا التي ظلت في فترة حكم المقيم العام الفرنسي الجينرال اليوطي وما بعده، كمتحف تاريخي يمثل المغرب القديم أمام ما أحدثه من معمار عصري بالعاصمة الجديدة الرباط.

وفي أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات من القرن 20م، كلف المراقب المدني لمدينة سلا كوستي من طرف الإقامة العامة الفرنسية بإنجاز دراسة اجتماعية معمقة حول المجتمع السلوي عنوانها "les grandes familles indigènes de Salé"[39]، نظرا لما بدأت تشهده سلا من حركة ثقافية وطنية مناهضة لأشكال الاحتلال، تتمثل في إنشاء المدارس الحرة و تكوين الجمعيات الخيرية والثقافية وعلى رأسها جمعية المحافظة على القرآن، والنادي الأدبي السلوي الذي أشرف على تقديم عدة مسرحيات حماسية وندوات شعرية وفكرية، ومحاولة تأسيس صحافة محلية وغير ذلك.

يمكن اعتبار مؤلف جان كوستي Jean Couste أول دراسة أجنبية ميدانية شكلت سلا موضوعها الوحيد، ولجمع الوثائق المحلية اللازمة لذلك اضطر المؤلف إلى ممارسة سياسة كلها لطف ومودة لطمأنة الأسر السلوية وكسب ثقتها، ثم استدراجها لتفتح أبواب منازلها، وتكشف له عن ما في حوزتها من ظهائر وعقود

وكنانيش وأخبار عن أصولها وأنسابها وتآريخ آبائها وأجدادها قبل وبعد أن استوطنوا مدينة سلا، وقد استعان كوستي في جمع مادته وتنظيمها ببعض المثقفين السلويين المخضرمين من آل الصبيحي والناصري، وعلى ترجمانه بالبلدية الجزائري الأصل بلقاسم بن العربي عشاش، الذي أشرف على تعريب تلك الدراسة تحت عنوان "بيوتات مدينة سلا"[40]، دون تصحيح الأخطاء الأدبية والتاريخية الواردة في النسخة الفرنسية، والظاهر أن كوستي وجد معارضة من قبل بعض المثقفين المحافظين بسلا، لذلك لم يتمكن من تغطية أخبار بعض البيوتات السلوية الشهيرة، وأصيب بخيبة أمل عبر عنها في خاتمة دراسته "... لقد أمكنني أن أقتنع من خلال علاقتي بهذا العنصر (السلوي) الذي يبدو عليه الانغلاق والتعجرف واللامبالاة، إنه بعيد عن أن يكون غير شاعر بعملنا وعنائنا"[41]، غير أن المؤلف استدرك الموقف وعبر عن أمله وأمل فرنسا في الجيل الجديد من الشبيبة السلوية، خريجي مدارس أبناء الأعيان "... اليقظين أن يساعدونا بكفاياتهم وإرشاداتهم ... بتقدير دورنا وحضارتنا... إلى الفوز بودهم وقلوبهم"[42]، لكن الأحداث والمظاهرات الوطنية الصاخبة التي شهدتها سلا انطلاقا من صيف سنة 1930م ضد الظهير البربري وما بعده، أثبتت العكس لأنه شارك فيها تلاميذ من خريجي مدرسة الأعيان منهم عبد اللطيف الصبيحي ومحمد حصار وعبد الرحيم بوعبيد وقاسم الزهيري وسعيد حجي وغيرهم...

بعد استعراضنا للإشكاليات التاريخية المطروحة في التعامل مع الوثائق والدراسات الأجنبية المتضمنة لتاريخ سلا إما جزئيا ضمن تاريخ الرباط، أو كليا كدراسة جان كوستي، ننتقل إلى فترة عهد الاستقلال لتقديم أعمال الباحث الأنجلو سكسوني كنيت براون المرتبطة أيديولوجيا بما كتبته الحركة الاستشراقية عن المدينة العربية الإسلامية عموما، والتي بدت متأثرة إلى حد بعيد بالمفاهيم والنظم التي تحكم المدينة الغربية، وانتهت في معظم استنتاجاتها إلى نتائج مخالفة للواقع، ولتصحيح

تلك النتائج والاقتراب أكثر من الصورة الحقيقية، عادت للبحث في خصوصيات ومعالم المدن العربية العتيقة بعدما فشل الاستعمار في تطويعها ودمجها وفق معايير ومقاييس تستجيب لمنطقه الحضاري[43].

اختيرت مدينة سلا كنموذج متميز بين باقي المدن التقليدية بالمغرب وشمال أفريقيا، لخصوصياتها النابضة برتابة الحياة الأصيلة، واختزانها لظواهر ثقافية ودينية وعمرانية واجتماعية لم تتأثر كثيرا بالحقبة الاستعمارية الفرنسية، واختير الأمريكي براون المتخصص في الانتربولوجيا لإجراء قراءة تحليلية لمدينة سلا العتيقة، وفق مناهج ومقاربات تختلف عن الأفكار الكولونيالية الجاهزة، وقد أكد ابراون في استجواب صحافي انه تأثر قبل بداية بحثه بأساتذته المتخصصين في عالم الاستشراف مثل فان غرونوباوم، وأنه كان مدفوعا من قبل المدرسة الفرنسية ممثلة في جاك بيرك وفانسان مونتي "لأزور المغرب، ولأن أختار سلا بالتحديد"[44]، وأنه وجه إليها لتحضير موضوع دراسته سنة 1965م، أي بعد فترة زمنية قصيرة من مناقشة دراستي محمد حجي "الزاوية الدلائية" ومحمد الناصري حول تطور المجال الحضري بمدينة سلا[45] بالجامعة الفرنسية.

تعلم الأمريكي ابراون اللغة العربية وخصوصيات الدارجة السلوية، مكنه من تكسير الحواجز النفسية والاجتماعية التي تعيق كل باحث أجنبي في التواصل والحوار المباشر مع مثقفي وشيوخ المدينة، مما مكنه من معاينة داخل بيوتهم وثائق ومخطوطات محلية في حوزة أسرهم، قبل أن تهتدي الأسرة الصبيحية السلوية مشكورة إلى جمع شتاتها داخل مكتبة أسستها سنة 1967م من مالها الخاص، وأوصى صاحب هذا المشروع الثقافي أن يدفن بداخلها.

بحس نقدي ناقش ابراون ما كتبه المؤرخون السلويون، وعالج بموضوعية ما توصل إليه من نصوص محلية، دون إغفال وثائق الطائفة اليهودية السلوية التي كانت تشكل حوالي 10% من ساكنة المدينة، وبمنهجية أنثروبولوجية حاول الإجابة

عن العلاقات بين البنيات والمتغيرات التي مست المجتمع السلوي على امتداد حوالي قرن من الزمن) (1830م - 1930م)[46]، وقد خلص ابراون إلى أن المجتمع السلوي يصنع في كل حقبة مجموعته الحضرية ذات مكونات متعارضة أو متحالفة، وتتحرك عموما حول أشخاص أقوياء.

وأذكر في الأخير مؤلف صدر بالفرنسية في حلة أنيقة وورق مصقول وصور ملونة تحت عنوان "Salé cite millénaire"[47] أسهم في كتابته نخبة من الأساتذة أذكر منهم محمد حجي وابراهيم حركات وقاسم الزهيري وأبو بكر القادري وإسماعيل العلوي وعمر أفا وعبد الله لعوينة وغيرهم، محاولين التعريف بجمالية المدينة لدى المحافل السياحية والتراثية العالمية، بغية إنقاذ المدينة العتيقة من الخراب الذي بات يتهددها.

مقاربة ببليوغرافية تحاول تسلط الضوء على خلفيات النظرة النشاز التي رسمها الآخر على سلا، بكونها مدينة "خاملة متخلفة ومتعصبة..."، لكن الوثائق المخزنية والمحلية تدحض ذلك بقوة، وتؤكد بأن أهل سلا عملوا على التكيف مع الأزمة الهيكلية التي مست كل الشرائح الاجتماعية بالمدينة، خاصة بعد نهاية القرصنة التي عاشت على إيقاعها أربعة قرون بقنبلة عنيفة سنة 1851م، أدخلت المدينة في أزمة عمرانية نتيجة تهدم وتصدع العديد من مبانيها، وعسكرية بسبب تحطم أبراجها وأسوارها المقابلة للمحيط الأطلسي، إضافة إلى تأزمها اجتماعيا وتجاريا نتيجة تدفق المنتوجات الأوربية الرخيصة عبر مرسى الرباط التي استأثرا بكل أنشطتها. لكن الهزيمة لا تعني الاستسلام بل بداية مرحلة جديدة تقتضي التكيف مع الظروف الطارئة المفروضة على العدوتين والمغرب عموما، وخلق قاعدة ثقافية وسياسية مؤهلة للتغيير وطرح البديل لتجاوز هذه الكبوة المحورية، وذلك بالانخراط في الواقع الجديد، وبالفعل شكلت العائلات المنحدرة من كبار رياس البحر والمجاهدين والعلماء والقضاة والتجار وأصحاب النسب الشريف

نخبة ساكنة سلا الجديدة ونواتها الصلبة، تجمعهم صلات القرابة والتلمذة والجوار والمصلحة المشتركة، لذلك اندمجوا بسرعة في سلك الوظائف المخزنية الجديدة، وهــذا ما يفسر لنا ازدياد أعداد ومكانة أعيان سلا داخل الجهاز المخزني خاصة في النصف الثاني من القرن 19م، بشغلهم لمهام جديدة كأمناء وكتاب وعدول بالمراسي، واحتلالهم للوظائف السامية عمالا وقضاة ونوابا بالدار البيضاء وفاس وطنجة، وتوجههم سفراء للسلطان لدى حكومات الدول الأوروبية "محمد بنسعيد وإدريس الجعيدي" كما برز علماؤها بشكل ملفت للنظر في مجال التدريس والفتوى "الجريري وبنخضراء والحاج علي عواد" وضمن رجال الإصلاح والنصيحة داخل دواليب الدولة، بأفكارهم الجديدة ومؤلفاتهم القيمة ومشاريعهم الدستورية "عبد الله بنسعيد والحاج علي زنيبر" وتميز حرفيوها بمهارة في الصنعة وخبرة في الفلاحة، وشكل تجارها شبكات تجارية واسعة تجاوزت حدود المغرب، وبعث سكانها بأولادهم وشبابهم في بعثات مخزنية إلى المدارس والمعاهد الأوروبية قصد دراسة العلوم واللغات والصنائع الحديثة، وتعلم استخدام الأسلحة المتطور وانتقاء واستيراد أجودها، وفي عهد الحماية ورغم التهميش عبر شبابها إلى العاصمة السياسية الجديدة الرباط من أجل الدراسة في المدارس والمعاهد العصرية، وارتياد الخزانة العامة والملكية، وحضور الملتقيات والمعارض العلمية والأندية الأدبية، ومحاكاة التجديد الذي أحدثته إدارة الحماية في ميدان الثقافة والصحافة،وللتذكير فقط أشير إلى تأسيس مطبعة صغيرة بسلا أصدرت جريدة "المغرب"... الخ وبعد الاستقلال وعقب تأسيس أول جامعة مغربية بالرباط أصبح هؤلاء الشباب من روادها الأوائل وأطرها العليا وباحثيها المجددين، وفي الميدان السياسي تبوؤوا مناصب قيادية داخل كل الأحزاب الوطنية "الحاج أحمد معنينو وأبو بكر القادري وإسماعيل العلوي"، والنقابات العمالية، وزراء وأطر عليا بالحكومات المشكلة بالمغرب "عبد الرحيم بوعبيد وعبد الله الصبيحي والمهدي بن عبود" وهنا نطرح سؤالا عريضا وهو كيف تمكنت هذه المدينة بحجمها المتواضع من أن تلعب دورا

رياديا داخل حركة النضال الوطني ضد الاستعمار؟[48]

ليس غريبا يقول المؤرخ عبد الله العروي وغيره، أن يكون دعاة الأفكار الجديدة في مغرب القرن 19م من المدن الساحلية الأطلسية، لأنها اصطدمت قبل غيرها بمؤسسات وأفكار أوروبية جديدة. وأختم دراستي هذه بما أكده المؤرخ السلوي المرحوم محمد زنيبر "المحافظة لم تكن تعني بالنسبة لأهل سلا الانغلاق والانطواء، بل كانوا منتبهين لما يجري حواليهم، واعين بالأخطار التي تتربص بمدينتهم وبلادهم، مساهمين بقوة في البحث عن الإصلاح والتطور، والمحافظة كما نرى تأخذ معنى إيجابيا لأنها كانت تعني الدفاع عن النفس، والغيرة على الوجود الذاتي، لأن التاريخ عرض أهلها ولزمن طويل لعدة صدمات"[49].

❑ ❑ ❑

هوامش

1 - زنيبر محمد، "خلط في الأسماء ووحدة في الروح والهدف" الندوة العلمية حول الرباط وسلا الجزء الأول. ص 45 سنة 1994م.

2 - Rocard. R et Caillé. J. Héspéris 3ème et 4ème trimestre 1947.

3 - بحيث أعادوا تحصينها بالأسوار وإعمارها بسكان جدد من حلفائهم الزناتين ذوي الخبرة الحربية والزراعية، وجلب عدد من التجار وأصحاب الحرف لتنشيط التجارة بمرسى الوادي لقربها من فاس والمعلمين المهرة من الأندلس وغيرها، لبناء دار الصناعة البحرية والمدرسة والمارستان والكثير من الزوايا والأضرحة، وتزويدها بالعلماء الأكفاء لتسييرها والتدريس بها، فبلغت بذلك سلا درجة عالية في العمران والحضارة كما وصفها ابن الخطيب في "معيار الاختيار..."، ص152، لكن تدهور الدولة المرينية وما حل بالأندلس من ضعف انعكس سلبا على أنشطة سلا.

4 - الشاذلي عبد اللطيف، "الحركة العياشية حلقة من تاريخ المغرب في القرن 17 م" منشورات كلية الاداب بالرباط رقم 19 . 1995م.

5 - حجي محمد، "الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي"، الرباط 1964م.

6 - إميلي حسن، "الجهاد البحري بمصب أبي رقراق خلال القرن 17م" مرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط د.د.ع سنة 1989م.

7 - Le père Dan : Histoire de Barbarie et ses corsaires " 2éme édition imprimerie et librairie du Roi au plais - Paris 1649.

8 - رحلة الاسير مويط ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، وزارة الثقافة المغربية - الريصاني 1990.

9- Roger COINDREAU : " les corsaires de salé " publication de l'institut de haute études marocaines - Paris 1948.

10 - Henri de castries " le maroc d'autrefois : les corsaire de Salé ". مؤلف مستنسخ من الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 3378.

11 - Jacques caille : "charles jegexchmidt charge d'affaires de France au maroc (1820-1894). Paris.

12 - Pierre deloncle " le bombardement de salé par dubourdieu en 1851 in la revue maritime 1923 P. 64- 84 et 220-238.

13 - "الاستقصا، لأخبار المغرب الأقصى" دار الكتاب الدار البيضاء تحقيق ولدي المؤلف طبعة 1954 م.

14 - "الإتحاف الوجيز، تاريخ العدوتين" تحقيق مصطفى بوشعراء، الخزانة العلمية الصبيحية بسلا طبعة 1996م.

15 - "سلا ورباط الفتح وأسطولهما وقرصنتهما الجهادية"، تحقيق أحمد الناصري (من ستة أجزاء) مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سنة 2006.

16 - Aouchar Amina, la bombardement de Salé et de Larache de juin 1765, Revue Maroc Europe n° 11. 1997/78, pp.171-192

17 - الزاكي سعاد "ميناء العدوتين ما بين 1822- 1856" د.د.ع مرقونة بخزانة كلية الآداب سنة 1998م.

18 - Jacques Caille : la ville de Rabat jusqu'au protectorat, français Paris 1949 / " la petite histoire de Rabat "Casa S.D.

19 - ترجمه إلى العربية محمد حجي ومحمد زنيبر ومحمد الأخضر واحمد توفيق وأحمد بنجلون مطبعة المعارف، 1984، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر بالرباط.

20 - Archives du Ministère des Affaires Etrangères, Paris (Ar.A.E.F).

- Correspondances consulaires et commerciales. Rabat, Tome I de 1846 à 1872.

1- N° 18 - 24 Jules Doazan le 3 novembre 1849.

21 - N° 56 - 59 " le 18 décembre 1849 ".

3 - N° 101-104 August Beumier le 14 Février 1854.

22 - بوشعراء مصطفى "التعريف ببني سعيد السلاويين ونبذة عن وثائقهم"، ج 1 ص 100 خ. العلمية الصبيحية بسلا طبعة 1991م.

23 - "التعريف ببني سعيد..." م.س ج 1 ص 244 بتاريخ 24 أكتوبر 1908 كرد فعل عن فرضه كنائب جديد على الكباص من لدن مولاي عبد الحفيظ.

24 - " Souvenirs d'un voyage au Maroc " طبع بباريز 1944م ، تعريب علوي أحمد العلوي جريدة الاتحاد الاشتراكي العدد 19409، الخميس 10 يوليوز 2003م ص 5 ، استطاع شراء عدة كنطرادات وعرف عند المخزن بكذبه وغشه وتحايله عن تأدية الرسوم الجمركية.

25 - نفسه " ذكريات عن رحلة إلى المغرب ".

26 - ابن جلون عبد المجيد، "جولات في مغرب الأمس بعيد الحماية"، ص.28. طبعة 1975م الدار البيضاء.

27 - انظر تفاصيل هذه القنبلة في أطروحة معنينو عز المغرب "مدينة سلا ما بين نهاية القرصنة وبداية الحماية - من القصف إلى الاحتلال - 1851- 1912م. مرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط، ص 79- 112 سنة 2004م.

28 - Voyage au Maroc (1901-1907), Alger 1909 TP19, 27.

29 - E. Doutte. En tribus, Paris 1914. pp. 405-406.

30 - G. Salmon : Noyes sur Salé Archives Marocaines 1905, T3 PP 320- 325.

31- L. Mercier : Notes sur la mentalité religieuse dans la région de Rabat - Salé, Archives Marocaines (A.M).

32 - يوميات مجلة "le tour du monde" الأسبوعية سنة 1903م محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس، ترجمها سعيد عاهد ونشرها بجريد الاتحاد الاشتراكي عدد 7033 في 12 نوفمبر 2002م.

33 - Annuaire du Maroc 2ème année 1906.

34- أظهرت الوثائق التاريخية أن ألمانيا لم تكن جادة في دعم السلويين أو المغاربة عامة، المعارضين

للاحتلال الفرنسي حبا في بقاء المغرب دولة مستقلة، بقدر ما كانت تستغل حماسهم المفرط واندفاعهم المتهور للضغط على فرنسا لتتنازل لها على قسط من مستعمراتها، فمنذ أزمة أكادير العالمية دخلت الدولتين في مفاوضات سرية توجت باتفاقية 4 نونبر 1911م، تنازلت فيه ألمانيا عن حقوقها بالمغرب مقابل حصولها على منطقة شاسعة في أرض الكونغو الإفريقي.

35 - عقد مجلسا لأعيان سلا ذكر فيه بأن الحماية الألمانية هي أكثر ملاءمة لمصلحة المغاربة، ثم أرسل ملتمسا إلى قنصل ألمانيا بالدار البيضاء، يؤكد فيه لحكومة برلين بأن سكان سلا هم رهن إشارة ألمانيا وينتظرون مجيء الألمان بفارغ الصبر، خبر ورد في النص الفرنسي لمؤلف جان كوستي، لكنه محذوف في النص العربي للترجمان أعشاش، أنظر نص هذه الوثيقة السلوية في "ذكريات ومذكرات" الحاج أحمد معنينو الجزء 8 ص 175.

36 - خ.ع.ص. بسلا رقم :2525 مح 18 س I " أ " بتاريخ 29 جمادى الأولى 1331هـ/6 ماي 1913م.

37 - سلسلة مدن وقبائل المغرب تتكون من 11 جزءا، أربعة منها تخص الرباط وضواحيه نشرت سنة 1918م.

38 - M.S du Maroc : Villes et tribus du Maroc Rabat et sa région. Tome1 Ch. III Salé pp. 193 - 240 . et Ch IV Banlieue de salé. pp. 241 - 267.

39 - أشرفت على نشره بالمطبعة الرسمية بالرباط الإقامة العامة الفرنسة بالمغرب سنة 1931م.

40 - سنة 1344هـ/1925م كما جاء في الصفحة 76 من المخطوط، وأهداه بالمناسبة إلى باشا سلا محمد الصبيحي، ولم يتم طبعه من طرف خ.ع.ص. بسلا إلا في سنة 1987م، محققا من طرف نجاة المريني.

41 - خاتمة النسخة الفرنسية ص.71.، توجد نسخة منها ب.خ.ع. الرباط تحت رقم، A40 .3333

42 - نفسها.

43 - R.le Tourneau. Fès avant le protectorat. Casa 1947. les villes musulmanes de l Afrique du Nord. Alger 1957.

44 - جريدة " الاتحاد الاشتراكي" العدد 5753 .ص.5. بتاريخ 12 ماي 1999م حاوره حسن نجمي - لحسن العسبي.

45 - Naciri. M : Salé de géographie urbaine R.G.M. n°3 et 4, 1963.

46 - Kennet Brown "people of Salé, tradition and change in Morocco city 1830-

1930" Manchester, pp. 1976.

47 - Edition ECLAT, Rabat 1997, collection trésor d'une ville.

48 - العربي الواحي "سلا في عهد الحماية" د.د.ع تحت إشراف المؤرخ عبد الله العروي، مرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط.

49 - مؤلف الأستاذ أبو بكر القادري - دراسات وشهادات - يوم دراسي نظمته جريدة العلم "نقلة من شجرة" ص. 103 سنة 1974م.

❑ ❑ ❑

الحماية وانعكاساتها

حصيلة فترة الحماية: التباسات ومفارقات

محمد العربي المساري*

كان المبرر العلني لفرض نظام الحماية على المغرب، هو العمل على نقله من نظامه العتيق إلى وضع دولة عصرية ذات هياكل تؤهله للتعامل مع المجتمع الدولي بأدوات وهياكل معاصرة. وعبر الانتقال من وضع إلى وضع تم إخضاع المغرب إلى عملية تحديث قسري. ومن جراء ذلك، وبالرغم من أن الوضع القانوني الذي فرضته معاهدة 1912، كان شكليا يحفظ للمغرب شخصيته الدولية، فقد آل الأمر، كما تم تطبيقه في أرض الواقع، إلى نظام استعماري ينطوي على عناصر تحفز على رفضه جملة وتفصيلا. وهذا المصير هو ما جر إليه طول تخبط المغرب وعجزه عن إصلاح أحواله بوسائله الذاتية، لمدة عدة عقود.

ورغم أن ذلك النظام قد أتاح الاحتكاك مع الثقافة العصرية، فإن بعض المزايا التي جلبها ذلك الاحتكاك، لم تكن من طبيعة المشروع الاستعماري في جوهره، بل كانت بمثابة أعراض جانبية. ولهذا تمت مواجهة ذلك المشروع، بمشروع مضاد هو المشروع الوطني للنهضة، كما حدث في جل الأقطار المستعمرة، وهو مشروع هدف منذ بداية نشأته إلى تصفية النظام الاستعماري، وإقامة الدولة الوطنية العصرية بأدوات مغربية. وهكذا كان هناك تعارض بالكامل بين المشروعين.

* أستاذ باحث، صحفي.

إيجابيات الحماية تنطوي في صلبها على سلبياتها

هناك وثيقة وطنية مغربية تتضمن أحكاما لها قيمتها الرمزية، ترجع إلى سنة 1934، هي "دفتر مطالب الشعب المغربي"، سجلت في ديباجتها أن نظام الحماية انطوى فعلا على منافع، ولكنها منافع لم تستهدف المعنيين بعقد الحماية وهم المغاربة. وصورت تلك الوثيقة الوضع في البلاد بعد 22 سنة من 1912، فلخصت الوضع في أن أكبر السلبيات تمثلت في فرض إدارة مباشرة، كانت موجهة لخدمة المستوطنين الفرنسيين بوجه أساسي.

ولم يفت محرري "الدفتر" أن يسجلوا أن مبرر عقد الحماية هو "مساعدة الحكومة المغربية قصد إدخال الإصلاحات الإدارية والمالية والعسكرية التي تحتاج إليها" وهو ما ورد في الاتفاقية الفرنسية الألمانية بتاريخ 1911/11/4. كما أن المقيم العام الأول، الماريشال ليوطي، أكد لدى مثوله لأول مرة أمام السلطان مولاي عبد الحفيظ: "أنا مطوق قبل كل شيء بمهمة مساعدته (السلطان) لتثبيت سلطته ووضع النظام". وكرر نفس التأكيدات أمام خلفه م. يوسف، حيث دعا السلطان إلى أن يكون واثقا من "المساعدة التي أصبحت حكومة الجمهورية عازمة على بذلها لكم من أجل بسط السلام في مملكتكم وتنمية خيراتها وترقية أنظمتها".

وبعد التذكير بهذه المبادئ أشار "الدفتر" إلى أن المغرب "خطا خطى واسعة في سبيل تجهيزه تجهيزا عصريا، بتخطيط الطرق ومد السكك الحديدية، وتشييد البنايات الإدارية" ولم يفت محرريه أن يشيروا أيضا إلى أن "فائدة هذا التجهيز عادت بالأخص على الاستعمار وعلى الشركات الرأسمالية، في الوقت الذي لم يستفد منه أبناء البلاد إلا بطريق غير مباشر". وأضافوا إلى ما سبق أن "اتباع الإدارة لسياسة الامتيازات العنصرية هو الذي جعلها تهمل وسائل ترقيتهم (سكان البلاد) في الوقت الذي تكفل فيه للنزالة الأوربية كل وسائل الراحة والسعادة".

وفي فقرة سابقة استشهد "الدفتر" بفقيه فرنسي في القانون الدولي حلل

سياسة "الحمايات" وفسر أن الصبغة الاستغلالية لفائدة الدولة الحامية شيء منتظر، "ولا تبلغ البساطة بالإنسان إلى اعتقاد الإخلاص الطاهر في الأعمال، ولكن المهم هو أن تعرف (الإدارة) هل ليس في إمكان الإنسان أن يفيد غيره في حالة خدمته لنفسه".

وهذه الإشارة المحملة بالسخرية، توجه الفكر إلى جانب عملي هو أن "مساعدة" المغرب على التحديث لم تكن قط عملا خيريا. خصوصا إذا ما أخذنا في الاعتبار أن كلا من فرنسا وإسبانيا حصلتا في الخوزيرات على تفويض لتقديم تلك "المساعدة" ومضتا في حماس لتقديمها مصحوبة بأعمال عسكرية كما تطلب ذلك منهما بذل نفقات باهظة.

ولنقفز الآن إلى أربعة عقود بعد معاهدة فاس لكي نرى كيف قام الساهرون على نظام الحماية بتقديم تصوراتهم بشأن حصيلة تلك التجربة. وسنرجع بالذات إلى نصوص ترجع إلى فترة نهاية الحماية، لنطلع على "الحساب الختامي". ولنستمع إلى الصوت الحي لفاعلين يتحدثان بلهجة مشبعة بعاطفة قوية نابعة من تعلق الصانع بالإنتاج الذي صنعه. وسنرى كيف ظل هؤلاء يدافعون عن العمل الذي قامت به الحماية حتى في فترة إسدال الستار.

لنتطلع إذن إلى الحصيلة كما رصدها الآخر. وبالذات من لدن جنرالات احتكوا في المغرب أساسا بجنودهم. ودافعوا عن الحفاظ على المستعمرات، متنبئين بانهيار فرنسا حينما تحرم من مقومات عظمتها.

هكذا تكلم دولاتور

لنستمع أولا إلى أطروحة عرضها الجنرال بوايي دولاتور، المقيم العام قبل الأخير لفرنسا، في كتابه بعنوان "حقائق حول شمال إفريقيا" الذي نشره في يونيو 1956، أي في وقت قريب جدا من إنهاء نظام الحماية. فهي رؤية مشبعة بغبار

معركة كانت تكاد تضع أوزارها. أي يتعلق الأمر بأفكار الربع ساعة الأخير لجسد ينتفض في سرير موته.

وهو يتحسر متسائلا: لماذا ينصرف عنا سكان المستعمرات اليوم، وهم الذين أضمروا لنا الولاء منذ عهد طويل. ويطرح ذلك التساؤل وكأنه يفاجأ بالإعراض الذي يشكو منه، وكأن فرنسا لم تصنع شيئا لخلق عوامل ذلك الإعراض. وهذا أعمق تعبير عن شديد الاقتناع بأن ما صنعته فرنسا كان يجب أن يقبل كلية كشيء حميد. ومن المفيد أن نستمع إلى وجهة نظر من هذا القبيل، لها منطقها الخاص.

وقال في الفصل الأول: في خريف حياتي أشعر بالفزع إذ أجدني أتساءل عما إذا كانت حياتي كلها التي أنفقتها في خدمة بلادي قد كانت بلا جدوى. فمن بين 42 سنة في الخدمة بالجيش قضيت 24 سنة منها في شمال إفريقيا التي عملت فيها منذ 1916، ولم أغادرها إلا لسنتين قضيتهما في الأكاديمية، ولثلاث سنوات في الجيش المرابط بالميطروبول. ويقول في حرارة: لقد أحببت السكان الأصليين بقدر ما أحببت مواطني. ولم يشب ذلك شعور بالتعالي العنصري، بل إني أكن لهم الكثير من العطف، وخصوصا للمغاربة.

يجب أن نصدق تلك العاطفة الجياشة، وهاهو الرجل يشرح مصدر مشاعره قائلا: لقد أنقذ هؤلاء حياتي ثلاث مرات، ودائما كانوا يعرضون حياتهم للخطر، وهم يسحبونني من الموقع وأنا جريح، تحت وابل من رصاص العدو. ففي سنة 1933 أثناء معركة في منطقة جبلية، (لعلها في جبال الأطلس) كانت تجرى ليلا، وكان القتال فيها شديدا جسدا لجسد، ارتمى على كابورال من رجال الكوم، وهو أب لستة أطفال، ليقيني من الرصاص الموجه إلي، فأصيب هو بقذيفة قاتلة، وأنقذني واهبا حياته هو. (الصفحة XII من حقائق).

وهكذا تكلم فرانكو

ويماثل هذا ما قام به عسكري آخر من إسبانيا هو الجنرال فرانكو. فقد أفضى لقريبه فرانكو سالغدو أراووجو مؤلف كتاب "محادثاتي الخاصة مع فرانكو" بتصريحات مماثلة لما دونه دولاتور عبر فيها المتحدث عن حنينه الكبير لجنوده المغاربة الذين احتك بهم بدوره في معارك التطويع، التي سميت في الأدبيات الاستعمارية بحرب التهدئة أو حرب فرض "السلام"، واحتك بهم كذلك في المعارك التي جرت في أسبانيا نفسها أثناء الحرب الأهلية من 36 إلى 39.

وإلى جانب البطولة الفردية، يتعرض دولاتور إلى تجربة جماعية، فيذكر أنه أثناء الهدنة الفرنسية الألمانية، وحلول لجنة مراقبة ألمانية في المغرب، قام بطمر آلاف القطع من سلاح المدفعية في منطقة أزيلال، وشارك في ذلك العمل سكان المنطقة الذين قاموا بشق مسلك في وسط الغابة للمساعدة على نقل العتاد، ثم قاموا بعد نهاية العملية بطمس معالم المسلك، وتم بذلك إخفاء أطنان من الأسلحة عن أعين الألمان، وكل هذا بدون أن يتم إفشاء السر.

فقدان شمال إفريقيا بداية انهيار الإمبراطورية

يعبر دولاتور من جهة أخرى بمرارة عن خيبته في فشل بلاده في الاحتفاظ بشمال إفريقيا، ليس فقط بسبب انصراف أهل تلك البلاد عن فرنسا، بل لدواع أخرى يفصل فيها القول، وفي طليعتها، التسرع في منحهم الاستقلال. ويبين أنه يتقبل طبعا أن تستقل تلك البلدان عن فرنسا يوما ما، ولكن ذلك كان يجب أن يقع بعد أن يحصل التطور اللازم. ويقول: "إني أؤيد التطور ولكن ليس تجاوز قوانين الطبيعة، التي تفرض أن يكون التطور بطيئا ومترزنا، نظرا للطبيعة الفوضوية للسكان. ولابد أن يكون التطور باتفاق معنا وأن يشتمل على "إصلاحات اقتصادية واجتماعية ثم سياسية".

كتب هذا الكلام بعد أن قضي الأمر وقررت فرنسا أن تقبل مطالب الوطنيين وتتخلى عن وجودها الاستعماري في كل من المغرب وتونس. وهو يشير بطبيعة الحال إلى "إصلاحات" من قبيل ما كان سلفه الماريشال جوان يقترحها على محمد الخامس. ومعلوم أن تلك "الإصلاحات" لم تكن تسير بالذات في طريق "التطور" البطيء والمتزن، بل كانت تجنح إلى منحى آخر معاكس، هو جر المغرب إلى الاندماج في الاتحاد الفرنسي، وذلك عبر تخويل المستوطنين الفرنسيين حق تقاسم القرار السياسي مع سكان البلاد، وليس إلى تطور مترزن نحو ممارسة هؤلاء لحقوقهم المشروعة في تسيير بلادهم. ومعلوم أن رفض تلك الإصلاحات هو الذي أدى إلى المواجهة التي انتهت بنفي محمد الخامس، ثم إلى اقتناع أصحاب القرار في فرنسا بخطئهم واتجاههم إلى إنهاء الأزمة الفرنسية المغربية باتفاق 2 مارس 1956. بمعنى أن "التطور" الذي يشير إليه دولاتور هو ليس شيئا آخر سوى استمرار النظام الاستعماري.

وقد تطابقت هذه الحجج مع تلك التي عبر عنها نظيره الإسباني الجنرال فرانكو الذي حذر في تلك الفترة تقريبا (تصريحات فرانكو في ديسمبر 1955) من أن المغاربة لا يصلح لهم نظام الأحزاب على الطريقة الغربية، لأنهم قوم يفكون خلافاتهم بالسلاح، وسينتج عن النظام الحزبي الذي يراد إقامته في المغرب إغراقه في الفوضى. وهو أمر يلتقي فيه مع دولاتور الذي قال (حقائق، ص 16) إن ميل المغاربة إلى الفوضى يجعل من الضروري إشعارهم بوجود قوة يمكن أن تستعمل لكي يرتدعوا. ومعنى هذا أن الحل لا يكمن في "التطور" الذي هو ميئوس منه، بل في وجود سيطرة دائمة تضمن ردع النزوع الفطري إلى الفوضى المتأصل في طبيعتهم.

ولنستمع إلى فرانكو كيف عرض وجهة نظره بهذا الصدد. (محاثاتي، ص 199 و201 و221): "أنا أناصر استقلال المغرب. لكن هذا الاستقلال يجب أن يتم

على مراحل. خطوة خطوة، وبلا تسرع. وهذا أفضل بالنسبة للمستقبل ولتطور الأوضاع في البلاد. وفي ظرف 25 سنة يكون البلد قد تهيأ، بموارد بشرية ووسائل كافية لملء كل المرافق بإدارة كاملة الاستقلال، وبلا حاجة إلى تدخل أمم أخرى". (قال هذا يوم 6 يناير 1956). "رأيت على أوجه الجميع، الرسميين والعسكريين، أنهم مندهشون للسرعة التي تم بها نيل المغرب لاستقلاله. من أجل القيام بواجبنا الدولي قامت إسبانيا بغزو المغرب شبرا شبرا، وبذل الجيش الإسباني تضحيات كبيرة، وروى تلك الأرض بدم جنوده، وأنفقنا آلاف الملايين. يحضر ذاكرتي وكذا ذاكرات أغلب من حضروا هناك من العسكريين، ذكريات أعمالنا هناك المشفوعة بعاطفة قوية، إذ رأينا العديد من رفاقنا ماتوا هناك دفاعا عن تلك الأرض". (محادثة يوم 7 أبريل 1956).

نقاش فرنسي فرنسي

في الحالتين الفرنسية والإسبانية، يهيمن على الجنرالات هذا الشعور بالمفاجأة لسرعة فوز المغرب بمبتغاه، وكذلك شعورهم القوي بالفقد إذ يرون في ما حدث نقصا من عظمة لا تكتمل إلا بامتلاك مستعمرات. ويحمل الجنرال دولاتور بشدة على "السياسيين" و"المتنورين من الانهزاميين". ويذكر بالاسم فرانسوا مورياك الكاتب الكاثوليكي الشهير الذي تزعم الحملة على السياسة القمعية لبلده في المغرب. وقال دولاتور عن المعارضين إنهم "يجهلون أن التسوية الجيدة أو السيئة لمسألة شمال إفريقيا، عليها يتوقف مصير الإمبراطورية. فإذا خسرنا شمال إفريقيا، ستسقط الإمبراطورية كلها، وستجد فرنسا نفسها فريسة الفوضى والبطالة والبؤس. وستدخل بلادنا في مرحلة الانحطاط، ولن يحول شيء دون السقوط النهائي".

ويسخر مما يروجه "الحالمون" أي الداعون إلى التفاهم مع الوطنيين. وينسب إليهم قولهم إن الأمر لا يتعلق بالتخلي عن أقاليمنا فيما وراء البحار، بل بمنح تلك

الأقاليم الاستقلال لتتمكن من تطوير شخصيتها، وحينذاك ستصبح صديقة لفرنسا ثم نمضي بصحبتها في إخاء تام يدا في يد نحو مستقبل زاهر. ويقول إن كثيرا من الكلمات الليبيرالية تروج وما أقل الأعمال. وفي مكان آخر يستنكر ميل بعض الأحزاب الفرنسية إلى استعمال أهالي المستعمرات كما لو كانوا فئران تجارب.

عظمة فرنسا تصنعها المستعمرات

وهو يعتبر أن مركز فرنسا بين الأمم نابع من امتلاكها للمستعمرات. وبمجرد فقدانها سينقض عليها السوفييت. بل إن حلفاء أمس (الولايات المتحدة وإنكلترا) متحفزون للمزاحمة. وغدا حينما تفقد فرنسا المستعمرات ستصبح في حجم إسبانيا والبرتغال، وهذا شيء متناقض مع مزاج الفرنسيين. وفرنسا إذا كانت قوة دولية فبفضل المستعمرات التي تمتلكها. (حقائق، ص 18) ويحذر من الشيوعيين، (الفرنسيين طبعا) ويقول دولاتور إن هؤلاء لا ينتمون إلى اليمين ولا إلى اليسار بل دائما إلى الشرق، أي حيث مصلحة الاتحاد السوفييتي.

وتعتريه تخوفات متنوعة من جراء ضياع شمال إفريقيا، بادئا بالجانب الاقتصادي فيقول: "إن 33% من صادراتنا موجهة إلى فرنسا ما وراء البحار. (أنظر إلى هذه التسمية الدالة على نفي وجود الأقطار المستعمرة التي هي مجرد امتداد لفرنسا فيما وراء البحر). وهذا سينتج عنه توقيف صادراتنا وتعريض واحد من بين كل ثلاثة من عمالنا إلى البطالة".

ويستحضر في هذا المقام حجة يقول بها الفرنسيون غير المقتنعين بتحليله، الذين يقولون إن هولندا اليوم هي أكثر ازدهارا مما كانت عليه أيام كانت لها مستعمرات في الهند الشرقية. ويقول إن هذه الحجة فاسدة، لأن البنيات في فرنسا مختلفة عنها في هولندا. إذ كان عدد الهولنديين في المستعمرات ضئيلا، وهو عكس حالة الفرنسيين الذين لا يقل عددهم في شمال إفريقيا عن مليوني نسمة، وهم

موجودون هناك منذ أجيال.

ويقول إن ترك شمال إفريقيا يعني التخلي عن هؤلاء، وتركهم في حالة أسوأ من تلك التي ترك عليها الكنديون في زمن لويس 15. لكن الوضع مختلف الآن، ففي حالة كندا كان يتطلب نقل التعزيزات العسكرية عدة شهور، أما الآن فإن المسافة مع الجزائر تقطع في أربع ساعات بالطائرة، وفي البحر يتطلب الأمر ما بين 36 و40 ساعة. فهل سنستسلم ونتخلى عن مواطنينا في الوقت الذي تظهر ثروات تحتضنها الصحراء؟ لا أتخيل أن فرنسا ستقترف جريمة من هذا القبيل.

المغرب لا مستقبل له في غير الاتحاد الفرنسي

وسواء في كتابه المنشور في يونيو 56، أو في تقريره الشهير الذي تركه للجنرال غيوم في خريف سنة 1951، ينطلق دولاتور من مسلمات لا تتزعزع، مفادها أن مصير المغرب وفرنسا لا انفصام له. وهذه جملة من المقولات التي تكون "عقيدته".

إن المغرب بلد غربي مثل فرنسا، جغرافيا وعرقيا. (حقائق، ص 14) والوطنية الضيقة كما يومن بها حزب الاستقلال قد أصبحت متجاوزة، لأن العالم أصبح أكثر ترابطا. وإن مغربا معزولا (في نظره هو المغرب غير التابع لفرنسا) ومرتبطا بالجامعة العربية هو العبث بعينه. (ص 14).

ويجب أن نسبق حزب الاستقلال (ورد هذا في تقريره لسنة 1951) بأن نبدأ في تطبيق الإصلاحات. وفي نفس الوقت يجب أن نحارب هذا الحزب بقوة. لأنه حزب شمولي، ويجب أن يعامل على هذا الأساس. والهدف هو أن ننزع منه الثقة الشعبية. ولبلوغ ذلك يجب أن نتخلص من الخوف من الكلمات. يجب ألا تكون لنا عقدة بشأن العمل الذي قامت به فرنسا في المغرب. (ص 39) إن طموحهم الأناني لم تعد له شرعية، وليس جديرا بالاحترام على عكس طموحنا نحن. إن

"تبعية" المغرب لهي أكبر حيوية بالنسبة لنا مما هو الاستقلال بالنسبة لهم. إن الوطنية الضيقة مضادة لروابط الأمم التي يتم الآن إرساؤها. (هذا في تقريره لسنة 1951) والمغرب ينتمي من الآن إلى مجموعة الأمم المنضوية في الاتحاد الفرنسي. وآن الأوان لنطالب بأن يتم الإعراب عن هذا الانتماء في كل مناسبة (ص 40).

إن هناك أحزابا وطنية هدفها وبرنامجها المعلن هو إزاحتنا من المغرب. ومن المؤكد أن الرجال الذين يسيرونها أصبحوا محترفين للسياسة. ويجب أن نبحث عن أرضية للتفاهم معهم. ولكن نيتهم السيئة ورغبتهم المستمرة في التحطيم المنهجي وطابعهم الشمولي وأساليب عملهم تجعل ذلك التفاهم منعدما. ولربما كان حزب الشورى والاستقلال أقل تعصبا، وأقل انغلاقا، وله حجج أكثر عقلانية من رؤساء حزب الاستقلال، لكن جميع الأحزاب قد اتحدت الآن في الجبهة الوطنية، وهو أمر مشكوك في حقيقته، ولكنه لا يعدم أهمية.

الدولة المركزية والوحدة من صنع فرنسا

وأخيرا يلوذ دولاتور بالحجة الأقوى، وهي الثمار المادية الملموسة لعمل فرنسا في المغرب. والسمة الأولى لذلك العمل هو إقرار السلام في المغرب، وهو كما ذكر فرانكو كلف دماء وأموالا. ويقول في ص26 إن الإدارة الفرنسية هي التي صنعت الدولة المركزية ووحدة البلاد. ولأول مرة وقع ضبط المالية العمومية. وأنشئت بيروقراطيا لمواجهة المهام المطروحة.

وبالمناسبة يشرح أن الإدارة المباشرة نشأت لأنه حينما كان ليوطي بصدد إقامة نواة للإدارة العصرية لم يكن له أن يستعين بأحد آخر غير الخبراء والمساعدين الفرنسيين لإقامة نظام الدولة العصرية وإخراج المغرب من نظامه العتيق.

إن السلام كان مصحوبا بالأطباء الذين أرسلناهم، والمستشفيات التي أقمناها، وكل ذلك كانت له عاقبة ملموسة، وهي أن الموت قد تراجع. ونتج عن

ذلك حدوث طفرة ديموغرافية هائلة، ففي تونس يزداد كل سنة 80 ألف نسمة. وفي الجزائر 250 ألف نسمة في السنة. وكذلك هو الحال في المغرب. وبذلك تضاعف ثلاث مرات عدد السكان في نصف قرن. وبهذا أصبح هناك فائض كبير وبطالة، وهذه مشكلة لم تعالج في وقتها. كان يجب أن تطبق إصلاحات. وكان ذلك ضروريا. ولكن كان يجب أن نقدم على ذلك بدون أن يظهر علينا الضعف.

وهذا التأكيد الأخير ينم عن طبيعة "الإصلاحات" التي يذهب إليها ذهن دولاتور. أي تلك الظهائر التي رفض محمد الخامس توقيعها، رغم ما أبداه الفرنسيون من عزم على تطبيقها "بدون أن يظهر عليهم الضعف".

ويقول إن المغرب يتطلب إصلاحات تخلصه من العادات البائدة للديانة الإسلامية مثل أملاك الأوقاف، ومدونة الأحوال الشخصية فيما يخص المرأة، وإصلاح البلديات ونظام القواد. ويذكر مرارا أن الجهالة والتعصب هما اللذان يصنعان الكراهية لفرنسا وهذه هي الزاد اليومي للوطنيين.

مما تقدم يمكن أن نستكنه خلاصة لعمل دولتي الحماية في المغرب من 1912 إلى 1956 وهي خلاصة مستمدة من الجرد الذي قام به الحماة أنفسهم. فمن جهة نقف على الحصيلة كما سجلوها، ومن جهة أخرى نقف على أن الإيجابيات التي أتى بها نظام الحماية لم تكن هي الغرض من إقامة ذلك النظام. وأهم ما حدث هو الاحتكاك بالتقدم المادي وتمثله بكيفية ملائمة لما تصوره المغاربة لخلق مغرب عصري يحل محل المغرب المتأخر الذي سقط فريسة الاستعمار.

ومن هذه المراجعة نقف على أنه لم يكن للمغاربة بد من مقاومة نظام الحماية جملة وتفصيلا، لأن صانعيه كانوا مقتنعين تمام الاقتناع بأنه نظام يجب أن يتأبد. ولهذا لم يكن ممكنا الإقرار بشيء إيجابي فيه.

وعلى هدي ما تقدم يمكن أن نقول إن تقييم الحصيلة الإجمالية لفترة الحماية موضوع تكتنفه التباسات عديدة. ويمكن أن نختم على سبيل التلخيص، بأن نظام

الحماية إذا لم يكن شرا كله، فلأنه ـ بلغة توينبي ـ كان يعني طرح التحدي. وبالتالي خلق الفرصة لإبراز الاستجابة. التحدي كان هو المشروع الاستعماري والاستجابة كانت هي المشروع الوطني النهضوي.

❒ ❒ ❒

التعليم الاستعماري في المغرب
والتباس "الوضعية الاستعمارية"

عثمان أشقرا*

مدخل:

الاستعمار تاريخيا وعالميا هو واقعة مرتبطة أساسا بتوسع الاستغلال الاقتصادي الرأسمالي وحاجته إلى مزيد من الأسواق والمواد الخامة. هذه هي الأطروحة الرائجة في التحليل والمقاربة. لكن ما هي الآثار النفسية "السيكولوجية" والثقافية "الفكرية" للتغلغل الاستعماري في صميم نسيج الفرد المستعمَر والمجتمع المستعمَر؟

هنا نسجت "الوضعية الاستعمارية" (وهذا مفهوم سوسيولوجي خالص) شبكة امتداداتها السلبية التي قلبت بنيات الذات الفردية والجماعية للمستعمَر، وولّدت ردود الفعل الدفاعية متمحورة حول إشكالية "الهوية" كأفق فكري استراتيجي لحركة التحرر الوطني المنطلقة والظافرة. والواقع أن هذه إشكالية ملتبسة التباس مفهوم الاستعمار ذاته. فما روّج له الخطاب الوطني في المغرب ـ مثلا ـ هو أطروحة الاقتلاع الجذري لأسس الهوية الوطنية المغربية المخطط لها استعماريا وضرورة التصدي لهذه السياسة "الخبيثة" وكسرها باسم المحافظة على "هوية" مغربية مفترضة ومجددة. وهذا هو مضمون السلفية الجديدة التي هي إيديولوجية

* أستاذ باحث، المدرسة العليا للأساتذة، مارتيل، تطوان.

الحركة الوطنية المغربية[1]. لكن السلفية (قديمة أو جديدة) هي توفر ملجأ احتمائيا تعويضيا للذات المستعمَرة التي تعيش دراميا التباس الوضعية الاستعمارية التي هي - وعلى عكس ما هو شائع - لا تقتلع الفرد المستعمَر من "أصله" المفترض ولكن تعمل بمنطق زيادة انشداده إليه. ولعل نظام التعليم الاستعماري في المغرب هو أكثر ما تتجسد فيه هذه الواقعة المفارقة: إبقاء الفرد المستعمَر حبيس بنيات ماضيه وحاضره وسد آفاق التحديث (أي التحرر الحقيقي) أمام فكره ووجدانه. وفي تقديرنا أن السلفية الحديدة - قاعدة الحركة الوطنية الفكرية - لم تتجاوز هذه الواقعة الملتبسة ولكن فقط قلبتها واستغلتها لمصلحتها السياسية المباشرة. وفيما يلي فحص لهذه الأطروحة من داخل تحليل موجز للتعليم الاستعماري بالمغرب.

المبحث الأول: التعليم في منطقة الحماية الفرنسية:

نبرز في هذا الصدد تاريخين يمكن اعتبارهما حاسمين: 1920 و1944/1945، مع الإشارة إلى أن مسألة التعليم طرحت منذ بدء الحماية الرسمية للمغرب، وجعل منها ليوطي - أول مقيم عام و"مهندس" سياسة الحماية ككل - أحد انشغالاته الرئيسية.

وهكذا تتالت من 1912 إلى 1920 المبادرات والإنجازات التالية:

- إنشاء **المدرسة العليا للغة العربية واللهجات الأمازيغية** من أجل تكوين موظفين مترجمين (1912)
- وضع ونشر **"القواعد الأساسية للتعليم الأهلي"** (1915).
- تأسيس ثانويتين إسلاميتين (1916): **كوليج مولاي إدريس بفاس و كوليج مولاي يوسف بالرباط.**
- تحديد **أشكال وشروط الحصول على شهادات ودبلومات التعليم الثانوي الأساسي** (1919).

والواقع أن هذه مبادرات بالرغم من أهميتها، فهي كانت تتم بشكل ينقصه عنصر الاندماج ضمن تصور (أو مشروع) واضح، ومحدد، للمسألة التعليمية المطروحة آنذاك ككل.

وهذا هو الأمر الذي سيتم ـ بمعنى من المعاني ـ تجاوزه مع مطلع العشرينات حيث ستبرز، بالخصوص، كتابات "تنظّر"، إلى هذا الحد أو ذاك، للمسألة التعليمية وكيفية طرحها بال "المحمية" المغربية.

وفي هذا الصدد تبرز كتابات جورج هاردي وبول مارتي.

فالأول (G.Hardy) ولاّه ليوطي منصب مدير التعليم العمومي بالمغرب (وهو ما يوازي منصب وزير)، وكانت له آراء وأفكار محددة ومبلورة حول "المسألة التعليمية بالمغرب" (وهذا هو عنوان محاضرة ألقاها في عام 1920)[2].

ففي هذه المحاضرة يركز هاردي، ومنذ البدء، على أن في المغرب مشكل تعليمي قائم عبّر عنه كالتالي: "هناك، إذن، أيها السادة، مشكل تعليمي مغربي مثلما أن هناك مشكل سياسي ومشكل اقتصادي ومشكل عسكري... مشكل له معطياته الخاصة الشديدة الاختلاف مع تلك التي نصادفها في فرنسا، أو في مستعمرات فرنسية أخرى، وبالتالي يلزم أن يحل بكيفية خاصة جدا". "وبعد أن يبرز المحاضر أهمية ودور التعليم في تحقيق ما سماه بـ "الغزو الروحي" ـ والذي لا يقل أهمية عن الغزو العسكري... بل إن لم يكن يفوقه ـ فهو (أي المحاضر) قد حرص على انتقاد سياسة التمثل Assimilation المطبقة في مجال التعليم كالتالي: "إن هذه السياسة هي يوتوبيا مثيرة للشفقة، يبقى تأثيرها دائما على مستوى السطح، وتقدم من المخاطر أكثر مما تقدم من المنافع".

والواقع أن سياسة "التمثل" (أو "الإدماج") هذه، واتجاه الحماية الفرنسية بالمغرب، عموما، نحو سياسة "الإدارة المباشرة" ـ كانا دوما موضع انتقاد من طرف المقيم العام ليوطي نفسه[3]. ويقينا، فهذا الانتقاد هو ما نجد له صدى في محاضرة هاردي، سواء على مستوى إطارها ومنطلقها "النظريين" أو على مستوى

خطة الإنجاز والتطبيق:

المستوى الأول: "... هذه، إذن، هي الحدود التي من داخلها نطرح المشكل المغربي العام: منح الأهالي الوسائل الضرورية لاستمرار عيشهم في شروط العالم الجديد، تطوير نشاطهم [الاقتصادي] وتزويده بصيغ وأدوات تزيد من مردوديته مع الحرص على بقاء أفكارهم [العتيقة]، واستمرار عاداتهم [التقليدية]: أي إنجاز التطوير بدون اقتلاع الجذور أو التسبب في الاغتراب عن الذات، ونترك لدى الأهالي الانطباع بأننا نريد ما فيه خيرهم بنفس القدر الذي نسعى لما فيه مصلحتنا".

المستوى الثاني: "إننا نريد تعليم الأهالي من أجل خوض الصراع الاقتصادي بدون أن نقتلعهم من جذورهم. وعليه، سنبدأ بفرض المنهج التطبيقي الصارم على هذا التعليم. وسيكون هدفه الأساسي هو تعلم مهنة أو تجديد نشاط محلي. ومن أجل ألا يشوش كل هذا على الحياة الاجتماعية القائمة فيلزم ألا نبعد التلميذ عن وسطه الأصلي: سيتعلم في عين المكان، ولن نطلب منه غير النتيجة التي كان من الممكن إعطاؤها بدوننا ـ ولكن بشكل أوفر وأجود. وهكذا سنكون مدفوعين للتمييز ما بين تعليم موجه للنخبة وآخر شعبي: الأول يهم "أرستقراطية" لها عموما موروث تعليمي، وتمتلك عادات رقيقة ومهذبة، ولكنها توقفت عن النمو بسبب هيمنة فكر متحجر ـ بل وصارت مهددة في وجودها المادي من جراء المنافسة الاقتصادية الجديدة التي لا تعير هذه "الأرستقراطية" لأساليبها المتطورة أدنى اهتمام. وعليه فالتعليم التطبيقي المقترح من لدننا سيكون بالنسبة لهذه النخبة عبارة عن تزويدها بالأساليب الحديثة للإدارة والتجارة التي هي المهن التقليدية للأعيان المغاربة.

التعليم الثاني "الشعبي" الموجه لجمهور فقير وجاهل سيختلف "في أنماطه وأطواره" حسب الوسط الاقتصادي القائم:

في المدن: توجيه التلاميذ نحو المهن اليدوية الجديدة (البناء)، والصناعات التقليدية المهمة جدا واللازم إنعاشها.

في البوادي: توجيه التلاميذ نحو الفلاحة والغراسة وتربية الماشية.

في الشواطئ: توجيه التلاميذ نحو الملاحة والصيد.

إجمالا، فتمدرس هؤلاء الأطفال لا يلزم أن يجعلهم مبتعدين عن الانشغالات المهنية التقليدية لعائلاتهم. فالتعليم الملقن سيجعلهم فقط يحسّنون وسائل الإنتاج وأساليبه. صحيح أن التعليم التطبيقي، لكي تزداد مردوديته، يلزم إرفاقه بتعليم عام يساعد على التفتح الذهني لشباب البلد.. ولكن هذا يلزم أن يتم من داخل استمرار العلاقة الحميمة مع الوسط الأهلي.. أي التفتح بدون اقتلاع للجذور ولا اغتراب...

... إن همنا الأساسي هو ألا يتخرج من المدارس الأهلية تلاميذ صالحين لكل شيء وغير صالحين لأي شيء. فعند تخرجه سيجد التلميذ فورا الوظيفة التي تناسبه. ولن يكون واحدا من هؤلاء "العلماء" الزائفين الذين هم بلا جذور، والعاجزين عن بذل أدنى مجهود نافع، والممتلئين بالادعاءات، والذين - في مستعمرات فرنسية معينة - يبرهنون على أن تعليم الأهالي يمكن أن يتحول إلى أداة لخلق الاضطراب الاجتماعي"

أما بول مارتي فقد شغل منصب كوليج مولاي إدريس بفاس، فكان بهذه الصفة ليس فقط مشاركا رئيسيا في وضع الأفكار أعلاه موضع التطبيق، ولكنه ساهم - كتابة - في صياغتها وتدقيقها والتنظير لها. وفي هذا الصدد نشر سنة 1925 كتابا عنونه بـ **"مغرب الغد"**[4] ضمنه مجموعة من الأبحاث التي تدور مواضيعها حول التربية والتعليم والشبيبة المغربية آنذاك. وهذه هي عناوينها:

- جامعة القرويين.
- ثانوية مولاي إدريس الإسلامية.
- التعليم الابتدائي والمهني للأهالي في المغرب.
- الشبيبة المثقفة الجديدة بالمغرب.

ـ المشكل البربري والحماية.

ـ مجتمع فاس.

وعموما، فمضامين هذه الأبحاث (التي هي فصول الكتاب) لم تخرج عما يمكن اعتباره أطروحات مركزية للسياسة التعليمية الفرنسية الاستعمارية بالمغرب:[5]

ـ افتراض وجود "أصل" (=نموذج / مثال) ثقافي مغربي من الضروري اعتباره.

ـ المحافظة على بنيات الوضع القائم مع إعادة إنتاجه وفق منظور تحسّني وتحسيني.

وهذه هي الأطروحات التي يمكن القول أنها حددت عمل النظام التعليمي المغربي على امتداد سنوات العشرينات والثلاثينات وحتى مطلع الاربعينات بالشكل الذي تكشف عنه ـ على الأقل ـ واقعتان:

الأولى: تعميق النزعة البربرية (=التعليم الفرنسي ـ البربري: نموذج مدرسة / كوليج أزرو)

الثانية: وهي تتحدد من خلال معطيين: ضعف النمو الكمي للأطفال المغاربة المدرسين (=معطى أول)، وحصر تعليمهم في مستويات ابتدائية وثانوية (معطى ثان).

المعطى الأول يؤكده ما يلي: في سنة 1925 كان عدد التلاميذ المغاربة [المسلمين]، بالضبط، هو5945. ولن يكونوا سنة 1939 سوى 25706 من أصل مليون و300 ألف طفل في سن التمدرس (نسبة 2%)[6].

أما المعطى الثاني فيؤكده ما يلي: "الدبلومات الممنوحة الأهالي ما بين 1927 و1937 هي: 52 باكلوريا، إجازة واحدة في الحقوق، 16 شهادة في الدراسات القانونية والإدارية، 6 مغاربة فقط شغلوا وظائف مسماة حديثة: طبيب واحد، 3 أساتذة، محاميان"[7].

إن تجذر الوعي الوطني لدى النخبة وفئات عريضة من الشعب المغربي مترجما، أي الوعي الوطني، في تقديم وثيقة الاستقلال يوم 11 يناير 1944، ثم ما أسفرت عنه الحرب العالمية الثانية من نتائج سياسية، وخلقته من مناخ عالمي تحرري، كل هذا كانت له انعكاسات عميقة داخل المغرب تجلت في "الانفتاح" النسبي لسلطات الحماية، والذي بلغ أوجه مع تعيين المقيم العام إيريك لوبون ذي النزعة الليبرالية يوم 30 مارس 1946.

ومن قبل، وفي مجال التعليم، كانت بوادر هذا التغيير قد تجلت فيما يلي:

ـ **16 مارس 1944**: تكوين 4 لجن للإصلاح واحدة منها مخصصة للتعليم. وقد أوصت هذه الأخيرة بتمدرس 100000 تلميذ خلال 10 سنوات، وفتح الثانويات الفرنسية أمام التلاميذ المغاربة، وتنظيم البكالوريا الفرنسية في الثانويات الإسلامية مع إقرار مرونة كبيرة في البرامج.[8]

ـ **28 أكتوبر 1944**: صدور الظهير المتعلق بتنظيم التعليم الإسلامي.

ـ **يوليوز 1946**: استدعاء لوبون للجنة تعطي رأيها في تنظيم التعليم بالمغرب ـ وهي تضم مثقفين مغاربة وفرنسيين ومستشرقين وممثلي الإدارة ومندوبي النقابات الجامعية. وقد أقرت هذه اللجنة 6 مبادئ أساسية: إجبارية التعليم الابتدائي لجميع الأطفال المغاربة من الجنسين ـ مجانيته في المؤسسات الرسمية ـ حريته في جميع المستويات والشعب تحت رعاية قانون خاص يجب تحديده ـ الطابع المغربي للتعليم على أساس اللغة العربية، وبشكل ثانوي اللغة الفرنسية ـ توحيد مناهج التعليم الابتدائي في جميع مناطق المغرب ـ حرية ولوج جميع سكان المغرب لكافة مؤسسات التعليم العمومي بالمغرب.[9]

ويعلق الباحث أ.عياش في هذا الصدد بما يلي[10]: "باستثناء النقطة السادسة ظلت جميع أحكام ميثاق التعليم المغربي حبرا على ورق، ذلك لأن التوجيه الرجعي للسياسة الفرنسية ابتداء من 1947 أدى إلى حرمان المغرب من كل تطور تدريجي في المجال الثقافي كما في غيره من المجالات، وتم الإبقاء على مدارس البعثات والمدارس

الفرنسية البربرية والمدارس الإسلامية، كما استمر التعليم في المدارس القروية ومدارس التأهيل المهني بنفس الروح الذي كان عليه عام 1924، وراح الطلبة الذين لم يكونوا بعد قد أنهوا سلكهم الأولي يضيعون وقتهم في تدريب زراعي وحرفي مزعوم لم يجنوا منه أية فائدة.

"على أن الإقامة العامة، وأمام تهمة التجهيل التي وجهت لها، زادت في سرعة وتيرة بناء المدارس، وقبلت بولوج المغاربة للثانويات والمعاهد الفرنسية، كما أنشأت بعض المؤسسات التعليمية الابتدائية، ثم الثانويات لفائدة الفتيات المسلمات، وبالمثل تم الترخيص بإنشاء المدارس الابتدائية الخاصة التي كان التعليم العصري فيها سائدا". وهكذا انتقل عدد المقبولين في المدارس الثانوية الإسلامية من 1003 سنة 1945 إلى 3839 سنة 1954. ووصل عدد المقبولين في المدارس الابتدائية الإسلامية إلى 210018 في نوفمبر 1954، بعد أن كان لا يتجاوز 14440 في1945. ومن الناحية الكمية فهذا ـ بدون شك ـ تقدم ملموس. لكنه من الناحية الكيفية والاعتبارية فهو بقي غير ذي بال إذا اعتبرنا ما يلي: "[في الفترة من 1945 إلى 1955] كان عدد الحاصلين على الشهادة الابتدائية لا يتجاوز 4188 طفلا، والبكالوريا الأولى 175 تلميذا، والثانية 94 فقط. أما الشيء الجدير بالانتباه حقا فيما يخص هذه المرحلة فهو، من جهة، بداية التساهل النسبي في قبول المغاربة في المؤسسات الأوروبية (1560 تلميذ في الثانوي و4600 في الابتدائي سنة 1955)، والسماح بفتح المزيد من المدارس الحرة من طرف المغاربة.

والخلاصة:

إن سياسة الحماية الفرنسية بالمغرب طبعها هاجسان:

- هاجس الأمن واستقرار الوضع سياسيا مع ضرورة التحكم فيه. وهذا ما كان يوازيه ـ تعليميا وتربويا ـ سيطرة سياسة التخوف والحذر من انتشار التعليم الحديث، وهيمنة روح المحافظة والجمود على مضمون وتوجه القليل الموجود منه.

• هاجس خدمة بنية الاقتصاد الحديث والدخيل، من جهة، ومسايرة رياح التفتح النسبي التي كانت تهب من الشرق العربي - بالخصوص، وتأثر الشباب المغربي بذلك، من جهة أخرى - إضافة إلى إعادة إنتاج بنيات الاقتصاد والاجتماع والسيطرة القائمة.. في منظور المحافظة على الوضع العام للحماية / الاستعمار.

المبحث الثاني: التعليم في منطقة الحماية الإسبانية

حتى سنة 1936 يمكن إبراز أربعة تواريخ فيما يخص مسألة التعليم في هذه المنطقة[11]:

- **13 أبريل 1913**: تأسيس "المجلس الأعلى التعليمي بالمغرب".
- **1923**: بداية "التنظيم المنهجي والأساسي للتعليم".
- **15 نوفمبر 1930**: صدور المشروع المنظم للتعليم.
- **ظهير 18 يوليوز 1935**: الدخول حيز التنفيذ لمشروع إصلاح التعليم الإسباني المغربي.

1- "المجلس الأعلى التعليمي بالمغرب":

أنشئ بالأساس من أجل خدمة أهداف الحماية الإسبانية وجهازها - فحددت له بالتالي ستة أهداف من بينها بالخصوص[12]: "تحسين التعليم الإسلامي بالمنطقة سواء عن طريق التمويل الخاص للدولة الإسبانية أو تمويل [الهيئة] الخليفية تحت إشراف المفوض السامي".

والواقع أن النتائج في هذا الصدد كانت جد متواضعة. فحتى سنة 1917 لم يكن التعليم الرسمي بالمنطقة يتجاوز المدرسة الواحدة المختلطة في كل من تطوان والعرائش وأصيلا والقصر الكبير والناضور[13].

أما بالنسبة للتعليم الديني الموروث، فتلزم الإشارة إلى ظهير 1 يناير 1918

المحدث بالخصوص لنظام الأجر بالنسبة للأساتذة الذين أصبحوا "منظمين" في ثلاث طبقات، وتعيين تسعة أساتذة قارين للتدريس بالجامع الكبير[14]. كما أحدثت مدرسة الفنون والصنائع بتطوان، ومدارس ابتدائية إسبانية / مغربية بتطوان والعرائش وأصيلا والناظور وأحد بني شيكر[15]. وكان الهدف من تأسيس هذه المدارس، بالضبط، هو تكوين مترجمين وموظفين مغاربة صغار. وعليه، كان تعلم الإسبانية هو النشاط الغالب في برنامج التدريس (من 11إلى 12 ساعة يوميا)، بالإضافة إلى دروس الحساب والهندسة والجغرافية الطبيعية والقرآن[16].

ويعلق فيكيراس على هذه المرحلة عموما بأنه "رغم عناية المفوضين السامين، فالتعليم [في هذه المرحلة الأولى] كان يفتقد إلى التخطيط والتطور الملائم"[17].

2- بداية التنظيم المنهجي والأساسي للتعليم (1923):

لقد برز هنا اهتمام أكبر بمسألة التعليم وخاصة على مستوى انتقاء المدرسين. وأحدثت لجن خاصة مكلفة بدراسة مسألة التعليم[18]. كما وضعت ونشرت تقارير في هذا الصدد[19]. ووجهت عناية خاصة إلى التعليم الإسلامي حيث شكلت لجنة خاصة مكونة من شخصيات رسمية وعلمية مغربية انكبت على دراسة وضعية المدرسة التقليدية لوقاش، ووضعت لها نظاما داخليا صدر على شكل مرسوم بتاريخ 10 غشت 1927.

كما أنه في نفس السنة (1927) صدر الظهير الخليفي الخاص بتنظيم التعليم الحر بالمنطقة.

وعموما، وعلى حد تعبير فيكيراس[20]، فـ"الإدارة العامة للمغرب والمستعمرات كانت تعمل من أجل تحقيق السلم في المنطقة ونشر التمدن، فكان من المنطقي أن يحتل التعليم موقعا أساسيا في هذا العمل".

3- ظهير 15 نوفمبر 1930 المنظم للتعليم الإسباني بالمغرب:

تلزم - أولا - الإشارة إلى الطابع الشامل لهذا الظهير[21] (اهتمامه بالتعليم الإسباني والتعليم الإسباني - العربي والتعليم الإسرائيلي)؛ وهو يشتمل على 6 فصول تهتم بالموضوعات التالية: المتمدرسون-التعليم الابتدائي - المدارس- التدريس - التفتيش - البناءات المدرسية والتجهيز؛ كما أن التوجيهات التي يتضمنها تميز بين المدارس "الشعبية" (مدينية أو قروية)، ومدارس "أبناء الأعيان": تلامذة المدارس الأولى يتوجهون إلى التعليم المهني (المدن) أو التعليم الفلاحي (البادية)، بينما يلتحق تلامذة المدارس الثانية بالتعليم الثانوي والتكوين التقني.

والواقع أنه حتى حدود يناير 1935 يمكن إبراز ما يلي بخصوص الوضعية التعليمية بالمنطقة:

- عدد المدارس: 36 (20 في المدن و16 في البادية).
- عدد التلاميذ: 1326.

ومن جهة أخرى، فقد تأسس سنة 1934 **"المجلس الأعلى للتعليم"** مكونا من وزير العدل رئيسا وشيخ الجماعة نائبا إضافة إلى المدير العام للأحباس و3 مستشارين منتخبين لأربع سنوات قابلة للتجديد.

وتتحدد مهمة المجلس فيما يلي:

- تقديم النصيحة للمخزن حول القوانين التي يصدرها في مجال التعليم.
- تحديد أوقات الدراسة وساعات العمل ومراقبة أحوال النظافة والصحة داخل المدارس.
- اقتراح ميزانية التعليم ومراقبة ما له علاقة منها بإدارة الحبوس.

كما تأسست **"مفتشية التعليم الإسلامي"** بموجب ظهير 21 أكتوبر 1934.

4- ظهير 18 يوليوز 1935:

وأبرز ما تضمنه هو التأكيد على ضرورة الاهتمام بالطفل المغربي من داخل محيطه اللغوي والثقافي والاجتماعي الخاص. وفي هذا الصدد كتب فيكيراس(22): "في المدارس الإسبانية يتعلم التلميذ المسلم اللغة الإسبانية، ويتلقى حدا أدنى من الثقافة الحديثة ـ لكن مع الأخذ بعين الاعتبار لنفسية التلميذ الخاصة، وعدم إهمال التعليم التقليدي بمظهريه الديني واللغوي والذي هو من مسؤولية الفقيه. وعليه، فهذا النوع من المدارس لا تتعدى هيئة التدريس فيها فقيها ومرشدا Monitor".

ثم يقدم فيكيراس عرضا تفصيليا حول مواد التدريس المقررة نسجل بصددها الملاحظات التالية:

ـ الازدواجية التي تحصر المواد العلمية ومواد التفتح في اللغة الإسبانية، والمواد التقليدية (الأدب والدين) في اللغة العربية.

ـ الطابع التطبيقي و"النفعي" المباشر للعلوم الملقنة مما يعني عدم مقاربتها واستيعابها من طرف التلميذ المغربي كنمط متميز ومتطور في التفكير ـ أي اكتساب منهج التفكير العلمي الذي هو أساس كل تقدم حقيقي.

ـ الطابع الوظيفي لهذا التعليم أي إعادة إنتاج المراتب والأدوار الاجتماعية أو حصرها داخل إطار للنمو محدد سلفا.

بعد 1936، وفي خضم الأحداث السياسية التي هزت إسبانيا (قيام الجمهورية وانقلاب فرانكو الفاشي المضاد المنطلق من المغرب)، سعى فرانكو إلى استمالة المغاربة ـ و"الوطنيين" منهم خاصة... فأصدر مرسوم 29 يناير 1937 المحدث لـ"المدرسة المغربية" La escuela Marroqui.

وفي هذا الصدد كتب الأستاذ محمد عزيمان ـ وهو ممن عايش الحدث التعليمي وانخرط فيه (23) "... إذ أن المدارس القليلة التي كانت موجودة ـ والتي كانت تسمى المدارس الإسبانية / العربية ـ كانت خليطا غير منسجم بين شئ يشبه المسيد أو الكتاب القرآني، وشئ يشبه المدرسة الإسبانية في أضعف صورة لها. فتم

خلق المدرسة المغربية التي تكون التلميذ تكوينا إسلاميا عربيا، وتلقنه تاريخ بلاده وجغرافيتها بجانب دراسة المعلومات العامة الابتدائية. ولابد هنا من الرجوع إلى القرار العام الذي أصدره المقيم العام بيكبيدر بتاريخ 29 يناير 1937 باقتراح من المجلس الأعلى للتعليم الإسباني، والذي يقضي بخلق المدرسة المغربية، وتحويل المدارس الإسبانية العربية إلى مدارس مغربية خالصة لغة التدريس فيها هي العربية على أن تبقى اللغة الإسبانية مادة من مواد التدريس".

"ووضع المجلس الأعلى منهاجا للمدارس توجه فيه العناية للتربية الإسلامية واللغة العربية وتربية الطفل المغربي مغربيا في عواطفه ومشاعره، معتزا بقوميته، ومتمسكا بمشخصاته مع تلقينه العلوم الحديثة المقررة في مناهج التعليم الابتدائي المقررة في العالم بأسره.

"وكان خلق المدرسة المغربية يقتضي إعداد المدرس المغربي الكفء والصالح للقيام بمهمته، وإيجاد الكتاب المدرسي المغربي اللازم للمدرسة المغربية. وبذلت جهود في سبيل تحقيق الغايتين. وفتحت عدة مدارس ابتدائية جديدة في مختلف مدن المنطقة وبعض مراكزها القروية. وفتحت المدارس الابتدائية للبنات. ثم فتحت مدرسة للمعلمات ونواة لمدرسة ثانوية للبنات. ثم أنشئ التعليم الثانوي العصري المغربي. وفتح المعهد الرسمي للدراسة الثانوية بتطوان سنة 1942".

والجدير بالذكر، أن هذا المعهد الأخير شرع في عمله انطلاقا من الموسم الدراسي 1942/1943، بعد صدور قرار مقيمي بمثابة قانون منظم بتاريخ 20 يونيو1942. وعليه، فالدراسة في المعهد كانت مشتملة على طورين: 4 سنوات و3 سنوات - حيث يدرس التلميذ في الطور الأول جل المواد باللغة العربية. وعند الانتقال إلى الطور الثاني يكون عليه أن يدرس باللغة الإسبانية، وفق البرنامج الرسمي الإسباني من أجل تحضير البكالوريا الإسبانية.

وبتاريخ 17 فبراير 1948 صدر ظهير جديد يعيد النظر في هذه الوضعية كالتالي: "اشتمل هذا الظهير على 33 فصل تحدد برنامجا للدراسة يتكون من 4

سنوات، يجتاز التلميذ بعدها امتحان الحصول على البكالوريا المغربية، مع إمكانية تمديد الدراسة لسنة أخرى تسمى "سنة التوجيه" هي بمثابة استعداد للتسجيل في الجامعات الإسبانية".(24)

وبصفة عامة فالإنجاز الإسباني في المجال التعليمي بمنطقة حمايتها الشمالية هو محدود وضعيف من الناحية الكمية بالخصوص. وبالمقابل، فقد كان هامش عمل الوطنيين في هذا الصدد متقدما ـ مقارنة مع نظرائهم في الجنوب. وبتعبير دقيق: فقد حصل نوع من التعايش المفارق بين السياسة التعليمية "الاستعمارية" والتعليم الوطني في المنطقة. والغائب الأكبر هنا هو حدوث التحديث الحقيقي والجذري لبنيات الفكر والسلوك لدى الفرد المغربي المستعمر في الشمال كما في الجنوب.

❑ ❑ ❑

هوامش

1 ـ انظر كتابنا: "الوطنية والسلفية الجديدة في المغرب"، منشورات اتصالات سبو، الدار البيضاء، 2007.

2 - Georges Hardy : "Le problème scolaire au Maroc". Casablanca.1920.

3 ـ انظر: تقرير ليوطي السري المعنون بـ "الانعطاف" والمنشور في "مذكرات" محمد حسن الوزاني المعنونة بـ "حياة وجهاد" الجزء الأول.

4 - Paul Marty : Le Maroc de demain. Paris.1925.

5 ـ عثمان أشقرا: "في سوسيولوجيا الفكر المغربي الحديث". عيون. الدار البيضاء 1990، ص. 56-48

6 ـ أ. عياش: "المغرب والاستعمار.م.م"، ص. 366.

7 - M. Souali M. Merrouni: Question de l'enseignement au Maroc. B.E.S.M N 143-144 p.14.

8 - Ibid. P.17.

9 ـ أ عياش: "المغرب والاستعمار م م"، ص. 370.

10 ـ نفسه، ص 370.

11 - Tomas Garcia Figueras: Notas sobre la ensenanza en Marruecos . p 11.

12- Ibid. p.13-14.

13 - Ibid p. 15.

14 - Fernando Martinez Valderrama : Historia de la accion cultural de Espana en Marruecos (1912-1956). TETUAN. Editoria Marroqui.

15 - T.G.Figueras : Notas ... Op. Cit., p.15.

16 - F.M. Valderrama : Historia... Op. Cit., p.174.

17 - T.G. Figueras : Notas... Op. Cit., p.16.

18 - نفسه، ص. 16.

19 - مثلا: تقرير المفتش Santullona المنشور في مؤلف Valderrama المذكور، ص. 92-97

20 - T.G.Figueras : Notas... Op. Cit., p.16-17

21 - نصه منشور في الجريدة الرسمية بتاريخ 25/11/1930.

22 - T.G.Figueras : Notas... Op. Cit., p. 30.

23 - محمد عزيمان: "الأستاذ محمد داود في ميدان التربية والتعليم" ضمن كتاب: محمد داود - الحركة الوطنية والمسألة الثقافية في الشمال، مطبعة المعارف الجديدة الرباط 1990، ص 41.

24 - F.M.Valderrama : Historia... Op. Cit., p. 297.



جريدة السعادة
ودورها في تطوير الخطاب الإعلامي العربي بالمغرب

أحمد زيادي*

التأسيس وأهدافه:

أصدرت المفوضية (السفارة) الفرنسية جريدة (السعادة) بطنجة أول الأمر، سنة 1322 / 1904 [1]، وبعد انتقالها في سنة 1913 إلى الرباط العاصمة السياسية الجديدة للمملكة، صارت لسان حكومة الحماية الفرنسية بالمغرب، تخدم أغراضها السياسية، وتبشر بنتائجها عن طريق الدعاية لخدماتها ذات المظهر الإنساني والاجتماعي كالتطبيب والتعليم، وإيهاما للعامة من المغاربة بدور فرنسا التمديني، وتلميع صورتها في عيونهم، والدفاع عن مصالحها في مواجهة المنافسة الدولية التي كانت على أشدها في مطلع القرن العشرين.

وقد كان (المخزن) المغربي خص مدينة طنجة بمقرات إدارات السلك الدبلوماسي والقنصلي، لكونها أقرب حاضرة مغربية إلى أوروبا، وتسهيلا لمهامهم عين بها نائب وزير خارجيته.

---

* باحث، الدار البيضاء.

ويمكن أن يكون (المخزن) المغربي قد رمى من وراء ذلك أيضا إلى صد الجواسيس والمتآمرين الأجانب عن التوغل في البلاد[2]، ولعل هذا ما دعا فرنسا إلى الاحتيال، في إيجاد وسيلة تواصلية تنجح في اختراق هذا التحصين الجغرافي، فأصدرت (السعادة) التي قامت بدور الجهاز الدعوي القوي لفرنسا في المغرب لشراء الضمائر، ونشر الفوضى، وتدبير المؤامرات، والسيطرة على مجريات الأمور، والتحكم في ما يتسرب من معلومات بالتغطية الممنهجة؛ مثل ما حدث داخليا أيام ثورة بوحمارة (1902-1908)، وزمن انعقاد مؤتمر الجزيرة الخضراء (1906)، وأثناء قيام حركة ماء العينين وابنه الهبة في الصحراء والجنوب (1907-1915)، ثم عند نشوب الانقلاب السياسي بين العهدين العزيزي والحفيظي (1907-1908).

ومثل ما حدث كذلك خارجيا إبان الحرب الروسية اليابانية (1904) [3]، مما أثار عليها، وعلى أمثالها من الصحف الخادمة للنفوذ الأجنبي، وخاصة الصحف الصادرة في طنجة، ردودا قوية في منابر إعلامية وطنية أنشئت لهذه الغاية، نذكر منها:

- نشرة (الطاعون) الخطية للشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني سنة 1906.

- جريدة (تنبيه المستبد حيث على جهله يعتمد) لمحمد بن يحي الصقلي، سنة 1906.

- مجلة (سنان القلم لتنبيه وديع كرم) لمحمد العابد بن أحمد بن سودة، سنة 1907.

- نشرة (مفاكهة ذوي النبل والإجادة، في الرد على جريدة السعادة)، لعبد الحي الكتاني، سنة (1908)[4].

- الجيش العرمرم، لهزم وديع كرم، مخطوط مجهول المؤلف، ألف سنة 1908.

- رسالة من تجار مغاربة مقيمين بسنغفورا وجاوا، إلى المخزن المغربي، محررة في 3 اكتوبر (1910) [5].

الإدارة والتحرير:

(1) مرحلة طنجة:

في البداية، أرتأت إدارة جريدة (السعادة) اختيار رجل عربي مسلم يقوى على تمرير الخطاب الفرنسي الإعلامي، دون إثارة المشاعر الدينية لدى القراء المغاربة، ووجدت ضالتها في مولاي إدريس بن محمد الخبزاوي الجزائري الذي استقدمته سنة 1904، من تلمسان حيث كان يمارس مهام العدلية.

قضى الخبزاوي في إدارة (السعادة) حوالي سنتين، يعينه في تحريرها وديع كرم الماروني اللبناني، الذي كان موظفا بالسفارة الفرنسية بطنجة، وفي غشت سنة 1906 غادر الخبزاوي المغرب إلى مقاطعة جيجلي من أعمال قسطنطينة، وقد رقته السلطات الفرنسية إلى منصب قاض شرفي[6].

وتولى إدارة الجريدة بعده روبير راينود Robert Raymaud، وفي عهده استمر وديع كرم ـ الذي سيتولي في هذه المرحلة، تحرير جريدة (الصباح) أيضاـ في الكتابة والتحرير بأسلوبه الاستفزازي الذي أثار المزيد من ردود فعل المثقفين المغاربة، فانبروا للرد عليه وانتقاد (السعادة) بسيل من التآليف التي أشرنا إلى أهمها أعلاه.

(2) مرحلة الرباط:

بعد إبرام عقد الحماية في 30 مارس 1912، أمر ليوطي بنقل عاصمة المغرب من فاس إلى الرباط، وتعزيزا لأمره استقدمت سلطات الحماية إدارة جريدة (السعادة) من طنجة إلى الرباط في ابريل 1913[7]، وعينت الضابط الفرنسي المستعرب أوجين ماركو A. Margot، رئيس مراقبة قلم المطبوعات العربية، مشرفا عليها.

وتطبيقا للتوجيهات العامة لسياسة ليوطي، عمل ماركو على تفادي سلبيات تجربة وديع كرم المثيرة للحساسيات المختلفة، والمحرضة على المساجلات والردود العنيفة، فأمسك عن نشر كل ما من شأنه أن يخدش المشاعر الدينية للقراء

المغاربة المحافظين، وحرص على تزيين فرنسا في عيون المغاربة، وتقديمها إليهم محترمة للدين الإسلامي، وصديقة حميمة للمسلمين، وأولى عناية خاصة للكتابات الأدبية[8] التي كان من عادة القراء المغاربة التعلق بمطالعتها في الصحف والمجلات المشرقية والتونسية والجزائرية[9].

ثم تولى إدارتها بعد ذلك ابن داود زمنا، وخلفه في المنصب محمد المريني منذ يناير 1952.

وتعززت إدارة التحرير بمحررين جدد خلفوا عائلة كرم (وديع ويوسف وأسعد)، وأهمهم وأشهرهم:

- على الطرابلسي: وهو كاتب ومترجم ومعلق سياسي غزير الإنتـــــاج، خاصة في مطلع العقد الثالث من القرن الماضي، توفي بتونس سنة 1928.

- محمد البيضاوي الشنقيطي : المحرر الثاني (للسعادة)، كان يدرس بمصر، وظل يمارس عمله بالجريدة إلى سنة 1921، وهي السنة التي غادرها فيها ليستلم منصبه الجديد قاضيا في بني عمير، ثم باشا مدينة تارودانت، توفي في مطلع سنة 1946.

- أحمد الهواري: تولى إدارة تحرير (السعادة) بعد وفاة علي الطرابلسي، وهو عضو المحكمة العليا، من تآليفه: «الرحلة الحجازية أو دليل الحج والسياحة» و «المستدركات السنية في تعلم اللغة الفرنسية»، وقد هنأه على الكتابين معاً المقيم العام الفرنسي الجنرال نوكيس، توفي بالدار البيضاء سنة 1952.

- عبد الكريم بوعلو: كاتب وناقد مسرحي ومترجم عرّب كتاب «الرحلة الفنية إلى الديار المصرية»، لإليكس شوتان الفرنسي. وله كتاب حول رحلة جوقة الطرب المغربي إلى مصر سنة 1931.

- ومن محرريها كذلك: عبد الحفيظ الفاسي (1913...)، وعبد الواحد بن عبد الله (1945...)، ومن كتاب افتتاحياتها السياسية: محمد صالح ميسة، ـ وهو من

أصل جزائري ـ مدير (مجلة المغرب) الصادرة سنة 1932 بالرباط، ومترجم (رسالة الغفران) للمعري إلى الفرنسية.

وأقامت (السعادة) شبكة من المراسلين في داخل المغرب وخارجه، منهم:

ـ الحاج الطاهر (1922..)، وعبد القادر الوزاني والمهدي الصقلي (1935..)، من الدار البيضاء.

ـ محمد الغربي، من سلا.

ـ د.ح، من مراكش.

ـ محمد الكتاني، من مكناس.

ـ محمد العبادي، (1921-1934)، من الجديدة.

ـ عبد الله القباج السملالي، من دار ولد زيدوح.

ـ عبد القادر الوزاني، من باريس.

أعمدة(السعادة) وأركانها وأقسامها:

تنوعت موضوعات (السعادة) وكتاباتها بتنوع عناوين أقسامها الدائمة وشبه الدائمة، وكذا الخاصة ببعض المناسبات والظروف.

وبوجه عام، التزمت (السعادة) ببيانها الإعلامي الذي حددت فيه خطها السياسي، واهتماماتها الأدبية والتجارية والاقتصادية، منذ صدور أعدادها الأولى. كما التزمت في معالجة هذه الميادين بنهجها الذي لا يحيد عن خدمة الحماية الفرنسية، وتحسين صورة رجالها في أعين المغاربة بأشكال مختلفة مباشرة وغير مباشرة.

ومن أشهر عناوينها الداخلية وأدومها ما يلي:

أفاقيات، محليات، متفرقات، مقتضبات تلغرافات، أخبار مختصرة، أنباء العالم، من أبهاء القرويين، شؤون حياتنا، زاوية المرأة، آراء حرة، قصة العدد، روض

الآداب، من هنا وهناك، الأحوال على وجه الإجمال، أخبار الايالة، رسالة باريس، مسليات، منبر الصراحة، بريد الشرق، مراسلات، الأسبوع السياسي، أخبار البريد الخارجية، ومن الأركان التي استحدثتها إبان اندلاع الحرب العالمية الأولى: ميادين القتال، من ساحة الحرب.

وابتداء من العدد 4434 بتاريخ 10/04/1937 خصصت (السعادة) صفحة للثقافة والفنون، وصار عدد صفحاتها ستا، ومن مشمولاتها: حديقة الآداب، الصحة والعائلة، هنا راديو المغرب، شؤون اقتصادية، الصحة والرياضة، التربية البدنية.

وفي سنة 1955 وسعت (السعادة) عنايتها بالأطفال، فخصصت لهم صفحة أسمتها (رياض الأطفال).

ـ السيمات العامة لخطاب (السعادة):

أ) الخطاب السياسي:

يستقى الخطاب السياسي (للسعادة) من افتتاحياتها وأخبارها وتحاليلها وتعاليقها التي رافقت مراحل الاحتلال الفرنسي للمغرب، وتلونت بظروفه ومعطياته ونتائجه. ومن أبرز ملامح خطابها وتوجهاتها السياسية والاقتصادية ما يأتي:

ـ رثاء بعض القتلى الفرنسيين الذين قتلوا في أواسط العقد الأول من القرن الماضي، على يد بعض المغاربة، وإلباسهم أكمل الصفات الوطنية الفرنسية مثل شاربوني (1906) والطبيب موشان (1907)، واستعداء الحكومة الفرنسية على المغاربة ونعتهم بالهمجية والتوحش، وإغراؤها إياها بالبطش بهم لقطع دابر مثل تلك الأعمال التي اعتبرتها إجرامية؛ فقد جاء في الكلمة التأبينية التي ألقاها سفير فرنسا أمام نعش موشان المنقول إلى فرنسا عبر مدينة طنجة «يا سادة لا ينكر أنه في انتقال الشعوب من حالة إلى حالة لا بد من ضحايا أدبية ومادية تكلف هذا

الانتقال، وغالبا نخبة الجمهور، وقادة الناس هم الذين يتعرضون للتجارب، وهم الذين يذبحون فداء للمدنية والإنسانية أمام تيار البربرية والهمجية... »[10].

ـ تشويه سمعة الألمان، وفضح سياستهم المتبعة في المغرب منذ مطلع القرن العشرين، والتنديد بسياستهم الخارجية، وخاصة في الشمال الإفريقي أثناء الحرب العالمية الثانية.

ـ القيام، إلى جانب الصحافة الأوربية، بدور بلبلة الرأي العام بطنجة مما ترتب عليه كساد التجارة واضطرابها سنة 1906.

ـ العمل في البداية على تقديم فرنسا دولة متحضرة ذات رسالة حضارية تمدينية إنسانية، وحين كانت جيوشها تكتسح المناطق المغربية المقاومة، كانت (السعادة) تقوم بالدعاية اللازمة لتهيئ الظروف والأجواء النفسية المناسبة لتقبل الأوضاع الجديدة،والمقطع التالي من مقالة لوديع كرم يلخص أهم الأساليب التي كانت متبعة آنذاك في الدعاية الاستعمارية، وهي أساليب تقلب المفاهيم، وتميع القيم، فهي تسمى المقاومة عصيانا، والمجابهة تهلكة، والجهاد إغضابا لله، والترهيب إشفاقا، والاستسلام تعقلا، والخضوع استحقاقا للحقوق، والاحتلال نشرا للأمن، والاستعمار إصلاحا، يقول عن القتال في ناحية تازة: «نحن نشفق على أولئك الناس، ونتحسر على حالتهم والجهل القائم الضارب غشاوته على أبصارهم نشفق عليهم لأن الزعماء تقودهم (كذا)، إلى مواطن الهلاك ولا حول لهم ولا قوة لهم على مقابلة الجنود الفرنساوية، نشفق عليهم لأنهم يجازفون بأرواحهم ويرمون بأيديهم إلى التهلكة.

كنا نعذرهم لو كان لهم قوة على المقاومة.

كنا نعذرهم لو كان مبدأهم مبررا بالحجة والبرهان.

كنا نعذرهم لو كان غرضهم الدفاع عن الوطن.

كنا نعذرهم لو كانت الجنود الذاهبة لوضع الأمن في بلادهم غرضها أن تجتاح البلاد وتستولي على رقاب العباد.

كنا نعذرهم لو لم يسبق لغيرهم من القبائل تجربة المقاومة وما لاقوا فيها من الخسارة والبلاء الفاجع.

كنا نعذرهم لو كانت القبائل الطائعة اليوم للحكومة مظلومة أو مقهورة أو ضائعة الحقوق.

كنا نعذرهم لو لم يكن لهم أعين ولو لم يكن لهم آذان.فأعينهم أبصرت الإصلاح في فاس وجوارها، ووجدة وضواحيها، وقص عليهم القاصي والدان (كذا) أخبار النظامات الضامنة للحقوق، والإصلاحات العائدة لخير العموم في الأماكن التي تمتعت اليوم بالأحكام وضبط النظام.

كنا نعذرهم لو كان يرثي لبلائهم أحد من المسلمين لأنهم أتباع العصاة وزعماء الفساد سيجرون البلاء إلى بلادهم ويحفروا (كذا) قبورهم بأظافرهم.

فليتقوا الله في طاعة السلطان، وليكونوا من الجماعة، فمن خرج عن الجماعة حمل مسؤولية أعماله، وجوزي بما تجازى به أشباهه وأمثاله»[11].

وبعد أن تم لفرنسا احتلال المغرب، أصبحت مهمة (السعادة) تقديم المغاربة راضيين عن الدولة الفرنسية، ومتشبثين بها، وراغبين في بقائها، وشاكرين لما تقوم به من أعمال.

- تحاشي الإخبار بالحوادث المفزعة وغيرها مما كانت تنشره الجرائدالأخرى فرنسية وغير فرنسية، وقالت منتقدة لها في هذا التوجه: «كأن الدنيا ليس فيها سوى المصائب والمفاسد».

ونوهت بالخطة التي كانت تنهجها: «فهي إنما تنشر مايروق الأعين، ويلذ للأنفس، ويخف على العواطف» (سنة 1933).

- التنديد بانتقال كتلة العمل الوطني من مجرد كونها جمعية محلية اجتماعية، إلى جمعية وطنية سياسية، واعتبرت هذا الانتقال مخالفا لمقتضيات ظهير 24/05/1914، وأنه خطر على الأمن العام في منطقة الحماية الفرنسية: «لنشر الدعاية بين سكان لا زالوا لم يتطوروا تطورا كافيا»[12].

وأن بعض إجراءات الانخراط فيها مخالفة لقواعد الدين الإسلامي وتقاليده، ومنازعة لنفوذ السلطان (كأداء اليمين وجمع الاشتراكات).

- وعنيت طيلة مدة عملياتها الحربية في المغرب، التي تقارب ثلاثة عقود بنشر تفاصيل أخبار المقاومة الشعبية للاحتلال العسكري الفرنسي للمناطق المغربية، وخاصة من خلال أركان:(من هنا وهناك) و(الأحوال على وجه الإجمال) و(أخبار الأيالة) منظورا إليها بوجهة نظر استعمارية ترمي إلى تشويهها، والنيل من رجالها لإقناع الرأي العام الوطني والدولي أن العمليات العسكرية التي كانت فرنسا تخوضها في المغرب، إنما هي حرب ضد عصاة خارجين عن سلطة (المخزن) لكسر شوكتهم، ونشر الأمن في البلاد، والعمل على إصلاح أحوالها وترقيتها وتمدينها.

- تأييد المولى عبد العزيز عند منازعة أخيه إياه على السلطة، ودعت إلى عدم تفرق المغاربة، وإلى تجنب الفتنة، ولم تغير لهجتها لصالح المولى عبد الحفيظ إلا في أواخر سنة 1908، حيث طرحت عليه برنامج إصلاحات تتفق ومصالحها في المغرب.

ب) الخطاب الأدبي:

من الصعوبة بمكان الإحاطة بكل الموضوعات الأدبية التي تناولتها (السعادة) طيلة سنوات صدورها التي تجاوزت نصف قرن من الزمن، لذلك سنكتفي بإعطاء أمثلة معربة عن أهمية ما نشر فيها من كتابات أدبية ونقدية وإبداعات شعرية ومقالية وقصصية غزيرة، ودالة على تنوعها وغناها.

1- المقالات الأدبية والنقدية:

- السجع في الأدب المغربي، المنصور[13].
- موضوعات الأدب المغربي بين الأمس واليوم، المنصور[14].
- الحياة الأدبية الجديدة في المغرب، الحسن البوعناني[15].

- المعاصرة والإنصاف في المغرب، الحسن البوعناني[16].
- كيف ننقذ أدبنا، أو على هامش الإنتاج المغربي، الوزاني[17].
- اللغة العربية الفصحى واللغة العامية الدارجة، صالح أبورزق[18].
- النقد والأدب المغربي، بناصر بن عمر[19].
- الرواية في الأدب الفرنسي، محمد المهدي الحجوي [20].
- مستقبلنا الثقافي، أبو محمد [21].
- الكتاب والكتاب، الخبير [22].
- الحالة الأدبية بالمغرب: المسامرات والمساجلات بمشاركة كبار الشعراء المغاربة: أمثال: محمد بوجندار، وعبد الله القباج.. [23].
- نشأة المسرح المغربي[24].

2ـ نصوص المحاضرات الإذاعية:

دأبت (السعادة) على نشر نصوص سلسلة المحاضرات التي كانت تذاع عبر الأثير كل يوم خميس لأشهر العلماء والكتاب والأدباء والموظفين الإداريين المغاربة الكبار، وذلك أيام اندلاع الحرب العالمية الثانية، خاصة سنة 1939، وكانت كلها تمجيدا لفرنسا ومناصرة لها، وقد انتقدها محمد المختار السوسي في الجزء الثاني من كتاب (الإلغيات).

3ـ أنشطة النوادي الأدبية:

اهتمت (السعادة) بالإعلان عن مسامرات النوادي الأدبية المؤسسة ومنئذ في أهم المدن المغربية، ومتابعة أنشطتها المختلفة من محاضرات وندوات ومساجلات ولقاءات من هذه النوادي:

ـ النادي الأدبي الإسلامي بسلا.

ـ نادي المحاضرات بقصر البورصة بالدار البيضاء.

ـ النادي الفني بالرباط.

- نادي المسامرات بفاس.

- نادي الادب الزيداني بمكناس... الخ.

4 - المقالة الاجتماعية:

حفل ركنا (زاوية المرأة) و(شؤون حياتنا)، وغيرهما من الأركان، بالعديد من المقالات والمحاضرات الاجتماعية الإصلاحية الداعية إلى تعليم المرأة وإدماجها تدريجيا، وفي إطار محافظ، ضمن القوة الفاعلة في المجتمع. من ذلك:

- مقالات تدعو إلى منع السفور والتبرج (محمد الأوراوي) [25].

- ومقالات تشجع على افتتاح مدارس للبنات[26].

- ومقالات تقارن بين المرأة المسلمة والمرأة الأروبية[27].

- ومقالات تدعو الأغنياء إلى الإحسان إلى الفقراء [28].

- وأصدرت (السعادة) أعدادا خاصة بالتربية والتعليم بالمغرب[29].

5 - الألغاز الشعرية والنثرية وحلولها:

انطلقت الألغاز الشعرية بغير انتظام منذ السنوات الأولى لصدور (السعادة)، وأصبح لها حضور شبه دائم منذ مفتتح سنة 1933، وذلك ضمن ركن (روض الآداب)، وشارك فيها أشهر الشعراء والأدباء المغاربة آنذاك، ثم ألحقت بها الألغاز النثرية في سنة 1935.

6 - المسابقات الأدبية:

من المسابقات الأدبية التي نظمتها (السعادة) وخصصت لها جوائز، مسابقة شعرية أعلنت عنها سنة 1932 تحت عنوان (إلى الأدباء)، طرحت فيها أبياتا وطلبت تشطيرها، وحددت هدفها منها في: «فتق القرائح الخامدة، وتنشيط الأدباء والمساجلة الشعرية».

وكان يرأس اللجنة المشرفة عليها : أبو شعيب الدكالي وعضوية عبد القادر ابن غبريط وأحمد التازي...

7- التهاني والمراثي الشعرية:

نادرا ما كان يخلو عدد من أعداد (السعادة) من التهاني أو المراثي الشعرية، كانت الأولى تقدم في الأعياد والمناسبات الدينية والاجتماعية والوطنية المغربية والفرنسية[30] للسلطان والمقيم العام وكبار رجال المخزن وإدارة الحماية من مدنيين وعسكريين[31]. كما كانت تقدم عند الشفاء من مرض أو النجاة من اعتداء أو حادث.

وكانت الثانية تقدم لهم تعزية في فقدان أحد أقاربهم، أو تنشر رثاء لهم، وتعزية لأهلهم ورؤسائهم كرثاء العباس الشرفي وصالح أبو رزق وغيرهما كثيرون للمارشال ليوطي سنة 1934، ورثاء (رباطي) للكومندار ميلي رئيس إدارة الاستعلامات بفاس بقصيدة مطلعها :

مات الكمندار مــيــلي   يــا أرض مـيـدي وميلي [32]

ورثاء محمد بن الشيخ للمارشال جوفر [33].

ورثاء صالح أبو رزق وأحمد بوستة لأرستيد بريان.

إلى جانب هذا النوع من الرثاء ذي الطابع السياسي زخرت (السعادة) بالرثاء ذي الطابع الأدبي والإنساني مثل رثاء كبار الأدباء والشعراء وشيوخ الزوايا والوجهاء والعلماء المشارقة والمغاربة أمثال:

- عبد الرحمان الدرقاوي شيخ الطريقة (محمد حركات...) 1928.
- أحمد شوقي (محمد بوعشرين، الحسن البونعماني السوسي...) 1932.
- محمد بن الحسين العرائشي المكناسي (عبد الرحمان بن زيدان) 1933.
- مصطفى صادق الرافعي(ابو بكر الكتاني) 1937.
- أبي شعيب الدكالي (العباس الشرفي...) 1937.

8- التراجم :

اهتمت (السعادة) بنشر تراجم العديد من الأدباء والشعراء والعلماء

والقضاة ومشاهير رجال السلطة المخزنية وإدارة الحماية، مما يعتبر ذخيرة نفيسة في هذا الباب تغني البحث العلمي في مرحلة الحماية.

وأغلب مناسبات التراجم بالنسبة للقدامى نشر أعمالهم، وبالنسبة للمحدثين قيام المترجم بنشاط ثقافي أو اجتماعي أو سياسي، أو تهنئة بترقية أو تكريم، أو بمناسبة إنهائه للخدمة، أو فاته.

وتنوعت التراجم ما بين تراجم ذاتية مثل:

- ترجمة الحقير الممضي في الأخير، لأحمد الصبيحي 1940.
- وحديقة أنسي في التعريف بنفسي، لأحمد سكيرج[34].
- ترجمة محمد البيضاوي الشنجيطي، باشا تارودانت، بقلمه[35].
- وتراجم غيرية، وهي كثيرة جدا، نذكر منها:
- ترجمة الوزير عبد الكريم بن سليمان [36].
- ترجمة عبد الرحمن بن القرشي الفيلالي الفاسي [37].
- ترجمة محمد بن العربي العلوي [38].
- ترجمة محمد بن عبد الله ملين (وزير الأحباس) [39].
- ترجمة محمد العربي الناصري (رئيس المحكمة الجنائية العليا) [40].
- ترجمة عبد الرحمن بن زيدان [41].
- ترجمة عبد الحي الكتاني [42].
- ترجمة محمد بن عبد القادر العبادي(قاضي أسفي)[43].
- ترجمة أحمد الأزموري (قاضي ابن أحمد)[44]..

9ـ الفنون الموسيقية والمسرحية:

عنيت (السعادة) بتتبع الحفلات الموسيقية الكبرى، والعروض المسرحية، وكل وما له صلة بهما من بقية فنون التعبير الجميلة، ونشرت ما كان يكتب حول

ذلك من كتابات نقدية ومقالات وتعاليق، نذكر منها ما يلي:

- حول التمثيل السلاوي، (صالح أبو رزق)[45]..
- الفنون الجميلة والموسيقى العربية، (الهواري)[46]..
- اللغة والخط العربيان وأطوارهما، (محمد بن عبد السلام بوركبة).
- الرابطة الأدبية : وتضمنت كلمة الأصمعي الترحيبية بفرقة فاطمة رشدي، وفيها تمجيد للشبيبة المغربية التي هيأها تعليمها في المدارس العصرية لتعاطي الفن المسرحي[47].
- حول رواية الأوصياء، (عبد الكبير الفاسي)[48]، وكانت كلمة (رواية) تعني في ما تعنيه (مسرحية).
- عبد الوهاب والموسيقى، محمد العربي الفاسي[49].
- السينما في المغرب[50].

10 ـ المقامة والقصة:

نشرت (السعادة) عدة مقامات ومفاخرات ومناظرات، نذكر منها:

- المقامة الشاوية، لكاتب فاضل[51]..
- فضل العصا على السيف، محمد بوجندار ([52].
- والمفاخرة بين المنظوم والمنثور، محمد غريط 1938.
- ومناظرة بين الدريزين والأطموبيل، لعبد المالك البلغيثي [53].

أما القصة الفنية فيقول الناقد محمد بن العباس القباج في حقها وحق المقالة: «لم تتخذ القصة والمقالة صورتيهما الفنية إلا بعد نشأة الصحافة الوطنية والمجلات الأدبية».

والحق أن هذا لم يتم بين عشية وضحاها حتى في الصحف الرسمية الدائرة في فلك الحماية، وهي أطول عمراً وأكثر سحباً وأوسع نشرا وتوزيعاً من الصحف الوطنية والمجلات الادبية، فقد ظلت جريدة (السعادة) تخلط بين مفاهيم المقالة

والقصة والرواية والمسرحية في الكثير من الأحيان، طيلة مدة صدورها.

ومن أمثلة ذلك أن من أوائل القصص القصيرة التي نشرتها قصة (السقاء الإصباني) [54]. ، كانت تحت عنوان (رواية).

كما أن الشاعر محمد بن محمد العلمي نشر مقالتين سجاليتين هما: (الفتنة نائمة) [55]. و(لوذات سوار لطمتني) [56]. تحت ركن (قصة العدد).

وعموما فقد كانت القصة القصيرة والرواية المتسلسلة من المواد التي أصبح لها قراء يتابعونها باهتمام، يدل على ذلك حرص إدارة التحرير على تخصيص ركن دائم لها هو ركن (قصة العدد).

وإذا كانت (السعادة) قد لجأت في البداية إلى نشر القصص العالمية المترجمة نقلا أو تعريبا، أو نقل القصص العربية عن جرائد ومجلات مشرقية، أو نشر قصص من تأليف بعض محرريها الشرقيين مثل وديع كرم، فإنها ما لبثت أن توافرت لديها بعد العشرينيات عشرات الأقلام المغربية، نذكر منها هذه الأسماء مع عناوين بعض قصصها على سبيل المثال:

ـ محمد المختار التمسماني: (المال، الفقيه، البخيل، بين نارين، الصديق العدو، القدر...).

ـ المدني الحمراوي: (نهاية مرة...).

ـ إبراهيم السائح: (سذاجة...).

ـ محمد الخضر الريسوني: (عاشقة الزهور، زوج وضرتان، لقاء على الشاطئ...).

ـ أبو النور: (الزلة الصغيرة...).

ـ أمين: (أمل ضاع...)

ـ أبو الجمال: (ضحايا الحب...).

ـ ت. ع (من الدار البيضاء): (من تعاسة إلى شقاء، ليتني كنت ساحرا، الجرم

الشنيع...).

- أخو الثريا: (شبح الشاطئ...).
- م. أ (من وجدة): (كيف أتخلص...).
- أحمد الوالي: (الزوجان المطلقان...).
- علام (السر الهائل. رجعة الحاج إبراهيم، عروس الأحلام، قدرة الله...)
- الراوي (مشكلة عويصة، ضحية السذاجة، من القاتل...).
- أسامة (قصة حب، ابن النفار، بوران ذات البهاء والجمال...).
- محمد الغواص: (عدالة السماء، من أعماق الماضي، نصيحة زوجة...).
- محمد بن عبد الجليل الوزاني: (قساوة أم...).
- العربي العمروي:(في الرمق الأخير...).
- عبد السلام السفياني: أنشودة الموت...).

11 - الملمح الوطني في بعض كتابات (السعادة):

بالرغم من أن (السعادة) كانت لسان الحماية الفرنسية في المغرب، فقد تسربت إليها بعض الكتابات والإبداعات ذات الأبعاد الوطنية، خاصة ما كان منها ينبش في التاريخ المشرق للمغرب[57]، وما كان يدعو إلى ضرورة إبراز الشخصية المغربية[58]، والتمسك بالقيم والأخلاق والعادات الحسنة التي يتميز بها المغاربة عن سواهم[59]، وما كان يتغنى بجمال بعض مدنها وقراها، أمثال مراكش وفاس ومكناس وإيفران وزرهون والجديدة وابزو[60]... إلخ.

وقد يكون هذا النفس الوطني المتردد في جسم (السعادة) من حين لآخر مقصودا من إدارتها،أو بايعاز منها، وذلك استمالة للقراء الذين كانوا يقفون منها موقف المنتقد لخطتها، أوإخفاء لرسالتها الإعلامية الاستعمارية، كما يفهم من مطالبة مديرها علي الطرابلسي لإدارة الحماية، وخاصة إدارة البريد، بنشر الإعلانات باللسانين الفرنسي والعربي، خدمة للمواطنين، ووفاء بما التزمت به

الدولة الحامية من حفظ للغة العربية في المغرب[61].

وكما يستفاد من احتفائها بالثقافة المغربية التقليدية واعتنائها برموزها الرسميين وذلك بنشرها لتقريظ أحد كبار العلماء المسلمين في المشرق العربي وهو محمد كرد علي لكتب أربعة علماء مغاربة، وهم من كتاب (السعادة)، هي:

- الإتحاف: لعبد الرحمان بن زيدان.
- تخريج الدلالات السمعية: لعبد الحي الكتاني.
- الفكر السامي: لمحمد بن الحسن الحجوي.
- حياة الوزان الفاسي وآثاره: لمحمد المهدي الحجوي.

12 ـ العناية بالأطفال:

في مطلع الخمسينيات طورت (السعادة) اهتمامها بالكتابة للطفل، وتمثل هذا التطوير في إعداد مواد أدبية وفنية وإبداعية خاصة به، تتمثل في:

- قصص مسلسلة: ألف ليلة وليلة.
- صانع الأعاجيب.
- جزيرة الأسرار: قصة مصورة.
- بيم وبام: قصص مصورة بدون نصوص.

بعد استعراضنا لظروف تأسيس جريدة (السعادة) وتوجهها وأهدافها، وتتبع أهم محطات مسيرتها الطويلة، والتعرف على أشهر مديريها ومحرريها ومراسليها وكتابها وشعرائها، وذكر أبرز أركانها وأعمدتها وصفحاتها، وتقديم الخطوط الكبرى لخطابها السياسي والأدبي، نفرد الشق الثاني من الدراسة للبحث في دورها الفاعل في تطوير الخطاب الإعلامي العربي بالمغرب. ومن أقوى الأسس والدعائم التي أقمنا عليها هذا الإقرار، ما يلي:

- إنها تعتبر أول جريدة صدرت بالعربية بالمغرب بالمعنى المهني للصحافة، بالرغم من صدور صحف عربية أخرى بالمغرب قبلها، مثل جريدة(المغرب) سنة

1889 بطنجة، وجريدة (تلغراف الريف) سنة 1901 بمليلية، أوصحف مزامنة لها، مثل (إظهار الحق) سنة 1904 بطنجة.

- إنها جريدة جامعة[62]، خاصة بعد انتظام صدورها، وزيادة صفحاتها ومبيعاتها بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء[63]، فقد تناولت- كما مثلنا لذلك من قبل وكما سنمثل من بعد- قضايا سياسية واجتماعية واقتصادية وأدبية إبداعية ونقدية وفنية ورياضية محلية وعربية ودولية.

وقد عززت (السعادة) إعلامها الدعائي حربيا وسياسيا أثناء الحرب العالمية الأولى، بإصدار نشرة استعلامية بعنوان «أخبار المغرب» تقوية لمعنويات المجندين المغاربة في الجبهة[64].

ودعمت إعلامها الإداري والاستيطاني بإصدار «الجريدة الرسمية» بالعربية في فاتح أبريل 1913، ومما تضمنه عددها الأول رسالة تنازل المولى عبد الحفيظ عن حقه في الملك.

ووسعت (السعادة) مجالاتها الثقافية بإصدار ملحق أدبي أسمته (النبوغ)، وهو مجلة « شهرية علمية تاريخية أدبية فنية أخلاقية اقتصادية».

صدر العدد الأول منها في فاتح يوليوز 1939 في 38 صفحة ملحقا بالعدد 4717 من الجريدة. وكان مما تضمنه مقامة في وصف مكناس لمحمد غريط.

بينما صدر العدد الثاني في 36 صفحة، وكان من بين مواده تحليل ديوان (أحلام الفجر) لعبد القادر حسن بقلم كاتب رمز لاسمه باسم (ناقد غيور).

ويبدو أن (االسعادة) ما لبثت أن عوضت (النبوغ) بإصدار ملاحق أسبوعية في حجم الجريدة، وذلك ما بين شتنبر 1939 ويناير 1940.

وإن اهتمامات (السعادة) المتعددة قد تطلبت منها تداول معجم صحافي لغوي وإعلامي قادر على استيعاب مقتضيات كل باب من أبوابها، والتوسل إلى التبليغ بطرائق مستحدثة ومناسبة في التناول لطبيعة كل منها، مما هيأها لأن تنهض بحمل لواء التحديث الإعلامي في المغرب.

ولعلها كانت أول جريدة مغربية تصدر بالعربية تضع فهرسا لمحتويات المواد المدرجة في أعدادها منذ مطلع العشرينيات الماضية.

ومن مظاهر تجديد (السعادة) كذلك انفتاحها على المرأة، وتخصيصها ببعض الأركان مثل(زاوية المرأة) (وصفحة المرأة)، ودفاعها عن حقها في التعليم والمشاركة الفاعلة في الحياة الاجتماعية [65]، وفتح صفحاتها لنشر بواكير ثمرات الأقلام النسائية[66].

ومن مظاهر التحديث الأدبي فيها أيضا احتضانها بوادر الشعر المنثور، فمن أقدم ما نشرت منه في هذا الباب قصيدة (الليل) [67]، التي جاء فيها:

«أنت ياليل

سر عميق من أسرار القدر

ولفظ غامض عجزت عنه أذهان البشر

ولغز صامت متكتم قد تنم عن بعض أسراره أشعة القمر

ولحظة أبدية خالدة يبدأ من حيث تنتهي.

وتنتهي من حيث تبدأ، وفي ذلك عبرة لأولي الفكر

فمتى ستتم؟، ومتى تعرف حقيقتك أنت ياليل؟».

وتعززت التجربة بنشر قصائد أخرى، منها هذه القصيدة التي صنفها صاحبها ضمن (الشعر الحر):

«نجوى أمام الغرير

اهدئي يا شجون

وانهزم يا يأس

ها هدير الماء يجذبني إليه، والوادي يتطلب صداقتي»[68].

وعلقت الجريدة على التجربة، بعد أن توالى نشر نماذج منها بقولها:

«من الشعر الفني المنثور تمثل نبوغ المغاربة والعبقرية لدى الشباب المغربي[69]».

وإذا كانت الصحف الوطنية قد أسهمت في مجال التحديث الفكري والأدبي إسهاما متميزا، فإن فضل (السعادة) قيدومة الصحافة العربية المغربية لا ينكر، في هذا الباب، خاصة في السبق والإعداد النفسي والتمهيد الذوقي والتعميم والارتقاء بعامة القراء المغاربة ذوي الثقافة التقليدية منذ منتصف العقد الأول من القرن الماضي، إلى مصاف القراء العصريين الذين كانوا يعيشون أحداث عصرهم ووقائعه لحظة بلحظة، ويتابعون تحولاته باهتمام، ويطالعون كتاباته التحليلية والفكرية والنقدية بوعي، ويتجاوبون وإبداعاته الأدبية والفنية بروح العصر ورؤيته ولغته ومصطلحاته وثقافته[70].

- إنها بحكم كونها لسان الحماية الفرنسية، وباعتبار ثقافة أغلب محرريها من مستعربين ومترجمين لبنانيين وشاميين[71] وجزائريين ومغاربة مزدوجة، وانطلاقا من تفتحها المفترض على مختلف الثقافات العالمية، وحرصا منها على الحفاظ على مستواها الثقافي والإعلامي، اهتمت بالتعريب ونقل الإبداعات والكتابات المترجمة عن الصحف المشرقية الواسعة الانتشار، مثل المقتطف والهلال ومجلة المكشوف البيروتية والرسالة المصرية، خاصة إبداعات الكتاب العالميين ذائعي الصيت أمثال: أنا تول فرانس وجي دي موباسان وجورج دوهاميل وإدجار آلان بو، وتولستوي وسومرست موم وطاغور وغيرهم كثير.

وفي هذه الإجراءات - كما لا يخفى - إغناء للغة الخطاب الإعلامي العربي في المغرب، وإثراء لأفكاره، وتوسيع لمواضيعه، وتعميق لقضاياه واهتماماته[72].

- إنها جريدة، منذ صدور عددها الأول في سنة 1904 إلى آخر عدد من أعدادها، وهو العدد 9864 بتاريخ 27 دجنبر 1956[73]، لم تضطر - مثل غيرها من الجرائد العربية الصادرة في المغرب، وخاصة الوطنية منها، إلى الانقطاع عن الصدور لأسباب مالية[74] أو تغريمية او قمعية أو رقابية[75]، بل على العكس من

ذلك ذللت لها جميع الصعاب، وأبيح لها خرق القوانين وتجاوز كل الموانع[76]، وعززت بأطر صحفية كفأة، وهيئت لها الأجواء لتملأ الفراغ الإعلامي الممنهج وفق ما كانت تصدره إدارة الحماية من قوانين وشروط تضيق الخناق على الصحافة الوطنية، وخاصة العربية منها، وتقيد حرية الصحفيين المغاربة بالرقابة وغيرها[77]. وتمنع دخول الصحف والمجلات العربية، وتعاقب كل من ضبط لديه شيء منها متسربا سريا[78]، بل تمنع أيضا جرائد المنطقة الخليفية في الشمال ومجلاتها من الوصول إلى المنطقة السطانية في الجنوب[79].

وقد استطاعت (السعادة) خلال مسيرتها الطويلة متقلبة فيها بين طنجة والرباط، أن تراكم تجارب إعلامية سياسية واجتماعية وثقافية متميزة مصطبغة بطوابع محلية وإقليمية خاصة، وأخرى مغربية وعربية ودولية عامة.

- إنها نجحت في تشكيل رأي عام مغربي عصري قارئ بالعربية[80]، من أشتات المتعلمين الشبان والمثقفين المتخرجين في المدارس والمعاهد الدينية التقليدية، لصرفهم عن قراءة الصحف العربية المشرقية، وإلهائم عن التشبع بما كانت تبثْه من أفكار وطنية، وتحاليل سياسية تفضح النوايا الاستعمارية لفرنسا في المغرب وفي الشمال الإفريقي عامة، وتحرض على انتقادها ومقاومتها[81].

وهكذا تمكنت (السعادة) من استقطاب العديد من العلماء والأدباء المغاربة، الذين وإن كانت غاية بعضهم من الاشتراك فيها، أو المداومة على قراءتها، تنحصر في حرصهم على معرفة حقائق السياسة الفرنسية في المغرب، فإن البعض الآخر - وخاصة الموظفين الرسميين والإداريين وشريحة من علماء القرويين والمتخرجين فيها - لم يصدهم موقفهم السياسي من توجهها الاستعماري[82] عن الإقبال على قراءتها، بل أكثر من ذلك عن الإقدام على نشر كتاباتهم وإبداعاتهم على صفحاتها بأسمائهم الحقيقية أو المستعارة[83]، الشيء الذي ساعدهم على التخلص المبكر من التصنع والتكلف، وتقليد الموروث واجترار المحفوظ، وهيأ لهم أكثر من غيرهم التمرس بالكتابة الصحفية، وامتلاك أدواتها الضرورية، والارتباط بواقعهم

وأحوالهم، وتطوير أساليب خطابهم الإعلامي زمنا غير يسير قبل السماح لبعض الصحف العربية المستقلة بالصدور، وزمنا أطول بالنسبة للصحف الوطنية التي لم يرخص لبعضها بالنشر لفترات متفرقة، إلا في الثلاثينيات وما بعدها.

ـ إنها أماطت اللثام في مرحلة مبكرة من الوجود الفرنسي في المغرب عن مواقع النزال التي خططت لها الإدارة الاستعمارية مع من افترضت اعتراضه طريقها في المغرب أو تصديه لمقاومة خططها، وهي مواقع كانت تتسع لتشمل الميادين السياسية والفكرية والأدبية والفنية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية. وغير خفي أن (السعادة) بكشفها لأوراق إدارة الحماية قد أتاحت للأقلام الوطنية الإعداد لمنازلة الأقلام الاستعمارية والذيلية في ساحات النزال التي كانت تفتتحها منازلة الند للند، ومكنتها من رد غاراتها منكسرة بفضل ما تسلحت به من روح وطنية، وما رافق ذلك من تعبئة شعبية عريضة، وما تخللها من حركات مقاومة مسلحة عفوية باديء الأمر، ثم بعد ذلك منظمة في العديد من الحواضر والجهات المغربية.

وأفادت الوطنية المغربية من ذلك كله إفادات اقتضتها طبيعة ردود الأفعال، فتعددت فرص ردودها بتعدد جبهات النزال، وتنوعت أساليبها بتنوع الأساليب المتخذة في الهجوم، مما كان له فضل في اغتناء معجم خطابها الوطني بمفاهيم وطنية وقومية سياسية وثقافية ذات أبعاد تحررية فاعلة في نشر الوعي بالقضية الوطنية، وترسيخ الرغبة في الانعتاق، والنفخ في جذوة المقاومة بمفاهيم وطنية حماسية تحريرية، الشيء الذي عجل بطي المرحلة، واسترجاع المغرب لسيادته وحريته في نحو نصف قرن من الاحتلال الفعلي.

ـ وعلاوة على ذلك تعتبر (السعادة) سجلا حيا يزخر بالأحداث وتواريخها الدقيقة، وصورها الموثقة، وأسماء أطرافها الفاعلة، وهي بأهميتها التسجيلية هاته لا غنى للباحثين عامة عنها، خاصة الباحثين في تاريخ المغرب الحديث وتحولاته السياسية والإدارية والفكرية والأدبية والإعلامية والفنية والحضارية، وحياته

الاجتماعية والاقتصادية والرياضية، مع وجوب أخذ أسلوبها في تكييف الأحداث، وطرائق عرضها بحسب وجهة النظر الاستعمارية، بعين الحيطة والحذر.

فمن الأحداث التاريخية والسياسية والإدارية والعسكرية:

- تواريخ العمليات العسكرية الفرنسية واحتلال المدن والقرى والأقاليم المغربية منذ مقتل الطبيب موشان بمراكش سنة 1907 إلى أواسط الثلاثينيات من القرن نفسه التي تم فيها إسكات بنادق المقاومة الشعبية المغربية.

- توثيق حركات المقاومة الشعبية المغربية المسلحة، مثل انتفاضة الشاوية وأحداث الدار البيضاء سنة 1907، وحركات ماء العينين وابنه أحمد الهبة والقائد أنفلوس في الجنوب وموحا وحمو الزياني وموحا وسعيد وعلي امهاوش في الأطلس وبني مكيلد وتادلة ودمنات وبني مطير في الأطلس وسفوحه، وباعلي بناحية تافلالت.. إلخ ومثل حركات المقاومة المسلحة الفدائية التي انطلقت في أكبر المدن المغربية منذ مطلع الخمسينيات.

- توثيق الحركات الاحتجاجية السلمية التي كان المغاربة يجابهون بها إصدار القرارات السياسية الجائرة الرامية إلى انتزاع الأراضي واغتصاب المياه، مثل حوادث وادي بوفكران بناحية مكناس في شتنبر 1937[84]، أو القرارات التي تحظر الأنشطة السياسية[85] وتضيق الخناق على العمل الحزبي مثل حوادث الخميسات في أكتوبر 1937 إثر توزيع مناشير الحزب الوطني لتحقيق المطالب المغربية[86]... إلخ.

- متابعة أنشطة مجالس شورى الحكومية والبلديات في مختلف مستوياتها ومناسباتها، و(السعادة) في هذا الباب سجل حافل بالتجارب والممارسات الإدارية في عهد الحماية[87].

ومن رصد (السعادة) للتطورات الثقافية والحضارية والتحولات الاجتماعية التي عرفها المجتمع المغربي خلال عهد الحماية:

- حفظ جانب كبير من بيبليوغرافية المسرحيات التي عرضت على خشبات المسارح في أهم المدن والمناطق المغربية، وأسماء الممثلين والمخرجين، والتعليق على أغلب العروض.

- حفظ أرشيف كبير من أسماء الجمعيات الاجتماعية والخيرية والثقافية والاقتصادية والفنية والرياضية والطلابية.

- توثيق تواريخ تدشين المعالم الحضارية المنشأة في عهد الحماية من مصالح إدارية وبنكية ومصانع ومعامل وأسواق ومعارض[88] ومسارح ومسابح ودور سينما ومستشفيات ومستوصفات وطرق[89] وقناطر[90] وسدود ومحطات السكك الحديدية[91] ومدارس ومعاهد وخزائن الكتب والوثائق[92]..

- توثيق المؤتمرات والأحداث الفنية والمناسبات المسرحية والموسيقية والسينمائية التاريخية المنعقدة داخل المغرب وخارجه، من ذلك:

• مؤتمر اللغة والفنون العربية بتونس في دجنبر 1931، وقد مثل المغرب فيه: أبو شعيب الدكالي، وعبد الرحمان بن زيدان، وعبد الحي الكتاني.

• زيارة فرقة فاطمة رشدي لأهم المدن المغربية سنة 1932[93].

• زيارة فرقة منيرفا وديع الصايغ، وتمثيلها مسرحية (الرسائل المحروقة) بمسرح أبي الجنود بفاس أواخر يناير سنة 1949.

• مؤتمر الموسيقى العربية بالقاهرة، سنة 1932[94].

• زيارة فرقة منيرة المهدية، سنة 1932.

• مؤتمر الموسيقى المغربيةبفاس(6-10 مايو 1939) [95].

• الاحتفال بتحليق أول طائرة تصنع في المغرب يوم 09/03/1939.

• زيارة الموسيقار العربي سليم الهلالي، سنة 1946.

• تصوير أول شريط سينمائي غنائي مغربي ناطق بعنوان (سلمى)، سنة 1933، وهو من إخراج شركة أوديون.

• تصوير أول شريط سينمائي عربي بالمغرب بعنوان (ابن القدر) سنة 1946.

- توثيق دقائق الحياة الاجتماعية اليومية للمواطن المغربي بتحديد أنواع منتوجاته، وأثمان مبيعاته ومشترياته، وأمراضه، ومشاكله، وانشغالاته وأنواع الكوارث الطبيعية التي كان عرضة لها هو وأهله وممتلكاته من أمراض وجراد وجفاف وجدب وحرائق وفيضانات..إلخ.

وختاما نرى أنه إذا كان موقف المثقفين الوطنيين، وكل من كانت له غيرة وطنية على المغرب، من جريدة (السعادة)، أيام كانت ناطقة بلسان الحماية الفرنسية، موقفا وطنيا يستوجب مقاطعتها بل محاربتها أيضا، فإن أسس هذا الموقف الوطني قد زالت بزوال نظام الحماية، وبانقطاعها تبعا لذلك عن الصدور، وكما أن الوطن ينتفع الآن بالكثير من المنجزات الحضارية التي أنشأتها سلطات الحماية لخدمة أغراضها الاستعمارية الخاصة، مثل الطرق والسكك الحديدية والمناجم والضيعات والتعمير..إلخ - وكل ذلك تم على أرضه وبأمواله ومواده وسواعد أبنائه - فمن الأولى الإفادة أيضا من الحصيلة الإعلامية والثقافية والفنية لعهد الحماية، وعلى رأسها ذخيرة جريدة (السعادة). مع أخذ موقعها في نظام الحماية بعين الاعتبار.

وإننا بالمناسبة لندعو المسؤولين في الخزانة العامة بالرباط، ووزارة الشؤون الثقافية، إلى استكمال أعدادها الناقصة بتجميعها من بعض الخزائن العامة والخاصة، واستنساخها استنساخاً جيدا، سهل التناول، يمكن الباحثين من الاطلاع المباشر عليها، لما في ذلك من إغناء للبحث العلمي في المغرب وتعميقه وتأصيله.

❐ ❐ ❐

هوامش

1- يختلف الباحثون في نشأة الصحافة المغربية في تحديد تاريخ صدور العدد الأول من جريدة (السعادة)، ولا يقتصر هذا الاختلاف على تعيين اليوم، بل يتعداه إلى الشهر والسنة (بعضهم حدده في أكتوبر، وآخرون في نونبر، والبعض الآخر جعل السنة 1905).

وقد ترددت إشارات الجريدة لقرائها في بعض المناسبات غير المنتظمة، وغير الموافقة لتاريخ العدد المنشورة فيه، يفهم منها أن تاريخ الصدور كان في غرة محرم (ع 2282-23/09/1921)، وأخرى يفهم منها أنه كان في 15 نونبر (ع 7049 ص1- 28/08/1947)، لكن إجراء عملية التوفيق بين التاريخين الهجري والميلادي لا تسفر عن التوافق بين أي من تلك الإشارات.

والثابت أن أقدم عدد كان موجودا في السبعينيات في مجموعة (السعادة) بالخزانة العامة بالرباط، هو العدد 12 المؤرخ في 19 شوال سنة 1322 موافق 25/12/1904).

2- المغرب العربي في خطر، درمونة، دار الطباعة الحديثة القاهرة، 1956- ص145.

3- الصحافة المغربية نشأتها وتطورها، زين العابدين الكتاني، نشر وزارة الأنباء، الرباط، (د.ت) ج1، ص 150، وقبائل المغرب، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1968، ج1، ص 178.

4- وصدرت نشرات وتآليف أخرى يرجع إلى عناوين بعضها في (الصحافة المغربية، الكتاني ص 178.)

5- السعادة، جامع بيضا، معلمة المغرب، ج 15 ص 4982.

6- السعادة، ع 98، ص 3، والصحافة المغربية، الكتاني، ج1 ص 148، 149.

7- وقد خلفتها في الدعاية لفرنسا في طنجة جريدة «الترقي» (صدرت سنة 1331/1912، وتوقفت سنة 1343/1924) التي أسندت إدارتها إلى لادبيش ماروكان التابعة سياسيا وماليا لوزارة الخارجية الفرنسية. (حياة وجهاد، محمد حسن الوزاني، مطبعة المتوسط، بيروت، 1982، ج1، ص 305.)

8- وربما نجد في هذا التوجه تفسيرا لتعاطي وديع كرم في هذه المرحلة للإبداع الأدبي والقصصي، فمن قصصه المنشورة على صفحات (السعادة): نفسي فداك ع724، ص5-1914 والشقيقان ع 738 ص 5-20/05/1914، والحصان العربي..إلخ.

9- مثل: «الأهرام» و«السياسة» و«الهلال» و«الرابطة» و«المنصور» (مصر)، و«المعارف» (العراق) و«الصواب» «والنهضة» «والزهرة» (تونس).

10- ورقة مستقلة عن مواد العدد، غير مرقمة، ملحقة بالعدد ع129-04/04/1907.

11 - ع 724، ص1- 01/04/1914.

12 - ع 4429 ص 2- 23/03/1937.

13 - ع 4485 ص2 - 23/10/1937.

14 - ع 4457 ص6-16/07/1937.

15 - ع 4457 ص6-16/07/1937.

16 - ع 4574 ص 1و2- 01/07/1938.

17 - نفسه ص،1.

18 - ع 4418 ص1و2-06/02/1937.

19 - ع3807 ص1-17/03/1932، ع3808 ص1و2-19/03/1932، ع3809 ص1و2-22/03/1932.

20 - ع 4561 ص 2 - يونيو 1938.

21 - ع 4590 ص 2- 09/08/1938.

22 - ع 4509 ص 2 - 25/01/1938.

23 - ع 2347، 2 ص3 -08/03/1922.

24 - ع 9418 ص 5- 11/07/1955.

25 - ع 4039 ص1- 21/10/1933.

26 - يرجع الى عناوين بعضها في الهامشين: 65 و66 الآتيين.

27 - مقالة الوزير ابن غبريط 1934.

28 - مثل: ع 126، ص 1و2- 14/03/1907 و ع 127 ص1و2- 21/03/1907 و ع 1388 ص1-20/12/1916) و ع 4082 - 10/02/1334.

29 - مثل: ع 4444 سنة 1937 و ع 6588- 10/01/1946، و ع 6598.

30 - مثل العيد الوطني الفرنسي في 14 يوليوز من كل سنة، ومناسبة تحرير باريس سنة 1944.

31 - مثل تهنئة (بو) محمد بوجندار لليوطي بالمارشالية. في أبريل 1921.

32 - ع 2346 ص2-06/03/1922.

33 - ع 3646 ص 3 07/02/1931.

34 - ع 6206 ص 2.1- 22/08/1944.

35 - ع 4877 ص 1و2 - 15/02/1940.

36 - ع 242- 18/12/1908.

37 - ع 4675 ص 1- 16/03/1939.

38 - ع 4771 ص 1و2 - 06/10/1939.

39 - ع 4776 ص 1- 12/10/1939.

40 - ع 4782 ص 1-19/10/1939. ع 4783 ص 1- 20/10/1939.

41 - ع 4706 ص 1و2 - 18/11/1939.

42 - ع 4809 ص 1و2 - 23/11/1939. ع 4810 ص 1و2 - 24/11/1939.

43 - ع 4833 ص1و2- 21/12/1939. ع 4839 ص 1و2 - 30/12/1939.

44 - ع 4864 ص 1 -30/01/1940.

45 - ع 3253، ص1-1928.

46 - ع 3255، ص1-1928.

47 - ع 3847، ص1و2 25/06/1932.

48 - ع 4085، ص1 -20/02/1934.

49 - ع 4271، ص4 -14/09/1935.

50 - ع 4423، ص2 -25/02/1937.

51 - ع 211 -29/09/1908.

52 - ع 2231، ص1و2 -19/05/1921.

53 - ع 2203، ص4.

54 - ع 137، ص1 و4-30/05/1907.

55 - ع 7657، ص2 و4 -17/09/1949.

56 - ع 7664، ص2 و4-25/09/1949.

57 - مثل:- الشريف الادريسي أكبر جغرافي عربي مغربي، محمد الفاسي ع 4924 ص1و2- 11/04/1940.

- الآداب العربية بالمغرب الأقصى أيام الأدارسة، محمد الفاسي، ع 4931 ص 3و4- 19/04/1940.

- وقد قامت المسرحيات التاريخية بهذا الدور أحسن قيام لما تمتاز به من دقة التشخيص وقوة التأثير، وكانت (السعادة) ذاكرة واعية لملخصات الكثير من العروض المسرحية، وسجلا

حافظا لما كتب حول بعضها.

58 - أدبنا وبعض أدباء الشرق، مجهول ع 4603 ص 2- 10/09/1938. حاجتنا إلى مؤلفات مغربية، فتى الحي ع 7678 ص 2 اكتوبر 1949. بين السعادة وقرائها مجهول ع 7676 ص 2- 11/10/1949.

59 - شعارنا وعوائدنا، أحمد النميشي ع 3754 ص 1و2- 04/11/1931.

60 - من ذلك ما كتبه محمد الأوراوي عن مراكش وجمال طبيعتها ومعالمها الأثرية وتاريخها في أربع مقالات: ع3748 ص1- 20/10/1931 و ع 3756 ص1 -10 /11/1931 و ع 3823 و ع 3838. وما كتبه ياكب (يوسف كرم) عن فاس ومكناس، وما نظمه من أشعار عن إيفران كل من محمد عواد وأحمد سكيرج وصالح أبورزق، وشاعر الجنوب.. وغيرهم، وما كتب عن الجديدة وابزو..إلخ.

61 - ع 2349، ص 1- 13/03/1922.

62 - يتضح مطمحها هذا من بيانها الإعلامي المحدد لمجالات اهتماماتها منذ صدورها سنة 1904: «جريدة أسبوعية سياسية أدبية تجارية»، وهو بيان لم تتغير فيه غير كلمة (تجارية)، التي جعلت بدلها (اقتصادية)، وذلك في مطلع العقد الثاني من القرن الماضي.

63 - كانت (السعادة) في سنتها الأولى نشرة متواضعة، لا تزيد صفحاتها عن الأربع، ولا يطبع منها سوى 75 نسخة. وفي السنة الثانية ارتفع عدد نسخها إلى 500 نسخة. وفي السنة الثالثة تجاوز العدد أحيانا 800 نسخة، وبعد مؤتمر الجزيرة انتظم صدورها مرتين في الأسبوع، وارتفع عدد نسخها إلى 1500 نسخة، مع زيادة صفحتين،ثم صارت بعد ذلك يومية.

64 - حياة وجهاد، الوزاني، ج1، ص 308.

65 - من ذلك نشر فعاليات تدشين أول مدرسة للبنات وما ألقي بالمناسبة من خطب، ع 4288، ص 11-13 - 08 /11/1935وتعددت مثل هذه الفعاليات بتعدد مناسبات تدشين مدارس البنات في أهم المدن المغربية.

ومن ذلك أيضا العديد من المقالات المتعلقة بتربية المرأة وتعلمها، مثل:

- تعليق على تدشين مدرسة للبنات بالرباط(مدرسة مولاي رشيد)، الأصمعي ع 4289 ص 1-09/11/1935.

- تعلم الفتاة المسلمة، محمد الطيب عواد، ع 4296، ص 1و2 -24/12/1935.

- المرأة والتربية، أبو البقاء، ع 4749، ص 4 -10/09/1939.

- تعليم البنات بالمغرب، ع 6133، ص 1و2 - 26/05/1944.

66 - مثل: - بشرى وأي بشرى، الفتاة العدوية، ع 4584، ص 4 - 26/07/1938.
- العلم والأخلاق، ثريا الشاوي، ع 6316، ص2-18/01/1945
- المرأة أستاذ العالم، فاطمة حجاج، ع 6395، ص 2-06/04/1945.

67 - كاتبها (ح)، السعادة ع 4641، ص 2-17/12/1938.

68 - كاتبها (م.جي)، السعادة ع 4651، ص2 -17/12/1938.

69 - ع 4712، ص2- 20/06/139.

70 - يرجع مثلا إلى انتقاد ابن الموقت لظاهرة إقبال الشبان المغاربة على مطالعة الصحف، وعزوفهم عن مطالعة الكتب الدينية، وقوله «ومن مساوئ غالب العصر خصوصا الشبان منهم عكوفهم على قراءة الجرائد الهزلية التي هي أشبه شيء بالخرافات الإسرائيلية» (الرحلة المراكشية ج 2 ص 114) وقوله بعد أن أقر لها ببعض المزايا «وأما وجود المضرة في بقائها فكثيرة منها دبيب الفساد إلى أخلاق العامة لكثرة ما يقرأون ويسمعون من ألفاظ السباب، وإذا فسدت الأخلاق في أمة فقد فسد فيها كل شيء.. » نفسه، ص 53.

71 - مثل ياكب (يوسف كرم) الذي تولى بها قلم الترجمة من مفتتح سنة 1917 الى تاريخ تقاعده ومغادرته للمغرب نهائيا في أكتوبر 1935، وكان يتعاون معه في الترجمة أحيانا عبد السلام بن يوسف. وقد ذكر في ترجمته أن منشوراته بالسعادة تجاوزت 400 مادة ما بين المترجمة والموضوعة نثرا وشعرا (ع 4282 ص 1و2- 19/10/1935) من مؤلفاته» وصف بلاد فرنسا والمغرب الأقصى من الوجهة الاقتصادية».

72 - لقد اعترف للصحافة عموما بهذه الفضيلة وغيرها ابن الموقت - وهو من أشد المنتقدين لشيوع ظاهرة مطالعة الجرائد والمجلات بين الشبان المغاربة كما أشرنا إلى ذلك في الهامش 70 أعلاه، فقال: «إن بقاء تلك الصحف على الحال التي هي عليها عنوان على وجود الحرية في البلاد التي تنشر فيها، ومنها انتشار اللغة في الجملة بانتشار تلك الصحف فإنك لا تعدم أن تجد في صحائف الأسبوع أسلوبا رقيقا، ومعنى دقيقا، يعزز وجودهما» (الرحلة المراكشية، ج2، ص53).

73 - تحولت (السعادة) في السنة نفسها إلى جريدة حكومية يومية تحمل اسم (العهد الجديد) ثم ما لبثت أن غيرته فصار (الفجر)، ثم (الأنباء)، وأخيرا ضمت إليها صحيفة (جريدتك) فصار اسمها (الأنباء جريدتك).

74 - نشرت (السعادة) بيان حقيقة ردت فيه على صحيفة عربية فلسطينية نقلت عن جريدة فرنسية، خبرا مفاده ان حكومة الحماية تنفق على جريدة (السعادة) سنويا مبلغ ثمانية آلاف فرنك، فاتهمتها بعدم التحري وبالتزييف، وقالت:

«وحقيقة الأمر أن قوام (السعادة) من متحصل اشتراكاتها، وهي تعد بالألوف، وبيع أعدادها بكافة مدن الإيالة، وريع ماتنشره من إعلانات تزداد ازديادا مستمرا.

نعم إنها تعتبر لسان حال حكومة الحماية التي تمنحها بهذه الصفة ـ وفق العادة المألوفة ـ تعويضا سنويا يزيد مجموعه بقليل على نصف ربع ذلك المبلغ الطائل المتحدث عنه بغير ترو.

أما مصلحة مراقبة الصحافة العربية، وهي مصلحة إدارية محضة منعزلة تماما عن الجريدة، فتبلغ موازنتها السنوية زهاء 200 ألف فرنك» ع 3970 ص 2- 1933، مع تصحيح بعض المعطيات في ع 3971 ص 2.

75 ـ يقول درمونة عن بعض العقوبات التي كانت تتعرض لها الصحف والصحفيون المغاربة: «كانت تعرض للغرامة النقدية التي تصل أحيانا إلى 30 مليون فرنك والسجن 5 سنوات، بالإضافة إلى قرارات التعطيل الإدارية». (المغرب العربي في خطر،ص 158.)

76 ـ يرجع إلى (المرجع نفسه، ص 148، 149 و 163،162)، وكانت الصحافة الذيلية المأجورة تحظى بما تحظى به الصحافة العربية الرسمية. (نفسه165).

77 ـ كانت الصحافة المغربية تخضع لمرسوم 27/04/1914، المشدد بمرسوم 20/12/1920 ثم بمرسوم 26/06/1936، ومرسوم 18/10/1938 ومرسوم 20/12/1951. وكانت الصحف المرخص لها بالصدور تحت رحمة القائد الأعلى لجيوش الاحتلال، وتتم محاكمتها إذا خالفت القانون أمام القضاء الفرنسي. ومن جهة أخرى كانت إدارة الحماية تحول دون تسرب الصحافة المغربية إلى البوادي، وتعاقب الشركات التي تنشر إعلانات على صفحاتها، وتعاقب المشتركين فيها والباعة القارين والمتجولين والمراسلين، إلا بشروط يعز توفرها في عامة الناس (نفسه، ص 155، 156 و 162، 163 وحرب القلم، الوزاني ج 3 ص 9 وما بعدها.) ويرجع إلى محنة (عمل الشعب) وصاحبها في (المغرب العربي في خطر، درمونة ص 154. 155).

78 ـ يقول درمونة في هذا الصدد: «إن مراكش (يعني المغرب) قضت حقبة طويلة لا تملك أية صحيفة، بل لا تعيش إلا على بعض الصحافة العربية الواردة من الشرق والتي يتعرض باعتها إلى أهوال وعقوبات أفظع من القوانين التي تطبق على بائع المخدرات والاتجار في المواد المحرمة» ص 152.

79 ـ وثائق تشهد، محمد ابن عزوز حكيم، (د.ط)، الرباط، 1980، ج1، ص 160.

80 ـ يرجع إلى الهامشين 70 و72 أعلاه.

81 ـ وخاصة التي كانت تتعاطف مع المغرب وتدافع عنه، مثل: (المؤيد) و (اللواء) و(الفتح) المصرية، و(إقدام) التركية.

82 ـ كان بعضهم يسميها «الشقاوة»(حياة وجهاد، الوزاني ج 1، ص 304).

83 ـ قدر أحد الباحثين عدد كتابها بأكثر من خمس مئة كاتب وشاعر دون تمييز بين النوعين

(السعادة جامع بيضا، معلمة المغرب ج15 ص 4982). وإن العدد المرتفع لظاهرة الأسماء المستعارة ليؤشر للموقف السياسي - المسكوت عنه - لشريحة عريضة من الكتاب والشعراء المغاربة الذين لم يجدوا منبرا إعلاميا عربيا بالمغرب بدلا من (السعادة) ينشرون فيه كتاباتهم وإبداعاتهم، أو يؤشر لضعف تلك الإنتاجات، أو بعدها عن توجهات الصحف الوطنية ايام الترخيص لها بالصدور، أو خوفا - إن هم نشروا فيها - من الرقابة الفرنسية وما يمكن أن يترتب عنها من مضايقات. مع عدم اغفال ما كانت (السعادة) تسبغه على ما ينشر فيها من تهليل وترحيب وتنويه تشجيعا للكتاب واستقطابا إياهم، وإغراء لغيرهم بالاقتداء والاتباع. يرجع مثلا إلى (ع 3924، ص1-05/01/1933 وع110، ص 1.2-15/11/1906).

84 - يرجع إلى العدد 4471، ص1 و3- 04/09/1937.

85 - يرجع مثلا إلى قرار حل كتلة العمل المغربي، الذي أصدره الصدر الأعظم محمد المقري، وصادق عليه المقيم العام، ع 4429، ص 2- 23/03/1937.

86 - يرجع إلى العدد 4486، ص 1و4 - 27/10/1937.

87 - وقد شبهها عبد العزيز القري (بالوقائع المصرية) التي كانت «تنشر تحت إشراف الحكومة أخبار القطر المحلية والاخبار الخارجية، وقرارات الحكومة ولوائحها وما تسن من قوانين» (هكذا تسير العمل، العمل ع 1، ص8-10/11/1954).

88 - مثل: تأسيس معرض الدار البيضاء في ماي 1915.

89 - مثل تدشين طريق الدار البيضاء الرباط عبر تمارة في شتنبر 1915.

90 - مثل تدشين قنطرة الرباط سلا في شتنبر 1917.

91 - مثل وصول القطار إلى فاس قادما من الدار البيضاء لأول مرة في 19 فبراير 1915، ودخوله إلى تازة في 14 يوليو 1915.

92 - وقد تأخر إنشاء الخزانة العامة بالرباط إلى سنة 1922.

93 - يرجع إلى كلمة محمد الزغاري التي ألقاها أمام فرقة فاطمة رشدي (ع 3841 ص 3 و4- 11/06/1932)، وإلى الحفل التكريمي الذي أقيم لها بمراكش (ع 3851 ص 3). وإلى القصيدتين اللتين نظمهما صالح أبو رزق بمناسبة قدومها، وبمناسبة زيارتها للدار البيضاء (ع 3855 ص3).

94 - يرجع إلى ما كتبه عنه محمد الأوراوي في الأعداد (3799 ص1- 27/02/1932 و 3800 ص1- 01/03/1932 و 3801 ص 1و2- 03/03/1932).

95 - ع 4690 ص 1-22/04/1939.

❐ ❐ ❐

مكناس، فرساي المغرب

حسنة مازي*

تقديم:

يتناول هذا المقال السياحة بمكناس في عهد الحماية. وتكمن جدته في كون الباحثين في اقتصاد مرحلة الحماية أغفلوا القطاع السياحي، مع ما له من دور كبير في التنمية الاقتصادية، وانصب اهتمامهم على باقي القطاعات الاقتصادية الأخرى؛ من استيطان زراعي، وتربية مواشي، وصناعة، وتجارة، لما لعبته من دور كبير في التغيير الاجتماعي والاقتصادي الذي شهده المغرب في هذه المرحلة. ولكونها شكلت محور اشتغال المعمرين بالمغرب وأساس الثروة التي راكموها.

لقد شكل قطاع السياحة بمكناس موردا اقتصاديا مهما للمعمرين الذين كانوا يدركون أهمية الاستثمار في هذا المجال المتميز بكونه قطاع تجارة وصناعة وخدمات في آن واحد. مما يؤهله للمساهمة في تنمية عدة أنشطة اقتصادية موازية؛ من مطاعم، وفنادق، وحرف تقليدية، ونقل، وغيرها من الخدمات. كما تكمن أهمية المبادرة بالاستثمار في هذا المجال في كونه ظل إلى حدود مرحلة الحماية مجالا بكرا؛ إذ لم تكن مدينة مكناس، قبل هذه المرحلة، تحظى بزيارة السياح إلا نادرا.

* باحثة، تازة.

ولما كان قطاع السياحة في عهد الحماية مبحثا تاريخيا بكرا، فإنه يحفز الباحث في تاريخ مكناس لإلقاء مزيد من الضوء عليه من خلال الوقوف على أساليب تطوره، وعلى أهم ما استحدثه المعمرون لتنميته.

لقد أثار انتباهنا، عن مجتمع المدينة القديمة بمكناس في عهد الحماية، العدد الكبير من المقالات التي تعرف بالمنتوج السياحي بمكناس وبالمؤهلات الطبيعية والتاريخية للمدينة بشكل خاص والإقليم بشكل عام؛ إذ لم يدخر المهتمون بهذا القطاع مجهودا في إبراز كل ما يمكن أن يثير انتباه السائح ويغريه بزيارة مكناس. ولذلك سنحاول استغلال هذه المادة العلمية للتعريف بسياسة حكومة الحماية في هذا المجال وبمجهوداتها من أجل تنمية النشاط السياحي وفق النموذج الغربي. فكيف كانت وضعية السياحة بمكناس قبيل مرحلة الحماية؟ وما هي إستراتيجية التنمية التي تبنتها إدارة الحماية للنهوض بهذا القطاع؟ وهل حققت النتائج المبتغاة منها؟

1- وضع السياحة بمكناس قبيل مرحلة الحماية

كان عدد الأوربيين بمدينة مكناس قبيل مرحلة الحماية قليلا، إذ لم يكن بها إلا خمسة أفراد سنة 1911 إثر احتلالها من طرف القوات الفرنسية[1]؛ ذلك أن جل الأوربيين كانوا يستقرون بالمدن الساحلية، لتخوفهم من مغامرة التوغل في المدن الداخلية. وقد يكون تخوفهم ناتجا عن انتشار فكرة انعدام الأمن بالمغرب، التي روج لها الكتاب الاستعماريون لإعطاء مشروعية لغزوه. يضاف إلى حذر الأوربيين ضعف وسائل المواصلات بالمغرب التي كانت تعتمد على الدواب مما يتطلب من السائح وقتا طويلا للقيام بجولاته. زد على هذا عدم توفر وسائل العيش المريح التي تعود عليها الأوربي في بلده، من كهرباء وماء وتجهيزات وغيرها. كما أن مدينة مكناس لم تكن مجهزة بفنادق ترقى إلى مستوى طموحات السياح، فقد كان

الفندق الوحيد المؤهل لتلبية خدماتهم على أحسن وجه هو فندق السلطان الموجود بالمدينة القديمة[2]. غير أن موقعه هذا شكل مصدر إزعاج للسائح لاضطراره للمبيت والتوغل وسط المجتمع المكناسي الذي كانت عاداته تخالف عادات الأوربي.

بدأ اهتمام الأوربيين بالسياحة بمكناس يتغير مع احتلال المغرب من قبل القوات الفرنسية؛ إذ سيطر المعمرون على مناطق شاسعة من المغرب، واستطاعوا تمهيدها ونشر الأمن بها. وأصبح الأوربيون يشعرون بالأمان الذي تحرص عليه إدارة الحماية، ولما لمسوه في سكان المغرب من تعايش ودي مع المعمرين الذين لم يتعرضوا لأي شكل من أشكال التعنيف أو الأذى في أرواحهم وممتلكاتهم، فتغيرت نظرتهم للمغرب، وبدأ اهتمامهم بالسياحة وتطلعوا إلى التعرف على هذا البلد، والوقوف عن كثب على ما قرأوه في كتب المستكشفين أو الأسرى الأوربيين عن القيمة الجمالية والتاريخية للمغرب عموما ومكناس تحديدا.

وقد تعزز نجاح الأوربيين في الاستقرار في مكناس ببناء المدينة الجديدة سنة 1921، وتجهيزها بأحدث المعدات التي توفر الرفاهية. وأصبح بإمكان السياح زيارة مكناس، لأنها أضحت توفر الخدمات على أعلى مستوى على عكس ما كان قبل بناء المدينة الجديدة، حيث كان الأوربيون مضطرين للنزول في المدينة القديمة والاختلاط بالمجتمع المكناسي الذي كانت تقاليده تخالف عوائد السياح.

2- المؤهلات التاريخية والطبيعية

لا شك أن المعمرين كانوا يدركون أن مستقبل مدينة مكناس في المجال السياحي كبير، وأنه لا يرجع فقط إلى مبادرتهم الخاصة وطموحهم الكبير في النهوض بهذا القطاع، بل إن عوامل نجاحه كامنة في غنى المنطقة ثقافيا وتاريخيا وتنوعها طبيعيا. ولذلك استخدم الساهرون على القطاع السياحي كل طاقاتهم من أجل إبراز هذا الغنى ليكون مصدر إغراء للسياح. وسنوا مجموعة من التشريعات

من أجل الحفاظ على الموروث التاريخي والثقافي والطبيعي للمنطقة، كما أسست مجموعة من الإدارات للسهر على هذا الإرث لضمان بقائه على صورته الأصلية.

ـ الإرث التاريخي

يطلق على مكناس المدينة "البربرية" و"العاصمة الإسماعيلية". ويدل الاسم الأول على هوية منشئيها وعلى قدمها ورسوخها في التاريخ. غير أن اختيار مولاي إسماعيل لها لتكون عاصمة لمملكته هو ما جعل شهرتها تذيع في الآفاق. ذلك أن اسم مدينة مكناس يرتبط في ذهن الأوربي بالسلطان مولاي إسماعيل الذي انبهر بمعاصره لويس الرابع عشر، ورغب في محاباة مظاهر أبهة ملكه ببناء قصور تضاهي قصوره. ونجح في جعل فترة حكمه مرحلة بناء مستمر استطاع خلالها تأسيس عدد مهم من القصور والمنشآت العمرانية التي بوأت مدينة مكناس مرتبة تضاهي فرساي بفرنسا. فأصبحت الرغبة في المقارنة بين مكناس وفرساي، والوقوف على مدى أحقية مكناس بهذا الشبه من بين مشاغل الأوربيين. وهو ما جعل أحدهم يزور المدينة في محاولة لاكتشاف أوجه الشبه وهو ما تأكد له بالفعل[3]، مع أن المدينة كانت قد فقدت العديد من معالمها خلال فترة زيارته لها.

وبذلك فإن فضول المقارنة لم يكن حكرا على هذا الزائر، بل لا شك في أنه كان من بين أهم العوامل التي دفعت جل الفرنسيين لزيارة مكناس، لإشباع فضولهم والوقوف عن كثب على ضخامة ملك المولى إسماعيل التي قرؤوا عنها في الكتب.

وإذا كانت مدينة مكناس ترتبط في ذهن الأوربي بمولاي إسماعيل وقصبته ومنشآته إلا أن الإرث التاريخي والفني لمدينة مكناس كان أغنى من أن تكون مجرد عاصمة لمولاي إسماعيل؛ إذ اختزنت عبر حقبها التاريخية المتوالية زخما من المعالم التاريخية والفنية التي ترجع إلى عهود سابقة عن مولاي إسماعيل. فالمدينة العتيقة الماقبل إسماعيلية تزخر بالمنشآت العمرانية والفنية التي ترجع إلى عهود المرابطين

والموحدين والمرينيين. وعملت المصالح الساهرة على القطاع السياحي بمكناس على التعريف بها لتكميل الصورة عن الغنى التاريخي المكناسي، وبذلك فإن مدينة مكناس ليست مدينة مولاي اسماعيل فقط، بل إن غناها يعد في الواقع حصيلة تراكمات تاريخها العريق.

تتوفر مدينة مكناس على عدد هائل من المعالم التاريخية تشهد على عظمة الدول التي تعاقبت على حكم المغرب منذ عهد المرابطين؛ من أسوار هائلة، ومساجد عريقة، وأضرحة يؤمها الناس من مختلف مناطق المغرب، وسقايات، وقصور غناء، ومدارس تجسد أصالة النحت والتزويق المكناسي، ثم حبس قارة الذي لازال إنشاؤه وضخامته لغزا يحير كل السياح والمؤرخين. ولعل مدينة مكناس تشتهر بأبوابها الضخمة، وخاصة باب منصور العلج الذي تطبق شهرته الآفاق لكونه أجمل باب بالشمال الإفريقي. وتضم مدينة مكناس العديد من القصور التاريخية الغناء التي شيدتها شخصيات مخزنية، واستغلتها إدارة الحماية بمكناس كمصالح إدارية أو مدارس. وكانت هذه القصور تحظى بزيارة عدد كبير من الشخصيات الأوربية الهامة مما جعلها خير صورة إشهارية لأصالة الفنون المكناسية. ومن أهمها قصر دار الجامعي الذي كان مقرا لمصلحة الحرف والفنون الأهلية بمكناس وقصر الدار البيضاء الذي استغل لإنشاء المدرسة العسكرية وغيرهما.

وإذا كانت للعاصمة الإسماعيلية جاذبية لدى الأوربي، فإن في وليلي حنينا لمجد عريق يستحضره الأوربي كمحفز لأخذ القوة والمضي قدما لمواصلة أمجاد روما. وبذلك، فإن مما عزز المكانة السياحية لمدينة مكناس كونها تقع على مقربة من وليلي التي كانت موضع اهتمام علماء الآثار خلال مرحلة الحماية، فقد كان الهاجس الأساسي لهؤلاء العلماء هو العمل على إثبات تفوق الحضارة الرومانية، حيث كانوا يركزون في حفرياتهم على كل ما هو روماني غير مكترثين بتاريخ وليلي في الحقب اللاحقة.

ومع أن علم الآثار يخدم التاريخ فقد استخدمه الباحثون الأوربيون في مرحلة الحماية لتحقيق الأهداف الاستعمارية. غير أنه لعب دورا كبيرا في المجال السياحي[4]؛ إذ أن الكشوفات الأثرية التي تمت في وليلي أسالت لعاب الأوربيين للوقوف عن قرب على مظاهر رفعة حضارة روما، والتمتع بجمالية الموقع الأثري لوليلي ومآثره التاريخية؛ من قوس النصر، والمحكمة، ومعاصر الزيتون، إضافة إلى عدد مهم من الفسيفساء المتقنة الصنع التي تشهد على تطور علم الهندسة والبناء في تلك المرحلة.

ولا يمكن لسائح أوربي أن يزور وليلي دون أن يتطلع بأنظاره إلى مدينة مولاي إدريس زرهون، التي تشده إليها بموقعها المتميز وتاريخها العريق، ذلك أن "السائح الذي يدخل إلى مولاي إدريس يجد نفسه في قلب المغرب الديني"[5].

وهذا التطلع إلى اكتشاف أعرق مدينة إسلامية بالمغرب هو ما جعل السياح يشدون الرحال إليها، إضافة إلى أنها تكون في فترات معينة من السنة محجا لعدد وافر من المغاربة لإحياء بعض المواسم كعيد المولد النبوي. كما يتم بها إحياء موسم الطريقتين الدغوغية والحمدوشية.

ونظرا للبعد الثقافي والتاريخي ولجمالية البنايات الأثرية في مكناس وناحيتها، فإن إدارة الحماية أحاطتها بمجموعة من التشريعات للحفاظ عليها كموروث يستغل لتنمية القطاع السياحي. فأنشئت مصلحة الفنون الأهلية للحفاظ على الحرف الفنية. وكانت مصلحة الآثار والفنون الأهلية هي الإدارة المتحكمة في المعالم التاريخية بالمدينة، ولم تكن تسمح بالبناء في المدينة القديمة إلا وفق النمط المحلي. وتشددت مصلحة الآثار والفنون الأهلية في منع "إحداث أي بناء على النمط الأورباوي من شأنها أن تشوه محاسن الحومات الساكن بها الأهليون... ولا يمكن إحداث أي بناء إلا على النمط المغربي المعروف بالبناء المكناسي."[6]

وبهدف خدمة السياحة تم الحفاظ على المباني الأثرية بتصنيف العديد منها في عداد

الأبنية التاريخية، التي يطبق عليها قانون الأبنية الأثرية؛ بعدم انتهاكها أو هدمها أو البناء قربها إلا على بعد مسافة معينة للحيلولة دون حجبها. وتم تقييد العديد من المعالم في خانة المعالم التاريخية سواء داخل المدينة أو في إقليمها شملت الأسوار والقناطر، كقنطرة وادي النجا، ثم المساجد، كالمسجد الأعظم، والمدارس، كالبوعنانية ثم الفنادق، كفندق النجارين، كما تم تسجيل عدد مهم من السقايات ضمن المباني التاريخية الواجب الحفاظ عليها. وبلغ عدد السقايات التي حدد قرار وزيري الحفاظ عليها ثمانية، ومنها سقاية سبعة أنابيب[7]. وترجع ضرورة الحفاظ على السقايات لأهميتها التاريخية والجمالية؛ ذلك أن من بينها ما أسست في عهود سابقة كسقاية سبع أنابيب التي أنشأها المرينيون. وعلاوة على البعد الجمالي لسقاية سبع أنابيب ولكبر حجمها، فإن شكلها المعماري وإتقان نقوشها برهان على التطور الحضاري والفني الذي بلغه المغرب في العهد المريني. وتتميز معظم سقايات مدينة مكناس بجمالية كبيرة تتمثل في روعة الزليج الذي يزينها، إضافة إلى روعة الخط العربي الذي كتبت به سطور على واجهاتها.

ـ المؤهلات الطبيعية

حبت الطبيعة منطقة مكناس مناخا وتضاريس تعتبران، في حد ذاتهما، أسس ثروة سياحية وعطاء إلهيّاً مجانيا لا يمكن لأحد تصديره أو استيراده، بل يتوجب على كل راغب في التمتع بهذا الغنى السعي إليه في مكان وجوده. و تتميز تضاريس منطقة مكناس بالتنوع؛ إذ يوجد بها كل ما من شأنه أن يروق السائح من جبل، ووادي، وصحراء، وغابة، ومجالات خضراء، وتشتهر مكناس بعذوبة مائها ونقاء هوائها وبدرجة تشميس مهمة تغري الأوربيين المفتقدين لهذه الميزة في بلدانهم. ولا غرو، فإنها كانت قبلة المرضى بداء السل لملاءمة هوائها لعلاجه، وكانت مقصد كل الباحثين عن الراحة النفسية والصحية. ومما زاد من جاذبيتها كونها تقع في موضع يطل على منطقة ورزيغة ذات الحدائق الغناء التي كانت تاريخيا مأم سكان المدينة للنزهة والترويح عن النفس.

ويوجد داخل المجال الحضري للمدينة عدد مهم من الجنانات لإنتاج الفواكه والخضراوات، وهو ما ساهم في تلطيف هوائها ومتعة زائريها. وخير من يلخص محاسن مكناس ابن الخطيب الذي عاش بالأندلس وشهد بهاءها. وقد افتتن بمكناس ومدح جمالها وبوأها مرتبة تضاهي مصاف مدن الأندلس حسنا، فذكر مفاتنها من ماء وهواء، وطيب فواكه، واعتبر قربها من زرهون من بين مفاتنها. يقول ابن الخطيب:

حييت يا مكناسة الزيتون ... قد صح عذر الناظر المفتون

طيب الهواء وصحة الماء الذي ... يجري بها وسلامة المخزون

وكفاك شاهد حسنها وجمالها ... إن أوثرت بالقرب من زرهون[8]

ومما عزز القيمة الجمالية لمدينة مكناس كونها تقع قرب الأطلس المتوسط، الذي يوفر كل الإمكانيات الطبيعية لقيام السياحة والرياضة والهوايات من غابات وضايات وأودية وشلالات. وعزز مناخ الأطلس المتوسط مؤهلاته السياحية، إذ ساعد بفعل تساقط كمية مهمة من الثلوج به على قيام سياحة ترتبط بالتزلج.

وإدراكا من المعمرين لأهمية المناظر الطبيعية لمنطقة مكناس، فقد حاولوا استغلالها وتهيئتها لتصبح قابلة لقيام نشاط سياحي. ولضمان أن تظل هذه المناظر على حالتها الطبيعية، فإن إدارة الحماية أحاطتها على غرار المباني الأثرية بمجموعة من التشريعات للحيلولة دون تدخل الإنسان فيها. فتم تسجيل العديد من المناظر الطبيعية في جملة المناظر البهيجة، كمنظر الكديات بناحية مكناس الواقع قرب إفران. كما سجلت شلالات عين اللوح في عداد المناظر الطبيعية، ونص القرار الوزاري على "إحداث حرمة بداخل هذه المنطقة يمنع البناء فيها" ثم "عدم التنقيص من اتساع الأماكن المنجزة الموجودة وإبقاء الصخور على حالتها الحالية"، كما "منع النزول مؤقتا في هذه المنطقة ما عدا الدواوير التي فيها خيام من الأنماط الخاصة بالناحية". كما تم تقييد منظر بالمبيوم ضمن المناظر البهيجة[9].

3- الحماية وتنمية القطاع السياحي

لاشك في أن مدينة مكناس كانت تتوفر على أرضية ملائمة لقيام السياحة، لكن ثراء وتنوع الإمكانيات والمؤهلات السياحية لا يكفي وحده لتحقيق قطاع سياحي عصري ومربح، بل يتوجب تعزيزه ببنية تحتية قادرة على خدمة القطاع، وكذلك التعريف بهذه المؤهلات. وقد أشاد تاريخيا كل الزائرين لمكناس بجمالها، وانبهروا بغناها الطبيعي والتاريخي، وبحسن ضيافة أهلها، وبما يمكن أن توفره من متعة للسائح بوقوفه على اختلاف الحضارة المغربية عن مثيلتها الأوربية، إثر زيارته للمدينة العتيقة لمكناس[10]. وقد أثارت هذه التنويهات انتباه المعمرين لما يمكن أن يدره تنظيم القطاع السياحي من مداخيل مهمة، وبادروا إلى تجهيز المدينة وإقليمها بالبنية التحتية اللازمة لقيام السياحة وازدهارها. كما تبنوا استراتيجية متكاملة من أجل التعريف بالموروث الثقافي والتاريخي والطبيعي للمنطقة وبجودة الخدمات. فما هي التجهيزات والإجراءات العملية التي عزز بها المعمرون هذه البنية؟

ـ البنية التحتية

لعل أهم عقبة في وجه الاستغلال الاقتصادي لبلاد المغرب عموما ومكناس تحديدا هي تأخر وسائل النقل، وعدم وجود شبكة من الطرق. مما استلزم من المعمرين تجهيز البلاد بالطرق لتسهيل تنقل البضائع والأشخاص مدنيين وعسكريين. وهكذا مدت الطرق موازاة مع الغزو العسكري والاستيطان الزراعي والاستغلال المعدني. واستفادت السياحة بمكناس من شبكة الطرق التي تم مدها بالمدينة ومنطقتها. ونظرا لكون إقليم مكناس من أغنى المناطق الفلاحية بالمغرب، فقد حظي بتشييد شبكة مهمة من الطرق سواء الرئيسية أو الثانوية[11].

وبما أن مكناس كانت تعتبر قطب رحى المغرب، فإنها كانت المدينة المغربية الوحيدة التي تم ربطها بشبكة طرقية توصلها بكل جهات المغرب شماله وجنوبه وشرقه وغربه. وكانت لهذه الطرق أهمية اقتصادية و إدارية و عسكرية[12]. ومن

بين هذه الطرق ما تم مدها تحديدا بهدف خدمة السياحة، ومنها الطريق رقم 303 الرابطة بين أزرو وعين اللوح ومنابع أم الربيع، ثم الطريق رقم 309 الممتدة من الحاجب إلى إفران(13).

واستفادت السياحة بمكناس من مد خط سكة الحديد طنجة ـ فاس ومروره عبر تراب مكناس. كما اتخذت شركة سكة الحديد طنجة ـ فاس مقرها الرئيسي بهذه المدينة(14)، وهو ما سهل سفر السياح من طنجة إلى مكناس عبر القطار.

شكل بناء المدينة الجديدة بمكناس نقطة تحول جوهرية في مسار السياحة بالمدينة. ولا غرو، فقد هيأت للسائح نفس ظروف العيش المتوفرة في بلاده على مستوى الخدمات ونوعية السكن والتجهيزات. وكان من أهم ما سهر عليه المعمرون بمكناس هو إقامة سلسلة من الفنادق عالية المستوى، شيدت معظمها في أهم شوارع المدينة الجديدة؛ ومنها فندق وليلي وإكسيلسيور وكونتنونطال ونيس والفندق المركزي وعبر المحيط وغيرها. وتم إنشاء بعض الفنادق بالمدينة القديمة، منها فندق المغرب بدرب ابراهيم، وفندق باريس بروا أمزيل تم ريجينا وفكتوريا بدار السمن. وزودت مدينة مكناس بعدد مهم من المطاعم والحانات لتلبية حاجيات السائح الأوربي(15).

لعل أهم فندق تم تشييده بمدينة مكناس على الإطلاق هو فندق عبر المحيط، الذي كان يستهوي السياح ليس فقط بجودة الخدمات التي كان السياح يحظون بها مدة الإقامة به، بل أساسا لموقعه. فقد بني فندق عبر المحيط في مكان مرتفع يشرف على المدينة العتيقة في منظر رائع يمكن السائح الجالس في الفندق من التمتع بجمالية وأصالة المدينة العريقة، ومشاهدة صوامعها وأسوارها، حيث تظهر المدينة بجاذبية أكبر وإغراء لكل جالس في هذا الفندق للغوص في خباياها(16).

ولا تزال جل هذه الفنادق لحد الساعة تقدم خدماتها للسياح، بل إن منها من لم يفقد جاذبيته كفندق عبر المحيط.

وكما اهتم المعمرون بتوفير بنية سياحية ملائمة بالمدينة، فإنه لم يفتهم استغلال المعطيات الطبيعية لإقليم مكناس لما ستدره على السياحة من مداخيل مهمة. وفي هذا الإطار تم تأسيس عدة منتزهات وتجهيز عدة مواقع لخدمة السياحة.

وهكذا وقع الاختيار على موقع إفران لتقام به المدينة السياحية الوحيدة بالمغرب. وقد أشار موريس لوكلي Maurice Leglay منذ سنة 1914 إلى أهمية هذا الموقع، وجمال مناظره، وإمكانية قيام مدينة به، غير أن اقتراحه هذا لم يحظ بالتنفيذ في تلك السنة[17]. لكن جمالية موقع إفران لم تكن لتظل مهملة من قبل الأوربيين الذين يتمتعون بحس جمالي عال في اختيار مواقعهم السياحية. فقد درس المعمرون احتياجاتهم واحتياجات السياح، وقرروا أن خلق مدينة للسياحة الصيفية بالمغرب يكون مناخها شبيها بمناخ وطنهم الأم سيعزز السياحة الداخلية، ويحد من سفر المعمرين إلى الخارج كل صيف لقضاء عطلهم الصيفية. وكانت إفران توفر المرغوب فيه بتشابه مناخها مع مناخ فرنسا. **وكان المعمرون يعتبرونها جزءا صغيرا من فرنسا**[18]. وبذلك وضعت النواة الأولى لمدينة إفران سنة 1929، وتطورت لتصبح عاصمة السياحة بالأطلس المتوسط[19].

وقد كانت مدينة إفران من بين المدن المغربية القليلة التي تم تأسيسها في مرحلة الحماية لأغراض المعمرين، مثل بور ليوطي (القنيطرة حاليا) التي أسست كميناء للتصدير، وخريبكة لاستغلال الفسفاط، ووقع الاختيار على إفران لتكون مدينة سياحية.

وكما لم تهتم السلطات الفرنسية العليا وخاصة العسكرية بتقرير لوكلي عن إفران، فإن بداية إنشاء المدينة كانت متعثرة بفعل التخوف من أن تذهب المصاريف الكبيرة التي ستنفق من أجل تهيئتها سدى دون أن تجلب إليها السياح، لكون جل المعمرين المقيمين بالمغرب كانوا يسافرون إلى فرنسا بمجرد بداية عطلتهم الصيفية[20]. لكن مصير إفران بدأ يتحدد مع بداية تهيئتها، وتوفيرها للخدمات

اللازمة للسياح. وبعدما أسست بهدف توفير شروط سياحة صيفية ملائمة، فإنها تمكنت أيضا من استقطاب عدد كبير من المصطافين في فصل الشتاء، وهو ما لم يخطط له منشئوها.

زودت مدينة إفران بالبنية التحتية الملائمة للسياحة. وتم ربطها بخطوط مواصلات منتظمة يومية من مكناس وفاس، وتم إنشاء خط أسبوعي بينها وبين الرباط[21]. وأسس بها إلى حدود 1932 خمسة فنادق تتوفر على تجهيزات عالية[22]. وتطورت إفران إلى أن غدت من ضمن التراث السياحي المغربي بفضل المجهودات الكبيرة التي بذلت من أجل تهيئتها لاستقبال السياح والسهر على راحتهم.

بعد أن لاحظ المعمرون الإقبال الكبير الذي بدأت تعرفه إفران صيفا وشتاء، قرروا تأسيس محطة للسياحة الثلجية اختاروا لها موقع مشليفن ليستطيع السياح ممارسة لعبة التزلج التي أصبحت أكثر إغراء للشباب[23].

تم إحداث هذه المحطة منذ سنة 1937. وعملت إدارة الحماية على تنظيم التزلج بها وتوفير الظروف الملائمة لذلك. كما سهرت على عدم ضياع وقت الراغبين في التزلج بالسفر إلى المحطة دون أن تكون شروط التزلج متوفرة. ولتفادي التقلبات المناخية وأن يفاجأ الراغبون في التزلج، بعد وصولهم إلى مشليفن، بعدم توفر الأرضية الملائمة لذلك، فقد حرصت الإدارة المكلفة بتعيين موظف خبير بالشؤون المناخية لمتابعة حالة الطقس بمشليفن والاتصال بإفران عبر خط هاتفي أحدث لهذا الغرض للتبليغ بالحالة المناخية للمحطة؛ ثم نشر هذه الأخبار عبر المذياع والصحف لتبديد الشكوك قبل انطلاق الهواة إلى مشليفن[24].

وكان المعمرون يودون خلق المزيد من محطات التزلج، حيث توفر الطبيعة إمكانية قيام هذه الرياضة ببويبلان على بعد 56 كلم من هرمومو، وبآزرو على بعد 20 كلم من زاوية أحنصال. لكن عدم توفر الطرق السالكة لهذه المناطق وقف حجرة عثرة أمام هذه المشاريع[25].

وإذا كان إحداث مدينة إفران ومحطة مشليفن قد تم بمبادرة من إدارة الحماية، فإن من المعمرين المكناسيين من بادر بإقامة منتزه متكامل لخدمة السياحة وهو ما سهر عليه إيميل بانيو Emile Pagnon بناحية مكناس، حيث أقام منتزها استغل فيه المعطيات الطبيعية التي يوفرها موقع دار أم السلطان. وسمى هذا المنتزه بالسهب السعيد. وجهزه بتجهيزات مع أنها بسيطة إلا أنها كانت ذات جمالية كبيرة، استغل فيها وجود شلال بهذا الموقع، وكذلك غزارة المجاري المائية التي استفاد منها لخلق تشكيلات هندسية متقنة لجريان المياه، وتم زرع العديد من الأشجار والنباتات والورود الجميلة الشكل والمنظر. ولازالت آثار السهب السعيد، في دار أم السلطان على الطريق المؤدية من مكناس إلى الرباط، شاخصة لحد الآن دالة على الحس الجمالي الكبير الذي كان يتمتع به هذا المعمر.

وفي نفس إطار دعم السياحة نجد هذا المعمر يعرض على مكتب السياحة المساعدة لتوفير مكان لإقامة مسالك للكولف، التي بقيت معلقة لمدة طويلة فمنح لشركة استغلال الكولف قطعة أرضية من حوالي 30 هكتارا توجد كامتداد للسهب السعيد وتعهد بانيو بتوفير الماء الضروري للسقي[26].

وعموما فقد بذل هذا المعمر جهودا جبارة لدعم السياحة بمكناس، بخلقه لعدة تجهيزات سياحية أو المساهمة في أخرى. وإننا لا نؤكد على هذا الدعم وكأنه عمل خيري، بل إن الرجل كان مستثمرا في القطاع السياحي، ويمتلك فندق ووليلي بمكناس، وكان يدرك جيدا ما يمكن أن تدره عليه هذه التجهيزات التكميلية من حديقة وملعب للكولف من موارد مالية مهمة، لأنهما ستكونان وسيلتين للدعاية لمشاريعه وفندقه. وربما مجرد وجود هاتين المعلمتين بمحاذاة ضيعات العنب التي أنشأها خارج تولال، وكان يسميها ب ضيعة تولال، كان يثير فضول السياح حول علاقة خمر تولال ب بانيو، فيكون ذلك وسيلة إشهارية للخمر التي تنتجها ضيعاته. وكانت تستهلك بفنادق المدينة وتقدم للسياح مجانا في الفنادق التي كانت في ملكيته، وهي الفندق الكبير بفاس ووليلي بمكناس، لتذوقها على نفقة صاحب المحل[27].

ألا يمكن اعتبار تجربة إيميل بانيو نموذجاً يحتذي به المستثمرون في مجال النهوض بالمجال السياحي؟

ـ على المستوى التنظيمي

تم خلق مندوبية للسياحة بمكناس للسهر على تنظيم قطاع السياحة. وكانت أولى الخطوات التنظيمية، بعد توفير البنية التحتية الملائمة للسياحة، هو إصدار دليل سياحي للتعريف بالمدينة وإقليمها. وقد كانت مدينة مكناس سباقة لإصدار دليل سياحي، كان بمثابة بطاقة تعريف للمدينة، إذ أعطى نبذة موجزة عن تاريخ المدينة، ثم عرف بأهم المعالم التاريخية بها وبمؤهلاتها السياحية[28].

ركز المهتمون بالقطاع السياحي على ضرورة ضمان جودة الخدمات السياحية بالمغرب. وبما أن نجاح السياحة رهين بإرضاء رغبات السائح، وأن محور السياحة هو الإنسان، فقد شدد المهتمون بالقطاع السياحي على ضرورة التحلي بالروح الإنسانية في التعامل مع السائح، لأنهم كانوا يعتبرون أن أول شرط لنجاح السياحة هو التأدب في التعامل مع السائح، وأشادوا بالتجربة الإيطالية في مجال الخدمات السياحية، واعتبروها نموذجا يجب على الساهرين على القطاع السياحي بمكناس الاقتداء به[29]. وبدأ التركيز على ضرورة تكوين الأطر المتخصصة في المجال السياحي لضمان جودة الخدمات، التي يلعب فيها الإنسان دورا كبيرا بإقناع السائح بأهمية زيارة المدينة، وبإرضائه بحسن استقباله وإرشاده وتقديم الخدمات له على أعلى مستوى.

كانت الموارد البشرية بالقطاع السياحي بمكناس تتكون من الأوربيين والمكناسيين. وتخصص المكناسيون في الإرشاد السياحي لأنهم كانوا أدرى بأزقة المدينة ودروبها وعادات سكانها، وكانوا الأقدر على إرشاد السائح في جولاته دون أن يتعرض لمكروه وسط دروب وأزقة المدينة القديمة. لكن هذه الطاقات البشرية المكناسية كانت تحتاج إلى تنظيم وتأهيل من أجل قيامها بمهامها على أحسن

وجه، وهو ما عملت إدارة الحماية على السهر عليه، فاختارت نظام الحنطة ليكون إطارا لهؤلاء المهنيين بما يضمنه من نزاهة وصرامة وتعامل أفضل للأطر مع السياح، ولتوفير الموارد البشرية الضرورية للنشاط السياحي.

ومن أجل رد الاعتبار لنظام الحنطات، مع أن المعمرين كانوا يشيرون إلى إفلاسها في ظل نظام الحماية وعدم قدرتها على مواكبة المتطلبات الجديدة للسوق، نجد إدارة البلدية تنظم حنطة المرشدين السياحيين في ظل نظام الحنطة، لإيمانها بأن هذا النظام كفيل بضمان جودة الخدمات للسياح.

لم تكن هذه الحرفة توجد بالمدينة خلال القرن التاسع عشر وفي بداية مرحلة الحماية لعدم وجود نشاط سياحي بالمدينة، ولم تدع الحاجة إلى إحداث هذه الحرفة إلا مع الوجود الاستعماري وتطور السياحة بالمدينة.

كان لوجود ماتيو بروندي Matteo Brandy على رأس مندوبية السياحة بمكناس دور كبير في تطور هذا القطاع، لكونه كان فنانا يتمتع بحس جمالي رفيع، وكان يتذوق المعالم التاريخية المكناسية التي جسدها عبر لوحاته الشهيرة. فكانت هذه اللوحات وسيلة للتعريف بالتراث التاريخي لمكناس، ومنها لوحاته عن باب منصور لعلج ومولاي إسماعيل وباب بردعيين وبعض اللوحات عن الفنون الشعبية المكناسية[30]. وما تزال مدينة مكناس تحتفظ بلوحة فنية لماتيو بروندي، وهي عبارة عن جدارية رسمت في قاعة المؤتمرات بالقصر البلدي بمكناس تجسد عيساوة[31]، الذين كانوا يثيرون إعجاب السياح بحركاتهم. ولم يكن بروندي وحده الذي استخدم فنه من أجل التعريف بالموروث التاريخي لمكناس، بل نجد العديد من اللوحات عن هذه المدينة العريقة[32].

إضافة إلى أن الفنانين كانوا لا يرسمون إلا بعد حصول الإعجاب بمنظر ما لتحقيق رغبتهم الذاتية، فإن ذلك كان وسيلة إشهارية. وكان المعمرون يدركون ذلك، وهو ما يستشف من قول أحدهم: "يجب أن نؤمن بأن لوحات رسامينا

المغاربة تمثل وسائل ممتازة للإشهار والدعاية للبلد... أو ليس ماتيو بروندي عميد الرسامين المغاربة هو رئيس مندوبية السياحة بمكناس"[33].

خلاصة

عرفت السياحة بمكناس انطلاقتها مع مرحلة الحماية. فظهرت كعامل مساعد على تنمية اقتصاد المدينة، سواء في المجال الفندقي والمطعمي أو فيما يتعلق ببيع المنتجات الحرفية. ولم تدخر الإدارة المكلفة بالسياحة بمكناس جهودها في التعريف بالمدينة، فاستغلت كل ما هو أصيل وعريق في ثقافة واقتصاد المجتمع المكناسي للتعريف به للسائح الأجنبي. وبذلك، فإن مرحلة الحماية بمكناس دشنت قطاعاً اقتصادياً جديداً عزز مداخيل بعض سكان المدينة الذين كانوا يعتمدون على الفلاحة والتجارة والصناعة ثم بعض الوظائف المخزنية. فشكلت السياحة موردا جديدا للرزق بالنسبة للمكناسيين. ومع أن استفادتهم من هذا القطاع ظلت محدودة، لأن معظم المؤسسات السياحية كانت في ملك الأجانب، فقد عمل هذا القطاع على إنعاش العديد من الحرف التي كانت متدهورة[34]. وعمل المعمرون ما في وسعهم للتعريف بالمدينة سواء بمعالمها الأثرية أو المعمارية أو الطبيعية أو الفلكلورية. كما لم تفتهم الإشارة إلى أهمية الأسواق المحلية وما يعرض فيها من منتجات تقليدية[35].

وعموما، فإن إدارة الحماية وضعت مخططا شاملا من أجل النهوض بالقطاع السياحي بمدينة مكناس الذي تم إخراجه من العدم. فأصبحت المدينة مأم المتشوقين لاكتشاف خبايا وكنوز التراث المكناسي. وقد تبنى المعمرون من أجل ذلك استراتيجية متكاملة تعاون فيها الخواص مع الإدارات الساهرة على السياحة.

❑ ❑ ❑

هوامش:

1 - Faure (R), L'évolution de la population Européenne de Meknès de 1911 à nos jours, in Revue de Géographie du Maroc, N°5, 1964, p.62.

2 - Lakanal, Souvenir des heures oubliées, in Nord-Sud, octobre 1932, p.6.

3 - Avelot (H), Versailles Marocain, in Le Journal 29-3 1934, in Collection K3. Bibliothèque Générale de Rabat.

4 - Volubilis, in La Foire de Méknès, in L'Afrique du Nord Illustrée, juillet 1929, P.67.

- Prosper (Ricard), Les Guides Bleus, Librairie Hachette, 8ème Edition, Paris 1954, p.p. 300-304.

5 - Moulay- Idriss, in La Foire de Meknès, in l'Afrique du Nord Illustrée , juillet1929, p.8.

6 - قرار وزيري صادر بالجريدة الرسمية بتاريخ 11صفر 1341/3 أكتوبر 1922، ع422، س10، ص1108.

7 - صدرت العديد من النصوص التشريعية، سواء الظهائر "أو القرارات الوزيرية بالجريدة الرسمية، تدرج بعض المعالم ضمن المباني التاريخية. ونظرا لكثرتها سنحيل على البعض منها فقط:

- قرار وزيري في الإذن بإجراء بحث لتقييد منطقة وقائية حول الدار البيضاء التي تشغلها المدرسة العسكرية بمكناس، الجريدة الرسمية، 26 شعبان 1349 / 16 يناير 1931، ع 951، س 20، ص 93.

- ظهير شريف في الإذن بتقييد الأسوار الدائرة بأكدال مكناس في حيز الأبنية التاريخية، الجريدة الرسمية، 21 جمادى الأولى، 1351 / 32 شتنبر 1932، ع 1039، س21، ص 1765.

- قرار وزيري في الإذن بإجراء بحث لتقييد مدرستين وفندق وثماني سقايات، وستة مساجد كائنة بمدينة مكناس في عدد الأبنية التاريخية، الجريدة الرسمية، 10 رجب 1341 / 27 فبراير 1723، ع 513، س10، ص 193.

- ظهير شريف في تقييد قنطرة وادي النجاة في عدد الأبنية التاريخية، الجريدة الرسمية، من فاتح إلى7 ربيع الاول 1343 / 30 شتنبر و17 أكتوبر 1924، ع 596- 597، س 11، ص 240.

8 - ابن الخطيب، نقلا عن ابن غازي العثماني (محمد)، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط، الطبعة الثانية 1988، ص9-10.

9 ـ قرار وزيري في تقييد منظر الكديات الواقع قرب إفران في جملة المناظر البهيجة، الجريدة الرسمية، 12 ذي القعدة 1372 / 2 يوليوز 1953، ع 2126، س 24، ص 2580.
- قرار وزيري في الإذن بإجراء بحث قصد تقييد شلالات عين اللوح في عدد الأبنية التاريخية، الجريدة الرسمية 4 محرم 1360، ع 1478، س29، ص 273.
- قرار وزيري يؤذن بموجبه في إجراء بحث بشأن منظر أوليميوم بناحية مكناس قصد تقييده في جملة الآثار القديمة، الجريدة الرسمية، 16 صفر 1374 / 15 أكتوبر 1954، ع 2190، س 43، ص 2755.

10 - Bozzi (Charles), Meknès aujourd'hui..., in Revue Foire de Meknès 1952.

11 ـ للتعرف على شبكة الطرق التي شيدت بمكناس وإقليمها والأهداف من إحداث كل منها ينظر:

- Chardeaux (L), Le Réseau routier de la Région de Meknès, in Nord - Sud, octobre 1932, p.p. 49-52.

- Les voix routiers dans la Région de Meknès, in Notre- Maroc, avril 1951, p.p. 49-52.

12 - Chardeaux. (L), Le Réseau routier de la Région de Meknès, op.cit, p.49.

13 - Ibid., p.50.

14 - Le chemin de fer de Tanger-Fez, in Nord-Sud, octobre 1932, p.p. 53-54.

15 ـ لمعرفة دقيقة بجميع الفنادق الموجودة بمكناس على عهد الحماية وبقدرتها الاستيعابية، وكذا عن المطاعم ومقراتها ينظر:

Prosper (Ricard), Les Guides Bleus, op.cit., p.p. 286-287.

16 - Gallotti (J), Tourisme Meknès, in Maroc, Revue Bi-mensuelle, 15 avril 1930, 1ère année, N° 6, p.5.

17 - LeGlay (Maurice), Comment j'ai découvert Ifrane, in Maroc, 25 décembre 1930, 1ère année, N° 22, p.p.27.

18 - Gutchnecht (Ch), Ifrane, petit coin de France, in Nord-Sud, octobre 1932, p.23.

19 - Ifrane, Capitale touristique du moyen -Atlas, in Notre -Maroc, avril 1951, p.63.

20 - Ibid, p.65.

21 - Ifrane petit coin de France, op. cit., p. 23.

22 - Ibid, p. 24.

23 - Evin (Guy), Une nouvelle station de sports d'hiver Le Michliffen, in Notre-Maroc, avril 1951, p.67.

24 - Ibid, p.69.

25 - Ibid, p.69

26 - Marolleau (V), Meknès et le Tourisme réalisation, in Foire de Meknès1952.
ملحق وهو مقال من مجلة مفقودة عثرنا عليها بأرشيف غرفة الصناعة والتجارة بمكناس.

27 - Le Domaine de Toulale, in La Vie Marocaine Illustrée, 5 septembre 1934, N°158, 7ème année, p.271.

28 - Guide touristique: Région de Meknès, Imprimerie Meknèsiènne, Bibliothèque Générale de Rabat, N° C6618.

29 - Les mauvais Commerçants, in La Voix de Meknès, 19 avril 1933, 2ème année, N° 65.

30 - Durand (Felicien), L'édification dans Meknès et sa banlieue, in Nord- Sud, octobre 1932, p. 12.

- Les peintres du Maroc à la Foire de Meknès, in la Foire de Meknès, L'Afrique du Nord Illustrée, juillet 1929, p. 9.

31 ـ معاينة ميدانية.

32 - Terrasse (Henri), Villes impériales du Maroc, B. Arthaud Editeur, Grénoble, p.p. 126-166.

ـ يضم الكتاب 22 لوحة جسد فيها Théophile Jean Delaye العديد من المعالم المكناسية من أسواق ومساجد ودور وسقايات وغيرها.

33 - Les peintres du Maroc à la Foire de Meknès, Op.cit. p.9.

34 ـ أحيت مصلحة الحرف والفنون الأهلية بمكناس العديد من الحرف الفنية التي كانت قد فقدت زبائنها من بين المكناسيين والمغاربة عموما، ووجهت هذه الحرف جل إنتاجها للسياحة لأن تكلفة الإنتاج كانت مرتفعة، ولم تكن لتلقى إقبالا من طرف السكان المكناسيين المحدودي الدخل. وبالفعل فقد حقق الحرفيون العاملون في هذه الحرف مردودية مهمة سواء من بيع منتوجهم داخل المدينة للسياح أو بمساعدتهم على المشاركة في المعارض الدولية التي كانت إضافة إلى تحقيقها لربح آني للحرفيين فقد كانت معرفا بالمنتوج الفني المكناسي. ومن أهم هذه الحرف صناعة الزرابي والنحاسيات وتزويق الخشب. ينظر في هذا الصدد:

- Delpy (Alexandre), Le travail du cèdre a Meknès, in Nord-Sud, numéro spécial sur les arts indigènes, 1934, p.p.44-45.

- Prosper (Ricard), Dinanderie marocaine, in France - Maroc, 6ème année, décembre 1922, p.313.

- Prosper (Ricard), Pour la sauvegarde des tapis marocaines, in Bulletin Economiques

et Sociales du Maroc, volume VIII, N°29, avril 1946, p.329.

35 ـ انظر على سبيل المثال:

- Mattéo Brandy, Meknès, L'A.P.A.M., Revue de l'Association des Propriétaires d'Automobiles, 8ème année, Noël 1940.

- Bouquet, Meknès inconnu, Maroc-Magazine, septembre 1936, p.p. 158-161.

❑ ❑ ❑

قراءات

من جذور العلاقات المغربية الفرنسية:
التجار المرسيليون بسبتة في القرن الثالث عشر
من خلال وثائق الأرشيفات الفرنسية
(جاك كايي)[1]

ترجمة: سلوى الزاهري*

لا يزال الغموض يكتنف العلاقات المبكرة بين فرنسا المغرب. ومن المؤكد أن هذه العلاقات كانت من نسج المرسيليين الذين ربما ترددوا على سبتة لصيد المرجان، وذلك منذ القرن التاسع للميلاد[2]. بيد أن أقدم وثيقة مؤكدة متعلقة بعلاقات مرسيليا مع المغرب الأقصى، معروفة لحد الآن، تعود إلى سنة 1138. يتعلق الأمر باتفاقية موقعة بين جمهورية جنوة ومرسيليا، يتعهد الطرفان فيها بإبرام تحالف دفاعي وهجومي لمدة عشر سنوات. بالإضافة إلى ذلك، يتعهد المرسيليون لجمهورية جنوة، إن هي ساعدتهم في الحصول على معاهدة سلم مع ملك المغرب، أو إن هي دافعت عنهم ضده بعد انصرام مدة العشر سنوات، بأن يعوضوها عن جميع الأضرار التي يمكن أن يكونوا قد تسببوا لها فيها. وأخيرا يلتزمون باحترام السلم مع رعايا ملك المغرب، ويمنعون قراصنتهم من مهاجمة المغاربة[3].

* أستاذة باحثة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان.

هل تم تحقيق هذا التفاهم بين المرسيليين والعاهل المغربي في تلك الفترة، وهو السلطان علي بن يوسف؟ الأمر وارد، ولكن لا يمكن تأكيده. وفي جميع الحالات لا نتوفر على دليل مؤكد حول مجيء التجار المرسيليين إلى المغرب في القرن الثاني عشر للميلاد. إن اتفاقية سنة 1138 قد توحي باحتمال، إن لم نقل بإمكانية ذلك، لكننا لا نتوفر على دليل إثباته. نعرف مع ذلك فرنسيا أسندت إليه سنة 1197 مهمة بعث شحنة سلعية إلى سبتة، ولكن الأمر يتعلق بشخص ينحدر من (لايني) Lagny بمنطقة شامبانيا Champagne، وكان يعمل لحساب تاجر إيطالي من فيرساي Verceil.[4]

ونتوفر لحسن الحظ، على وثائق مؤكدة حول توافد التجار المرسيليين على المغرب في القرن اللاحق. فقوانين مدينة مرسيليا بين سنة 1228 وسنة 1255 تقدم إشارات دقيقة حول علاقة مرسيليا بسبتة، وخاصة حول القناصلة الذين كانوا يعينون بمدينة الزقاق، وحول الفندق الذي كان يوجد بها، وحول بيع الخمور وتفويت الحوانيت إلى التجار[5]. ثم إنه إلى جانب الوثائق التجارية لأفراد من أسرة (ماندويل) Manduel - وهم تجار مرسيليون من القرن الثالث عشر- ووثائق الموثق (جيرو أمالريك) Giraud Amalric من ذات المدينة ومن نفس الفترة، توجد وثائق عدة متعلقة بالتجارة التي كانت تتم مع سبتة[6]. ثم نجد إشارات إلى مرسيليين بمدينة سبتة في وثائق الشهيد (دانيال دي بيلفدير) Daniel de Belvedere ورفاقه، وهم رجال دين أعدموا سنة 1227 [7]. وأخيرا نعثر على إشارات مهمة في مختلف المؤلفات المخصصة للتاريخ الاقتصادي للعصر الوسيط، وفي تلك المتعلقة بتاريخ مرسيليا أو بتاريخ المغرب[8]. لقد استقينا معطيات هذه الدراسة من مختلف المصادر السابقة الذكر. من جهة أخرى، لا نستبعد أن يتم اكتشاف معلومات أخرى في الأرشيفات الإيطالية. والواقع أن جنوة، وكذا بيزة، كانت تربطهما علاقات تجارية مستمرة مع سبتة في العصر الوسيط المبكر. فبالنسبة للقرن الثالث عشر وحده توجد

كمية هائلة من سجلات الموثقين، تقدر بأكثر من مائة وخمسين جزء، وهي تتضمن بالتأكيد إشارات إلى النشاط التجاري للمرسيليين بسبتة[9]. لكننا لم نطلع على هذه السجلات.

ونسوق على سبيل المثال، ترجمة لإحدى الوثائق التي اعتمدناها، وهو اعتراف بديْن، مؤرخ بفاتح نوفمبر من سنة 1236 تم إبرامه بسبتة، في فندق المرسيليين، على يد موثق عمومي، وبحضور ثلاثة شهود[10]. نقرأ في هذا العقد الغريب، والمكتوب على الرَّق، والمحفوظ بأرشيفات مقاطعة (بوش دو رون) Bouches - du - Rhône ما يلي:

"باسم الله، آمين، عام الله 1236... أنا، (غيوم أرنو)، أعترف وأقر بأني تسلمت منك، (بيرنار دي ماندويل)، 140 بيزة من العيار الجيد، مقابل الخمر الذي اشتريته منك. هذه المائة والأربعون بيزة التي بقيت في ذمتي من مجموع 214 ناقص مائة، كما يمكن معاينته في العقد الصحيح المبرم بهذا الخصوص على يد (ماثيو غيوم)، أعد علنا بأنني سأعطيها وأسددها إليك أو إلى ممثلك المعتمد، (إيتيان بوطي)، من دون عراقيل، قبل عيد الميلاد المقبل، ينبغي إذن أن أؤدي نصف هذا الدين في عيد القديس (أندري)، والنصف الآخر في عيد الميلاد، وإلا فإنني أتعهد لك بأداء غرامة تساوي ضعف الدين. لأجل هذه الغرامة، أقدم لك عربونا جميع ممتلكاتي الحاضرة والقادمة، وأقسم لك على الأناجيل المقدسة، بأن أنفذ جميع ما اتفقت عليه معك. وأنا، (أيتيان بوري)، أعترف بأن المائة والأربعين بيزة هي ملك لـ (بيرنار دي ماندويل) ولأهله.

حرر بسبتة في فندق المرسيليين. واستدعي وذكروا كشهود، (رايمون كابلان)، و(غيوم جوردان)، و(رايمون دو مونتسيران)، وأنا، (ماثيو)، الموثق العمومي، الذي حرر هذا العقد بطلب من الطرفين".

* * *

من الواضح أن العلاقات بين مارسيليا وسبتة كانت علاقات بحرية. ونعرف أسماء ثلاثة عشر سفينة كانت تتردد على الميناء المغربي في النصف الأول من القرن الثالث عشر. الأولى هي "لا دونزيل"(المتعجرفة)، سنة 1212، والأخيرة "لا بون أفنتور" (المغامرة الجميلة) سنة 1248، وكانت في ملكية المسمى (أرنو غاسك). وحطت سفينة أخرى تسمى كذلك "لا بون أفنتور"، قلاعها بسبتة سنة 1218 وسنة 1235، وحطت سفينتان تحملان نفس التسمية، "لو فوكون" (الصقر) ـ أحداهما في ملكية المسمى جينوان ـ شراعهما في سنة 1224، 1228، 1235، وفي 1236. والسفينة "لا بوسيل" (العذراء) لصاحبها (غاندوف أرفور)، والسفينة "لانج" (الملاك) رست بمدينة الزقاق سنة 1223 و1230. وكثير من هذه السفن كانت تحمل أسماء تقية، من قبيل: "سانت لا كروا"، "سانت مارية"، "سانت هلين"، "سان جاك"، "سان إيسبري" ـ التي كانت في ملكية المسمى (أوبير لوميليني) ـ و"سان فانسان" ـ في ملكية المسمى (جاك نيكر) ـ حطت شراعها في المياه المغربية كذلك سنة 1219، 1226، 1233، 1234 وسنة 1240 على التوالي.[11]

إن هذا التعداد للسفن هو تعداد غير حصري. والواقع أننا لا نعرف سوى السفن المذكورة في سجلات آل (ماندويل)، أو في عقود الموثق (أماليك)، بحيث تقف الأولى عند سنة 1249 والثانية عند سنة 1248. ومن المؤكد أن التجارة مع سبتة لم تتوقف فجأة سنة 1249، في وقت تنص فيه قرارات بلدية مرسيليا على تعيين قناصلة لها في الميناء المغربي سنة 1255. من جهة أخرى، لم يكن آل (ماندويل) يحتكرون لوحدهم التجارة مع ميناء سبتة، ويمكن أن تكون سفن أخرى توجهت إلى سبتة دون أن تترك أثرا لها في عقود الموثق (أماليك). ونتوفر على عقد عبارة عن اعتراف بدين حرره موثق آخر يدعى (فينتابران) Ventabren.

* * *

كانت تجارة مرسيليا مع سبتة عبارة عن مبادرة للتجار المرسيليين بالدرجة

الأولى. ويأتي على رأسهم آل (ماندويل)[12]. وتذكر وثائقنا ثلاثة أعضاء من هذه الأسرة: (إيتيان)، الأب، المتوفى سنة 1230، وولديْه: (بيرنار) المتوفى سنة 1237 و(جان) الذي أعدِم سنة 1264 بعد إدانته بالمشاركة في مؤامرة ضد كونت شارل الأنجواني. لقد كانوا رأسماليين أكثر مما كونوا تجارا حقيقيين، يستثمرون أموالهم في عمليات يقوم بها الآخرون بعيدا لحسابهم. ولم يكونوا دائما الوحيدين المهتمين بالعمليات التجارية مع سبتة، ففي سنة 1219 كان (إيتيان) شريكا لـ (بيرنار بالبي)، وفي سنة 1226 كان شريكا لـ (بيرنار دو كونك) من فيجاك Figeac.[13]

وفضلا عن آل (ماندويل)، كان التجار الذين يتعاملون مع سبتة ينعتون أحيانا بـ "مواطني مرسيليا"؛ مثل (أرنو غاسك)، و(جان رو)، و(غيون كاديني)، و(ماثيو فرانسوا). ويبدو من رنّة أسماء أغلبهم أنهم ينحدرون من منطقة بروفانس، مثل (بوكيي)، و(دوفيز)، و(إيغيزيي)، و(فابر)، و(فوستيي)، و(أوجيي)، و(نيكريل)، و(روستان)... إلخ. أما الآخرون، فإن أغلبهم ينحدرون من جنوب فرنسا. فمن مدينة مونبوليي هناك: (جان فيلفور)، و(جيل جان)، و(سيمون ريكار)، و(غيوم روكادور)، و(إيتيان أميك). ومن مدينة نيم هناك (بيرنار جيركار)، ومن مدينة كوندون هناك (بيرنار غاسك). ومع ذلك، نجد أحدهم، وهو السيد (سيكار) ينحدر من مدينة ليون. وأخيرا، نجد يهوديان، (داود) و(بونفيس)، وحتى أحد "مسلمي الإسكندرية"، يلقب بالفقيه[14].

* * *

لقد كان المرسيليون الذين يفدون على سبتة يقيمون في حي مخصص لهم؛ هو الفندق، مثلها في ذلك مثل باقي موانئ بلاد المغرب التي كانوا يتوافدون عليها، كبجاية وتونس ووهران. ونجد أول ذكر لفندق المرسيليين بمدينة سبتة في وثائق الشهيد (دانييل دو بيلفدير)[15] سنة 1227، وكذا في عقد اعتراف بديْن لسنة 1236 الذي قدمنا ترجمته أعلاه.

وكان هذا الفندق ـ الذي يقع بجانب فنادق الجنويين والبيزيين ـ يوجد خارج المدينة الإسلامية. وكان يشكل "نوعا من المدينة بالمعنى المعاصر للكلمة"[16]، وكان مجموع فنادق النصارى "يشكل ما سُمي لوقت طويل **بالحي الفرنجي** بالمدن الشرقية"[17]. لقد كان عبارة عن مدينة مصغرة، محاطة بسور يفصلها تماما عن بنايات الأجانب الآخرين. وربما كان يتم الولوج إلى الفندق من خلال باب واحد، يحرسه عدد من الحراس. في داخل الفندق، كان يوجد مصلى ومقبرة، ثم غرف وحوانيت للمرسيليين وحدهم؛ ذلك أنه لم يكن يقبل ـ مبدئيا ـ ولوج الأجانب للداخل. ولعل الغرف كانت تحيط ـ كما كان الأمر في بجاية ـ بفناء واحد أو أكثر من فناء، مغروس بالأشجار. وينص قانون سنة 1228 على أن حانوتا واحدة هي المسموح لها ببيع الخمر للمسيحيين، وأن حانوتا أخرى يمكن كرائها لخياط، وأخرى لإسكافي وإثنتين لفراءين. وكان يوجد بالفندق فرن، وربما كذلك حمام. وكان ممنوعا منعا باتا دخول العاهرات للفندق، أو تربية الخنازير بها.

كان فندق المرسيليين يوجد تحت سلطة القنصل الذي يحدد قانون صدر سنة 1255، طرق تعيينه بدقة، وكذا حقوقه وواجباته. لقد كان هذا الموظف السامي يعين مبدئيا لمدة سنة فقط، ولكن يمكن تمديد سلطاته في حالة غياب شخص قادر على تعويضه. لقد كان "عمدة" المدينة الفرنصية هو الذي يختاره من بين أحسن الأشخاص بفضل "ذلاقته، ورصانته ونزاهته واستقامته"، والذي من شأنه أن يشرف مرسيليا. ومع ذلك، فإن "العمدة" كان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار رأي بعض الأشخاص، وخاصة النقباء ورؤساء الحرف بالمدينة.

ولكن من المؤكد أن قنصلا معينا بهذه الطريقة لم يوجد دائما بسبتة، ذلك أن قانون سنة 1255 يطرح فرضية عدم وجود القنصل هناك. في هذه الحالة، يمكن للمرسيليين ـ بشرط أن لا يكون عددهم أقل من عشرة ـ أن يولوا بصفة مؤقتة، واحدا من بينهم تكون له نفس صلاحيات القنصل المعين من قبل "عمدة" مرسيليا. ويعرّض

الشخص الذي تم اختياره بهذه الطريقة نفسه لغرامة مقدارها عشر ليرات ملكية إن هو رفض ـ دون مبرر مشروع ـ القيام بتلك المهمة.

وكيفما كان الحال، فقد كان يجب على القنصل أن يؤدي يمين القسم قبل توليه لمهامه. وكان القنصل الذي يعينه "العمدة" يقسم على "الأناجيل المقدسة"، ويتعهد خاصة بعدم إدخال العاهرات لفندقه. أما الذي يختاره مواطنوه، فكان يقسم "بأن يسير القنصلية بحسن نية، من دون تدليس ولا غش، وأن يضع جانبا الكراهية والحب والخوف والصلاة والمال، وأن يحكم بالعدل بين الجميع"[18]. وسواء كان قنصلا دائما أو مؤقتا، فإنه كان يسيّر المدينة التي يشكلها الفندق، وكان يمثل سيادة وطنه أمام المرسيليين والمغاربة، وكان يفصل في النزاعات بين مواطنيه، ويشرف بنفسه أو عن طريق سكرتيره، أو الموثق أو الكاتب، على جميع العقود المدنية التي يود مواطنوه إبرامها. بالإضافة إلى ذلك، كانت شرطة الفندق تتبع له، وتقع تحت أوامره، وكذا لحارس رئيسي تسميه الوثائق اللاتينية، رئيس الفندق fundegarius. ولم تكن يحق للسلطات المغربية مطلقا الدخول إلى الفندق، تحت أية ذريعة كانت، ولا التصرف ضد مواطن مرسيلي من غير موافقة القنصل.

لقد كان لهذا الأخير الحق في طرد مواطنيه من سبتة وإدانتهم بمختلف العقوبات، لكن بموافقة أهم أعضاء "الأمة"، الذين هم مستشاريه. إلا أنه كان مسموحا لـ"عمدة" مارسيليا أن يلغي ـ في ظروف معينة ـ القرارات المتخذة في هذا الإطار. أما القناصلة الذين يخلّون بواجباتهم، أو أبانوا فقط عن عدم اكتراثهم، أو المسؤولين عن الإخلال بواجب الوظيفة، فيمكن أن يعاقبوا من قبل "عمدة" مرسيليا بغرامة 25 ليرة ملكية.

كان للقنصل بطبيعة الحال، مسكن في الفندق، وكان يتوفر على سكرتاريته (scribania). كان مقر ممثل الجالية المرسيلية في تونس وبجاية يتضمن صواري وشرفة تقع تحتها عدد من القاعات التي تستخدم كبورصة، ومحكمة وسجن. ويمكن أن

نفترض أن الأمر بسبتة كان مماثلا للمدينتين السابقتين.

لقد كان رئيس الفندق، يساعد القنصل، ويخضع لأوامره، ولكن هذا الأخير لم يكن يحق له فرض أوامر مجحفة عليه. وهكذا، لم يكن من حقه أن يكتري أو يسمح بكراء الحوانيت لغير المرسيليين، دون موافقة صريحة من رئيس الفندق fundegarius، ولم يكن يحق له كذلك أن يعارض ما يقوم به رئيس الفندق بتعليمات من "عمدة" مرسيليا. وأخيرا، لم يكن يجوز له إرغامه على شراء الخمر، أو غيره من السلع، بثمن أعلى من الثمن المحدد.

* * *

لقد كانت التجارة هي العنصر الوحيد في العلاقات بين مرسيليا وسبتة في القرن الثالث عشر. وكانت تهم سلعا مختلفة جدا، تذكر الوثائق من بينها: الخمر، والأنسجة من مختلف الأشكال، وخاصة تلك المصمّغة جدا، التي تسمى البخارية (نسبة إلى منطقة بخارى)، ومختلف أشكال الأقمشة، إحداها تسمى "الخزامية" spic، خفيفة جدا، وأخرى تسمى "بينتين"، من الحرير المطروز، والقطن، والفول، والطحين، والشحم، والفلفل، والقرفة، والزعفران، وكبش القرنفل، وجوز العفصة noix de galle، واللاوند، والصبر aloés، والكمر، واللّك، والصمغ، والمرجان(19).

ولا يمكن معرفة مقادير هذه السلع بدقة. بيد أن بعض الوثائق تقدم بعض المعطيات حول هذا الموضوع. نعرف طلبيتين من الخمر سنة 1235 وسنة 1236 كانت تهم على التوالي حوالي 3200 و6400 لتر. وطلبيات أخرى متعلقة بمائة خزامية، وثلاثين من أقمشة "البينتين"، وكيس من القطن وأكثر من 15 هيكتولتر من الفول، و27 قنطار من الحبوب، وستين ليرة من كبش القرنفل، وشحنتين من عشرة قناطير من القرفة، وألف كمَر solives وقنطارين من الصمغ.

كل هذه السلع، التي تثير بعضها استغرابنا، كانت ضمن الصادرات المرسيلية.

والواقع أنه من الملفت للنظر أن يرسل المرجان في القرن الثالث عشر إلى المغرب، في وقت كان المرسيليون يذهبون لاصطياده هناك قبل ثلاثة قرون[20]. وفي نفس السياق، تشير وثائق أخرى، ودائما بالنسبة للقرن الثالث عشر، أن جوز العصفة كان من السلع التي يستوردها المرسيليون من المغرب الأقصى[21].

بخصوص الصادرات، لا تذكر وثائقنا سوى اللك والجلود، والفرو[22]. إنها - في الواقع- السلع التي كان التجار المسيحيون يبحثون عنها ببلاد المغرب منذ قرون، قبل القرن الثالث عشر، وبصفة خاصة خلال القرون التالية. ولكن ما يثير الاستغراب هو عدم ورود ذكر لمادة الزيت، الذي كان خلال العصر الوسيط، إحدى السلع الرئيسية لبلاد المغرب، إلى جانب السكر. بينما كان السكر المغربي الخام -الذي أشاد بجودته كل من البكري والإدريسي[23]- يباع في فلاندرة وفي البندقية في ذات الفترة[24].

ويظهر أن الخمر[25] كان يحتل مكانة هامة في التجارة مع سبتة، كما هو الشأن بخصوص التجارة مع وهران وبجاية وتونس، لأن قانونا لمدينة مرسيليا لسنة 1228 مكرس جزئيا لبيعه في مختلف المدن. يمكن لهذا الأمر أن يثير الاستغراب، لأن المرسيليين كانوا قليلين نسبيا بمدينة سبتة، والقرآن يمنع الخمر على المسلمين. لكن تجار مرسيليا وتجار جنوة، أو تجار بيزة، الذين كانوا يقيمون بسبتة آنئذ لم يكونوا الأوربيين الوحيدين الذين يعيشون بالمغرب. والواقع أنه في نفس الفترة، كانت فرق من المرتزقة المسيحيين يخدمون الخلفاء الموحدين. من جهة أخرى لم يكن المنع القرآني يُحترم من دون شك، ذلك أن قانون سنة 1228 يتطرق لبيع الخمر "للمسلمين" sarrasins. والجدير بالذكر أن الموحدين الذين تساهلوا مع هذا الأمر، كانوا من أشد المنتقدين للمرابطين عدم قطعهم للخمر من دولتهم. ومع ذلك فإن المستهلكين الأساسيين للخمر كانوا هم المسيحيون المقيمون في هذا البلد، أي التجار والسكان الآخرون بالفندق، وعناصر الكتائب الأجنبية، وربما حتى الأسرى.

كان يحق لجميع المرسيليين اكتساب الحوانيت في فندقهم بسبتة ليبيعوا فيها الخمر بأنفسهم أو لحسابهم، سواء بالتقسيط أو بالجملة، بكل حرية ومن دون ضرائب استثنائية، بشرط أن يكون مستوردا من مدينتهم. بيد أنه لم يكن يجوز أن يشتروه من هته الحوانيت لإعادة بيعه. وكان يحق لهم أن ينزلوه بأنفسهم من السفن التى تحمله: إلا أنه كان من المفروض عليهم "أن يعبّروه وأن يبيعوه بوحدات قياس مدينة مرسيليا"(26)، وأخيرا فإنه كان يجب على القناصلة أن يحرصوا على أن يكون الخمر الذي يباع بهذه الطريقة هو الخمر المستورد حصريا من مرسيليا، على الأقل طالما بقي منه في الفندق.

خارج المواد الفلاحية أو الصناعية، كانت النقود تمثل سلعة أساسية في المبادلات التجارية. وكانت الصادرات من المسكوكات تتشكل من النقود المسماة "الملغورية"، أو النقود ذات العيار المختلط، أو من البيزات الميلارية (بيزة واحدة كانت تساوي 12 ميلارا) أو من الكرونات الملكية، (كرونة ملكية واحدة كانت تساوي خمسة بيزات)(27).

إن أغلب الوثائق التي نتوفر عليها متعلقة بطلبيات commandes ذلك هو حال 38 وثيقة من وثائق أسرة ماندويل، منها 25 متعلقة بسبتة. ومن بين الوثائق الأخرى نعثر على رسالة صرف، وتواصيل مختلفة أو تصاريح. إن طبيعة هذه الوثائق تفسر كونها تحتوي على معلومات قليلة حول السلع المصدرة إلى المغرب. فالطلبيات تتعلق دائما بالسلع أو بأنواع النقود المسكوكة السابق ذكرها، والتي ترسل إلى سبتة، أو يجب أن تسلم هناك، أو أن طرفا يتعهد بـ"شحنها واستثمارها في الميناء المغربي".

وهكذا نجد أن أحد الطلبيات المؤرخة في 20 يوليوز 1230 أسندها (بيرنار دو ماندويل) إلى غيوم باطيون، تتعلق بألياف بورغون وميلارات قيمتها 16 ليرة ملكية، يتعهد الطرف الثاني "بحملها واستثمارها بسبتة على أساس الربع من الربح"(28).

طلبية أخرى من (برنار دو ماندويل) إلى (جان دو جيروند) بتاريخ 10 ماي 1233 تهم مائة بيزة من الميلارات الجيدة، قيمتها 20 ليرة ملكية[29]. طلبية ثالثة أبرمها (بيرنار دو ماندويل) يوم 23 أكتوبر 1234 مع (جاك غيتيلم) تتعلق بثلاثة وثلاثين ليرة ملكية، مصرفة إلى 160 بيزة ميلارية ويجب أن تشحن على السفينة (سان إيسبري) باتجاه سبتة[30]. في 13 مارس 1248 نجد أن اليهودي (بونفيس) يسند طلبية إلى (أرنو غاسك)، ليذهب بها إلى سبتة، تتكون من قطن قيمته 110 ليرة من النقود ذات العيار المختلط "بشرط أن يعود محملا بالشمع"[31]. في رسالة الصرف المؤرخة ب 11 مارس 1236، يتعهد (جان غالدوف) - الذي يعترف أنه توصل من (بيرنار دو ماندويل) بخمسة وثلاثين ليرة ملكية، مقابل حمل مائة حاوية من الخمر على ظهر السفينة "الصقر" - يتعهد أن يؤدي إلى بيرنار أو إلى موكله وبعد مرور عشرين يوما على إنزال الشحنة بسبتة مقدار 182 بيزة من الميلارات الجيدة[32]. ومن بين الوثائق الأخرى، نجد اعترافا لمسلم من الإسكندرية تسميه الوثيقة الفقيه Alfaquin بتاريخ 2 أبريل 1227 يقر فيه بأنه تسلم من (بيرنار دو ماندويل) سلعا مختلفة، قيمتها 135 بيزة ميلارية، ويتعهد أن يؤدي هذا المقدار بسبتة، إلى مقرضه أو إلى من هو تحت أمره، بعد عشرين يوما من وصول السفينة (الصقر) إلى ميناء المدينة[33]. وفي تصريح آخر مؤرخ في 19 ماي 1233 يعترف اليهودي (داود) وزوجته (كوفيد) بأنهما توصلا من (بيرنار دو ماندويل) بعشرة ليرات ملكية، يوظفانها في السلع ويحملانها إلى سبتة، ويتعهدان بأن يؤديا له بعد عودتهما 70 بيزة، خالصة من كل مصاريف[34].

وإذا كانت وثائقنا تخبرنا بالعمليات التجارية المتعلقة بالسلع المصدرة، فإنها لا تقدم سوى معلومات شحيحة عن الأشخاص الذين كان يتعامل معهم المرسيليون. يمكن أن يكون هؤلاء الأشخاص في الحالات الاستثنائية تجارا مسيحيين. بيد أنه من الواضح أن التجارة كانت تتم بصفة خاصة مع المغاربة. ونعرف واحدا من هؤلاء، يسمى "بنصلاص، سيد سبتة". يتعلق الأمر في الواقع بأبي علي بن خلاص، "رجل

صادق ووفي"، ينحدر من بلنسية، وقد ولاه الخليفة الموحدي الرشيد على مدينة سبتة سنة 1228 أو 1229، واستمر على ولايتها حتى وفاته سنة 1248 أو 1249[35]. وتتحدث ثلاثة وثائق للموثق (أماليك) عن ابن خلاص، ولكنها تقول فقط بأنه كانت تحت يديه في شهر ماي 1248 سلع مختلفة ـ من جلود، وفرو وشمع (اللك) ـ كانت موضوع طلبيتين للسيد (بيرنار غومبو)[36].

* * *

كانت السلع المستوردة من مرسيليا تمر أولا عبر الديوانة التي نعرف أهميتها ببلاد المغرب في العصر الوسيط. فقد كانت تكوّن حلقة أساسية في سلسلة المؤسسات الحكومية لمختلف دول بلاد المغرب، وكان رؤساؤها يعينون دائما من بين الشخصيات المهمة. وكان هناك مجموعة من الموظفين المغاربة، وخاصة المترجمين، يساعدون رؤساء الديوانة الذين كانت مهمتهم الأولى هي استخلاص حقوق الديوانة من الضرائب.

كان المرسيليون، مثلهم في ذلك مثل باقي المسيحيين يؤدون واجب 10% من قيمة السلعة، نقدا أو عينا، على كل السلع المصدرة إلى سبتة. وهذه القاعدة كانت تجري على جميع موانئ بلاد المغرب، وكانت مقبولة جدا، حتى أن هذه الضريبة كانت تسمى "العُشر"، أو يطلق عليها بكل بساطة إسم "الواجب"dricum. إنها الضريبة الأساسية، ولكن كانت تنضاف إليها ضرائب أو واجبات إضافية. فكان على التجار أن يؤدوا ضريبة أخرى تسمى "المنغونة" mangona وتساوي سدس السلعة المستوردة، وكانت تؤدى نقدا. وحينما يبيع التجار النصارى سلعتهم، كانوا مجبرين على أداء ضريبة أخرى تسمى "الانطلاقة" intalaca وتصل إلى واحد في المائة من ثمن المواد المباعة. وبعد أداء هاتين الضريبتين كان للتجار النصارى ـ حسب (فلورانتان بيغولوتي)ـ الحرية التامة للمتاجرة بالمغرب، وأن يبيعوا فيه ويشتروا جميع السلع التي يرغبون فيها. ومع ذلك، فإن التجارة داخل المدن

الكبرى (فاس ومراكش ومكناس) لم تكن مباحة لهم، إلا بعد أداء "عُشر" آخر.

أما الضرائب المفروضة على الواردات فكانت أخف من تلك التي كانت مفروضة على الصادرات. ذلك أنها كانت تقدر بـ 5% فقط، أي نصف الواجب medium drictum [37].

من جهة أخرى، لا تحتوي قوانين مرسيليا ولا وثائق أسرة (ماندويل) ولا عقود الموثق (أماليك) معلومات عن كيفية إجراء التجار المرسيليين لعملياتهم التجارية بسبتة في القرن الثالث عشر. ولكن من المنطقي الاعتقاد أنها كانت مشابهة لتلك التي كان يقوم بها الجنويون والبيزيون في نفس المدينة خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر، والمرسيليون أنفسهم في موانيء إفريقيا الشمالية الأخرى.

إن القسم الأكبر من هذه العمليات كان يتم في الديوانة نفسها، سواء تعلق الأمر بالبيع أو بالشراء. كان هناك أولا البيع بالمزاد العلني، يتولاه الدلالون الخاصون بكل أمة، بطلب من المعنيين بالأمر، وبحضور المراقبين المسلمين. وفي هذه الحالة كانت تجبى ضريبة واحدة، وهي العُشر. ولكن كان بإمكان التجار المسيحيين كذلك بيع سلعهم في الديوانة مباشرة وبدون اللجوء إلى خدمات الدلال، بواسطة المترجمين المسلمين، سواء بحضور المراقبين المسلمين أو بدونه. وهذا النوع من العمليات كان له امتياز " كونه كان تحت ضمانة ومسؤولية الديوانة"[38]. فكان يتعين على هذه الأخيرة أن تضمن أداء المقتنين لسلع التجار النصارى حسب الشروط المعمول بها.

ومع ذلك، كانت عملية البيع بالديوانة اختيارية وليست إجبارية. فقد كان للمسيحيين حق بيع سلعتهم، سواء للمغاربة أو للأوربيين، وبالطريقة التي يرتأونها، أو في المكان الذي يروق لهم، وخاصة في فندقهم. ومن المؤكد أن (غيوم ماثيو)، موثق المرسيليين، قد حرر عددا من العقود لحساب مواطنيه هناك. وفي هذه الحالة لم تكن الديوانة المغربية مطالبة بتوفير أية ضمانة للتجار.

لقد لوحظ بالنسبة لإفريقيا الشمالية عموما، من القرن الثالث عشر إلى القرن الرابع عشر، "إخلاص الديوانات المغاربية في استخلاص الواجبات"[39]، هذه الديوانات التي كان موظفوها، وخاصة المترجمين منهم، يحظون بتقدير كبير. وعموما يبدو أن المبادىء والطرق التي كانت تحدد التجارة المسيحية ببلاد المغرب كانت تمتاز ـ كما قيل ـ "بعدالة تفوق تلك التي كانت في أوربا الفيودالية"[40]. فقد كان تجار أوربا يتمتعون في الواقع، بجميع الضمانات اللازمة، سواء بالنسبة لشخصهم أو لتجارتهم. فقد كان أمنهم وحمايتهم مضمونة جدا، ولا أحد كان بمقدوره إقلاقهم. فقد كانوا يتمتعون بكامل الحرية الدينية، بشرط أن تمارس داخل فنادقهم. ولم يكن هناك وجود لما يسمى بحق وراثة الطارىء droit d'aubaine، ففي حالة وفاة مسيحي ببلاد المغرب، وفي غياب أحد من مواطنيه أو القنصل، كانت تركته تجمع من قبل قائد الديوانة لتسليمها للشخص الذي تعينه دولة الهالك. وكانت العادة ـ والمعاهدات تنص على ذلك في أغلب الأحيان ـ تجبر سكان البلاد على إنقاذ السفن التي توجد في خطر، وكذا الغرقى. وكان للتجار الحرية المطلقة في بيع سلعتهم أو إرجاع ما لم يبع منها من دون أداء ضرائب عليها، ولم يكن يجوز للسلطات المحلية ولا للأشخاص عرقلة عملياتهم التجارية[41]. ومن المؤكد أن المرسيليين قد تمتعوا بجميع هذه الامتيازات في سبتة منذ القرن الثالث عشر.

لا نتوفر على معلومات بخصوص ما يمكن أن تكون عليه حياة التجار المرسيليين اليومية في هذا الميناء المغربي. ولعلها كانت تتشابه مع حياتهم بمرسيليا، ولكنها لم تكن تخلو من قسوة ولا شك، بسبب غياب العنصر النسوي، خاصة. لقد كانوا يمارسون طقوسهم الدينية قطعا، تحت إشراف خادم المصلى، وهو شخصية مهمة في الفندق. في سنة 1227، كان هذا الراهب يدعى (هوغو) أو (هوغولان)، ويوصف بكونه "كبير الرهبان". فقد كان يشرف في نفس الوقت على الشؤون الدينية لجميع مسيحيي المدينة[42]، بيد أن هؤلاء كانوا منشغلين باهتماماتهم المادية

أكثر من اكتراثهم بهمومهم الروحية. لقد كان المبشرون العابرون لسبتة يبعثون فيهم الروح الدينية أحيانا، ويذكرونهم بالطقوس المسيحية[43]. من جهة أخرى، كان المرسيليون يخالطون ـ ولا شك ـ باقي الأجانب؛ من جنويين أو بيزيين، لكن علاقاتهم كانت مطبوعة بنوع من المنافسة. ومهما يكن الأمر، فإن الأعمال التجارية التي تشكل اهتمامهم الرئيسي، إن لم يكن الاهتمام الوحيد، كانت تترك لهم بعض الفراغ. وإجمالا، كان وجودهم بسبتة مطبوعا بطابع الرتابة.

يذكر التاريخ عددا من الأحداث التي تركت ولا شك غليانا في فندق المرسيليين خلال القرن الثالث عشر. ففي 10 أكتوبر 1227، تم إعدام عشرة رجال دين إيطاليين في ساحة عمومية، وكانوا قد أتوا قبل ذلك للتبشير علانية في المدينة الإسلامية، حاملين الصليب في يدهم. وقد تم دفنهم في فندق المرسيليين بالذات[45]. من جهة أخرى حدثت اضطرابات خطيرة سنة 1234 و1235. فقد جاء أسطول، لعله قطلاني، يهدد المدينة. وقد أجبره الجنويون على التراجع، ولكن هؤلاء أرادوا أن يؤدي المغاربة تعويضا لهم عن هذه الخدمة. ولعلهم كانوا ملحين أكثر من اللازم، وعلى أي حال، استتبع ذلك اضطرابات خطيرة، ونهب فندق المرسيليين وأحرق. وبعثت جمهورية جنوة بأسطول ضخم لمياه سبتة، "مع آلات حربية رهيبة". واستمر حصار المدينة عدة شهور، قبل أن يتم التوصل إلى اتفاق يقضي بانسحاب السفن الجنوية بعد حصولهم على تعويض يقدر بـ 400 ألف دينار، أي حوالي أربعة ملايين فرنك ذهبي[45]. وأخيرا حوالي سنة 1239-1240 اجتاحت المنطقة مجاعة شديدة[46]، كل هذه الأحداث أثرت سلبا ـ ولا شك ـ على وجود المرسيليين، وعرقلت بعمق، إن لم نقل أجلت، عملياتهم التجارية، مثلها في ذلك مثل جميع المسيحيين الآخرين.

لا يجب أن نستغرب من كون سبتة قد جلبت إليها المرسيليين في القرن الثالث عشر. لقد كانت سبتة هي البوابة الرئيسية للمغرب في هذه الفترة، لأنها

كانت آنذاك مركزا تجاريا كبيرا وعالميا. ثم إن المدينة قد تمتعت في نفس الفترة، ولفترات متعددة، بشبه استقلال فعلي، سهل من علاقاتها مع المسيحيين[47].

فيما يتعلق بالمرسيليين، تسمح المعطيات السابقة ـ على اقتضابها ـ بتلمس أهمية علاقاتهم التجارية. ذلك أن وجود موثق و"ممثل معتمد" لأسرة (ماندويل) في المدينة المغربية، هو دليل على كثرة العمليات التي كان يقوم بها. وكما قيل، فإن "بلاد المغرب... وخاصة سبتة كانت تحتل الدور الأساسي في أنشطة إيتيان دو ماندويل"[48]. فلم يعمل المرسيليون سوى السير على خطى الجنويين الذين كانوا منذ منتصف القرن الثاني عشر، أسياد سوق سبتة. فضلا عن هذا، نعلم أنه طيلة العصر الوسيط، كان للإيطاليين مكانة أساسية في التجارة بين أوربا وإفريقيا الشمالية، وأنه ابتداء من القرن الحادي عشر، قاموا "بإعادة الوحدة الاقتصادية للعالم المتوسطي"[49].

يظهر أن دور التجار المرسيليين كان أقل تواضعا في سبتة. ومع ذلك ـ وعلى ضوء معلوماتنا الحالية ـ فإنهم كانوا أول الفرنسيين الذين ربطوا علاقات مستمرة مع المغرب.

❑ ❑ ❑

هوامش

1 ـ العنوان الأصلي للمقال هو:

Caillè J., "Les commerçants marseillais à Ceuta au XIIIe siècle", Mélanges d'histoire et d'Archéologie de l'Occident Musulman, Alger, II, 1957.

2 - Georges Hardy, Le Maroc, dans Histoire des colonies françaises et de l'expansion française dans le monde, t. III, Paris, 1931, p. 15

3 - L. de Mas Latrie, Traités de paix et de commerce et documents divers concernant

les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen Age, Paris, 1866, pp. 8-89

4 - Elisabeth Chaplin, Les villes de foire de Champagne des origines au début du XIVe siècle, dans Bibliothèque de l'Ecole des Hautes Etudes, Paris, 1937, p. 257.

5 - يتضمن قانون 1228 قسمين: الأول بعنوان: "كيف يمكن لمواطني مرسيليا بيع خمرهم في سبتة وبجاية"، والثاني بعنوان: " كيف يمكن لمواطني مرسيليا إنزال الخمر في سبتة وبجاية".
أما قانون 1255 فيحمل عنوان: " قانون القناصلة خارج مرسيليا". ويوجد النص اللاتيني والترجمة الفرنسية للقانونين في:

Louis Mery et F. Guindon, Histoire analytique et chronologique des actes et délibérations du corps et du conseil de la municipalité de Marseille, t. I, Marseille, 1841, pp; 350-352 ; t. II, Marseille, 1843, pp. 205-210; t. III, Marseille, 1844, pp. 77-82. ولا يقدم (Traité..., ouvr. cité, pp. 89-91) سوى النص اللاتيني، وجزئيا فقط.

6 - Cf. Louis Blancard, Documents inédits sur le commerce de Marseille au Moyen Age, 2 vol. Marseille, t. I , 1884.

ينقسم هذا المؤلف إلى أربعة أقسام، يكتسي الأولان أهمية كبرى، وهما الوحيدان اللذان يضمان الإشارات إلى تجارة مرسيليا مع سبتة. وهما خاصان بـ "الوثائق التجارية لآل ماندويل، تجار مرسيليون من القرن الثالث عشر"، وبـ" وثائق تجارية لأماليك، موثق مرسيلي من القرن الثالث عشر"، ويتلو هذه الوثائق ملحقا و"جدولا بوثائق جيرو أماليك".

7 - ينظر بخصوص هذه الوثائق

L. de Mas Latrie, Relations et commerce de l'Afrique septentrionale ou Maghreb avec les nations chrétiennes au Moyen Age, Paris, 1886, pp.154.

وكذا P. Henry Koehler, L'Eglise chrétienne du Maroc et la mission franciscaine, 1221-1790, Paris, 1934, p. 21

8 - انظر بصفة خاصة:

- De Mas Latrie, Relations et commerce, ouvr. Cité, De Cenival Les relations anciennes de la France avec le Maroc, Rabat, 1928; Raoul Busquet, Histoire de Marseille, Paris, 1945; Gaston Rambert, Histoire du commerce de Marseille, t. I, Paris, 1949, Le Moyen Age jusqu'en 1291, par Régine Pernoud.

9 - cf. Robert -Henri Bautier, Notes sur l'histoire économique médiévale dans les archives italiennes, dans, Mélanges d'archéologie et d'histoire, publiées par l'Ecole française de Rome, 1946, pp. 291-307.

10 -

11 - حول هذه السفن انظر:

L. Blancard, op.cit., I, 6-10-11-13-14-18-26-33-37-40-54-59-70-72-90, II, 1-3-6-13-24-32-36-38-49-50-270-272-400.

12 - حول أسرة ماندويل، انظر:

L. Blancard, I, pp. XV- XXVIII, André E. Sayous, Les opérations du capitaliste et commerçant marseillais Etienne de Manduel entre 1200 et 1230, dans Revue des questions historiques, 1930, pp. 5-29; ID, L'activité de deux commerçants capitalistes marseillais vers le milieu du XIIIè siècle, dans Revue d'histoire économique et sociale, 1929, pp. 137-155

13 - L. Blancard, I, 11 et 13

14 - حول هؤلاء الأشخاص، انظر:

L. Blancard , I, 14-37-, II, 1-6-

15 - Cf. Koehler, op. cit., p. 21 n. 1.

16 - Mas - Latrie, Relations.., p. 167.

17 - Mas - Latrie, Relations.., p. 170.

18 - قانون 1255.

19 - حول هذه السلع، انظر:

- Mas-Latrie, Relations.., p. 157, Blancard, I, 10-26-40-7-72-90, II, 1-3-6-13-24-32-38-49-50-257-270-272-400-425-441.

20 - Mas - Latrie, Relations.., p. 381.

21 - Mas - Latrie, Relations.., p. 375.

22 - Blancard, II, 1, 673.

23 - El Idrissi, Description de l'Afrique et de l'Espagne, trad. Dozy et de Goeje, Leyde, 1886, p. 71, El Bekri, Description de l'Afrique septentrionale, trad. De Slane, 2è éd., Alger, 1913, p. 306.

24 - Mas - Latrie, Relations.., p. 376.

25 - حول تجارة الخمر، انظر: قوانين سنة 1226 وسنة 1255.

26 - قانون 1228.

27 - Blancard, I, 18-33-54, II, 1026.

28 - Blancard, I, 26.

29 - Blancard, I, 33.

30 - Blancard, I, 54.

31 - Blancard, II, 1.

32 - Blancard, I, 72.

33 - Blancard, I, 14.

34 - Blancard, I, 37.

35 - Charles Dufourcq, La question de Ceuta siècle, dans Hespéris, 1955, pp. 106-108.

36 - Blancard, II, 673, 729, 732.

37 - Blancard, II, 673, 729, 732

38 - حول الديوانة والواجبات المجباة انظر:

Mas - Latrie, Relations..., pp. 345-360, Xavier Lecureul, Histoire des douanes au Maroc, dans Archives Marocaines, vol. XV, p. 41.

39 - Mas - Latrie, Relations..., p. 344.

40 - Mas - Latrie, Relations..., p. 158.

41 - Mas - Latrie, Relations..., p. 211.

42 - Mas -Latrie, Relations..., p. 161-186.

43 - Cf. Koehler, p. XX.

44 - Th. Carrière, Les martyrs de Ceuta, dans Le Maroc catholique, 1924, p. 133.

45 - حول شهداء سبتة سنة 1227 انظر:

Carrière, op. cit., Koehler, op. cit.,

والمصادر المذكورة هناك وخاصة: Analecta Franciscana, t. III

46 - حول حصار سبتة سنة 1234-1235 انظر: روض القرطاس، ترجمة بوميي، باريس، 1860، ص 394-395.

Mas -Latrie, Relations..., p. 149-451; I.S. Allouche, Une tentative des Génois pour s'emparer de Ceuta en 1234-1235, dans Hespéris, 1949, pp. 416-417, Dufourcq, op. cit., p. 96-102.

47 - Dufourcq, op. cit., p. 106.

48 - Dufourcq, passim.

49 - Sayous, Les opérations... p. 13.

❑ ❑ ❑

حركة الفقيه ابن أبي محلي
في مذكرات أوربية

أحمد الوارث*

يسمى صاحب هذه المذكرات **خورخي دي هنين**، نسبة إلى بلدته المعروفة باسم دي هنين في فلاندرا. وكان غادر أهله وبلاده خلال النصف الثاني من سنة **1597**م، بحثا عن الثروة، مما ساعده على معرفة ديار وأمصار عديدة، وإتقان لغات كثيرة. كما مكنته رحلاته من اكتشاف مواهبه في الحقل الديبلوماسي، والتعرف على شخصيات سامية. وهكذا أوصلته رحلاته إلى تركيا حيث أمضى أربع سنوات، اشتغل خلالها فكاكا للأسرى المسيحيين، كما دخل إلى المغرب في حوالي **1604**م، حيث نزل بمراكش أيام الأمير أبي فارس بن أحمد المنصور السعدي، وواصل نشاطه في افتكاك الأسرى المسيحيين. ولما سقط الأمير المذكور، دخل دي هنين في خدمة خلفه على عرش مراكش، الأمير المولى زيدان بن المنصور، منذ عام **1608**م، بل صار من مقربيه، إلى أن انهزم الأمير السعدي أمام الفقيه ابن أبي محلي، فاضطر إلى مغادرة المغرب إلى إسبانيا في أواخر نونبر**1612**م.

وفي إسبانيا، كتب دي هنين مذكراته، واصفا فيها أحوال الممالك المغربية، أيام وجوده بها، ثم قدمها، بعد سعي حثيث، إلى الملك فليب الثالث، على شكل

* أستاذ باحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة أبي شعيب الدكالي، الجديدة.

مشروع لغزو المغرب، وذلك عام **1614**م. لكن المشروع لم يحظ بالموافقة، مما جعل صاحبه يصرف عنه النظر، وينشغل بمشاريع أخرى، إلى أن توفي بعد عام **1627**م [1].
أما المذكرات فقد وضعت بالأرشيفات الملكية الإسبانية حيث بقيت مهملة لمدة يصعب تحديدها، إلى أن نقلت إلى انجلترا، وصارت في ملكية البارون بوريل دي كنيب (**Burrell de Knepp**). وبعد ذلك انتقلت إلى خزانة **Wellesley** بأكسفورد، قبل أن تضم إلى المجموعة التي يملكها باسكوال كيايكوس (**Pascual Gayangos**). وبحكم هذا التنقل من مكتبة خاصة إلى أخرى ظلت مذكرات دي هنين مجهولة لدى الباحثين، إلى أن انتقلت خزانةُ كتب باسكوال كيايكوس إلى المكتبة الوطنية بمدريد، فانتقلت معها، وأمكن الاطلاع عليها، وهي تحمل بها حاليا رقم **17645 Mss**.

وهناك اهتدى إليها الباحث عبد الواحد أكمير وترجمها إلى العربية، وصدرت تحت عنوان: **"وصف الممالك المغربية 1603 - 1613، مذكرات خوخي دي هنين"**، بتقديم وتعليق توركوا توبيرس دي كوثمان، ضمن منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط، عام **1997**، في **253** صفحة.

هذا مجمل عن تاريخ الكتاب وصاحبه. أما مضمونه فيدور في الجزأين الأول والثاني حول وقائع النزال العنيف الذي دار بين أمراء البيت السعدي، وما رافق ذلك من تمردات ونوائب خلال السنوات الأولى التي أعقبت وفاة المنصور السعدي إلى حدود عام **1613**م. بينما يدور موضوع الجزأين الثالث والرابع حول إبراز أهمية المغرب من حيث موقعه الاستراتيجي وثراء أرضه، ثم الخطة التي قدمها المؤلف للملك فليب الثالث قصد ضم البلاد المغربية إلى الامبراطورية الاستعمارية الإسبانية. وقد أولى الرحالة والجاسوس الإسباني لحركة الفقيه ابن أبي محلي اهتماما كبيرا، حيث احتل الحديث عنها حيزا مهما جدا في كتابه، بل لقد أورد عنها تفاصيل دقيقة ومثيرة للانتباه، وأخبارا لا نجد ما يناظرها في المصادر المغربية

المعروفة، مع العلم أن دي هنين كان شاهد عيان. ولاشك أن المتاعب التي سببتها هذه الحركة للمولى زيدان ونجاحها في استقطاب الناس، ثم دخول ابن أبي محلي إلى عاصمة الإمارة السعدية، كانت وراء عناية ذلك الرحالة بالموضوع في كتابه، كما كانت تلك العناية نفسها وراء اهتمامنا في هذه المقالة بالموضوع ذاته دون غيره من القضايا المطروحة في الكتاب.

وهكذا يمكن إعادة ترتيب أخبار ابن أبي محلي وحركته في مذكرات ذي هنين كالآتي:

1- بواعث الحركة وأسسها:

تتمثل تلك البواعث وهذه الأسس فيما يلي:

1. 1- فساد الملك القائم:

جاء ذكر ابن أبي محلي في الكتاب في أحداث عام **1611**، و**1612** م (ص131) أي بعد مرور حوالي عقد من الزمن على وفاة أحمد المنصور سنة **1603**م. واقترن ذكره بالصراع بين أبناء البيت الحاكم عموما، وبتعسف جباة الأمير المولى زيدان في جمع الجبايات في منطقتي درعة وتافيلالت بخاصة، مما يفيد أن بواعث حركة ابن أبي محلي، في مذكرات دي هنين، ترتبط بفساد الملك القائم في البلاد، على غرار ما ترويه كرامات ابن أبي محلي نفسه في سير الصالحين. وقد ساق دي هنين هذه الأخبار كما يلي: "في تلك الأيام [من بداية **1612**م] كتب القائد الميرا إلى مولاي زيدان يخبره أنه كون جيشا من خمسمائة وألفين من المشاة وستمائة من الفرسان، وأنه نجح في أخذ الجبايات من أهالي درعة، وكان هذا القائد قد استعمل كل أنواع البطش والتعذيب لأخذ تلك الجبايات. وقد أرسل إليه مولاي زيدان يأمره بأن يبعث له ستمائة ألف أوقية التي تحصلت له من الجبايات وكذا بالتوجه إلى تافيلالت قصد القيام بنفس الشيء، وعند وصوله إليها لم يتردد في استعمال نفس

البطش الذي استعمله في درعة لإرغام السكان على دفع الجبايات" (ص133).

كان هذا التعسف الجبائي، وتعسفات أخرى من قبيل تجنيد الناس قهرا، ومصادرة أملاكهم من بواعث تململ السكان، وظهور ابن أبي محلي في سياق الأحداث. وقد عبر دي هنين عن ذلك في عنوان نصه: **"تقديم سكان درعة الشكاوي إلى سيدي أحمد بن عبد الله"** (ص 133). وجاء في التفاصيل ما يلي: "ولم يستطع سكان تافيلالت تحمل بطش وطغيان القائد الميرا، لذا أرسلوا أعيانهم لتقديم التظلمات إلى سيدي أحمد بن عبدالله[2] كبير مرابطي [ما سماه المؤلف] صحراء ليبيا. وقد شرح هؤلاء للمرابط كيف أن مولاي زيدان لا يقنع بالجبايات التي تقدم للملوك وكذا بالعشر وغيرها من الجبايات المتعارف عليها، بل إن وزراءه يصادرون كل ممتلكات الأهالي، ويقومون بإبادة كل من يرفض تقديم ما يفرضونه عليه، وأنه جراء ذلك فر الكثير من الأهالي، وكان هؤلاء يعتبرون من المتمردين، لذا فإن أملاكهم تصادر وتمنح للغلمان الغرباء الذين يشاركون أولئك الوزراء في نزواتهم وفجورهم، أما الفقراء من الأهالي، فبما أنهم لا يمتلكون شيئا يدفعونه كجباية فإنهم يأخذونهم عنوة إلى الجيش. وقد وضح هؤلاء الأعيان للمرابط أن سكان هذه المنطقة (تافيلالت) لم يعهدوا هذا التصرف من الملوك السابقين الذين لم يقوموا أبدا بضم أهالي تلك المنطقة إلى الجيش، وأنه إذا لم يكن لأهالي درعة الجرأة الكافية لتقديم تظلماتهم، فإن أهل تافيلالت لم يستطيعوا تحمل هذه الإهانة لذا جاءوا عنده، وهم يعقدون عليه الآمال لإنصافهم" (ص 133 - 134).

وسرعان ما قصده أعيان درعة أيضا، وجاء غيرهم من جهات أخرى، حيث يذكر المؤلف أنه "في تلك الأيام كذلك، استقبل المرابط [أحمد بن عبدالله] أعيانا آخرين جاءوا من مراكش ودرعة قصد تقديم التظلمات ضد مولاي زيدان"(ص 134).

كما فرّ "في تلك الفترة،... من درعة إلى الصحراء محمد بن إبراهيم كبير مرابطي تلك المنطقة وذلك خوفا من بطش القائد الميرا". و"ذهب إلى [المرابط أحمد

بن عبدالله] بمسجده، واختلى به ثم قال له: سيدي، أنت صديقي لذا اعتبر من اللازم أن أنصحك؛ إن عليك أن تغتنم هذه الفرصة وتعلن تمردك كمدافع عن المسلمين من طغيان مولاي زيدان، وإن الله معينك. ومن جهتي فبما أني أمتلك الكثير من الذهب ورثت بعضه عن آبائي وحصلت على الباقي بنفسي، فإني مستعد أن أقرضك إياه عن آخره لتقتني به الخيام والجمال وغيرها من الأشياء اللازمة" (ص 134).

1.2 ـ أهمية الصلاح أو الدعوة السرية:

انتبه المؤلف إلى اهتمام الناس بهذا المرابط، فلم يتردد في اعتباره "كبير مرابطي صحراء ليبيا" (ص133). وإذا علمنا أن ابن أبي محلي كان شيخ زاوية في المنطقة أدركنا أن "الصلاح" كان سبب الشهرة. بل أومأ المؤلف إلى أن ابن أبي محلي حاول استغلال هذا "المجال الحيوي" ليبرر سياسته في الوصول إلى الملك.

وهكذا، روى دي هنين نفسه أحداث واقعتين جرتا لابن أبي محلي؛ الأولى مع الشيخ محمد بن إبراهيم، والثانية مع المدعو **محمد دي ألقوثير De Alcocer**. وقد ساقها في قالب لايختلف كثيرا عن الأسلوب المعتاد في حكايات الكرامات والخوارق الواردة في سير الصالحين المغربية، سوى أن دي هنين استعمل "المكر والخداع" بدلا من الخوارق والكرامات، بل نقل الروايتين معا تحت عنوان، نصه: "مكر أحمد بن عبد الله" (ص134). أما الرواية الأولى فجاء فيها: "كانت لذلك المرابط قدرة على المكر والخداع، لذا لما كان يكلمه محمد بن إبراهيم تظاهر بالنوم وبقي على ذلك الحال حوالي ساعتين، ولما استيقظ من نومه المفتعل، سأله محمد بن إبراهيم هل فهم ما قاله له، فأجابه بالنفي بدعوى أن أحاسيسه كانت مع النبي، ورجاه ألا يزعجه بالأمور الدنيوية لأنه منهمك في الأمور الروحية. هذه الطريقة كان يستعملها كذلك مع أناس كثيرين، وبما أنه كان يعرف ما يريده منه هؤلاء، فقد كان يفكر دائما بالحيل التي يمكن أن يخدعهم بواسطتها، وكان يتظاهر باستمرار

بعدم قبول ما يطلبونه منه وذلك حتى يتوسلوا إليه أكثر وبالتالي يقبلون ما يفرضه عليهم دون قيد أو شرط" (ص 134 - 135).

أما الرواية الثانية، وهي مثيرة، فقد أخبرنا فيها المؤلف، أنه "... في تلك الأيام جاء إلى الصحراء شخص يدعى محمد دي ألقوثير، وهو طبيب ولد في مدريد، وكانت له كذلك قدرة كبيرة على الكذب والخداع. وقد انتظر إلى أن كان مسجد أحمد بن عبد الله مليئا بالمصلين، ودخل إليه وهو يصيح بصوت مرتفع: ماذا كان من أمر ذلك الولي الصالح الذي أرسلني الله لأخبره بأنه سيمتلك العالم ويجعل الديانة الإسلامية تنتشر في أرجاء الكون. إثر ذلك بدأ يبحث عن الشخص المقصود بين الناس، وبما أنه كانت له معلومات عن شكل وملامح أحمد بن عبد الله، فإنه لما اقترب منه خر ساجدا وقال له: أنت هو الولي الصالح الذي أبحث عنه، وإني أسعى للتبرك بك. وبما أن الأهالي لم يسبق لهم أن رأوا ذلك الشخص الذي كان يتكلم عربية ركيكة تفهم بصعوبة، وكانت له لحية وشعر طويلان ويرتدي ملابس نصفها من لباس المسيحيين، فإنه أثار إعجاب الجميع، واعتقد أولئك البربر أنه لا محالة يحمل معجزة ما. وبعد أن أدى الصلاة، قال للمرابط أمام الملإ: سيدي، إني كنت أعمل في بلاط ملك المسيحيين، وفي أحد الأيام رأيت في منامي النبي محمدا الذي طلب مني أن أذهب إلى الصحراء لأخبر وليا صالحا أن يرفع رايته لأنه سيصبح ملكا على العالم، وأنه على يده سيتمكن الجميع من النجاة، ثم اختفى بعد ذلك. وقد أسفت كثيرا لكوني لم أسأله عن اسم ذلك الشخص، لكنني سمعت فيما بعد صوتا يقول، اذهب إلى المكان المعين، وعندما تصل إلى هناك سأريه لك. ولما وصلت إلى هذا المسجد أخبرني بأنك الشخص المطلوب، وإني فعلت الآن ما أمرتني به السماء، لهذا إذا أذنت لي فإني سأعود إلى حال سبيلي. وقد أجابه أحمد بن عبد الله بأنه يجد نفسه أحقر من أن يتولى أمورا بهذه الدرجة من الجلالة، لكن كل شيء بيد الله، وطلب منه عدم الرحيل، ودعاه لمرافقته إلى بيته" (ص135 - 136).

وبصرف النظر عن التفاصيل والدقائق، يمكن القول إن الروايتين تعبران عن رغبة الناس في المنطقة، عامة وخاصة، في الخلاص من الأزمة، وأنهم وضعوا ثقتهم في ابن أبي محلي باعتباره كبير صلحاء المنطقة، لتحقيق هذا الخلاص من جهة، وأن التفاف الناس حول ابن أبي محلي قوى "طمعه" في سلوك طريق الملك، من جهة أخرى.

1. 3 ـ الجهر بالدعوة:

توحي الأخبار الواردة في الكتاب أن ابن أبي محلي استند في الجهر بدعوته على إثارة الحمية الدينية، والإغراءات المادية، وأنه لم ينس فعل الخوارق والكرامات. واستهل المؤلف الأخبار الدالة على ذلك بقوله:

"وفي اليوم التالي خرج المرابط (ابن أبي محلي) إلى مسجده، حيث أدى الصلاة بخشوع ثم تظاهر بنوم عميق، وبعد وقت غير طويل استيقظ وهو يصيح بصوت مرتفع: مولاي، أرجوك أن تختار شخصا آخر، لأني أعتبر نفسي أقل من أن أتولى هذه الأمور السامية الجليلة لكن افعل ما يظهر لك، وإني لست إلا عبدك الحقير. وقد سأله الحاضرون عمن يكلم، فأجابهم: إني أكلم النبي محمدا، الذي طلب مني أن أرفع رايته وكذا أن أقوم بأشياء أخرى على درجة كبيرة من الأهمية. وقد ترجاه الحاضرون ليروي لهم الرؤيا، فأخبرهم بأن محمدا اختاره ليدافع عن المسلمين بحد السيف ضد الملوك الظالمين الذين يمارسون طغيانهم على المسلمين، وأنه سيغزو هذا العالم لينشر فيه الإسلام الذي سيعم الكون، وسوف يحتل روما التي يقال إن عدد أبوابها يفوق عدد أيام السنة، وكلها من الذهب والفضة، كما أن سقوف كناشها من فضة وأجراسها من ذهب. وسيحصل المسلمون الذين سيرافقونه إلى روما على ثروات لا تعد ولا تحصى، لدرجة أن الواحد منهم سيخاطب الأخر قائلا: يا هذا خذ هذا الذهب. فيرد عليه الآخر: خذه أنت، فإن معي ما يكفيني.

كما أن أقل واحد من المسلمين سيظفر بخمسين صبية مسيحية" (ص 136).

وللمرور إلى البلاد المسيحية لن يكون لزاما استعمال البواخر، لأنه وبأمر من الله سوف تظهر قنطرة من النحاس تربط سبتة بجبل طارق[3]، ومن مميزات تلك القنطرة أنه على جانبها تقوم سواقي جارية من الرصاص السائل. وبعد روما سوف ينتقل إلى القدس حيث يلتقي في مجمع ديني بيسوع المسيح والنبي محمد، إثر ذلك تصبح الحياة خالدة، ويتولى هو حكم العالم إلى الأبد. وسوف يحاول الإسبان مهاجمة بلاد البربر، حيث يسعون لاستعمال تلك القنطرة النحاسية، لكن وبعد أن يكون كل الجنود الإسبان عليها، سوف تنزل تلك السواقي من الرصاص السائل على أجسادهم حيث تغطي نصفها، ويصلبون في مكانهم، ويبقون على ذلك الحال إلى الأبد، ليكونوا عبرة لغيرهم. وأضاف أن على المسلمين أن يفكروا جيدا فيما يفعلون، وأن الطريق القويم يتمثل في أتباعه، لأنه لن ينجو أحد غير الذين يتبعون رسالته والتي توجد محفوظة بالطلاسم في بعض خزائن مملكة سوس. وقد نجح ذلك المرابط بهذه التفاهات والأكاذيب في إقناع الحاضرين الذين ما أن انتهى من كلامه حتى هموا جميعا إلى تقبيل الأرض المحاذية للمكان الذي يجلس فيه، وكأن الأمر يتعلق بملك حقيقي، وأكدوا له أنهم سيموتون جميعا من أجل إعلاء رايته" (ص 137).

"بعد ذلك أمر بقرع الطبول قصد جمع الرجال الذين يريدون أن يحاربوا معه. وطلب منهم ألا يخافوا من رصاص العدو لأنه عندما يصل إلى صدورهم يتحول إلى شمع لين، وسيعود بعد ذلك ليصيب صدور الذين أطلقوه، لكنه حثهم على الاحتياط من الرماح، التي وبخلاف الرصاص لا يستطيع أن يضمن لهم النجاة منها" (ص 137).

ويبدو أن دعوة ابن أبي محلي لقيت صدى واسعا، حيث صار الناس يتقاطرون عليه في مسجده، إيذانا بنصرة "ملكه"..

2. سلوك طريق الملك:

"... لما انضم إليه حوالي ألف رجل أعلن [ابن أبي محلي] الحرب على المسيحيين، وعمل على إقناع أولئك البربر بأن مولاي زيدان ومولاي الشيخ [ابني المنصور] هما مسيحيان لذا يجب أن تتم محاربتهما قبل غيرهما. وبما أنه كان يتمتع بسمعة الولي الصالح فقد تقاطر عليه الأعراب والبربر من مختلف جهات الصحراء قصد الانضمام إلى جيشه..." (ص 137). وكان تخطيطه كما يلي:

2.1. إعلان الحرب على الأمير زيدان

تجلت بداية هذا الإعلان في الصراع حول تافيلالت ودرعة. وقد روى المؤلف أخبار النزاع، كما يلي:

"اتجه بعد ذلك إلى تافيلالت[4]، حيث خاض معركة ضد القائد الميرا، انهزم فيها هذا الأخير والذي اضطر إلى الفرار إلى ولاية درعة. وفي تافيلالت قام المرابط بفرض الجبايات على الأهالي، حيث أرغم الجميع على دفعها، وكان يسوغ قيامه بذلك بحاجته إلى الأموال قصد القتال في سبيل الله، وبهذه التعليلات تمكن كذلك من ضم عدد كبير من الرجال إلى جيشه" (ص 138). "وأثناء وجود المرابط أحمد بن عبد الله بتافيلالت حيث كان يرغم الأعراب والبربر على دفع الجبايات، أرسل صديقه محمد بن إبراهيم إلى درعة قصد احتلال قصبة تنزولين، وقد خرج هذا الأخير من تافيلالت ومعه ألف جندي، وفي الطريق انضم إليه عدد آخر من الرجال تمكن بواسطتهم من الانتصار على القائد الميرا الذي فر إلى بعض الجبال الوعرة مع ألف من الرجال (ص 140).

"ولما لاحظ مولاي زيدان أن هذا المرابط يحقق انتصارا تلو الآخر، قرر إرسال أخيه مولاي عبد الله بن أحمد [المنصور] والقائد عبد الصادق بوطويرة على رأس جيش مكون من ألف من المشاة وأربعمائة من الفرسان من أعراب دكالة

للالتحاق بالقائد الميرا الذي كان يوجد في مكان بين تنزولين وسيمبيا، وكانت أغلب العناصر التي تشكل هذا الجيش ممن جندت عنوة، لذا فقبل الوصول إلى سيمبيا تمكن من الفرار جل الفرسان وأغلب المشاة... وقد بقي مع مولاي عبد الله بن أحمد عشرون فارسا فقط ومع ذلك تابع تقدمه إلى أن التقى بالقائد الميرا، حيث وقعت مواجهة بين رجالهما ورجال المرابط قتل فيها القائد علي بن منصور كوريتو. ولما علم مولاي زيدان بفرار أغلب الجنود الذين كانوا يرافقون شقيقه، أرسل يأمر بعدم الدخول في أية مواجهة جديدة مع المرابط قبل أن يرسل إليهم عددا آخر من الرجال" (ص 140).

وفعلا "... لما علم مولاي زيدان بأن المرابط عازم على الاتجاه إلى ولاية درعة أرسل إلى هناك أكبر عدد ممكن من الرجال، حيث إنه لما قام مولاي عبد الله ابن أحمد والقائد الميرا بإحصائهم وجدوا أن عددهم حوالي ثلاثة آلاف من المشاة وثلاثمائة من الفرسان، وكان عدد الرجال الذين يرافقون المرابط يقدر بخمسمائة وثلاثة آلاف. هذه المعركة وقعت بين بعض الأودية، وكان النصر فيها حليف المرابط، الذي أرغم جيشه مولاي عبد الله والقائد الميرا على الفرار مع رجالهما إلى قلاع سيبيار. وقد قتل في هذه المعركة من جانب مولاي زيدان حوالي خمسمائة وألف شخص أغلبهم من المشاة، لأن الفرسان فروا قبل أن يبدأ إطلاق الرصاص، مقابل ذلك لم يمت أحد من جانب المرابط. وبهذا الانتصار تحول المرابط إلى السيد الفعلي لولايتي درعة وتافيلالت. وقد واصل ما كان يقوم به من إرغام البربر والأعراب على دفع الجبايات وكذا ضم عناصر جديدة إلى جيشه، وكان يوضح للجميع أن كل ذلك يفرضه الاستعداد للحرب ضد المسيحيين" (ص 142 - 143).

2.2. إعلان الحرب على أمير مدع للعرش:

في أثناء الحرب حول تافيلالت ودرعة "فر من سان لوكار [Sanlucar بإسبانيا]

على ظهر باخرة انجليزية أحد العبيد المغاربة، وكانت الباخرة قاصدة موكادور. وقد أخبر قائدها أن أصله من موكادور، وأن بعض الأعراب الذين يعرفهم سيأتون للسفينة من أجل شراء بعض السلع، لذا ترجاه أن يعطي أوامره للبحارة حتى يعاملوه أمام أولئك الأعراب بأكبر قدر ممكن من التقدير والاحترام. عند ذلك منح لقائد السفينة مائتي سكودوس وللبحارة مائة كمقابل لتلك الخدمة، ثم ابتاع كمية من القماش والقطن والقلنسوة وطلب من القبطان تسليمها لأولئك الأعراب" (ص 143 -144).

ولما صعد هؤلاء إلى الباخرة أرسل في طلبهم، وكلمهم بسلطة كبيرة حيث أخبرهم أن اسمه فيليب الإفريقي وأنه ابن الملك مولاي محمد5 [المتوكل] الذي كان في صف دون سبستيان خلال معركة وادي المخازن، وبما أنه كان صغير السن وقت تلك المعركة فقد أرغمه المسيحيون على اعتناق ديانتهم، وبقي هناك إلى أن تمكن من الفرار والمجيء إلى موكادور حيث يسعى إلى استرجاع ملك والده. وبيّن لهم أنه يضع ثقته في أهلها من أجل مساعدته، وأنهم إذا فعلوا ذلكم فلن ينسى جميلهم، وسيمنحهم ما يستحقونه. وقد صدقه أولئك الأعراب وأجابوه بأنهم سيذهبون عند شيوخهم ليبلغوهم الخبر ثم يعودون عنده ليخبروه بما قرره هؤلاء" (ص 144).

"عند ذلك أمر بأن يمنح القماش والقطن والقلنسوة التي ابتاعها آنفا لأربعة منهم. وقد نزل هؤلاء من السفينة وهم في أشد ما يكون من الإعجاب بفيليب الإفريقي المزيف. وذهبوا عند شيوخهم حيث أخبروهم بشأنه وما منحهم من لباس وقلنسوة، وكذا بالتقدير والاحترام الذي يحظى به من طرف ركاب السفينة والبحارة الذين يتهافتون على تنفيذ أوامره مما يدل على أهميته وعلو شأنه. إثر ذلك اتجه الشيوخ إلى الباخرة حيث تحدثوا إليه وقد نجح في إقناعهم بأصله الملكي، لذا وعدوه بأن يعملوا كل ما في وسعهم قصد مساعدته، وطلبوا منه أن يرافقهم،

إذ نزل في خيامهم، وكانوا يعاملونه كملك. وقبل مغادرته السفينة ابتاع بكل ما كان معه من نقود كميات من القماش والنسيج وزعها على الشيوخ، وكان هؤلاء يطلبون من كل أهل حاحا مساعدة الملك الجديد والذي نجح في أقل من شهرين من جمع حوالي ألفي رجل بالإضافة إلى كميات كبيرة من الأموال، ذلك لأن الأعراب كانوا يمنحونه العشور والزكاة. في نفس الوقت قام بتعيين القواد والقضاة كما يفعل أي ملك حقيقي"(ص144- 145).

"إثر ذلك قرر التحالف مع المرابط [أحمد بن أبي محلي]، لذا أرسل سفارة للتفاوض معه، حيث اقترح عليه الاتحاد، وأخبره بأنه على الرغم من كونه الملك الذي يحق له تولي الحكم على هذه المملكة وكل ما فيها، فإنه لما علم أن المرابط ولي صالح اختاره المسلمون لحمايتهم قبل أن يتنازل عن نصف مملكته"(ص145).

"وقد أجابه المرابط بأنه سعد كثيرا لما علم بقدومه وأنه يشكر الله الذي نجاه من كل الأخطار التي كانت تحيط به حيث تمكن في الأخير من الوصول إلى مملكته التي هي في أمس الحاجة إليه، وأخبره أنه من جهته لا يسعى إلى أي شيء في هذه المملكة، لأن الله أمره بالتوجه إلى بلاد المسيحيين، لكنه قبل أن يفعل ذلك يريد أن يتركه هو ملكا على كل بلاد البربر. وبين له أنه يتمنى كثيرا رؤيته، لذا رجاه بالمجيء إلى درعة بأكبر عدد من الرجال إذا أمكنه ذلك. وقد عاد مع سفير فيليب الإفريقي سفير المرابط الذي جاء إلى حاحا بغية تهنئته بمقدمه السعيد. كل تلك الكلمات المعسولة والاقتراحات المقدمة أطربت فيليب الإفريقي الذي قرر الرحيل إلى درعة قصد مقابلة المرابط، وفي اعتقاده الراسخ أنه لا يوجد من هو أكثر منه مكرا وخداعا"(ص145).

"إثر ذلك اتجه فيليب الإفريقي ومعه ألفا رجل إلى ولاية درعة قصد الالتقاء بالمرابط، وعندما بقي نصف فرسخ على المكان الذي يوجد به هذا الأخير أمر بإقامة مخيمه، ثم أرسل من يبلغ المرابط بخبر وصوله وأنه يتمنى رؤيته والتبرك

به. وقد خرج المرابط مع فرقة فرسانه لأجل استقباله وكان قد أمر بإعداد خيمة للاستقبال، ما إن دخلاها حتى أمر بقطع رأسه، وقام بعد ذلك بضم الجنود الألفين الذين كانوا يرافقونه إلى جيشه" (ص 145)[6].

3- في اتجاه مراكش:

في الوقت الذي كان مولاي زيدان يحاول عبثا تجنيد الجند[7]، وتوفير السلاح والخيل والذخيرة[8]، والمال اللازم[9]، استعدادا للمواجهة الحتمية مع ابن أبي محلي. كان هذا الأخير يقطع المراحل في اتجاه مراكش. واتخذ في هذا السبيل عدة خطوات.

3. 1- الخطوة الأولى: الاستيلاء على قلاع سيمبيا، وتحطيم قبيلة الكروايين:

"... في ذلك الوقت كان المرابط الموجود بولاية درعة يعد العدة للتوجه إلى سوس، وقد انضم إليه الكثير من الناس الذين جاءوا من الصحراء وكان أغلبهم دون سلاح، حيث التحقوا به بدافع الإيمان، ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن السماء هي التي أرسلته ولن ينجو أحد غير الذين يتبعون طريقه (ص149). كما التحق به كثير من أهل مراكش "خوفا من تجنيدهم" (ص147).

"وقبيل اتجاهه على رأس ذلك الخليط غير المتجانس من الناس إلى قلاع سيمبيا، أرسل مبعوثيه إلى القبائل التي سيمر منها ليطلبوا منهم تهييء المؤونة الضرورية لجيشه، وكذا الجبايات التي اعتادوا على دفعها للملوك. وقد تمكن بفضل ذلك من جمع أموال كثيرة" (ص149).

"وكانت إحدى قبائل الأعراب الكراويين قد امتنعت من تقديم المؤونة والجبايات، ولما علم المرابط بذلك، وكان قد تجاوز تلك القبيلة بحوالي عشرة فراسخ، قرر العودة إليها والبطش بها؛ حيث قام بقتل خمسين من أعيانها، وجرد الباقي من رجال ونساء وأطفال من ثيابهم وتركهم عراة. بعد ذلك أضرم النيران

في الخيام واستولى على الخيول والجمال والماشية، إضافة إلى ستين ومائة ألف غرارة من القمح والشعير" (ص150).

"وقد أقام مخيمه في تلال سيمبيا التي بقي بها حوالي خمسين يوما، قضاها في استخلاص الجبايات من الأعراب والبربر، وكان يرغمهم على دفع ذلك عنوة ؛ حيث تمكن من جمع ما يزيد عن مليون أوقية. ولم يكن أهالي هذه المنطقة قد دفعوا الجبايات منذ عهد مولاي أحمد " المنصور(ص 150).

3. 2- الخطوة الثانية: اتصال المرابط بأهل مراكش [10]

"أثناء تواجده بسيمبيا كتب [أحمد بن أبي محلي] إلى أعراب وبربر وحضر مراكش يخبرهم بأنه سيأتي في وقت قصير ليخلصهم من طغيان مولاي زيدان، الذي كان ينعته بالشيطان. كما طلب منهم تهييء المؤونة الضرورية لجيشه. وقد أبدى هؤلاء استعدادهم التام لتنفيذ كل ما طلبه منهم، وكان خضوعهم لأوامره وخوفهم منه يفوق كل تصور، وهو ما لم يحسوه أبدا اتجاه أبناء مولاي أحمد" المنصور (ص 150).

"وقد كتب المرابط كذلك إلى بعض حراس مولاي زيدان يخبرهم بأنه سيجعلهم من قواده الرئيسيين إذا قبلوا الالتحاق به، وبما أن هؤلاء كتموا سر تلك الرسائل على مولاي زيدان، فإنه لما علم بها أمر بربطهم بدواب وجرهم إلى أن يلفظوا أنفاسهم. ورغم أن هذا العقاب كان ينتظر كل من يحاول الفرار فإن الأهالي لم يتوقفوا عن ذلك وبالتالي الانتقال إلى صفوف المرابط" (ص 150).

وقد انضم إلى المرابط في هذه الفترة القائد عبد الصادق "وكان من أهم القواد الجدد في جيش مولاي زيدان، وقد حدث أن هذا الأخير أخذ منه حصانه الذي سلمه لقائد آخر هو يوسف الباسكي، ثم قام بتوبيخه، وقد حز ذلك كثيرا في نفس هذا القائد الذي أحس بإهانة كبرى دفعته إلى الانضمام إلى صفوف المرابط"

(ص153).

"ولما تبين لمولاي زيدان أن نشوب المعركة أصبح أمرا حتميا وأن المرابط لم تعد تفصله عن مراكش إلا مسافة ثلاثة أيام، أرسل عامل المدينة القائد عبد القادر ومعه ثمانون فارسا من حملة البنادق يطلب المساعدة من أعراب دكالة، لكن هؤلاء لم تكن لهم رغبة للمشاركة في المعركة، لذا عملوا على تأخير القائد عبد القادر عندهم إلى أن عملوا بوقوعها. وهكذا لم يستفد مولاي زيدان من خدمات أعراب دكالة ولا من القائد عبد القادر ومرافقيه والذين كان في أمس الحاجة إليهم" (ص 153).

"وإذا كان القائد أحمد بن منصور كوريتو قد وفى بوعده حيث ذهب عند مولاي زيدان الذي استقبله بحفاوة، فإن القائد عزوزا قد أخلف وعده ولم يتردد في الانضمام إلى المرابط، وهو بذلك عبر عما كان يتصف به من تصرفات البرابرة وأخلاقهم" (ص 152).

"وبانضمامه إلى المرابط، منح الجيش لهذا الأخير صيتا كبيرا، وذلك لما كان يتمتع به من سمعة حسنة بين المغاربة الذين تبين لهم أن هزيمة مولاي زيدان أصبحت شبه مؤكدة، خصوصا وأن القائد عزوز اشتهر بين المغاربة بأنه ساحر بارع ومتنبئ بالغيب. وعند انضمامه إلى المرابط أخذ معه أربعمائة من المشاة ومائة من الفرسان، وبفعله ذاك تنكر نهائيا للجميل الذي أسداه إليه مولاي أحمد، وذلك بسبب خيانته لابنه واستعداده لقتاله. وكان المرابط ينوي التوجه إلى مملكة سوس أولا، لكن القائد عزوزا نصحه بالسيطرة على مراكش، ووضح له أنه بتحقيقه لذلك سيصبح سيدا على سوس دون حاجة للقتال" (ص 153).

3.3 - الاستعانة بالكرامات:

إلى جانب استعمال القوة العسكرية، لم يكن ابن أبي محلي يجد غضاضة في

الاستعانة بالخوارق. ولعل القصة الموالية وافية بالمرام، حيث جاء فيها على لسان المؤلف، طبعا، قوله:

"في تلك الأيام جاء عند المرابط تاجر انجليزي يدعى مارتن **Martin** وكان يميل إلى حياة اللهو والمجون، لذا ضيع كل الأموال التي كان مدينا بها لغيره وأصبح مفلسا. وقد أخبر المرابط أنه لما كان بانجلترا رأى في منامه النبي الذي قال له: "اذهب إلى إفريقيا حيث ستجد هناك منقذ البشر الذي سينير سبيلك، ويريك الطريق الصحيح المؤدي إلى النجاة". ولتنفيذ ذلك الأمر الجليل وحبا في النجاة جاء عند المرابط. وكان جواب هذا الأخير أنه رأى نفس الرؤيا، وأخبره أن طريق النجاة يتلخص في اعتناق الإسلام وتلاوة القرآن. وكان رد الأنجليزي أنه جاء بالفعل لذلك الغرض، لذا اعتنق الإسلام وأطلق عليه المرابط اسم علي بن عبد الله، وبما أنه كان يتكلم العربية بطلاقة، فقد جعله من المقربين إليه ورفيقه السري في المكر والخداع" (ص 151).

"وكان المرابط بتواطؤ مع الانجليزي يقوم بابتداع كثير من المعجزات، ففي إحدى المرات وضعا في إحدى الخيام جفنة كبيرة مليئة بالكسكس، ورغم أن عدد الأشخاص الذين أتوا لتناول طعامهم من تلك الجفنة تراوح بين مائتين وثلاثمائة فإن الكسكس لم يكن ينفد أبدا، بل إن كميته كانت تبقى على حالها، ومرد ذلك بأن الجفنة كان بها ثقب وكان هناك نفق يؤدي إلى خيام المرابط حيث يوضع الكسكس من خلاله في أسفل الجفنة، ولقد غدت معجزة الكسكس هذه في نظر المغاربة من أهم المعجزات التي من بها النبي على المرابط" (ص 151).

بل "إن بلاهة أولئك البرابرة وصلت للاعتقاد بأن المرابط كان يقرأ أفكارهم، لذا كانوا يجلونه ويحترمونه لدرجة يصعب تصورها، ولم يكن أحد يجرؤ على أن ينطق بشيء يمس سمعته. وبواسطة مثل هذه التفاهات استطاع المرابط أن يخدع كل من كانوا معه" (ص 151).

4. وصول المرابط إلى سهول مراكش واستعداد الطرفين للمعركة الفاصلة:

4. 1. اقامة المخيمات

"لما اقترب المرابط من مسجد أغمات، حيث أصبح على بعد أربعة فراسخ من مراكش أمر بإقامة مخيمه، وكان يرافقه حوالي عشرة آلاف رجل، منهم خمسمائة وألف من الفرسان المسلحين بالرماح والتي كان بعضهم يحملها بالإضافة إلى الخناجر، كما كان معه خمسمائة وألفان من المشاة المسلحين بالبنادق والسهام، في حين أن الباقي لم تكن لهم غير المقالع لرمي الحجارة. وباختصار فإن هؤلاء الجنود كانوا أناسا همجيين، شبه عراة، ولم يكن المرابط يدفع لهم أية أجور باستثناء كميات من القمح والشعير يسدون بها رمقهم"(ص 153 -154).

"وكان مولاي زيدان قد أقام مخيمه بجوار ضفة نهر الويدان، على بعد فرسخين من مراكش. وفي اليوم الذي سيشهد حدوث المعركة قام بإرسال أمه ونسائه إلى سفح جبل دمنات وكان يرافقهن القائد عامر وهو خصي من العلوج، إضافة إلى مائتين من عرب الشبانات من أقارب أمه. وكان مولاي زيدان قد أمر القائد عامرا بالتوجه إلى جبل سروة في حالة الهزيمة ليلتقي به هناك" (ص 154).

"بعد ذلك رفع مولاي زيدان مخيمه وأقامه على مقربة من العدو الذي تقدم بدوره لدرجة أنه أصبح على مرأى من جيشنا. والحقيقة أن مولاي زيدان لم تكن له رغبة في القتال في ذلك اليوم، وإنما فقط تقدم ليصبح أكثر ظهوراً للعدو. وكان لا يزال يعقد الآمال على مجيء القائد عبد القادر ومعه فرسان دكالة تلك الليلة، لكن آنذاك جاء أعرابي وقال له: "مولاي، تهيأ للمعركة، وكن رجلا، لأن العدو قادم نحونا" (ص 154).

"عند ذلك أمر مولاي زيدان برفع المخيم وشحن الخيام على الجمال، وبقي فقط الجناح الملكي وكانت كلا بابيه مفتوحتين. وقد نزل مولاي زيدان عن فرسه بسرعة ودخل إلى خيمته حيث طلب بعض الطعام، وبعد أن أكل قليلا عاد إلى فرسه

وشمر عن ساعده الأيمن ثم طلب الرمح وبدأ بإعطاء بعض التعليمات السريعة لرؤساء وشيوخ الأعراب، ومما قاله لهم: "أيها الرجال النبلاء، يا أصحاب العقول النيرة، قد لا تجهلون الإهانة الكبيرة التي يريد أن يلحقها بنا عدو الله وعدوي هذا، وإنني أتساءل هل تسمحون بأن يقوم شخص دنيء مخادع ترافقه مجموعة من الهمجيين بهزم ملككم الشرعي والاستيلاء على مملكته ؟ كما أتساءل هل ستسمحون بأن يدخل أبناء الكلاب الذين يرافقونه إلى منازلكم ويستبيحون نساءكم وأبناءكم؟ ألا تفضلون القتال حتى الموت على رؤية من كانوا بالأمس أقل من عبيدكم وهم ينتصرون اليوم عليكم؟ إنه ليس لي ما أقوله لكم أكثر من هذا، وإن ثقتي كبيرة في رجولتكم. إنني متأكد أن هذا اليوم سيكون ذا شأن وفيه ستقال واحدة من العبارتين: "حفظ الله مولاي زيدان المظفر أو رحم الله مولاي زيدان". وقد أجابه مخاطبوه بأنهم سيخوضون المعركة من أجل الانتصار أو الموت، وقال له الأتراك الثمانون الذين كانوا ضمن جيشه: "مولاي، اسمح لنا بالتموضع في المقدمة، لأننا جئنا لنموت"، وقد أجابهم بما يلي: "اختاروا المكان الذي ترونه مناسبا لكم، وإن ثقتي كبيرة فيكم" (ص 154 - 155).

4. 2. استعداد الطرفين للمعركة:

"تم وضع القطع الأربع عشرة من المدفعية التي يمتلكها مولاي زيدان على شكل هلال، وأخذ المشاة مكانهم بينها، بينما تموضع الفرسان على الطرفين مشكلين بذلك كتيبتين، واحدة في الجانب الأيمن والأخرى في الجانب الأيسر، وكان هذا الجيش يوجد في سهل منبسط، أرضه مبللة بشكل كبير، ذلك لأن العدو حوَّل مجرى إحدى السواقي نحونا، وقد أضر ذلك كثيرا بالجنود الذين أصبحوا يتحركون بصعوبة، بسبب كثرة الأوحال. في تلك الأثناء كان عدد من الجنود الذين ضموا إلى معسكر مولاي زيدان عنوة لازالوا مكبلين بالقيود، لأنه وتخوفا

من فرارهم رفض فك قيودهم، ولم يفعل ذلك إلا مع بداية المعركة"(ص 155).

"وقبل أن يعطي المرابط أمره لجيشه بالهجوم، قام ببعض الطقوس والتي تتمثل في أمره لكل رجاله بالانحناء للشرب مباشرة بالفم دون استعمال اليدين من ساقية كانت توجد قرب المخيم، وأخبرهم أنه من لا يفعل ذلك فستكون حياته في خطر خلال المعركة. وبعد أن أدى صلاة مطولة قال لفرقة الفرسان: "هاجموا أنتم الأعداء، واقتلوهم كلهم دون أن تغفروا لأحد، لأنهم كلهم مسيحيون، ولا تهتموا بالغنائم لأنكم لا تقاتلون من أجلها، وإنما من أجل محمد، ولا تخافوا من الرصاص لأنه عندما سيصيب أجسادكم سيتحول إلى شمع ويعود بعد ذلك ليصيب أجساد من أطلقوه ويرديهم قتلى، أما الرماح فإنني أحذركم منها وأدعوكم لاجتنابها، لأنها يمكن أن تسبب لكم الأذى ذلك لأن الرماح سلاح استعمله نبينا". بعد ذلك أمر المشاة وكان أغلبهم دون سلاح بأن يتبعوا الفرسان، وأكد لهم أنه لا يوجد أي خطر على حياتهم، ومما قاله لهم: "باسم الله، عليكم أن تهاجموا أعداءكم المسيحيين، وإن محمدا هو الذي سيضمن لكم النصر، ومن يدير منكم ظهره فإنه لن يدخل الجنة" (ص 155 - 156).

3.4. حدوث المواجهة وانتصار ابن أبي محلي:

"أطلق فرسان المرابط العنان لخيولهم بسرعة كبيرة، وكان خلفهم المشاة دون أي انتظام، وبسبب الأوحال الكثيرة لم يستطيعوا التقدم ولذا عرجوا جهة اليمين وقاموا بمهاجمتنا من الجوانب. وقبل أن تصل المواجهة إلى الاشتباك المباشر بواسطة السيوف والرماح كان رجالنا قد هموا بالفرار، ورغم ما قام به مولاي زيدان من مجهود لإعادة النظام لصفوف جيشه فإنه لم يستطيع شيئا، لأن هذا الجيش كان كله في حالة اضطراب" (ص156).

"بالنسبة...[لابن أبي محلي]، فإنه لم يعر أي اهتمام للغنائم، حيث ركز

كل اهتمامه على ملاحقة رجالنا، وقد تمكن بواسطة الرماح التي أطلقها من إبادة معظمهم، سواء الفرسان أو المشاة. وكانت هذه المعركة من العنف بمكان لدرجة يمكن معها القول إنه لن يسبق أن حدثت بين المغاربة معركة شبيهة بها" (ص156).

"وقد تمكن مولاي زيدان من النجاة بصعوبة كبيرة حيث فر مع ستة فرسان آخرين، وفي طريقهم نحو شيشاوة التقوا بالقائد عبد القادر والفرسان الذين يرافقونه مما هدأ قليلا من روع مولاي زيدان. وبواسطة هؤلاء وبعض الذين قبلوا الانضمام إليه من الرجال الجدد اتجه من شيشاوة إلى أسفي حيث مكث مع أعراب عبدة" (ص156).

"ولما علمت عائلة مولاي زيدان ونساؤه بهزيمته قرروا اللحاق به إلى شيشاوة، لكن عندما أرادوا شحن الأمتعة على الإبل تبين لهم أن نصفها اختفى، ذلك لأنه أثناء تواجدها بالمراعي قام بعض الأعراب بالسطو عليها، وقد اضطروا بسبب ذلك إلى التخلي عن أكبر عدد من الأمتعة"[11] (ص 157).

"وقد قتل في تلك المعركة جل الرجال السبعة آلاف الذين يشكلون جيش مولاي زيدان، وممن لاقوا حتفهم بالإضافة إلى مولاي عبد الله بن أحمد [بن المنصور] شقيق مولاي زيدان، عدد كبير من القواد من بينهم: أحمد بن منصور كوريتو القائد العام للجيش ومحمد بن سبيار نائب الملك على سوس ومحمد ابن علي الفشتالي وهو قائد قديم عاصر مولاي أحمد [المنصور]وعبد الصمد قائد الحرس الملكي ومحمد بتيسي قائد المشاة وعلي بن سليمان فتالا وعلي الشريف ومحمد دي سيلفا ومحمد بن عجيبة وغيرهم" (ص 157)، بينما استسلم الجنود الأتراك، بعد أن تبينوا هزيمة مولاي زيدان (ص 157- 158)، كما وقع المؤلف نفسه أسيرا[12]. وكان التاريخ الذي حدثت فيه المعركة هو يوم الجمعة 20 ماي 1612 على الساعة الثانية ظهرا (ص158).

4.4. دخول ابن أبي محلي إلى مراكش والمناداة به ملكا:

"في الساعة الرابعة ظهرا [من التاريخ المذكور] دخل القائد يونس ومعه عشرون فارسا إلى مراكش لينادي بالمرابط ملكا، وكان يردد العبارة التالية: "بأمر من مولاي أحمد بن عبد الله حفظه الله، ملك العالم والمنقذ العظيم الذي أرسله الله ليعاقب الملوك الفاسدين ويجازي الملوك الصالحين، صدر عفو عام عن الجميع" (ص158).

"وقد أمر المرابط بعد ذلك بجمع الغنائم ووضعها على باب خيامه، وهدد بالقتل كل من يجرؤ على الاحتفاظ بشيء منها مهما كانت تفاهته. لذا وبسبب خوف أولئك البرابرة الشديد منه، كانوا يسلمونه حتى النقود التي وجدوها بجيوب المنهزمين الذين قتلوا بالمعركة. ورغم أن الغنائم بقيت ملقاة على الأرض لعدة أيام دون أية حراسة لم يتجرأ أحد على اختلاس شيء منها؛ وإن ذلك يعد بحق أكبر معجزة للمرابط..." (ص 158).

ولما رأى البربر أنه لم يمت أحد منهم في المعركة، تأكدت لهم صحة كرامات المرابط، "وخلق ذلك لديهم جرأة وثقة كبيرة في النفس، حيث أصبحوا يعتقدون أنه لا يمكن لأحد الانتصار عليهم. ولم يكن يدور من حديث بين الأعراب والحضر على السواء غير ذلك المتعلق بمعجزات المرابط. وكانوا يحسون بسعادة كبرى لقدسية ملكهم وجلاله" (ص 158 - 159).

و"بعد المعركة اتجه أعيان مراكش وفقهاؤها عند المرابط لتهنئته بالانتصار وطلب الإذن لدفن مولاي عبد الله بن أحمد وكبار القواد في مقابر تليق بهم. وقد أجابهم بأن أولئك مسيحيون لذا فهم لا يستحقون تلك المقابر ولا الدفن على الطريقة الإسلامية، وأنه إذا سمح بمنح قبر لمولاي عبد الله بن أحمد فذلك اعتبارا لنسبة الشريف وانتمائه لآل البيت. ورغم أن الملك الجديد كان قد أصدر عفوا عاما، فإنه تراجع عن قراره حيث أمر باعتقال الذين فروا من المعركة، ذلك القرار

سرى عَليّ كذلك، حيث تم اعتقالي، وسجنت بمنزل نائب السلطان. وكان أمرا يثير الاستغراب أن ترى أولئك البرابرة العراة وأغلبهم دون أسلحة وهم ينتصرون على جيش أكثر تجربة وأحسن تسلحا مثل جيش مولاي زيدان" (ص 159).

وحسب رأي المؤلف، فقد ساهم مولاي زيدان في الهزيمة بنفسه، لأنه "... كان بإمكانه... قبل وصول المرابط إلى سهول مراكش أن يتجه على رأس جيشه إلى سفح أحد الجبال الذي يعرف باسم تينياس لإقامة مخيمه به، ذلك لأن التموضع بهذا المكان كان مناسبا جدا، حيث توجد به مجار كثيرة، كما أنه كان آهلا بالسكان الذين في مقدورهم تموين جيش مولاي زيدان بما يحتاج إليه، في نفس الوقت كان يوجد بهذا المكان ممر ضيق، لو أمر مولاي زيدان الجنود الأتراك بالتمركز فيه لاستطاعوا قطع الطريق نهائيا على قوات المرابط التي كانت ستنهار في أيام معدودة بسبب غياب الماء والمؤونة. لكن لم يحدث شيء من كل هذا، لأن أولئك البرابرة عاجزون حتى عن اختيار المكان المناسب لتواجدهم أثناء حدوث معركة. وإن الله وحده يعلم سبب عدم معرفتهم الاستفادة من الفرص التي تتاح لهم" (ص161).

5ـ ما بعد مراكش

5. 1. الصراع حول أسفي

بعد هزيمته في مراكش، التحق مولاي زيدان بأسفي. وحاول "إقناع أعراب عبدة ودكالة لمساعدته بالفرسان من أجل القيام بمحاولة جديدة ضد المرابط. وقد وعده هؤلاء بتقديم ستة آلاف من الفرسان، في نفس الوقت بدأ الأعراب من جهات مختلفة يتوافدون على آسفي للانضمام إلى صفوف مولاي زيدان الذي شرع في توزيع القماش والكتان والقلنسوة عليهم، وكان قد بدأ الحديث عن إمكانية تكوين مولاي زيدان لجيش جديد. في تلك الأثناء جاء إلى آسفي عدد من الجنود الأتراك وقائدهم للانضمام إلى مولاي زيدان وذلك اعترافا منهم بالمعاملة الحسنة التي

حظوا بها من طرفه فيما سبق" (ص159).

"ولما وصل خبر الاتفاق الذي حصل بين أعراب عبدة ومولاي زيدان إلى المرابط، اتجه على رأس قواته إلى آسفي، لكن ما إن علم الأعراب بذلك حتى تخلوا عن مولاي زيدان ووضحوا له أنه لا قدرة لهم لمواجهة هذه القوة الأجنبية العاتية التي تقضي على كل من يقف في وجهها" (ص 160).

"وأمام خيبة أمله بسبب تخلي الأعراب عنه، أرسل أمه وأخته وأبناءه وبعض نسائه إلى سانتاكروز عن طريق البر، بينما اتجه هو إليها عن طريق البحر مستعملا في ذلك باخرتين: الأولى هولندية والثانية فرنسية، هذه الأخيرة كانت في ملك جان فيليب دي كستلان الذي نجح مولاي زيدان إلى ذلك الوقت في منعه من السفر. وقد أبحر مولاي زيدان على ظهر السفينة الهولندية وحمل معه أمتعته ومجوهراته، بينما حمل معه جان فيليب بعض نساء مولاي زيدان إضافة إلى كتبه وبعض مجوهرات أمه" (ص 160).

"وقبل إبحاره قام مولاي زيدان بإحراق كل الأمتعة التي لم يستطع حملها معه، لكن أثناء ذلك جاءه القائد سعيد بن حميدو عامل آسفي وهو أعرابي من عبدة وطلب منه أن يفر بسرعة لأن العدو أصبح قريبا جدا. ولم يجد الملك المسكين بسبب تلك المفاجأة بدا من دخول البحر والاتجاه جريا نحو السفينة التي ألقى بنفسه فيها، لكن وبعد برهة لم يظهر أحد من الأعداء، مما جعله ينزل من جديد حيث غير ملابسه المبللة وبقي وقتا قصيرا يحدث عامل آسفي وسكانها، وقد شكرهم على مساعدتهم والكرم الذي أبدوه نحوه، وقال لهم إنه سيرحل لأن الحظ لم يساعده هذه المرة، لكنه سوف يعود في وقت قريب للانتقام من المرابط بسبب الإهانة التي ألحقها به. بعد ذلك صعد إلى السفينة في اتجاه سانتا كروث بمملكة سوس، وبعد وصوله ترك بها القائد خليلا وهو علج فرنسي في حين اتجه هو إلى تارودانت"(ص 160).

"وقد قام جان فيليب بعد رسو سفينة مولاي زيدان بسانتا كروث بالفرار وكانت لا تزال بباخرته كتب هذا الأخير وملابس ومجوهرات أمه. لكن عند مروره بمضيق جبل طارق ألقت عليه القبض بعض السفن الشراعية الإسبانية حيث أخذ أسيرا إلى قادس. وقد أرسل بعد ذلك مولاي زيدان القائد أحمد الجزولي إلى فرنسا ليطلب الإنصاف ويشتكي جان فيليب الذي سطا على أمتعته" (ص 160 - 161).

"ولما علم المرابط أن مولاي زيدان تمكن من الفرار، أقام مخيمه قرب آبار سيرنو على بعد ثلاثة فراسخ من آسفي، وكان يرافقه في تلك الحملة القائد عزوز والذي له دراية بالطريقة المتبعة لأخذ الجبايات من الأعراب، لذلك وبإيعاز منه، أمر المرابط باستقدام شيوخ الأعراب وطلب منهم التكفل بجمع الجبايات التي تدفع للملوك من أهالي قبائلهم. في نفس الوقت أمر رجاله بالاتجاه إلى آسفي واحتلالها. أثناء ذلك جاءه القائد سعيد عامل المدينة وسلمه مفاتيحها وكذا بعض الخيام والخيول التي كان قد تركها مولاي زيدان. وبما أن هذا القائد كان زعيم عشيرته، فإن المرابط لم يتجرأ على مسه بأذى لكنه أمره بجمع الجبايات من أهل قبيلته" (ص 161).

وقد تمكن المرابط من جمع أموال كثيرة، بعد أن أرغم الأعراب على دفع الجبايات المترتبة عن كل السنوات التي لم يدفعوا فيها ضرائب لمولاي زيدان. ولم يكن المرابط ينفق شيئا من تلك الأموال، ذلك لأنه كان يدفع كأجور للفرسان ريالا واحدا في اليوم ونصفه للمشاة، وبما أنه كان يقوم ببيعهم القمح والشعير الذي كان يمنحه له الأعراب كغذاء للجيش، فإنه كان يسترجع لتوه الأجور التي كان يدفعها لرجاله (ص 162).

"وكان هذا المرابط يضع ثقته في الفرسان والذين كانوا يعتمدون أساسا على الرماح، في حين لم تكن له ثقة كبيرة في الأسلحة النارية، لذا فإن الكميات الكبيرة من البنادق التي تجمعت له من الغنائم قام بشحنها على ظهور الإبل وأرسلها إلى الصحراء" (ص 162).

5. 2. حروب المرابط مع أنصار زيدان: الشبانات وأعوانهم:

"أثناء وجوده بدكالة أراد المرابط أن يقتل كل عرب الشبانات، ذلك لأنهم - بالإضافة إلى كونهم لصوصا محترفين - كانوا أقارب لأم مولاي زيدان، لكن بفضل تدخل صديقه سيدي محمد بن إبراهيم قرر العفو عنهم، لذا استدعى شيوخهم واشترط عليهم مقابل العفو تسليم كل أسلحتهم وخيولهم. وقد وعده هؤلاء بأنهم سينقلون الخبر إلى أهل عشيرتهم ثم يعودون إليه، لكن بعد انصرافهم لم يعودوا قط، ذلك لأن عرب الشبانات قرروا التمرد على المرابط" (ص 162).

وقد فعلوا ذلك بأمر من مولاي زيدان، الذي أرسل إليهم ابن أخته محمدا أبا حسون ليحرضهم على القيام بأعمال النهب، "... وكان هؤلاء يصلون إلى أبواب مراكش ثم ينسحبون إلى الجبال ليحتموا ببعض البربر المتحالفين معهم. وقد اعتبر المرابط ما يقوم به عرب الشبانات بمثابة إهانة كبرى، وعلى الرغم من أنه كان آنذاك في دكالة حيث يقوم بجمع أموال كثيرة من الجبايات، فقد قرر ترك كل ذلك والعودة إلى مراكش قصد معاقبة المتمردين. ولما علم هؤلاء بما عزم عليه، توغلوا بشكل كبير داخل الجبال، بعد أن كلفوا عددا منهم بتولي مهمة الحراسة في قصبة توجد بها (ص 166). ولما استولى المرابط على القصبة، "... توجه البربر الذين كانوا... [بها] إلى بعض الجبال المتوسطة الارتفاع، وكان المرابط أمر رجاله بالتوغل في الجبال ومطاردتهم وكذا مطاردة كل من يجدونهم من عرب الشبانات والبربر المتحالفين معهم. وأثناء ذلك عثروا على مجموعة من هؤلاء قابعين بأحد الجبال، حيث قاموا بالقضاء عليهم" (ص 167).

"ولم يقنع المرابط بالانتصار الهام الذي حققه ضد المتمردين، بل أمر فرسانه بمواصلة الزحف نحو الواجهة الأخرى للجبال قصد مهاجمة بعض البربر الذين كانوا قد التجأوا إلى هناك. وبما أن رجال المرابط كانوا لازالوا يعتقدون بأن الرصاص لن يأخذ منهم شيئا، فقد تابعوا تقدمهم، وعند وصولهم إلى قمة أحد الجبال،

فوجئوا بوابل من الرصاص ينهال عليهم، حيث نجح البربر في قتل ثمانمائة منهم، على رأسهم محمد دي ألفوثير الذي سبقت الإشارة إليه، وهو في الأصل طبيب ولد بمدريد، وكان قد ذهب إلى الصحراء ليساعد المرابط في نسج الأكاذيب. وبعد مقتل ذلك العدد الكبير من الرجال بالرصاص تبين للجميع أن المعجزات التي كان يدعيها المرابط ما هي إلا مكر وخداع" (ص 168).

"ولو كان البربر الذين هاجموا فرسان المرابط على قدر ما من الذكاء، لقاموا بمطاردته هو الآخر ولتمكنوا من الانتصار عليه، لكن وبما أنهم أناس جبناء فقد آثروا الفرار إلى الجبال وتوغلوا بها أكثر ما استطاعوا. إثر ذلك نزل المرابط من الجبال وأقام مخيمه في أحد السهول. ومن فرط غضبه وحقده على أولئك البربر، أمر بقطع ستين ألف شجرة زيتون كان هؤلاء قد قاموا بغرسها في السفوح. وبسبب كثرة الجرحى في صفوف جيشه اضطر إلى نقل مخيمه من جديد إلى مراكش قصد توفير العناية اللازمة لهم" (ص 168).

"وفي تلك الأيام طلب من المرابط الرجال الذين جاءوا معه من الصحراء السماح لهم بالعودة إلى ديارهم، وبما أنه كان في حاجة إليهم، فقد حاول بواسطة الكلام المعسول أحيانا وبواسطة النقود أحيانا أخرى إقناعهم بالبقاء، لكن العديد منهم قرروا الرحيل دون إذن منه. وكان الرجال الذين يرافقونه قد بدأ يتناقص عددهم بشكل كبير، حيث لم يبق معه غير ألف من الفرسان وأربعمائة من المشاة من حملة البنادق، وألف من الأتباع دون سلاح. ورغم ذلك كان هؤلاء، لا زالوا يرددون بأن ملكهم سوف يعبر مضيق جبل طارق قصد احتلال إسبانيا، وأن القنطرة النحاسية التي حدثهم بشأنها والتي سترتبط جبل طارق بسبتة قد بدأت بالانكشاف. ومما تجدر الإشارة إليه، أن المرابط، قام بإرسال كميات كبيرة من الأموال التي جمعها إلى منزله في الصحراء" (ص168 - 169).

5. 3. تمرد عرب عبدة على المرابط:

"... وفي آسفي تمرد باسم مولاي زيدان، سعيد بن حميدو قائد عرب عبدة، وهي أكبر قبائل دكالة، وكان المرابط قد عين عاملا على المدينة القائد علي ابن غنيمة شقيق القائد سعيد والذي سبق له أن سلم مفاتيح آسفي للمرابط" (ص169).

5. 4 - تمرد فقيه تارودانت ونهاية مُلْك المرابط:

خاض مولاي زيدان ضد المرابط منذ خروجه من مراكش13 خمس معارك أخرى انهزم فيها كلها، حيث اضطر في الأخير إلى الانسحاب إلى جبال بن باردس وكانت رجله قد كسرت في ممطى فرسه (ص169). وفي خضم هذه الصراعات التي خاضها المرابط ضد خصومه، ظهر متمرد آخر، اسمه يحيى "وذلك في جبال سوس حيث كان يمتلك مسجدا هناك، وقد تمكن من أن يجمع حوله ما يناهز عشرة آلاف رجل، لم يكن يتوفر منهم على السلاح إلا عددا يسير. وكان ينوي بواسطة هذا الجيش محاربة المرابط، لكن لما علم رجاله أن مولاي زيدان جاء إلى تارودانت، تفرقوا عنه ولم يبق إلا بعض خدمه (ص170). أما مرابط مراكش، واستعدادا منه لهذه التطورات، قدم عليه ابنه العربي "من الصحراء بحوالي خمسمائة وألفي رجل من الفرسان والمشاة لتقوية جيش والده، وقد آواه هذا الأخير بالقصر الملكي بمراكش" (ص170). "وعند مجيء ابنه، رافقه المرابط إلى مراكش حيث بقي بها ثلاثة أيام. وقد أمر بهدم أعلى أبراج القصر الملكي، وادعى بعد ذلك أنه وجد به أموالا كثيرة، كما قام ببيع زخارف القصر الملكي وكذا جواري وخليلات الملوك السابقين" (ص 170). وبينما "انسحب مولاي زيدان إلى تارودانت، أمر المرابط رجاله بالتوجه إلى ضواحي مراكش حيث أرغموا الأعراب على تسليم الأسلحة والخيول، كما فرض عليهم الجبايات، وقد أخذ منهم كل ما أمكنه من أموال" (ص

170). وفي مراكش نفسها "أمر المرابط بقطع رؤوس أهم أعيان المدينة وكذا عدد من شيوخ الأعراب، وقد فعل نفس الشيء في آسفي" (ص 171).

"وفي... في 26 أكتوبر 1612، نزح المرابط يحيى من جبال سوس نحو مراكش وشن معركة عنيفة على مرابط مراكش، حيث تمكن من الانتصار عليه، وقد قتله مع كل رجاله بما فيهم القائد عزوز وهو آخر الأحياء من قواد الملك مولاي أحمد" المنصور (ص171).

"وبهذه الطريقة تلقى المرابط ثمن خداعه ومكره، حيث فارق الحياة دون أن يتمكن من تحقيق حلمه الكاذب الذي كان يحلو له التباهي به، والمتمثل في أنه سيصبح ملكا على العالم بأسره. وقد بقي ملكا على مراكش تسعة عشر شهرا وثلاثة أيام" (ص 171).

"بعد ذلك استدعى المرابط يحيى مولاي زيدان، وأعاد إليه مملكته، وقال له إن الذي دفعه إلى المجيء لمحاربة مرابط الصحراء ليس طمعه في الملك وإنما معاقبة مغتصب استولى على الملك دون حق، وإعادة هذا الملك إلى صاحبه الشرعي، واشترط عليه عدم البطش بالمغاربة كما كان يفعل في الماضي، وحذره من مغبة القيام بذلك، حيث وضح له بأنه كما كانت له القدرة على إعادته إلى الملك، له القدرة على عزله منه. وقد قبل مولاي زيدان بما اشترطه عليه وشكره على ما قام به من أجله" (ص172).

"وبما أن مولاي زيدان لم يكن لديه العدد الكافي من الرجال لإقامة مخيمه خارج مراكش، فقد اتجه مباشرة للإقامة في القصر الملكي، وكان لا يزال به ابن المرابط الذي أمر مولاي زيدان بأن يربط بدابة ويجر بشوارع المدينة، حيث يبتر في كل واحد من هذه الشوارع طرفا من أطراف جسمه، وبتلك الطريقة المأساوية لفظ أنفاسه" (ص172).

أخيرا: إنها نظرة أجنبي إلى حركة صوفية. وهي نظرة تحمل التباينَ في كثير

من القضايا مقارنة بما ألفناه حول الموضع نفسه في كتب التراجم والمناقب المغربية. ويعطي هذا الأمر للموضوع الحيوية والإضافة، كما يتيح إمكانية المقارنة، وربما إعادة النظر في كثير من المسلمات في تاريخ التصوف المغربي.

وتحمل هذه المذكرات أيضا الكثير من الدقائق حول علاقة الصوفية المغاربة إلى السلطة في هذه المرحلة من تاريخ المغرب، أي بعد تجربة حكم الأشراف السعديين. ومن ثمة يمكن فهم الجديد في علاقة الصلاح بالحكم وتأثير الوصول إلى السلطة على الصلاح والصلحاء، بعد دخولهم إلى القصور الملكية.

كما تتيح المذكرات أيضا معرفة موقف أهل التصوف من الجارة الأوربية، ونظرتهم إلى العالم الأوربي. وكذا نظرة الأوربي زمنئذ إلى هذه الفئة من ذوي الجاه في المغرب. وهذه أمور لايشار إليها في سير الصالحين إلا لماما، أو تكون الإشارة إليها في الغالب مغلفة بالخوارق والكرامات، أو مدونة بأسلوب ملتو جدا، نادرا ما يمكن فك طلاسمه.

❑ ❑ ❑

هوامش

1 ـ راجع مقدمة الكتاب، ص 7 - 26. وراجع أيضا: الجزء الرابع، ص 186 - 187.

2 ـ جاء في الترجمة: أحمد بن إبراهيم بدلا من أحمد بن عبد الله، وهو مجرد سبق قلم، ليس إلا.

3 ـ لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يثار الاهتمام بالربط بين الضفتين الأوربية والمغربية. فقد دار الحديث عنها من قبل. وكان مكثفا في العهد الموحدي. ففي هذا العصر عاد الحديث عن فكرة القنطرة الوهمية التي كانت تربط بين المغرب وأسبانيا. وعبر كثير من المؤرخين المعاصرين لدولة الموحدين عند ابرادهم لهذه الأسطورة عن الرغبة الملحة في إيجاد وسيلة اتصال عملية، تتيح الربط الدائم بين المغرب والأندلس.

وقد عزا بعضهم بناءها في الأصل إلى الاسكندر المقدوني، لأهداف عسكرية. كما برر هؤلاء المؤرخين ضرورتها في أيامهم للأسباب نفسها مرة أخرى، حتى يسهل مرور القوافل والعساكر من ساحل طنجة إلى ساحل الأندلس والملاحظ أن بعضهم يجعلونها تربط بين قصر مصمودة (القصر الصغير حاليا) وبين جزيرة طريف، ويعللون ذلك بضيق البحر بين هاتين النقطتين. وفي المقابل، ذهب بعضهم إلى أن هذه القنطرة كانت تربط بين مدينة طنجة والجزيرة الخضراء. ويعزو هؤلاء المؤلفون اندثارها إلى ارتفاع مستوى البحر الأبيض المتوسط نتيجة للمياه الكثيفة الواصلة إليه من المحيط الأطلسي.

راجع المصادر والتفاصيل عند: الحسين بولقطيب الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، مرقونة، خزانة كلية الآداب بالجديدة، 98 - 1999، ص 262.

4 - يقول المؤلف: "لما فر القائد الميرا... إلى درعة... عاد إلى ممارسة جميع أنواع البطش والتعذيب ضد الأهالي قصد إرغامهم على تسليم ما معهم من أموال، في نفس الوقت قام بإعادة تنظيم قواته وقد تم ذلك بشكل سريع وعشوائي" (ص139). ويضيف بأن "مولاي زيدان [أرسل] إلى درعة القائد عليا بن منصور كوريتو ليأتي بمليون أوقية تحصلت للقائد الميرا من الجبايات التي أخذها من سكان درعة، لكن هذا الأخير امتنع عن تسليمها له بدعوى أن البربر سيقومون باعتراض طريقه والسطو عليه. وبما أن القائد علي بن منصور كان قد تلقى الأوامر بعدم العودة إلى مراكش دون تلك النقود فقد اضطر إلى الانتظار إلى أن يستتب الأمن" (ص 139).

5 - المقصود هو محمد الشيخ بن محمد المتوكل. وكان لجأ إلى البرتغال في أعقاب هزيمة والده في وادي المخازن، واعتنق المسيحية، وأطلق عليه اسم فليب الإفريقي (المترجم، هامش 1، ص 143).

6 - في تعليق المؤلف على هذا الحدث كتب ما يلي "ولو كان فيليب الإفريقي المزيف هذا ذكيا فعلا، لبقي في مملكة حاحا حيث كان محبوبا من طرف الجميع، ومن هناك كان بإمكانه أن يقنع كل بلاد البربر بأنه الوريث الشرعي لمملكة المغرب، خصوصا وأن أعراب مملكة حاحا اقتنعوا بذلك وكانوا يرددون أنهم إلى ذلك التاريخ كانوا يعيشون في المعاصي لقبولهم بملوك لا ينحدرون من أصل ملكي" (ص 145).

7 - يقول المؤلف "سعد مولاي زيدان لمقتل هذا المخادع، لكنه كان منزعجا لتزايد نفوذ وقوة المرابط في وقت كان هو في حالة اضطراب وخصاص كبير في الأموال والأسلحة والجنود والقواد. وأمام عجزه عن إيجاد حل لتلك الأزمة استدعى فقهاء وأعراب دكالة وضواحي مراكش، وبعد أن شرح لهم بشكل مطول الوضعية الخطيرة التي توجد بها المملكة والتي

يهددها مغتصب أجنبي، رجا الأعراب أن يساعدوه بتقديم الفرسان، والفقهاء بإقناع الناس للانضمام إلى الجيش قصد مواجهة العدو. وقد وعدوه جميعا بالسعي إلى تنفيذ ما طلب منهم، لكنهم حثوه على البحث عن الأسلحة والمال من أجل تسليح الرجال ودفع أجورهم، وأكدوا له أنه لن يقبل أحد الانضمام إلى الجيش إذا لم تدفع الأجور. وقبل انسحابهم قال له الأعراب: "مولاي نحن أعيان القوم وإننا على استعداد لخدمتك، لكن بحكم وضعيتنا فلن نستطيع المجيء إلا قبل يومين أو ثلاثة من وقوع المعركة، لكننا نعدك بعدم تغيبنا عنها"(ص 146).

"أمر مولاي زيدان بأن تمنح الرواتب لكل من يود العمل في الجيش، لكل لم يرغب أحد في ذلك، حيث بقيت تلك الأموال على حالها، وكان الأهالي يفرون من المدينة خوفا من تجنيدهم، وقد التحق الكثير منهم بصفوف المرابط، وهكذا فشوارع مراكش والتي كانت تكتظ في الماضي بالرجال، لم يعد بها إلا النساء. أمام هذا الوضع أمر مولاي زيدان بدخول القواد إلى المنازل وإلقاء القبض على الرجال الذين يوجدون بها، وفي حالة عدم وجودهم، كانوا يكرهون النساء على الاعتراف بأماكن أزواجهن، وكذا بالأماكن التي يخفين فيها الأموال. كل ذلك جعل أهالي مراكش يحقدون كثيرا على مولاي زيدان، ويتمنون قدوم المرابط لإنقاذهم. وكان هذا الأخير على علم بكل ما يجري لذا لم يتردد في الكتابة إلى الأهالي يحثهم على الصبر ويخبرهم بأنه سيأتي في وقت قريب لإنقاذهم من البطش الذي يتعرضون له (ص 147 - 148).

وبما أنه كان في حاجة إلى القواد والذين لم يبق منهم أحد، فقد اضطر إلى استقدام محمد بن يسار نائب السلطان على سوس وعين بدله أحد السود من حاشيته. وكان الجنود يعانون من نقص كبير في الغذاء خصوصا وأنهم لم يعودوا يحصلون على الحصص المعهودة من القمح. ومما زاد من حدة تلك الوضعية أن الأعراب كانوا يقومون بقطع الطريق ومنع وصول تلك المؤونة إلى الجنود. ولم يكن مولاي زيدان يجرؤ على معاقبتهم وذلك خوفا من انضمامهم إلى جيش المرابط"(ص148).

"واستعدادا للمواجهة الحتمية، كون مولاي زيدان جيشا من ألفين من الفرسان كلهم انضموا عن طواعية، وخمسة آلاف من المشاة بعضهم انضم عن طواعية والباقي أرغم على ذلك" (ص 148).

8- في تلك الأيام وصلت إلى ميناء آسفي سفينتان الأولى قادمة من خوان دي لا كروث Juan de la Cruz، ويقودها تاجر كورسيكي وكانت محملة بالحديد والرماح والنسيج والحبال المخصصة لصنع الخيام، والثانية قادمة من لندن وكانت محملة بالبنادق والسيوف، وقد أخذ مولاي زيدان كل ما كان بهما دون أن يدفع شيئا لأصحابها (ص 147).

وكان مولاي زيدان في أمس الحاجة إلى كل ما قام بمصادرته في السفينتين، ذلك لأن الرصاص والرماح والسيوف أصبحت شبه منعدمة بمراكش؛ مما أدى إلى غلاء ثمنها بشكل فاحش، حيث إن الرمح الواحد تراوح ثمنه بين خمسين ومائة ومائتي ريال، وثمن رطل من الحديد وصل إلى ثمانية ريالات، نفس النقص كان حاصلا في القماش والقطن المخصص للباس الجنود (ص147).

"وكان مولاي زيدان قد اشترى كل الخيول من ماله الخاص، وقد ارتفع ثمن هذه الخيول بشكل كبير حيث تراوح بالنسبة لبعضها بين 1500 و1200 أوقية، هذا الغلاء كذلك شمل طقم الخيول" (ص148)

9 ـ "وبما أن مولاي زيدان لم يستطع جمع الأموال اللازمة، فقد أرغم نساء القصر على تسليمه المجوهرات التي كانت معهن، كما قام ببيع زخارف القصر الملكي لنفس الغاية" (ص 146).. "وبعد أن أخذ منهن مجوهراتهن وأموالهن، حرمهن مولاي زيدان من الطعام، وقد مات العديد منهن جوعا، كما أن أخريات وبسبب انعدام الخبز كن يأكلن البرتقال والليمون حيث يوجد الكثير من أشجاره بالقصر الملكي، وبما أنهن لا يتناولن أي شيء آخر فقد كن يمتن كذلك. وقد رفض مولاي زيدان أن تقدم أية مساعدة لهن، وأمر بقطع رجلي ويدي ولسان كل من تتجرأ أو تشكوه حالتها. وكان شيئا مؤسفا حقا أن ترى كل يوم جثث نساء متن جوعا يتم إخراجها من القصر الملكي" (ص 148).

10 ـ لما تبين لمولاي زيدان أن المرابط أصبح على مقربة منه، وأن المواجهة بينهما أصبحت حتمية، في وقت يعرف فيه معسكرة خصاصا كبيرا في القواد ذي التجربة، أرسل بعض الفقهاء ليطلبوا المجيء من القائد عزوز، وكان من كبار قواد مولاي أحمد، ويتمتع بسمعة حسنة بين المغاربة، كما كان يمتلك ثروة ضخمة، وقد التجأ إلى الجبال حيث استقر في قصبة يمتلكها، بعد هزيمة مولاي أبي فارس. كما أمر مولاي زيدان نفس الفقهاء بالاتصال بالقائد أحمد بن منصور كوريتو وهو كذلك من القواد الذين عملوا مع مولاي أحمد، وكان بدوره يقيم في تلك الجبال. وقد شرح أولئك الفقهاء للقائدين كي أن مولاي زيدان يطلب منها الالتحاق به لأنه في أمس الحاجة إليهما في المعركة التي سيخوضها ضد المرابط، وأنه يعدهما بالمعاملة الحسنة كما يذكرهما بأن كل ما يمتلكانه من ثروة هو بفضل الهبات التي منحها إياهما والده، لذا من غير اللائق أن يتخليا عنه في وقت أصبحت مملكته مهددة من طرف عدو أجنبي (ص 151 - 152).

عند ذلك أخبر القائدان الفقهاء أنهما في كامل الاستعداد للقتال بجانب مولاي زيدان إذا قدم لهما الضمانات المتعلقة بالسماح لهما بالرجوع إلى الجبال بعد انتهاء المعركة، وأضافا بأنه لما كان الصراع قائما بين أبناء مولاي أحمد فباعتبارهم أنهم أبناء ملك واحد فقد صعب

عليهما تقديم الدعم لواحد ضد آخر، لكن وبما أن الأمر يتعلق بعدو أجنبي يريد اغتصاب الملك منهم فإنهما على استعداد للقتال والموت في المعركة إذا لزم الأمر (ص 152).

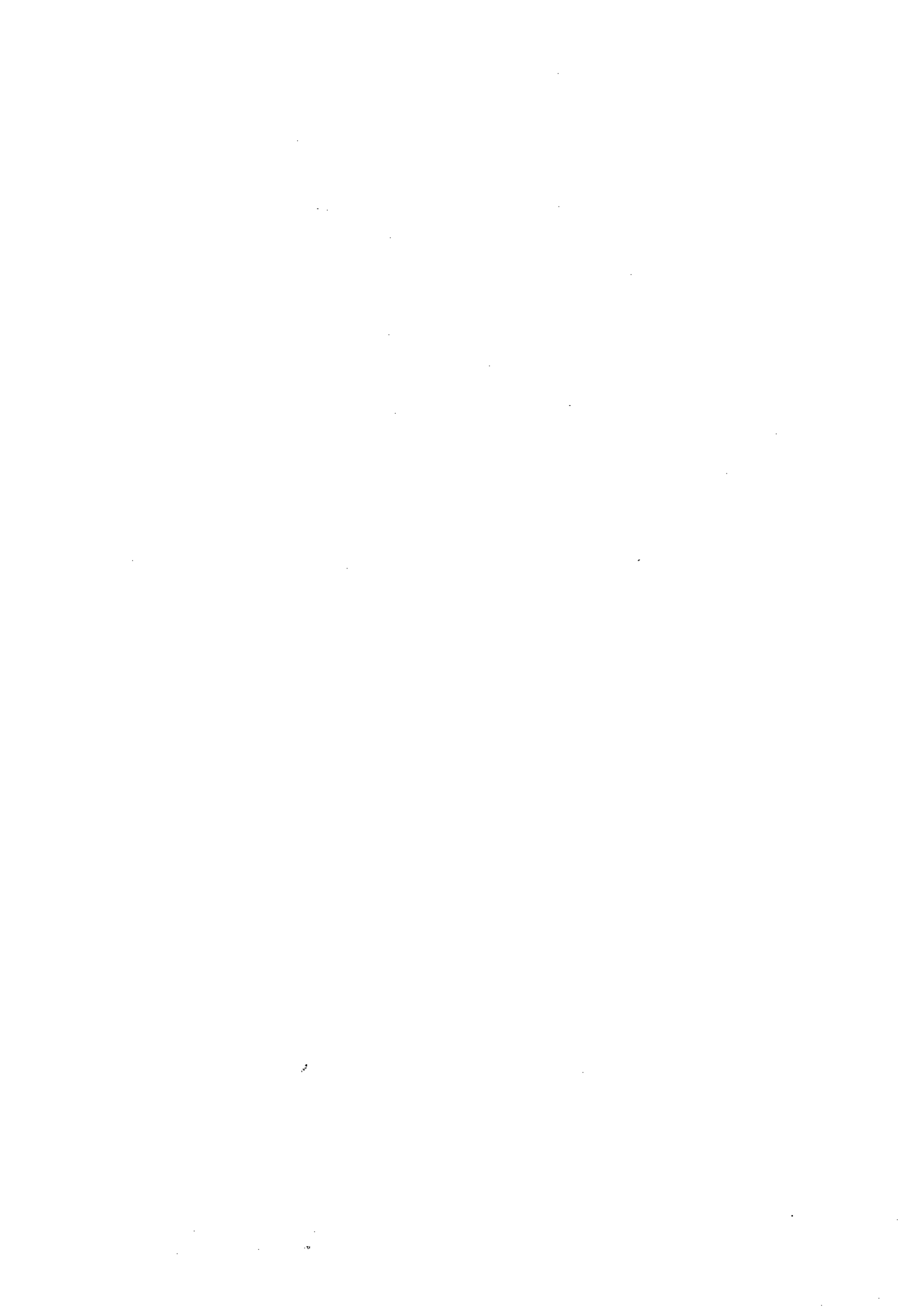
وقد قدم مولاي زيدان لهما الضمانات التي طلباها كشرط لمجيئهما، إثر ذلك طلب القائد عزوز من القائد أحمد بلن منصور كوريتو أن يذهب هو أولا عند مولاي زيدان، ووعده بأن يلتحق به بعد يومين أو ثلاثة (ص 152).

11 - وفضلا عما ضاع من المجوهرات بالمراعي "كانت أم مولاي زيدان تمتلك كمية كبيرة من المجوهرات والنقود التي أخفتها في بعض الأفرشة، وكانت تعتقد عندما تقرر الرحيل إلى شيشاوة أن القائد عامرا سيقوم بشحنها قبل أي شيء آخر، لكن هذا الأخير لم يكن له علم بها، ووسط الارتباك السائد قام بشحن ما استطاعت الإبل حمله، بينما ترك الباقي وضمنه الأفرشة. ولم تتذكر أم مولاي زيدان المجوهرات إلا عند الوصول إلى شيشاوة، لكن كان الأوان قد فات، والأعراب استولوا على كل تلك الثروات" (ص157).

12 - راجع التفاصيل في ص 162 - 167.

13 - غادر المؤلف المغرب في 28 نوفمبر 1612، ومن ثم فإن الأخبار التي أوردها في الكتاب، بعد هذا التاريخ، وهي التي توافق بداية هذه الفقرة إنما أخبره بها بعض أصدقائه.

❑ ❑ ❑



ليوطي وألفونسو الثالث عشر (ومكانة سلطان المغرب)

ترجمة: إبراهيم الخطيب*

كان من أغلى ذكريات الماريشال ليوطي، ذكرى لقائه الأول بالملك ألفونسو الثالث عشر الذي كان معجبا به إعجابا كبيرا. لقد وثق هذا اللقاء بين رئيسي الدولتين أواصر المودة التي لم يكن ليفصم عرها إلا الموت.

كانت الذكرى بالغة القوة في وجدان الماريشال إلى درجة أنه، عشية وفاته عبر عن رغبته في أن يتم إبراز هذه الصفحة من مساره المهني على نحو خاص. وتحقيقا لهذه الرغبة سنعمد إلى استحضار الظروف المميزة التي بصمت هذا اللقاء الأول الذي كان من المفترض أن تعقبه لقاءات أخرى.

لم يكن هذا اللقاء، في فكر ليوطي، ليكتسي طابعا عاطفيا، إذ كان الرجل حريصا، فوق كل شيء، على تحذير الملك من مغبة السياسة التي يتبعها رجاله في المغرب، والتي أدت إلى الصراع الدموي في الريف، وانتهت بقضية عبد الكريم [الخطابي] الأليمة.

* أستاذ باحث، كلية علوم التربية، جامعة محمد الخامس، الرباط.

من جهته، كان ملك إسبانيا يعرف ليوطي من خلال النتائج التي حققها في المغرب بوسائل بسيطة، وفي ظروف صعبة، لذا كان يرغب في الاقتراب من الجنرال واستلهام مناهجه.

لقد تحققت هذه الرغبة المتبادلة يوم 6 أكتوبر سنة 1913. صادف سفرُ ليوطي إلى مدريد سفر رئيس الجمهورية [الفرنسية] السيد بوانكاريه، دون أن يتدخل وإياه. ذلك أن ليوطي حل ضيفا على الملك، بينما كان ممثل فرنسا ضيفَ الأمة الإسبانية. كان هنالك إذن بروتوكولان اثنان، وذلك ما مكن ليوطي من اللقاء بالملك فيجو مفعم بالحرية الكاملة، خاصة وأن هذا الأخير بادر إلى إسقاط الحواجز التي تنصبها عوائد البلاط بغية اللقاء بضيفه ببساطة ملكية متناهية.

اكتسى موضوع النقاش راهنية واقعية جدا إلى درجة أنه مارس تأثيرا لا جدال فيه على مجرى الأحداث في المغرب.

تم اللقاء في القصر الملكي. ممر طويل مرصع بالزجاج في الطابق الأول، وسلسلة متراصة من القاعات، وحُجاب ومساعدون استقبلوا ليوطي في انتظار وصول الملك. وصل ألفونسو الثالث عشر، وتوجه صوب ليوطي. كان أنيقا وهو يرتدي بزة ضابط مشاة: سراويلنا الحمر، وبذلتنا الزرقاء، ووسام جوقة الشرف، وثلاث ميداليات، ورتب هيأة: سراويلنا الحمر، وبذلتنا الزرقاء، ووسام جوقة الشرف، وثلاث ميداليات، ورتب هيأة الفرسان مطرزة على صدره. إثر ذلك دعا الملك ضيفه للدخول إلى مكتب صغير، منهيا على هذا النحو رتابة التحيات والاستقبال البروتوكولي.

في غضون ذلك تم الشروع في تبادل وجهات النظر. لقد كان شائعا، عن خطأ، أن الجنرال لم يظهر استلطافا حيال إسبانيا، وهو نفس الانطباع الذي كان لدى الملك. لكن ليوطي عمد إلى نفي ذلك، ملاحظا أن ردود الفعل التي سُجلت عليه إنما ترتبت عن عدم تفهم بعض القناصل الذين لم يكونوا يدركون ضرورة

وجود تعاون ضمني بغاية استتباب النظام في كافة أراضي المملكة الشريفة. اقتنع الملك بهذا التوضيح، واقترح تغيير العناصر غير المرغوب فيها، فرفض ليوطي، لكنه حصل على ما يبتغيه.

تلا ذلك اعتراف طويل وصادق وبالغ المودة [من طرف الملك] بالصعوبات التي تواجهها إسبانيا في المغرب. وبعد فحص التنظيمات العسكرية ومقارنتها بعضها ببعض، تطرق المتحاوران الشهيران لمسألة خلفية جلالة السلطان في المنطقة الإسبانية، وهو الشأن الذي لم يقع التطرق إليه من قبل، فقال الملك بأن الرجل ليست له أية سلطة، ولا حظوة، وأنه لا يصلح تماما لأي شيء، مستعملا تعبيرا فرنسيا مبتذلا: "Les marocains se f... de lui". عقب ذلك نبه الجنرال مخاطبه إلى الخطأ الفادح الذي ترتكبه السياسة الإسبانية، وذلك بجنوحها إلى العزلة في منطقتها هربا من سلطة السلطان، مثيرا انتباهه إلى أنه لا يوجد سوى مغرب واحد، لا يدين بالطاعة والولاء إلا لزعيم ديني واحد، هو السلطان.

اعترف الملك بوجاهة هذه الانتقادات ورجاحتها، ووعد بالبحث عن حول لها. لكن لا سلطة الملك، ولا براهين ليوطي الساطعة وجدا ذلك الانضباط القوي الذي يمكن من وضع حد لهذا النوع من الانشقاق الذي يُسَيّج سلطة سامية لا جدال فيها، بسلطة محدودة ضيقة تم تشكيلها لأغراض خاصة ليس إلا. لقد مرت على هذا الحديث أكثر من ثلاثين سنة، لكن المدة لم تحمل في طياتها التطور المرجو.

بعد ذلك انتقل الحوار إلى موضوع آخر، حيث عرض الملك على الجنرال، وكان واسع الاطلاع على تنظيماتنا العسكرية والإدارية في إفريقيا الشمالية ويقدرها حق قدرها، مشاريعه المتصلة بإحداث "لفيف أجنبي" في المنطقة الإسبانية يحذو حذو ما لدينا (....). قسط هام من الوقت الذي كان متوفرا لليوطي تم تخصيصه لدراسة المشاكل العديدة التي تنجم عن العمليات العسكرية الإسبانية في

الريف، والغموض الناتج عن عدم وجود رسم مضبوط لحدود المنطقتين.

روى ليوطي وداعه للملك بانفعال قائلا: «لقد غالبه التأثر وغالبتني. أخذني بجُماع كتفي، وصوب عينيه إلى عيني، وقال بصورة جادة وحاسمة: «منذ سنوات وأنا أتتبع الجنرال ليوطي، وأعرف كل ما يقوم به، واهتم بعمله. من الآن فصاعدا سأهتم به أكثر من ذي قيل، لكنه لن يكون فقط الجنرال ليوطي، وإنما الصديق الذي ارتضيته، والذي أتمنى أن أكون كذلك بالنسبة له». عقب ذلك فتح ذراعيه معانقا إياي كأخ شقيق».

لقد تبادل رجلا الدولة عبارات التفاهم، وثمّن كلاهما الآخر، لذا عناقهما علامة انطلاق مودة وثقة كان من الضروري أن تعودا بالفائدة على العلاقات الطيبة بين البلدين والمنطقتين.

كلا الرجلين عانيا من آثار جحود الناس، لكنهما يرقدان الآن في دار البقاء. وسوف يكون التاريخ منصفا لهما، وهو ما لم يحظيا به من طرف الناس حينما كانا على قيد الحياة.

عن مجلة ***Le Maroc catholique***، *عدد 12 دجنبر 1943، ص. 283 - 284.*

إضاءات

مسألة تنقيص الأعشار وتسريح الوسق
في عهد المولى الحسن بن محمد (1873 - 1894)*

وفي هذه السنة (1302 / 1885) اشتد حرص أجناس الفرنج على تنقيص صاكة الأعشار[1] وطلبوا من السلطان أيده الله أن يحط عنهم من صاكة السلع الموسوقة التي كانت مسرحة من قبل وأن يسرح لهم ما كان مثقفا قبل ذلك، وأبدأوا في ذلك وأعادوا. وقاموا فيه وقعدوا.

فلما رأى السلطان أيده الله شدة حرصهم وتكالبهم كتب كتابا إلى الرعية يستشيرهم فيه ويقول بعد الافتتاح:

أما بعد، فقد كان طلب منا بعض نواب الأجناس بطنجة على وجه الخير والمحبة، فيما سلف من أعوام، تجديد شروط التجارة، بقصد تسريح الأشياء الممنوعة الوسق، كالحبوب مطلقا، والأنعام، والبهائم، ونحو ذلك، ونقصان صاكة الخارج، ذاكرين أن تسريح ذلك فيه النفع لبيت المال وللرعية، وهذه مدة من خمسة أعوام، ونحن ندافع، ونسدد، ونقارب، بما يقتضيه الوقت والحال، عملا

* أحمد بن خالد الناصري، **"كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"**، الجزء الثامن، ص. 199 ـ 207، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، المغرب.

بقول سيد الوجود، صلى الله عليه وسلم، في وقائع وقضايا: «سددوا وقاربوا»، لإبقاء ما كان على ما كان، إذ لا أقل من ذلك، سيما في هذا الزمان الذي أشار إليه صلى الله عليه وسلم بقوله: «يأتي على الناس زمان يمر فيه الحيُّ على قبر الميت فيقول: «ليتني مكانك» وحاشى لله أن نتسبب للمسلمين في غلاء، أو نوافق لهم على ضرر، وكفى بالله شهيدا. وكيف والله سبحانه قد استرعانا عليها، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته». والآن قد اشتد حرصهم على ذلك، وتمالأوا فيه على كلمة واحدة، وصمَّموا عليه.

ولما أفضى الحال إلى ما أفضى إليه، مما لا ينبغي، ولم يمكن إلا الإعلان بذلك والمشاورة فيه مع من يعتد به، استشرنا فيه جميع من يشار إليه بالخير والفضل والدين والعقل والذكاء والدهاء، موثوقا بديانته وأمانته، فلم يشيروا فيه بخير، واتفقوا على أن لا مصلحة في تسريح ذلك أصلا، وبينوا ما يترتب على الكل من المفاسد.

ففصل الحيوان أول ما يترتب على تسريحه من الضرر، غلاؤه على ضعفاء الرعية، بل يؤدى إلى فقده بالكلية، من هذه الآيالة، وأشياء أخر لا يفي بها التعبير هنا.

وفصل النقص من الصاكة يترتب عليه ضعف المدخول الذي منه يقوّم المخزن الجيش والعسكر، ومصالح الرعية، وأعظمها تضعيف الرعية بالقبض منهم، كتضعيف المكوس وضرب الخراج عليها، تقوية لبيت المال والجيوش.

وما أبداه بعض نواب الأجناس الراغبون في تسريح ذلك من المصالح المالية العائدة على رعيتنا السعيدة، على مقتضى ما ظهر لهم، ردوه بما يطول شرحه، ولا يفي به قرطاس.

ولما رأينا الأمر استحال إلى أسوإ حال أو كاد، تداركنا هذا الخرق بالرّفء وجنحنا إلى السلم، امتثالا لقوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ الآية[2]، وارتكبنا أخف الضررين، فاقتضى نظرنا الشريف، أن ظهر لكم، درءاً لتلك المفاسد

المقدم على جلب المصالح أن يساعدوا على تسريح أشياء بقصد الاختبار، من تلك الأمور الممنوعة الوسق، كالقمح والشعير، وذكران البقر والغنم والمعز والحمير، ثلاث سنين فقط، على شرط الاختبار في المنفعة التي ذكروها في تسريحه، الكل بأعشاره المعلومة في مثله، على أن يكون تسريح ذلك في وقت غلته، مع وجود الخصب مدة من ثلاثة أشهر، وبعد مُضيِّها يثقف، ولا يسمع كلام من أحد في تسريحه، ولا يقبل منه عذر فيه. وفي العام المقبل إذا كان صالحا يسرح ثلاثة أشهر بقصد الاختبار أيضا، وإذا كان ناقصا لا يقع اختبار بتسريحه، المدة المحدودة، ويبقى مثقفا، على أن ذلك ليس بشرط وإنما هو على سبيل الاختبار حتى يظهر.

ولتعلموا أنكم لن تزالوا في سعة، فإن ظهر لكم ذلك، فالأمر يبقى بحاله، وإن ظهر لكم ما هو أسدّ وأحوط في الدفاع عن المسمين فأعلموا به، إذ ما أنا إلا واحد من المسلمين.

وأعلمناكم بما كان امتثالا لقوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾[3] وإلا ﴿فما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين﴾[4] والسلام.

في سابع رجب الفرد الحرام عام ثلاثة وثلاثمائة وألف (7 رجب 1303 / 11 أبريل 1886).

انتهى كتاب السلطان أعزه الله.

ولما قرئ هذا الكتاب على خاصة الناس وعامتهم، أجابوا كلهم بأن الرأي ما رآه السلطان وفقه الله إلا ما كان من بعض العامة الاغمار الذين لم يجربوا الأمور، ولا اهتدوا إلى النظر في العواقب، فإنهم قالوا: ما نعطيهم إلا السيف، لكن لم يلتفت إليهم.

وقد كتبت في هذه المسألة جوابا مطولا رأيت إثباته هنا خشية ضياعه ونصه:

اعلموا ـ حفظكم الله ـ أن النظر في هذه النازلة يكون من وجوه:

ـ أحدها من جهة الفقه والحكم الشرعي.

ـ ثانيها من جهة الرأي والسياسة، وهذا لابد أن يجري على ضابط الفقه أيضا.

ـ ثالثها من جهة الفهم عن الله تعالى، والنظر في تصرفاته سبحانه في هذا الوجود بعين الاعتبار.

فأما الوجه الأول، فاعلم أن الفقهاء رضوان الله عليهم قد نصوا على أنه لا يجوز بيع آلة الحرب من السلاح والكراع والسروج والترسة ونحو ذلك من الكفار الحربيين، لما يخشى من تقويهم بذلك على المسلمين، هذه علة المنع وهي تفيد أمرين:

ـ أحدهما أن كل ما هو في معنى السلاح، مما يفيدهم تقوية، حكمُه حُكم السلاح في المنع، وهو منصوص عليه، فلا نحتاج إلى التطويل بجلبه.

ـ ثانيهما أن ما لا يتقوون به يجوز بيعه منهم كيف ما كان، وعدم التَّقّوى يكون بأحد وجهين:

إمّا بكون ذلك المبيع ليس من شأنه التقوى به في الحرب، كبعض المأكولات والملبوسات وغير ذلك مما هو مسرح لهم اليوم وقبله بزمان.

وإما بكونه من شأنه أن يتوقى به فيها، ولكنه عديم الفائدة بالنسبة إلى حالهم اليوم، لما تقرر من أنهم صاروا من القوة والاستعداد والتفنن في أنواع الآلات الحربية إلى حيث صارت آلاتنا عندهم هي والحطب سواء. والدليل على ذلك أنهم يبيعوننا أنواعاً من الآلات الحربية نقضي العجب من جودتها وإتقانها، ومع ذلك فينقل لنا عنهم أنهم لا يبيعوننا منها إلا ما انعدمت فائدته عندهم، لكونهم ترقّوا عنها إلى ما هو أجود منها، واستنبطوا ما هو أتقن وانفع إلا فيما قل.

وعلى هذا فتنبغي اليوم الفتوى بجواز بيع سلاحنا منهم، فضلا عن غيره لجزمنا بأن ذلك لا يفيدهم في معنى التقوّى شيئا، وإن كانت هناك فائدة. هذا إذا لم نتوقع ضررا منهم، عند امتناعنا من البيع. فأما إذا كنا نتوقعه منهم، كما هو حالنا اليوم، فيرتقي الحكم عن الجواز إلى ما هو فوقه، وللضرورة أحكام تخصها.

فإن قلتَ: فقد أقدمت بهذا الكلام على ما لم يقدم عليه أحد قبلك في استجازتك بيع السلاح من الحربين. قلت: إنما ذكرت السلاح توطئة. لما الكلام فيه، حتى يؤخذ حكمه بالأحرى، ثم إني ما أقدمت عليه إلا بالقاعدة الفقهية، لا مجازفة كما أقدم من قبلي على إجازة بناء الكنائس بأرض المسلمين لأجل الضرورة الداعية إلى ذلك، فقد أفتى علماء الأندلس في القرن الخامس بالإذن للنصارى في إحداث الكنائس بأرض العدوة وبما اختطه المسلمون من الأمصار، مع أن الموجود في كتب السلف هو المنع، وما ذلك إلا لأن الأحكام المترتبة على الأعراف تختلف باختلاف تلك الأعراف.

قال القرافى في "كتاب الأحكام" في الفرق بين الفتاوى والأحكام في السؤال التاسع والثلاثين ما نصه: «إن قلت: ما الصحيح في هذه الأحكام الواقعة في مذهب مالك والشافعي وغيرهما المترتبة على العادة والعرف اللذين كانا حاصلين حالة جزم العلماء بهذه الأحكام؟ فهل إذا تغيرت تلك العوائد وصارت تدل على ضد ما كانت تدل عليه أولا، فهل تبطل هذه الفتاوى المسطورة في الكتب ونفتي بما تقتضيه هذه العوائد المتجددة أو يقال نحن مقلدون وما لنا أحداث شرع لعدم أهليتنا للاجتهاد فنفتي بما في الكتب المنقولة عن المجتهدين؟

فالجواب أن إجراء هذه الأحكام التي مدركها العوائد، مع تغير تلك العوائد، خلاف الإجماع وجهالة في الدين، بل كل ما هو في الشريعة يتبع العوائد يتغير الحكم فيه عند تغير العادة إلى ما تقتضيه العادة المتجددة، وليس ذلك تجديدا للاجتهاد من المقلد حتى تشترط فيه أهلية الاجتهاد، بل هذه قاعدة اجتهد فيها العلماء، وأجمعوا عليها، فنحن نبتعهم فيها من غير استئناف اجتهاد».

ونحوه له في "كتاب الفروق"، ونقله عنه الأئمة واعتمدوه، فبان من هذا أنه لا معنى للإفتاء اليوم بمنع بيع شيء من الكفار أيا كان إلا المصحف والمسلم وما في معناهما لأنهم بلغوا اليوم من القوة إلى الحد الذي لم يكن لأحد في ظن ولا حساب إلا أن يريد الله كفايتنا إياهم بأمر من عنده، فهو سبحانه ولي ذلك والقادر عليه، وذلك ظننا به تعالى.

فإن قلت: هنا مضرة أخرى تمنع من بيع ما طلبوه وهي التضييق على المسلمين في معايشهم ومرافقهم لأنهم إذا أكبوا على شراء هذه الأشياء فلا بد أن تغلو وترتفع أثمانها، وفي ذلك من الإضرار بالمسلمين ما لا يخفى، ولذا أفتى الأئمة بمنع الحكرة في كل ما للناس به حاجة من طعام وأدام وعروض، فإن كان في الحال سعة، ولم يضر الاحتكار بالناس جَازَ في الطعام وغيره، قلت: والناس اليوم والحمد لله في سعة، وأما حصول التضييق عليهم في معايشهم ومرافقهم بسبب تسريح وسق هذه الأشياء للنصارى فمشكوك فيه، قد يحصل، والشك مطروح في نظر الشرع، بخلاف المضرة المتوقّعة منهم عند المنع والمحاربة، فمقطوع بها، نظرا للقرائن القوية والعادة.

فإن قلت: بل الغالب حصول التضييق، لاَ أنه مشكوك فقط، قلت: ليس بغالب، فقد رأيناهم، منذ أزمان، وهم مكبون على وسق أشياء كثيرة مثل القطاني وغيرها، ومع ذلك لم يحصل فيها - والحمد لله - الرخاء، بل الحق أن هذا من علم الغيب، لا ينبغي لأحد أن يحكم عليه بغلبة ولا قلة، لأن الحكم في ذلك بالتخمين من باب التّخرُّص على الله تعالى في غيبه وهو حرام.

على أن النصارى إذا اشتروا منا شيئا من ذلك فإنما يشترونه بالثمن الذي له بال، ويعشرونه بالصاكة التي لها بال، فتحصل الأرباح للرعية وللسلطان، وهذه منفعة مقطوع بها، وأما الغلاء فمشكوك كما قلنا.

والحاصل أن الأبحاث والتفريعات في هذا الموضوع كثيرة، وفي هذه النبذة

كفاية لما استبصر والله الموفق.

وأما الوجه الثاني وهو النظر من جهة الرأي والسياسة، ولابد فيه من الفقه أيضا، إذ كل سياسة لا تستضيء بنور الشرع فهي ضلال، فنقول: لا يخفي أن النصارى اليوم على غاية من القوة والاستعداد، والمسلمون، لـمّ الله شعثهم وجبر كسرهم، على غاية من الضعف والاختلال، وإذا كان كذلك، فكيف يسوغ في الرأي والسياسة بل وفي الشرع أيضا، أن ينابذ الضعيف القَويَّ أو يحارب الأعزل الشاكي السلاح؟ وكيف يستجاز في الطبع أن يصارع المقعد القائم على رَجليه؟ أو يعقل في النظر أن تناطح الشاة الجماء الشاة القرناء، كما قال الشاعر:

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العَيْر والنزوان

فالمحاربة على هذا الوجه مما لم تقل به سياسة، ولا وردت به شريعة. فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو خير الخلق عند ربه وأكرمهم لديه، قد صالح المشركين يوم الحديبية صلحا، قال فيه بعض كبار الصحابة رضوان الله عليهم، نحن المسلمون، فكيف نعطي الدنية في ديننا. ورد أبا جندل، رضي الله عنه، إلى المشركين وهو يرسف في قيوده، ويصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين كيف أرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ والقصة مشهورة لا حاجة إلى التطويل بها.

وقد عزم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يوم الأحزاب أن يعطي عينبة بن حصن والحرث بن عوف، وهما قائدا غطفان ثلث تمر المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه حتى رده عن ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، رضي الله عنهما، حين أحسّوا من أنفسهم بمقاومة العدو، وأين نحن منهم دينا ويقينا وبصيرة وثباتا في الحرب، وقد أفتى الفقهاء، رضوان الله عليهم، لأجل هذا الوارد عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بجواز عقد الهدنة مع الكفار على إعطاء المال، انظر المختصر وغيره.

فإذا كان إعطاء المال مجانا جائزة عند الضرورة فكيف لا يجوز إعطاء بعض

المتمولات بأثمانها التي لها بال؟ وأيضا فهؤلاء الأجناس إنما دعونا في ظاهر الأمر إلى السلم لا إلى الحرب، وغاية مطلوبهم في هذه النازلة الاستكثار من ضروب المتاجرة التي ينشأ عنها في الغالب كثرة الممازجة بيننا وبينهم.

ولعمري أن في اختلاطهم بنا وممازجتهم لنا لمضرة وأي مضرة، وما يعقلها إلا العالمون. ولكنها تستصغر بالنسبة إلى مضرة المحاربة، وليس من الرأي والسياسة أن يدعوك خصمك إلى السلم، فتدعوه إلى الحرب ما وجدت إلى السلم سبيلا. وهذا هو الذي فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، يوم الحديبية، فإنه قال لأصحابه لما اغتاظوا من ذلك الصلح، وقال بعضهم والله ما هذا بفتح: «لقد صددنا عن البيت وصُدَّ هدينا، بل هو أعظم الفتوح قد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم، ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم من الأمان» إلى آخر ما قاله، صلى الله عليه وسلم، وإلى هذا ونحوه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾[5]. ذكر تعالى ذلك عقب قوله: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾[6] إشارة إلى أن الصلح يجوز، ولو كان بالمسلمين قوة واستعداد، كما نبه عليه بعض المفسرين، فكيف ولا قوة ولا استعداد إلا أن يتداركنا الله بلطف من عنده.

واختلف المفسرون هل الآية منسوخة أو لا. والصحيح كما في "الكشّاف" وغيره أن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام مصلحة للإسلام وأهله من حرب أو سلم، وليس بحتم أن يقاتلوا أبدا أو يجابوا إلى الهدنة أبدا.

وهذا مذهبنا ومذهب غيرنا. ولذلك جازت عندنا الهدنة وإن على مال، كما مر، فدلت الآية الكريمة على أن السلم أولى من الحرب، وهذا هو المعلوم المسلم شرعا وطبعا.

أما الشرع فهذه الآية وقصة الحديبية وقوله تعالى: ﴿والصلح خير﴾[7]، وقوله: ﴿والفتنة أشد من القتل﴾[8]، وهاتان الآيتان وإن نزلتا في شيء خاص، لكن

يجوز الاستشهاد بهما فيما نحن فيه وفي غيره إذ هما من الكلام الجاري مجرى المثل والحكمة. وعن علي رضي الله عنه: «ما دعوتُ إلى المبارزة قط وما دعاني أحد إليها إلا أجبته»، فقيل له في ذلك فقال: «الداعي إلى الحرب باغ والباغي مصروع».

وأما الطبع فلا يحتاج إلى شاهد لأن كل عاقل يعلم أن السلم خير من الحرب: وقد قال شريك[9] لمعاوية رضي الله عنهما في مقاولة جرت بينهما: «إنك ابن حرب والسلم خير من الحرب» وقال الحصين بن نمير السكوني[10] لابن الزبير رضي الله عنه يوم مات يزيد: اذهب معي إلى الشام لأدعو الناس إلى بيعتك فلا يتخلف عنك أحد، فقال ابن الزبير: أما دون أن أقتل بكل واحد من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام فلا، وجعل ابن الزبير يجهر بذلك فقال له الحصين: أكلمك سرا وتكلمني جهرا، وأدعوك إلى السلم والخلافة وتدعوني إلى الحرب والمناجزة، كذب من زعم أنك داهية العرب.

فقد عاب عليه ذلك. من جهة الرأي كما ترى، وأنشد صاحب "الكشاف" وغيره لدى قوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾[11] قول العباس بن مرداس[12] رضي الله عنه:

السلم تأخذ منها ما رضيت به ... والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وفي كتاب الفتن من "صحيح البخاري" ما نصه: «كان السلف يستحبون أن يتمثلوا بهذه الأبيات عند الفتن»:

الحرب أول ما تكون فتية ... تسعى بزينتها لكل جهول

حتى إذا اشتعلت وشب ضرامها ... ولت عجوزا غير ذات خليل

شمطاء ينكر لونها وتغيرت ... مكروهة للشم والتقبيل

قال القسطلاني: المراد أنهم يتمثلون بهذه الأبيات ليستحضروا ما شاهدوه وسمعوه من حال الفتنة، فإنهم يتذكرون بإنشادها ذلك فيصدهم عن الدخول فيها حتى لا يغتروا بظاهرة أمرها أولا.

ولا شك أن هذه حالة العامة الأغمار الذين لم تضرسهم الحروب، ولا حنكتهم التجارب. تجدهم إذا ظهرت مخايل فتنة ـ نسال الله العافية ـ استشرفوا إليها، وتمنوا خوضها، وربما تألّى بعضهم وقال: والله لئن حضرتها لأفعلن وأفعلن، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تتمنوا لقاء العدو». وحال هذا الغمر المتألى هو الذي أفصح عنه المتنبي[13]:

وإذا ما خلا الجبان بأرض　　　طلب الطعن وحده والنزالا[14]

فهذا القطر المغربي ـ تدارك الله رمقه ـ على ما ترى من غاية الضعف وقلة الاستعداد[15]، فلا تنبغي لأهله المسارعة إلى الحرب مع العدو الكافر مع ما هو عليه من غاية الشوكة والقوة، وقد تقرر في علم الحكمة أن المعاندة والمدافعة إنما تحصل بين المتضادين والمتماثلين، ولا تحصل بين المتخالفين، وحالنا اليوم مع العدو ليس من باب التضاد ولا من باب التماثل، وإنما هو من باب التخالف، فافهم!

بل لو فرضنا أن أهل المغرب اليوم مماثلون للعدو في القوة والاستعداد، لما كان ينبغي لهم ذلك، لأنه ليست العدة وحدها كافية في الحرب، ولا كثرة الرجال والمقاتلة وحدها، بالذي يغني فيها شيئا، بل لابد مع ذلك من اجتماع الكلمة وكون الناس فيها على قلب رجل واحد، ولابد مع ذلك من ضابط يجمعهم، وقانون يسوسهم، حتى تكون الجماعة كالبدن الواحد، يقوم جميعا، ويقعد جميعا.

وهذا معنى ما صحَّ في الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم: «المومن للمومن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا». فإن لم يكن ضابط وقانون، فلابد من نفاذ البصيرة في الدين، وقوة اليقين، والألفة فيما بين المسلمين، والغيرة على الوطن والحريم، وجودة الرأي والتمرس بالحروب ومكايد المشركين، وأهل المغرب اليوم إلا القليل منسلخون من هذا كله أو جله. فقد توالت عليهم الأجيال في السلم والهدنة وبَعُدَ عهد أسلافهم فضلا عنهم بالحرب وشدائدها، ومعاناة الأعداء ومكايدها، وإنما همهم مأكولَهم ومشروبهم وملبوسهم كما لا يخفي، حتى لم يبق

من هذه الحيثية فرق بينهم وبين نسائهم، وليس الخبر كالعيان.

فكيف يحسن في الرأي المسارعة إلى عقد الحرب مع أجناس الفرنج، وما مثلنا ومثلهم إلاّ كمثل طائرين: أحدهما ذو جناحين يطير بهما حيث شاء، والآخر مقصوصهما واقع على الأرض لا يستطيع طيرانا ولا يهتدي إليه سبيلا، فهل ترى لهذا المقصوص الجناحين الذي هو لحم على وضم أن يحارب ذلك الذي يطير حيث شاء؟ وهل يكون في ذلك إن كان إلاّ هلاك هذا وسلامة ذاك، بل وغنيمته، فإن ذاك ينقر هذا متى وجد فيه فرصة للنقر ويبعد عنه ويطير إذا لم يجدها، وهكذا يستمر حاله معه حتى يثبته أو يملكه بالكلية، وليس في طوق هذا إلاّ أن يدفعه عن نفسه في بعض الأحيان، إذا تأتى له ذلك، ولكن إلى متى؟ فهكذا حالنا مع عدونا، فإنه بقراصينه الحربية ذو أجنحة كثيرة، فهو علينا بالخيار يهجم علينا في ثغورنا إذا شاء، ويبعد عنا فلا ندركه متى شاء، وقصارانا معه الدفع عن أنفسنا إذا اتفقت كلمتنا، ولم تشغلنا غوغاء الأعراب من خلفنا، وهيهات فقد جُرّب ذلك مرارا فصحَّ، والمؤمن لا يلدغ من حجر مرتين، كما قال عليه السلام. والكلام في هذا الفصل أيضا طويل، وفيما أشرنا إليه كفاية.

فإن قلت: أراك قد صيرت الجهاد الذي حث عليه الشرع ووعد عليه بالثواب العظيم محض فتنة، وقد زهدت الناس فيه، وقطعت آمالهم منه بهذا الكلام.
قلت: أعلمت يا أخي ما هو الجهاد الذي حثّ عليه الشرع، ووعد عليه بالثواب العظيم؟.

اعلم أن الجهاد المذكور هو قتال أهل الشرع والطغيان على إعلاء كلمة الرحمان، لينساقوا بذلك إلى الدخول في دين الله طوعا، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الشيطان هي السفلى، مع نفاذ البصيرة، وخلوص النية، والغيرة على دين الله، وكل ذلك بشرط القوة المكافئة أو القريبة منها. ومهما اختل ركن أو شرط مما ذكرنا، كان إلى الفتنة أقرب منه إلى الجهاد، بل نقول عن الجهاد الشرعي قد تعذر

منذ أحقاب، فكيف تطلبه اليوم؟

فإن كنت تسارع إلى الحرب لتدركه، جهلا منك بحقيقة الأمر، فاعلم أنك إنما تسارع إلى إيقاد نار الفتنة، وإيجاد العدو السبيلَ عليك وإمكانه من ثغرتك، وتسليطه على السبي لحريمك، ومالك، ودمك، نسأل الله العافية. اللهم إلا أن تكون ممن اختارهم الله وأهلهم لذلك، وكتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه، كما نسمع اليوم عن أمة الحبشة والنوبة الذين يقاتلون عساكر النجليز على تخوم صعيد مصر وغيرها، فقد تواتر النقل، وصح الخبر أن الدولة النجليز قد بارت حيلها مع هؤلاء القوم، وأنها وجهت إليهم العساكر من الديار المصرية بكل قوة وشوكة مرة بعد أخرى، فمحقوهم محقا[16] مع أنهم لا يقاتلونهم في الغالب إلا بالحراب على عادة السودان في ذلك[17]. والنصر بيد الله.

وأما الوجه الثالث، وهو الفهم عن الله تعالى، والنظر في تصرفاته سبحانه في هذا الوجود بعين الاعتبار، فهذا حق الكلام فيه أن يكون من أرباب البصائر المتنورة، والقلوب المطهرة، لا من أمثالنا الذين أصبحوا على أنفسهم مسرفين، وفي أودية الشهوات منهمكين، تداركنا الله بلطفه.

لكنا نقول، وإن كان القول من باب الفضول: إذا نظرنا ما عامل الله تعالى به عبده أمير المؤمنين مولانا الحسن ـ أيده الله ـ وجدناه والحمد لله مصنوعا له مصحوبا بالعناية الإلهية، مكلوء بعين الرعاية الربانية، تصحبه السعادة أينما توجه ويُخارُ له في جميع ما يحاوله، ولا تنجلي مهماته إلا عن ما يسر الصديق ويسوء العدو، فالحمد لله على ذلك حمدا كثيرا، وهو مع ذلك جميل الظن بربه، حسن العقيدة في توكله عليه، مفردا وجهته إليه، حريصا على استصلاح رعيته، ذا غيرة تامة على الدين والوطن، بحيث فاق بذلك وغيره من خصال الخير كثيرا من ملوك عشيرته الذين تقدموه، وإذا كان كذلك فمن الرأي الذي لا رأي فوقه أن نفوض إليه في ذلك، ونثق بحسن رأيه ويمن نقيبته، ونجاوبه في هذه النازلة بأن الأمر في ذلك

إليه لا إلى غيره إذ هو الذي طوقه الله أمرنا، وكلفه النظر لنا، والنصح لدينا، وإن كان لابد من المشورة فليست إلا مع أهل الحل والعقد، وقد قال العلماء: أهل الحل والعقد، هم أهل العلم والدين والبصر بهذا الأمر الخاص لأنه يشترط في كل من ولى النظر في أمر ما من الأمور العلم به فما اختاره أمير المؤمنين اخترناه، وما انشرح له صدره وأمضاه أمضيناه[18]. وكيف لا وما عَوَّده الله إلا خيرا ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم﴾ الآية[19].

وعسى أن يكون فيما طلبه هؤلاء الأجناس فساد أمرهم وصلاح أمرنا، وذلك الظن به تعالى، وما هو عليه بعزيز، فيكون تدميرهم في تدبيرهم، وقد استروحنا ـ والحمد لله ـ نسيم الفرج مما كنا فيه قبل اليوم، تمم الله علينا نعمته آمين، وأيضا ففي التفويض في هذه النازلة ضرب من التبري من الحول والقوة، فحيث ساقت الأقدار إلينا هذا الأمر، فينبغي أن نتلقاه بالرضى والتسليم، بخلاف ما إذا استعملنا فيه حيلتنا ورأينا، فيكون من باب الدخول في التدبير، وشتان ما بين التفويض والتدبير، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قاله وكتبه أحمد بن خالد الناصري كان الله له[20] في عاشر شعبان سنة ثلاثة وثلاثمائة وألف.(10 شعبان 1303 / 14 ماي 1886).

ثم إن الله تعالى لطف في هذه النازلة بمنه اللطيف الجميل، وكفى مؤنتها من ذلك الطلوب بشيء قليل، وذلك أن السلطان أيده الله سرح لهم وسق القمح والشعير ثلاث سنين، ووضع عنهم من صاكتها نحو الربع لا غير، ولم يحصل والحمد لله للرعية ضرر قط.

❏ ❏ ❏

هوامش

1 ـ قضية تنقيص صاكة الأعشار وتسريح الوسق. تحتل الصدارة في تاريخ العلاقات التجارية والسياسية بين دول أوربا والمملكة المغربية في عهد السلطان المولى الحسن الأول، رحمه الله، وخبرها طويل مشهور، منشور في المصادر الفرنسية والإسبانية، والكلام عنها هنا لا يتسع له المقام، فلتراجع إذن في مصادرها لمن أراد ذلك.

2 ـ سورة الأنفال، آية 61.

3 ـ سورة آل عمران، آية 159.

4 ـ سورة الجمعة، آية 11.

5 ـ سورة الأنفال، آية 61.

6 ـ سورة الأنفال، آية 60.

7 ـ سورة النساء، آية 128.

8 ـ سورة البقرة، آية 191.

9 ـ هو شريك بن شداد الحضرمي، أحد أصحاب الإمام علي الأبطال الشجعان...

عمل للثورة على معاوية، فقبض عليه زياد، ووجهه إلى الشام، فقتله معاوية بمرج عذراء عام 51 / 671 ("الاعلام" للزركلي).

10 ـ أبو عبد الرحمن، الحصين بن نمير الكندي، ثم السكوني، من قواد العصر الأموي الأشداء... هو الذي حاصر عبد الله بن الزبير بمكة ورمى الكعبة بالمنجنيق... قتل في حرب عبيد الله بن زياد مع إبراهيم بن الاشتر، عام 67 / 686، قرب الموصل.

11 ـ سورة الأنفال، آية 61.

12 ـ هو أبو أيثم العباس بن مرداس بن أبي عامر السُّلمي، من مضر، كان فارسا شاعرا من سادات قومه، أمه الخنساء الشاعرة الشهيرة الذكر، ادرك الجاهلية والإسلام، وكان من المؤلفة قلوبهم... كان ينزل في بادية البصرة وبيته في عقيقها... وكان ممن دمَّ الخمر وحرمها في الجاهلية... مات في خلافة عمر، رضي الله عنه. عام 18 هجرية تقريبا، الموافق لـ 639 ميلادية.

13 ـ هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد، الجعفي، الكوفي، الكندي، نسبة إلى محلة يقال لها كندة، لا كندي القبيلة كامرئ القيس.

ولد عام 303 / 915 في خلافة المقتدر بن المعتضد، وقتل في كمين نصبه له فاتك بن أبي جهل الكندي، بالقرب من دبر العاقول، عام 354 / 965...

وغاية ما أقول عنه ما قاله شيخ النقاد، ابن رشيق في كتابه: "العمدة": ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس...". وقال آخر:

ما رأي النـــاسُ ثاني المتنبي   أي ثان يُرى لبـــكر الزمان

هو في شـعره تنـــبي ولكن   ظهرت معجزاته في المعـالي

هذا، وقد كان مؤلفنا من المعجبين بشعر المتنبي، فنسخ ديوانه بخط يده، وتأنق في ذلك، وعلق عليه تعاليق لطيفة تكلم فيها على غريب اللغة، شرح الأبيات المحتاجة للشرح، مع الإشارة للنكات البلاغية والتلميحات البديعة والإعرابات النحوية. وفرغ من كتابه سنة 1279 / 1862، كما كان، رحمه الله، يستظهر هذا الديوان ويعجب بمحاسنه، وخصوصا بما فيه من الحماسة، ويطرب لسماع إنشاده، كما أخبر بذلك أحد تلاميذه، الملازمين له طول حياته العلامة المؤرخ محمد بن علي الدكالي السلاوي، رحمه الله.

14 - هذا البيت هو الثاني والثلاثون من مجموع 45 بيتا أضمنتها القصيدة البارعة الشهيرة التي مدح بها أبو الطيب المتنبي سيف الدولة، لما اراد النهوض إلى ثغر الحدث، حين بلغه أن الروم أحاطت به، وذلك في جمادى الأولى سنة 344 / 955.

ومطلعها:

ذي المعالي فَلْيَعْـلُوَنْ مَن تعالى   هـكـذا هكذا وإلا فلا لا

15 - حول هذه المسألة انظر ما كتبه د. حسني عبد اللطيف في كتابه: "الإسلام والعلاقات الدولية - نموذج أحمد بن خالد الناصري"، طبع إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1412 / 1991، من ص. 163 إلى ص. 177.

16 - لما سمع رؤوف باشا المصري - حاكم السودان العام - بالمهدي السوداني استدعاه إلى الخرطوم، فامتنع، فأرسل رؤوف قوة ثانية للإتيان به، ففتك بها أنصاره في الطريق، فأرسلت الحكومة المصرية جيشا لقتاله بقيادة باشا (Giegler Pacha)، فهاجمه 50.000 سوداني وهزموه، ثم جاء جيش مصري ثالث بقيادة هيكس باشا (Hicks Pacha)، فأباده، وهاجم أتباعه مدينة الخرطوم وبها كوردون (Gordon Pacha) الشهير، فقتلوه وحملوا رأسه على حربة، وذلك سنة 1302 / 1884.

17 - يشير المؤلف هنا إلى أن أهل السودان كانوا يحاربون بالوسائل التقليدية والأسلحة العتيقة أمام العساكر الانجليزية المسلحة بأحدث الأسلحة من بنادق ومدافع وغيرها...

وقد وقفت، بعد هذا على تقييد للمؤلف في دفتر خاص كان يضمنه الأحداث التي كان يعيشها والأخبار التي يتلقاها سواء في الداخل أو من الخارج في قيام المهدي السوداني وحروبه مع مصر وإنجلترا، ما نصه: "وجريهم (يعني أهل السودان) إنما هو الطعن بالحربة والرمي بالنشاب، وليس فيهم من يفزع من الموت، فلا يقفون إلا عند عسكر العدو، ثم يصيرون يضربون بالبارود.

18 - يبدو هذا النص - مما لا شك فيه - أحسن تفكيرا، وأكبر وقعا، وأليق تقديما من نص جعفر الكتاني،. فالملاحظات حول عدم استعداد المغاربة، وتنافي سكان المدن والبوادي، وخطر

مواجهة الأوربيين وعَدَمُ تكافؤ القوات بين المغرب وأوربا، تختلف تماما بواقعيتها ورجاحة رأيها عما كان يصنف في ذلك العهد.

19 - سورة البقرة، آية 216.

20 - لم يكن هذا مجرد كلام ظرفي، أملته عواطف متأججة، إغثر حوادث مفجعة، ولا مجرد رأي خاصٍّ بصاحبه حول مشكلة طارئة، كما توهمه بعضهم، بل فتوى شرعية، حول موضوع من الخطورة بمكان، يهم أمن المغرب وسلامة أراضيه، ومستقبل سكانه وقُطّانه، صادرة من "عالم نطاسي خبير وواعية بصير صَاوَل دهْره، وعَجَم عوده، وسَبَر غوره، ورفض ما وقع في دهن كثير من الخرفات والأوهام، وقدَحَ زند الأفكار الصحيحة والناس يومئذ ينظرونها شزرا"، لما استبقى أمير المومنين علماء المغرب في مسألة مصيرية...

وهذه الفتوى، إن دلت على شيء، فإنما تدل على مدى وعي صاحبها، وتصوره الحقيقي لما يجري حوله، داخل بيئته ومجتمعه، وتفهمه التام للأوضاع الخارجية، والعلاقات الدولية، وإدراكه المقتنع لاختلال موازين القوى بين بلاده المنزوية في عقر دارها، المنطوية على نفسها، وبين دول أوربا الغربية الدائمة الحركة، المضطردة النمو، الحثيثة التقدم في شتى الميادين، مما أكسبها قوة جبارة، جعلتها سيدة الوقت، وصاحبه الحل والعقد...

والجدير بلفت النظر إليه هو أنه ليس في هذا الموقف الشجاع، المفصح عن نقد ذاتي لم يكن معهودًا آنذاك، ما يوحي بتأثر صاحبه بالحضارة الغربية، وجنوحه إلى الحلول السلمية، والتّحَلي بروح متشائمة وانهزامية... وإنما هو الجهر بالقول الصريح، والتشبث بالرأي الحصيف، والحرص على بدل النصح لمن ولاه الله أمر السهر على حماية بيضة الإسلام، ولكافة المسلمين.

❐ ❐ ❐

الحماية القنصلية

عبد الرحمان ابن زيدان

وقد عثرت على تقييد ببعض دفاتر دار النيابة هذا نصه:

"في19 غشت عام 1863 الموافق 3 ربيع الأول عام 1280.

تقييد في الحماية التي يجب أن يسير عليها نواب الفرنصيص الذين هم في إيالة المغرب:

الحماية تكون للشخص المعين لها في وقت تعلقه بالخدمة

وهذه الحماية لا تشمل أقارب الشخص المحمي ونائبه...............أن تشمل حريمه وأولاده الساكنين معه في منزل واحد ويقدر أن تبقى لبعض الأشخاص مدة عمره كله، فإذا مات انقطعت، ولا تورث ما عدا دار موسي ابن سمول المكنى برير والتي هي موروثة عندهم أبا عن جد تولدت منها سماسرة وتراجمة في نيابة طنجة.

الحماية تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: أولاد البلد الذين يخدمون في دار الباشدور وديار القنصوات نوابه مثل الكتاب والمخازنية والمتعلمين وشبههم.

والقسم الثاني: السماسرة المستخدمين عند التجار الفرنصويين في أمور تجارتهم، هؤلاء التجار المشار إليهم لا يسمى أحد منهم تاجرا إلا الذي يكون يتجر تجارة كبيرة وتكون تجارته بالداخل والخارج في المرسى، سواء كانت تلك التجارة له أو كان نائبا فيها عن غيره. عدد السماسرة الذين يكونون في الحماية لا يزيد على اثنين في دار كل متجر، نعم الدار التي تكون لها دار أخرى في مرسى أخرى فيكون لها في كل دار سمساران محميان.

حماية دولة فرنسا لا تشمل أولاد البلد المستخدمين في البادية في مثل أمور الحراثة والفلاحة ورعي الغنم وشبه ذلك.

ولكن باعتبار ما هو جار الآن، وذلك بالاتفاق مع حكام مراكش، الحماية لهؤلاء المذكورين تكون جارية لهم مدة شهرين أولها فاتح شتنبر الموالي لتاريخه.

ومعروف أن هؤلاء المستخدمين في البادية مع الفرنصيص، حين تجب مطالبتهم بالأحكام، فيعلم عاملهم نائب الفرنصيص، ليأمر صاحب الغنم أو الحرث بتوجيه من يقف على متاعه ليلاّ يبقى للضياع.

زمام من هو في حماية الفرنصيص يعطيه نائبهم لعامل البلد التي هو فيها، وإذا حدث تبديل أو تغيير في بعض الأشخاص المحميين يعلمه بذلك.

كل من هو في الحماية تكون بيده بطاقة مذكورة فيها اسمه وتعيين الخدمة التي هو بها، وتكون هذه البطاقة مكتوبة بالعربي وبالفرنصيص، وهذه البطاقة لا يعطيها إلا الباشدور المقيم بطنجة".

عبد الرحمان ابن زيدان: "إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس"، الطبعة الأولى، سنة 1349 ـ 1931.

وثائق

المعاهدة المغربية الفرنسية (1330هـ ـ 1912م)

توضيحات :

بسم الله الرحمن الرحيم

من اخطر المعاهدات التي عقدها المغرب مع دولة اجنبية خلال تاريخه الطويل معاهدة فاس التي عقدها مع فرنسا عام 1330 هـ ـ 1912 م تلك التي عرفت فيما بعد واشتهرت بمعاهدة الحماية .

وقد بقي نصها الفرنسي الذي عرض على برلمان فرنسا ونشر بعد مصادقته عليه في جريدتها الرسمية هو المرجع الوحيد الذي يرجع اليه كل باحث ودارس لأصل الوضع الشاذ الغريب الذي فرض على المغرب ان يعيش فيه 43 سنة ، وكانت الشكوك تنتاب رؤوس بعض المفكرين في صحة ذلك النص ، والاحتمالات تراودها بما قد يكون فيه من زيادة ونقص بالنسبة للنص العربي الذي امضاه السلطان مولاي عبد الحفيظ . سيما فيما يخص مدة وصاية فرنسا وحمايتها .

ومع اننا لم نطلع حتى الآن على النص العربي الذي امضاه السلطان ـ اطلعنا على نسخة مطابقة له ، وهذه النسخة وجدت مسجلة ـ مع ما سبق معاهدة فاس من مراسلات تمهيدية ـ في كناش كان السيد الطيب المقري وزير المالية وقت امضاء المعاهدة يدون فيه المراسلات الرسمية .

وهذا الكناش محفوظ اليوم بمديرية الوثائق الملكية .

ـ 6 ـ

ونظرا لأهمية معاهدة فاس ـ او معاهدة الحماية ـ وتلهف السياسيين والباحثين المغاربة على الاطلاع على نصها الرسمي العربي استحسنت مديرية الوثائق الملكية ان تبادر بنشره نقعاً للغلة ريثما تعيدُ نشره في مجموعـات « **الوثائق** » عند ما يدرك زمنه .

وقد اردفنا النصّ العربي المعثور عليه بالنصّ الرسمي الفرنسي تسهيلا للمقارنة ، كما شرحنا بعض الألفاظ العربية التي كانت من المصطلحات الجارية على الألسنة والأقلام في الوقت الذي امضيت فيه المعاهدة .

الرباط ـ الخميس { 23 صـفـر عـــام 1403 هـ
9 دجنبـر سنـــة 1982 م }

عبد الوهاب بن منصور

مدير الوثائـق الملكية

النص العربي :

الحمد لله

ان دولة جلالة السلطان الشريفة ودولة الجمهورية الفرنسوية .

بناء على ما لهما من الاهتمام بتاسيس نظام مضبـوط مبنـي علـى السكينة الداخلية والراحة العمومية يسوغ به ادخال الاصلاحات واثبات النشر الاقتصادي (1) بالمغرب .

قد اتفقتا على ما سيذكر

الفصل الأول

ان جلالة السلطان ودولة الجموورية الفرنسوية قد اتفقتا على تأسيس نظام جديد بالمغرب مشتمل على الاصلاحات الادارية والعدلية والتعليمية والاقتصادية والمالية والعسكرية التي ترى الدولة الفرنسوية ادخالها نافعا بالايالة المغربية

وهذا النظامُ يكون يحترم حرمة السلطان وشرفه العادي ، وكذلك الحالة الدينية وتاسيسها (2) والشعائر الاسلامية ، وخصوصـا تاسيسـات الأحباس (3) كما يكون هذا النظـامُ محتويا على تنظيـم مخزن شريـف (4) مضبوط .

دولة الجمهورية تتفاوض مع الدولة الاصبنيولية في شان المصالح الناشئة لهذه الدولة من حالتها الجغرافية ومستعمراتها الأرضية الكائنة بالساحل المغربي .

1) اي وتحقيق التوسع الاقتصادي او التنمية الاقتصادية .

2) اي ومؤسساتها .

3) الاوقاف الاسلامية حسب تعبير المشارقة .

4) حكومة مغربية .

- ٨ -

كما ان مدينة طنجة تبقى على حالتها الخصوصية المعترف لها بها ، والتي من مقتضاها يتأسس نظامها البلدي .

الفصل الثاني

جلالة السلطان يساعد من الآن على الاحتلالات العسكرية بالايالة (5) المغربية التي تراها الدولة واجبة لاستتباب السكينة والتامين على المعاملات التجارية ، وذلك بعد تقديم الاعلام للمخزن الشريف .

كما يساعد على ان الدولة الفرنسوية تقوم بعمل الحراسة براً وكذلك بحراً بالمياه المغربية .

الفصل الثالث

دولة الجمهورية تتعهد باعطائها لجلالة السلطان الاعانة المستمرة ضد كل خطر يمس بذاته الشريفة او بكرسي مملكته او ينشأ عنه اضطـــراب بايالته ، وهذه الاعانة تعطى ايضا لوالي العهد ولمن يخلفه .

الفصل الرابع

ان الوسائل التي يتوقف عليها نظام الحماية الجديد تبرز على يـــد جلالة السلطان وعلى يد الولاة الذين لهم التفويض من الجانب الشريف ، وذلك بمعروض (6) من الدولة الفرنسوية ، وهذا العمل يكون جارياً ايضـــا في الضوابط (7) الجديدة والتغييرات في الضوابط الموجودة .

---

5) الايالة في الاصطلاح الاداري المغربي القديم منطقة ترابية سياسية او ادارية قد تتسع حتى تدل على قطر بأكمله وقد تضيق حتى لا تدل الا على منطقة صغيرة مثل منطقة حكم قائد ، وقد كان المغرب يدعا الى زمن قريب (الايالة الشريفة) .

6) اي باقتراح يعرض .

7) الضوابط جمع ضابط . القانون والمسطرة (الاجراء) في الاصطلاح الاداري المغربي القديم .

— 9 —

الفصل الخامس

تعين الدولة الفرنسوية مندوب مقيماً عاما يكون نائبا عنها لدى جلالة السلطان ومستودعاً لتفويضاتها بالمغرب ، كما يكون يسهر على القيام بانجاز هذا الوفق .

يكون المندوب المقيم العام هو الواسطة الوحيد بين جلالة السلطان ونواب الاجانب ، كما يكون الواسطة ايضاً في المصارفة (8) التي لهؤلاء النواب مع الدولة المغربية .

المندوب المقيم العام يكون مكلفا بسائر المسائل المتعلقة بالأجانب في الايالة الشريفة ، ويكون له التفويض بالمصادقة والابراز (9) في اسم الدولة الفرنسوية لجميع القوانين الصادرة من جلالة السلطان .

الفصل السادس

نواب فرانسا السياسيون والقنصليون يكونون هم النائبون عن المخزن والمكلفون بحماية رعايا ومصالح المغرب بالأقطار الأجنبية .

جلالة السلطان يتعهد بعدم عقد اي وفق كان له معنى دوليـــــة (10) من غير موافقة دولة الجمهورية الفرنساوية .

الفصل السابع

الدولة الشريفة ودولة فرنسة يتأملا(ن) فيما بعد باتفاق معا في تأسيس أصول شاملة لنصب نظام مالي يسوغ به ضمانة ما يتعهد به بيت المال الشريف

(8) المعاملة

(9) النشر

(10) ذو صبغة دولية

وقبض محصولات الايالة على وجه منظم ، وذلك مع احترام الحقوق المخولة لحملة سهام السلفات المغربية العمومية .

الفصل الثامن

يتعهد جلالة السلطان بان لا يعقد في المستقبل ، اما راسا واما بواسطة ، اي سلف كان عموميا او خصوصيا او يمنح باي صفة كانت باختصاص من الاختصاصات من غير موافقة الدولة الفرنسوية .

الفصل التاسع

هذا الوفق يقدم لمصادقة دولة الجمهورية الفرنسوية ، ونص المصادقة يدفع لجلالة السلطان في اقرب وقت ممكن .

وبمقتضى ما سطر اعلاه حرر الفريقان هذا الوفق وختما عليه بختمهما بعاصمة فاس يوم الثلاثين مارس سنة 1912 الموافق حادي عشر ربيع الثاني عام 1330 (*)

---

*) كتب تحت هذا التاريخ في الكناش المنقول منه ما يلي :

ثم رسم الطابع الشريف . وبازائه الاسم المولوي المنيف ونصه عبد الحفيظ الله له . وخط عجمي .

يشهد الواضعان خط يدهما اسفله بصحة التعريب اعلاه ومطابقته للنص الفرنساوي حرفا حرفا كما يشهد باصلاح التاريخ .

ثم خط عجمي . بلان .

ثم خط اخر عجمي : عبد القادر ابن غبريط لطف الله به .

النص الفرنسي :

Traité Maroco - Français

(CONCLU A FÈS LE 30 MARS 1912)

Le gouvernement de la République française et le gouvernement de Sa Majesté Chérifienne, soucieux d'établir au Maroc un régime régulier, fondé sur l'ordre intérieur et la sécurité générale, qui permette l'introduction de réformes et assure le développement économique du pays, sont convenus des dispositions suivantes :

ARTICLE PREMIER. — Le Gouvernement de la République française et S. M. le Sultan sont d'accord pour instituer au Maroc un nouveau régime comportant les réformes administratives judiciaires, scolaires, économiques, financières et militaires que le Gouvernement français jugera utile d'introduire sur le territoire marocain.

Ce régime sauvegardera la situation religieuse, le respect et le prestige traditionnel du Sultan, l'exercice de la religion musulmane et les institutions religieuses, notamment celle des Habous. Il comportera l'organisation d'un *maghzen* chérifien réformé.

Le Gouvernement de la République se concertera avec le gouvernement espagnol au sujet des intérêts que ce gouvernement tient de sa position géographique et de ses possessions territoriales sur la côte marocaine.

De même, la ville de Tanger gardera le caractère spécial qui lui a été reconnu et qui déterminera son organisation municipale.

ARTICLE 2. — S. M. le Sultan admet dès maintenant que le gouvernement français procède, après avoir prévenu le *maghzen*, aux occupations militaires du territoire marocain qu'il jugerait

— 4 —

nécessaires au maintien de l'ordre et de la sécurité des transactions commerciales et à ce qu'il exerce toute action de police sur terre et dans les eaux marocaines.

ARTICLE 3. — Le Gouvernement de la République prend l'engagement de prêter un constant appui à S. M. Chérifienne contre tout danger qui menacerait sa personne ou son trône ou qui compromettrait la tranquillité de ses Etats. Le même appui sera prêté à l'héritier du trône et à ses successeurs.

ARTICLE 4. — Les mesures que nécessitera le nouveau régime du protectorat seront édictées, sur la proposition du gouvernement français, par S. M. Chérifienne ou par les autorités auxquelles elle en aura délégué le pouvoir. Il en sera de même des règlements nouveaux et des modifications aux règlements existants.

ARTICLE 5. — Le Gouvernement français sera représenté auprès de S. M. Chérifienne par un commissaire résident général, dépositaire de tous les pouvoirs de la République française au Maroc, qui veillera à l'exécution du présent accord.

Le commissaire résident général sera le seul intermédiaire du Sultan auprès des représentants étrangers et dans les rapports que ces représentants entretiennent avec le gouvernement marocain. Il sera, notamment, chargé de toutes les questions intéressant les étrangers dans l'empire chérifien.

Il aura le pouvoir d'approuver et de promulguer, au nom du gouvernement français, tous les décrets rendus par S. M. Chérifienne.

ARTICLE 6. — Les agents diplomatiques et consulaires de la France seront chargés de la représentation et de la protection des sujets et des intérêts marocains à l'étranger.

S. M. le Sultan s'engage à ne conclure aucun acte ayant un caractère international sans l'assentiment préalable du Gouvernement de la République française.

— 5 —

ARTICLE 7. — Le Gouvernement de la République française et le Gouvernement de S. M. Chérifienne se réservent de fixer d'un commun accord les bases d'une réorganisation financière qui, en respectant les droits conférés aux porteurs des titres des emprunts publics marocains, permette de garantir les engagements du Trésor chérifien et de percevoir régulièrement les revenus de l'empire.

ARTICLE 8. — S. M. Chérifienne s'interdit de contracter à l'avenir, directement ou indirectement, aucun emprunt public ou privé et d'accorder, sous une forme quelconque, aucune concession, sans l'autorisation du gouvernement français.

ARTICLE 9. — La présente convention sera soumise à la ratification du gouvernement de la République française et l'instrument de ladite ratification sera remis à S. M. le Sultan dans le plus bref délai possible.

En foi de quoi les soussignés ont dressé le présent acte et l'ont revêtu de leurs cachets.

Fait à Fès, le 30 mars 1912.

Signé : REGNAULT

MOULAY ABD EL HAFID.

محاولة تأطير تاريخي



ثلاث عرائض ومسعى واحد: الاستقلال والوحدة

أحمد المكاوي*

تمهيد

كان الاحتفال بذكرى وثيقة 11 يناير 1944 مقتصرا على حزب الاستقلال، قبل أن يصبح احتفالا وطنيا منذ سنة 1988. وكان من اللازم إحياء تقديم عريضة الاستقلال من لدن المغاربة كلهم باعتبار أهمية الحدث في تاريخ المغرب المعاصر. كما أن استحضار هذه الوثيقة وما تلاها من أحداث جسيمة يجعل الأجيال التي لم تعاصر تلك الفترة الحاسمة، تطلع - ولو جزئيا - على تضحيات الأجيال السابقة من أجل الاستقلال والوحدة.

ولن تتناول هذه المساهمة المتواضعة عريضة 11 يناير 1944 فقط، بل تتناول عريضة سابقة عليها، تلك التي قدمت في 13 فبراير 1943 من لدن حزب الإصلاح الوطني وحزب الوحدة المغربية، وأخرى لاحقة عليها، قدمتها الحركة القومية في 13 يناير 1944. والهدف من ذلك إبراز القواسم المشتركة بينها، ومحاولة إبراز بعض الأسباب التي جعلت وثيقة 11 يناير تستأثر بالاهتمام وتتمتع ببريق خاص مقارنة بالوثيقتين المذكورتين.

* أستاذ باحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة أبي شعيب الدكالي، الجديدة.

وقبل التطرق إلى الوثيقة الصادرة بالمنطقة الخليفية، لابد من الإشارة إلى أن مطلب الاستقلال لم يكن حكرا على هيئة سياسية دون أخرى، ولا على منطقة دون أخرى، فالحزب الشيوعي المغربي مثلا أشار في إحدى نشراته إلى ضرورة الاستقلال، وأعلن عن ذلك جهرا[1] ، وفي المنطقة الخليفية ورد الحديث عن استقلال ووحدة المغرب قبل سنة 1944 في خطب ومقالات صحفية ورسائل[2]. ونقتصر هنا على التذكير بأن حزب الإصلاح الوطني بزعامة الطريس وحزب الوحدة بزعامة المكي الناصري توصلا إلى ميثاق بتطوان يوم 18 / 12 / 1942 عرف بالميثاق الوطني للجبهة القومية للوطنية المغربية الذي تركز على مطلب الاستقلال والوحدة ومهد لتقديم مذكرة 13 فبراير 1943 التي تمحورت على نفس المطلب.

1 ـ وثيقة 13 / 2 / 1943 وريادة المطالبة بالاستقلال بالوحدة

لم تحظ هذه الوثيقة بالاهتمام المطلوب وخصوصا في كتابات رجال الحركة الوطنية بالجنوب، إذ لا توجد إشارة إليها مثلا في كتاب علال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي. وحتى حينما تتم الإشارة إليها، فإنّ ذلك يتم في سياق التقليل من شأنها وإشعاعها، على نحو ما قاله بصددها عبد الرحيم بوعبيد في جريدة الاتحاد الاشتراكي ليوم 11 يناير 1990، باعتبارها ظلت سرية وغامضة. أما محمد الحسن الوزاني في مذكراته حياة وجهاد، فقلل من أهمية ما حدث في الشمال بصدد المطالبة بالاستقلال والوحدة، ونفى أن تكون حركة المطالبة بالاستقلال في المنطقة السلطانية تأثرت بما تم في تطوان" (...) وبتحقيق ذلك الميثاق برزت فكرة المطالبة بالاستقلال في المغرب، وإن كانت لم تتجاوز دائرة الوثيقة الحزبية الثنائية فكانت عبارة عن إبداء رأي وإعلان موقف ورسم اتجاه، بحيث لم تأخذ أية صبغة جدية. ولم تنطلق كذلك على الصعيد الشعبي حتى تفجر تيار أحداث سياسية هناك. (...)

"لم تتأثر (= الحركة الوطنية في الجنوب) في شيء مطلقا بما أقدمت عليه الأحزاب في تطوان من قبل، من إعلان ميثاق وطني في 18 / 12 / 1943، ومن بيانات تتضمن مطالب تحريرية..."[3].

وبدون الخوض في تفاصيل تتعلق بهذا الأمر، لأنها من صلب إشكالية كتابة تاريخ الحركة الوطنية المغربية سواء في الجنوب أو الشمال، أشير إلى أن النص الكامل لهذه المذكرة نشره ابن عزوز حكيم أولا في كتابه وثائق تشهد (الرباط، 1980) قبل إعادة نشرها بمجلة الوثائق الوطنية (عدد 5 ـ 6 / 1990)، وألمح إلى أهميتها المهدي بنونة في مؤلفه، المغرب: السنوات الحرجة قائلا: "وتعتبر من الناحية الدولية، أول وثيقة مغربية تطالب بالاستقلال"[4].

قدمت هذه المذكرة إلى المفوضيات الأجنبية في مدينتي طنجة وتطوان، وورد في ديباجاتها الطويلة مجموعة من الحيثيات التي تبرز المطالبة بالاستقلال والوحدة: بعضها تتعلق ببطلان نظام الحماية لمخالفته شروطه ونقض بنوده، مع التأكيد على تمتع المغرب بحريته وسيادته منذ 13 قرنا. وبعضها الآخر يرتبط بالمستجدات وتتمثل في التغيرات التي يعرفها العالم والتي تتطور بموجبها علاقات الأفراد والشعوب، إضافة إلى إعلان الدول الكبرى دفاعها عن الحرية والعدل (ميثاق الأطلسي 14 / 8 / 1941). أما الأماني / المطالب، فيمكن إيجازها فيما يلي:

1 ـ إعلان سقوط نظام الحماية في جميع أطراف المغرب؛

2 ـ اعتبار إرادة الشعب المغربي في حد ذاتها مصدرا طبيعيا لتقرير مصيره وحكم نفسه بنفسه؛

3 ـ تجديد الاعتراف باستقلال المغرب وسيادته الداخلية والخارجية؛

4 ـ إعادة وحدة التراب المغربي كما كانت في عهد الاستقلال تحت ظل العائلة العلوية المالكة؛

5 ـ ضمان الاعتراف باستقلال المغرب ووحدة ترابه من لدن جميع الدول؛

(وخصوصا دول أوربا وأمريكا)؛

6 ـ اعتبار التراب المغربي (ومجاله البحري والجوي) أرض حياد تام عند نشوب أي نزاع دولي مسلح؛ (...).

وانتهت المذكرة إلى التأكيد على تفتح المغرب المستقل ونبذه التعصب العرقي والديني، مناشدة الحكومات ـ الموجه إليها هذه المذكرة ـ المساعدة على النهوض والحرية والاستقلال.

يبدو جليا من صياغة هذه الوثيقة، أنها كانت موجهة أساساً إلى ممثلي الدول الأجنبية والرأي العام الدولي، مثلما تدل على ذلك التعابير التالية: [حضرة السعادة...؛ والجبهة القومية... إذ تعلنها بصفة رسمية إلى رأي العام العالمي الدولي...؛ وهي تعلق أملا كبيرا على حكومتكم الموقرة...؛ فإذا أعانتنا حكومتكم الموقرة... الخ]. وإن كان ابن عزوز حكيم أشار إلى أنها وجهت إلى السلطان محمد الخامس[5]، فإن الوثيقة المنشورة لا تتضمن ما يفيد ذلك، عكس الوثيقة اللاحقة والتي تلتها حيث يحضر فيهما بشكل جلي الالتماس من جلالته السعي لدى الدول للاعتراف باستقلال المغرب وضمانه، ورعايته لحركة الإصلاح. كما أنه لا يعلم كيفية الاتصال به ولا ردود فعله إزاءها، كما تجهل أيضا ردود فعل الإقامة العامة الفرنسية. إن إثارة هذا الأمر قد يفيد في تفسير ـ ولو جزئي ـ لاستمرار هذه الوثيقة في طي الكتمان، وبالتالي عدم إشاعتها.

2 ـ وثيقة 11 يناير 1944 وهالة الاستقطاب

بعد أقل من سنة على تقديم وثيقة الجبهة القومية للوطنية المغربية قام حزب الاستقلال (الذي أصبح يضم إلى جانب أعضاء الحزب الوطني شخصيات حرة، خصوصا أعضاء جمعيات قدماء التلاميذ، بتقديم عريضة المطالبة بالاستقلال، ولم تكن ديباجتها تختلف عن ديباجة العريضة الأولى إلا في التفاصيل والصياغة، أما

الحيثيات فهي نفسها تقريبا:

ـ التأكيد على تمتع المغرب بحريته ومحافظته على استقلاله منذ أمد بعيد؛

ـ اعتبار نظام الحماية باطلا لأنه تحول إلى حكم مباشر مستبد مستحوذ على تقاليد الحكم وخيرات البلاد.

وبجانب هذه الحيثيات التاريخية، ورد في العريضة حيثيات ظرفية أو مستجدات تتمثل في:

ـ الظروف التي يعرفها العالم هي غير الظروف التي أسست فيها الحماية؛

ـ مشاركة المغرب بفعالية إلى جانب الحلفاء في الحرب الكونية الثانية؛

ـ اعتراف الحلفاء في "ميثاق الأطلسي" بحق الشعوب في حكم نفسها بنفسها؛

ـ إظهار الحلفاء عطفهم على الشعوب الإسلامية ومنحهم الاستقلال لشعوب غيرها، ضمنها من هو دون الشعب المغربي ماضيا وحاضرا؛

ـ تقدير الأمة المغربية الحريات الديمقراطية الموافقة لمبادئ الدين الحنيف.

أما المقررات فجاءت كالتالي:

ـ المطالبة باستقلال المغرب ووحدة ترابه تحت ظل الملك؛

ـ التماس من جلالة الملك السعي لدى الدول للاعتراف بهذا الاستقلال وضمانه؛

ـ طلب انضمام المغرب للدول الموافقة على ميثاق الأطلسي والمشاركة في مؤتمر الصلح؛

ـ وأخيرا، الالتماس من السلطان رعايته لحركة الإصلاح.

لن نتطرق في هذه المساهمة إلى الانتقادات التي وجهت لاحقا لهذه العريضة ـ وبعضها وجيه جدا ـ مثلما الأمر في مذكرات حياة وجهاد أو دراسة عبد القادر

الشاوي عن حزب الاستقلال[6]، ولن نتطرق أيضا لإفرازاتها وتأثيرها الجسيم على العمل السياسي والوطني بعد سنة 1944، لأنّ العديد من جوانبه معروفة، وإنما سنقتصر على إثارة التباين الحاصل في شأن موقف الحركة القومية من التوقيع على هذه المذكرة[7]: فكتابات بعض زعماء الحركة الوطنية المنتمين لحزب الاستقلال، يقولون برفض زعماء الحركة القومية التوقيع على الوثيقة بعد أن قدمت إليهم من لدن أعضاء ينتمون إلى الحزب، وهم أساس من قدماء الثانوية الإسلامية بفاس، وأن هذا الرفض صدر أيضا من الزعيم محمد بن الحسن الوزاني في منفاه بايتزر. أما الاتجاه الثاني الذي يمثل وجهة نظر الحركة القومية (حزب الشورى والاستقلال) فيقدم صورة مغايرة: ذلك أن طلب التوقيع على وثيقة المطالبة بالاستقلال كان مرفوقا بطلب اندماج الحركة القومية في الحزب الجديد (حزب الاستقلال)، وهو ما كانت تستبعده قيادة الحركة القومية فضلا على أن مسألة الاندماج كانت تتطلب استشارة القواعد والزعيم المنفي. ثم إن الوثيقة في حد ذاتها لم تستشر الحركة القومية في صياغتها ولا إحاطتها بالحيثيات التي جعلت زعماء حزب الاستقلال يسارعون إلى تقديمها دون استشارة الفصيل الآخر من الحركة الوطنية، وبمعنى آخر أن الحركة القومية طلب منها القبول بالأمر الواقع، دون مناقشة أو استشارة أعضائها، ثم أن مبادرة تقديم العريضة جاءت من أفراد كانوا يعتبرون معتدلين ولم يدخلوا في مواجهة مع السلطات الاستعمارية. أما الزعيم الوزاني فلم تعرض عليه الوثيقة بمنفاه إلا بعد أن قدمت للسلطان والإقامة العامة.

والملاحظ من خلال بسط هذين الاتجاهين المتباينين، أن انشقاق كتلة العمل الوطني في الجنوب كانت له امتدادات سلبية أثرت بقوة على التنسيق والوضوح في العلاقات بين مكونات الحركة الوطنية في الجنوب، بخلاف الحركة الوطنية في الشمال التي تمكنت ـ ولو بكيفية مؤقتة ـ من التغلب على حزازات الماضي والتوصل إلى ميثاق ثم مذكرة مشتركين. ثم ان نزعة التمركز على الذات لدى بعض

مكونات الحركة الوطنية كانت تسير في اتجاه إقصاء أو تهميش دور الطرف الآخر في مجهود المطالبة بالاستقلال والوحدة، فكانت الحصيلة تعميق التنافر بينهما.

3- وثيقة 13 / 1 / 1944 وتزكية المطالبة بالاستقلال والوحدة

عملت الإقامة العامة على استغلال عدم توقيع الحركة القومية على وثيقة 11 يناير 1944، للتقليل من أهميتها باعتبار أنها لا تعبر عن رأي الشعب المغربي كله وإنها تمثل رأي حزب واحد، وهو ما دفع السلطان محمد الخامس إلى مطالبة زعامة الحركة القومية بالتوقيع على الوثيقة لإزالة تشكيك الإقامة العامة وطعنها في تمثيلية وثيقة 11 يناير، وعن ذلك يقول د. عبد الهادي بوطالب "وسألني جلالته: لماذا لم يوقع حزبكم مع السادة الآخرين؟ فلخصت لجلالته سير المفاوضات وأسباب تعثرها وما حال بيني وزميلي عضو الحركة القومية الأستاذ الجناتي وبين الإمضاء على العريضة(...)، فاستمع إليّ متأملا ثم قال "ما أقوله لك أنه بدون مشاركة حزبكم سيجهض طلب الاستقلال، وأنا أعلم أن المقيم العام إنما يتخذ من غياب حزبكم عن الساحة تعلة للتشكيك في أهمية المطلب فأرجو أن تسارعوا"[(8)].

واستجابة للإلحاح السلطاني وقطعا لتشكيك الإقامة العامة، تم تهييء عريضة حملت إمضاءات من أمكن الاتصال بهم من قيادة الحركة القومية في ذلك الظرف الوجيز والحاسم، وفي أقل من 48 ساعة على تقديم مذكرة حزب الاستقلال، كان وفد الحركة القومية يقدم العريضة / التزكية للسلطان، الذي طلب من هذا الوفد تقديمها إلى الإقامة العامة وتوزيعها على ممثلي الدول الأجنبية مثلما فعل حزب الاستقلال.

حرصت هذه العريضة الجديدة ـ وهي موجزة جدا بالقياس إلى المذكرتين السابقتين، على إبراز الحركة القومية كهيأة سياسية تتمتع بكيان متميّز، ونصت في ذات الوقت على ضم صوتها إلى حزب الاستقلال سعيا لتحقيق الوحدة. وجاءت

الحيثيات مركزة جدا ولكنها مطابقة في الجوهر لما ورد في المذكرتين السالفتين:

• تحول نظام الحماية المفروض من مهمة "التمدين" إلى الحكم المباشر.

• تقرير ميثاق الأطلسي لحق الشعوب في تقرير مصيرها والتمتع بسيادتها، وتقرير الدول الديمقراطية لمبدأ الحريات الأربع.

أما المقرارات فجاءت كالتالي:

ـ المطالبة باستقلال المغرب ووحدة ترابه تحت ظل السلطان؛

ـ الالتماس من جلالته السعي لدى الدول للاعتراف بهذا الاستقلال وضمانه؛

ـ طلب انضمام المغرب للدول الموافقة على وثيقة الأطلسي والمشاركة في مؤتمر الصلح؛

ـ الالتماس مع جلالته رعاية حركة الإصلاح، وإحداث نظام سياسي شوري شبيه بنظام الحكم في البلاد العربية الإسلامية بالشرق.

ويمكن اعتبار المطلب الأخير (إحداث نظام سياسي شوري) هو ما يميز حقا هذه الوثيقة عن الوثيقتين السابقتين، مع أن عريضة 11 يناير 1944 أثارت مسألة الديمقراطية ولكن بكيفية مبهمة.

وبصفة عامة، ظلت هذه الوثيقة شأنها شأن وثيقة 13 فبراير 1943 عرضة للتهميش، ولم تسلط عليهما الأضواء لرد الاعتبار لهما باعتبارهما طرحا نفس ما ورد في عريضة 11 يناير.

محاولة تفسير استئثار وثيقة 11 يناير بالاهتمام دون الوثيقتين الأخيرتين:

يمكن أن يُعزى تهميش وثيقة 13 فبراير 1943 إلى ما يلي:

ـ ظلت وثيقة حزبي الإصلاح والوحدة محدودة الانتشار، حتى في المنطقة الخليفية نفسها، إذ لم ينشر نصها الكامل في جريدة الوحدة المغربية للمكي الناصري

ولا في ثاني مارس 1944، أي بعد تقديم وثيقتي المنطقة السلطانية، رغم أنها كانت الأولى زمنيا، بفارق سنة تقريبا.

ـ ثقل العمل السياسي في المنطقة الخليفية لم يكن بحجم وصيت العمل السياسي في المنطقة السلطانية، وهو ما أثّر على إشعاع هذه الوثيقة المحدود.

ـ تركيز رجال الحركة الوطنية في الجنوب على دروهم في النضال من أجل المطالبة بالاستقلال والوحدة وتوجيه كتاباتهم في هذا الاتجاه؛

واستنادا إلى ما ورد في كتاب المهدي بنونة، المغرب: السنوات الحرجة، في سياق مقارنته بين رد فعل السلطات الاسبانية ورد فعل السلطات الفرنسية إزاء المطالبة بالاستقلال، من أن "الإسبان أبدوا مرونة واضحة، ولم يلجأوا إلى قمع الحركة الوطنية"[9]، يمكن القول بأنّ القمع المسلط على موقعي وأنصار وثيقة 11 يناير 1944 منحها صيتا خاصا لم تتمكن الوثيقة الأولى من التمتع به بسبب محدودية القمع الإسباني.

ـ ثم إن غياب ردود الفعل إزاءها من لدن السلطان محمد الخامس والإقامة العامة الفرنسية إثر عرضها، ربما كان أيضا من العوامل التي جعلتها تبقى في طي الكتمان.

أما بشأن وثيقة 13 يناير 1944 التي عانت بدورها من التهميش رغم أن بعض رجال الحركة القومية فقدوا حياتهم بسببها، فيعود في تقديري إلى السبق الزمني لوثيقة 11 يناير 1944 رغم محدوديته، ولكنه كان كافيا لحجب بريق الوثيقة اللاحقة، وجعلها مقتصرة على دور التضامن والتزكية. ثم أن الحزب الجديد (=حزب الاستقلال) تمكن من أن يضم إليه شخصيات مستقلة لها وزنها مما جعله يدعم موقفه ويظهر بمظهر الحزب المستقطب لعناصر جديدة للعمل في الحقل السياسي، وهو ما انعكس ايجابيا على وثيقته، وهو ما أكد عليه الأستاذ بوطالب بقوله "... لذلك كان إمضاؤها (= الشخصيات الحرة) العريضة، الحدث الذي أضفى على

تلك الوثيقة هالة استقطاب..."[10].

وأخيرا، إن هذه المذكرات / لعرائض رغم تفاوتها من حيث الإشعاع أو الأهمية، فإنها كانت تسعى كلها إلى تجسيد إرادة الأمة المغربية المطالبة بالاستقلال والوحدة، أما التفاوت فتحكمت فيه اعتبارات متعددة. ويبقى إعادة الاعتبار للوثيقتين السابقة واللاحقة على وثيقة 11 يناير 1944، أمرا ضروريا لأنّ الأولى كانت رائدة في المطالبة بالاستقلال والوحدة، والثانية شكلت دعما سياسيا ومعنويا لوثيقة 11 يناير.

❐ ❐ ❐

هوامش

(1) Albert Ayache, le Maroc, éd. sociales, 1956, p. 343 et S.

(2) انظر مجلة الوثائق الوطنية، العدد الثاني، 1988، ص. ص: 57 / 65.

(3) مذكرات حياة وجهاد، ج 6، ص. 80 ـ 82.

(4) المغرب: السنوات الحرجة، ص. 84.

(5) انظر أيضا مجلة الوثائق الوطنية، ع. 5 ـ 6 / 1990، ص. 160.

(6) الملاحظ أن الانتقادات التي وجهها المرحوم محمد حسن الوزاني إلى عريضة 11 يناير 1944 (مذكرات حياة وجهاد، ج. 6، ص. ص: 173 / 179) الكثير منها يمكن أن يوجه إلى عريضة الحركة القومية (13 / 1 / 1944).

(7) لقد أعاد الأستاذ عبد الهادي بوطالب طرح هذا التباين في كتابه الأخير: ذكريات... شهادات... ووجوه.

(8) جريدة الرأي العام، 30 / 6 / 1993، ص. 5.

(9) المغرب: السنوات الحرجة، ص. 86.

(10) جريدة الرأي العام 30 / 6 / 1993، ص. 5.

❐ ❐ ❐

حزب الإصلاح وحزب الوحدة

نص الوثيقة

الجبهة القومية للحركة الوطنية المغربية ـ تطوان:

"حضرة صاحب السعادة...

"بعد تقديم التحيات والاحترامات اللائقة بسعادتكم نرجو أن تتكرموا بإبلاغ حكومتكم الموقرة، مع كامل الاحترام ووافر التقدير، مذكرة الجبهة القومية للوطنية المغربية التالية:

"بما أن العالم أصبح على أبواب انقلاب خطير تتطور بموجبه علاقات الأفراد والشعوب تطورا عميقا محسوسا.

"وبما أن الدول الكبرى أعلنت غير ما مرة على لسان رؤسائها وزعمائها أنها لم تدخل في الحرب العالمية الحاضرة إلا من أجل "العدل" عند فريق و"الحرية" عند الفريق الثاني.

"وبما أن الشعب المغربي كان ولا يزال معتبرا في عداد الشعوب ذات الشخصية الدولية البارزة المحدودة التي طالما تمتعت في حظيرة العالم الدولي بكثير من العطف وحسنِ المعاملة وعظيم الرعاية.

"وبما أن الشعب المغربي كان ولا يزال قوي الإحساس بوحدته الطبيعية القومية،.عظيم الشعور بحقه المطلق الدائم المستمر في حياة الحرية والاستقلال.

"وبما أنه لم يفقد ولن يفقد غريزته الفطرية الاستقلالية، ولم يرض ولن يرضى بامتهان شرفه القومي الموروث منذ الأزل.

"وبما أنه حافظ على استقلاله التام خلال قرون مديدة وأجيال عديدة أكثر من عدة شعوب أخرى، وبذل في سبيل صيانة حريته الغالية من التضحيات ما لم يبذله إلا القليل.

"وبما أنه كافح من أجل الدفاع عن شرفه وكيانه بكل الوسائل الدبلوماسية والسياسية بل الثورية حتى لم تنقطع فيه الثورة المسلحة ضد التدخل الأجنبي المفروض إلا منذ ثمان سنوات فقط، أي منذ سنة 1934.

"وبما أن دول أوربا وأمريكا في نفس مفتتح هذا القرن العشرين اعترفت من جديد بوجود الدولة المغربية وحقوقها اعترافا اجتماعيا علنيا صريحا زيادة على الاعترافات والضمانات السابقة، وضمنت ضمانة دولية إجماعية في فاتحة "عقد الجزيرة" الشهير، مبدأ استقلال المغرب ومبدأ سيادة السلطان ومبدأ وحدة التراب المغربي من أقصاه إلى أقصاه ومبدأ المساواة الاقتصادية في المغرب بالنسبة إلى جميع الدول.

"وبما أن هذه الضمانة الدولية الصريحة لاستقلال المغرب وسيادته ووحدة ترابه، طلت عليها من بعد (تحت ستار الخفاء) مؤامرات سياسية ودسائس استعمارية مخالفة للعهود المقطوعة، ومناقضة للحق الطبيعي والشرعي للأمة المغربية والدولة المغربية.

"وبما أنه منذ سنة 1912 فرض على المغرب نظام استعماري جديد مناقض لتلك الضمانة الدولة الصريحة كل مناقضة، فوقع الاعتداء على استقلال المغرب وعلى سيادته وعلى وحدة ترابه تحت اسم "الحماية" دون أن يستشار الشعب

المغربي في هذا النظام المفروض، ودون أن يرضى به لا هو ولا سلطانه مولاي عبد الحفيظ حيث أنه حاربه مع شعبه من أول لحظة وعارضه سرا وعلنا، وتنازل عن العرش من أجله واحتجاجا على فرضه بالقوة والدسائس.

"وبما أن نظام الحماية المفروض المشار إليه قد خالف شروطه ونقض بنوده حتى نفس الذين أعلنوه وفرضوه من أول يوم، فلم يطبقوا أية مادة من مواده تطبيقا حرفيا حقيقيا، بل تجاوزوا حدوده وأقاموا في المغرب إدارة أجنبية استعمارية مسيطرة على جميع مقدرات البلاد تتصرف فيها تصرف المالك في ملكه ماليا واقتصاديا وسياسيا وعسكريا وتشريعيا وتنفيذا إلخ، وجعلوا أساس إدارتهم الأول وهدفها الأخير هو خدمة العنصر الأجنبي المنتمي إليهم وحماية مصالحه ما كان مشروعا منها وغير مشروع على حساب الشعب المغربي المهضوم الحقوق في كل الميادين، وجعلوا الأمة المغربية والسلطة المغربية على الهامش في كل شيء ما عدا المظاهر التشريعية والألقاب الزائفة، واستبدوا دونهما بتسيير كافة الشؤون العامة وحدهم، كأن المغرب مقاطعة من بلادهم أو مستعمرة تابعة لهم، أو كأن الشعب المغربي شعب همجي ابتدائي لم تسبق له حضارة ولا دولة ولا نظام، وليس عنده ما يكفيه لاحتياجاته الإدارية من المثقفين الأكفاء والإداريين الأذكياء في مرحلة تطوره الحاضر، ثم تجاوزوا ذلك كله إلى اعتبار التراب المغربي والسكان المغاربة مرتبطين بهم ارتباط التابع بالمتبوع سلما وحربا، فأخذوا يستعملون المواطنين المغاربة ويزجون بالتراب المغربي في حروبهم الداخلية وحروبهم الدولية، دون أن يكون للمغرب ولا للمغاربة أي غرض في دخول تلك الحروب، ولا أية منفعة في تعضيد تلك القضايا الأجنبية الصرفة التي لا ترتبط بها مصالح هذه البلاد.

"وبما أنه قد مرت على المغرب منذ إعلان الحماية المفروضة مدة كافية للتجربة والملاحظة والاختبار فوق الثلاثين سنة ذاق فيها المغاربة الأمرين من جراء ذلك النظام الاستعماري القائم المفروض على بلادهم، وتجرعوا فيها الغصص من

أجل حرمانهم من حقوقهم الكاملة وحريتهم الشاملة.

"وبما أن الشعب المغربي لم ينفك عن إعلان سخطه على هذا النظام المفروض، تارة عن طريق الدفاع الثوري المسلح، وتارة عن طريق الدفاع السلمي الهادئ.

"وبما أن الإجماع القانوني والدولي والأخلاقي قائم على الاعتراف لكل شعب بحق تقرير مصيره وحكم نفسه بنفسه، والشعب المغربي في مجموعه يعتبر نفسه أهلا للتمتع بهذا الحق اليوم أكثر من كل وقت مضى، بفضل ما عنده من كفاءات واستعدادات ممتازة، وبفضل تطوره العقلي والاجتماعي السريع الذي وصل إليه عن طريق جهوده الخاصة، ونشاطه الطبيعي المتواصل، وعقليته العلمية النافذة

"وبما أن الحركة الوطنية المغربية هي محور ثقة الشعب المغربي ومعقد آماله وأمانيه وهي موضع الاعتماد والتأييد من الشعب والعرش على السواء، بصفتها حركة وطنية مغربية صميمة تسعى لاسترجاع سيادة الشعب المغربي وسيادة الدولة المغربية بمعناها الكامل.

"وبما أن الدول الكبرى التي عرفت المغرب في عصوره الذهبية وفاوضت الدولة المغربية مفاوضة الند للند دون أن تنقطع علاقاتها الودية معها إلى سنة 1912، تعلن اليوم أنها لا تحارب إلا من أجل تحقيق "العدل" وصيانة "الحرية" في العالم، فقد تآلفت باسم الشعب المغربي وللدفاع عن حقه في "العدل" و"الحرية" و"الاستقلال" جبهة قومية للحركة الوطنية المغربية مؤلفة من مجموع الهيئات الوطنية المختلفة، وهذه الجبهة تمثل نخبة في البلاد من رجال الفكر والرأي والوطنية الصادقة والنفوذ الروحي الواسع، وقد نشأت تحت ضغط إرادة الشعب المغربي وبتوجيه من روحه وإلهام من تلقاء نفسه، دون أن تخضع لأي عامل خارجي، ولا أن تتأثر بأي دافع أجنبي، ولا أن تسعى لخدمة صالح أي فريق من الفريقين المتحاربين، ودون أن

تكون مقيدة في عملها بأي قيد سوى قيد خدمة المصلحة المغربية العامة وحل قضية المغرب حلا مرضيا للاماني الشعبية، وقد جعلت هذه الجبهة أساس عملها بنود "الميثاق الوطني" الذي تجدون نسخة منه مترجمة صحبة هذه المذكورة.

"وطبقا لكل هذا تتلخص أمنية الشعب المغربي وإرادة الأمة المغربية في الظروف الحاضرة فيما يأتي:

"أولا: إعلان سقوط نظام الحماية المفروض في جميع أطراف المغرب؛

"ثانيا: اعتبار إرادة الشعب المغربي في حد ذاتها مصدرا طبيعيا لتقرير مصيره وحكم نفسه بنفسه، ثم تنسيق هذه الإرادة المشروعة مع تطورات السياسية الدولية العالمية الحالية؛

"ثالثا: حل القضية المغربية على الأساس الشرعي والقانوني الوحيد وهو تجديد الاعتراف باستقلال المغرب وسيادته الداخلية والخارجية وإعادة وحدة ترابه الوطني كما كانت في عهد الاستقلال تحت ظل العائلة العلوية المالكة، مع ضمانة هذا الاعتراف من جميع الدول ولاسيما دول أوربا وأمريكا؛

"رابعا: عقد اتفاقات ومعاهدات حرة لضمانة المصالح المشتركة مع كل الدول التي ترغب أن يكون بينها وبين المغرب الحر المستقل تعاون اقتصادي أو ثقافي منظم أو غير ذلك من أنواع التعاون، ولاسيما الدول المجاورة والدول الإسلامية.

"خامسا: اعتبار الأجانب المقيمين في تراب المغرب على قدم التساوي التام من ناحية المعاملة والمعاشية والاقتصاد والعدالة.

"سادسا: اعتبار التراب المغربي بجميع أطرافه وحدوده وشواطئه ومياهه وأجوائه أرض حياد تام مطلق عند قيام أي نزاع دولي مسلح، وبالنسبة إلى كافة المتحاربين حاضرا ومستقبلا، حيث أنه واقع على مفترق الطرق الحيوية العالمية

الكبرى بالنسبة للقارتين الأوربية والأمريكية، وتعهد المغرب الحر المستقل للطرفين المتنازعين بإبعاد شبح كل ما يمكن أن يعتبر تهديدا أو خطرا على أحد الفريقين، وبصيانة حياده التام والدفاع عنه إلى آخر رمق برا وبحرا وجوا.

"هذه هي أهم الأشياء التي تشغل بال الشعب المغربي والتي يتركز حولها رأيه العام في الوقت الحاضر زيادة على ما في بنود الميثاق الوطني.

والجبهة القومية للوطنية المغربية إذ تعلنها بصفة رسمية إلى الرأي العام العالمي الدولي أجمع أنها ترمي من وراء ذلك إلى تعريف الحكومات المختلفة بالإرادة الشعبية المغربية الصحيحة، واطلاعها على الأهداف القومية الحقيقية للمغرب في ظروفه الحاضرة، وهي تعلق أملا كبيرا على حكومتكم الموقرة في مراعاة هذه الأهداف السامية العادلة والتفضل برعايتها وتشجيعها وتسهيل الطريق أمام تمثيل المغرب تمثيلا صحيحا في مؤتمر الصلح القادم، خدمة للعدل ومناصرة للحرية وإنصافا للشعب المغربي الأبي.

"هذا وان المغرب الحر المستقل الذي ينشده المغاربة أجمعون لن يكون مغربا مقفلا في وجه الحضارة الحديثة، ولا معزولا عن الاحتكاك ببقية الأمم والشعوب، ولا مطبوعا بأي طابع تشم منه رائحة التعصب الجنسي أو الديني أو عداوة الأجناس والأديان الأخرى، بل انه سيكون معقلا للحضارة الحديثة إلى جانب حضارته القديمة، وسيتعاون سكانه الشرعيون تعاونا حرا شريفا في دائرة التسامح والتضامن المصلحي مع كل العناصر والجاليات الأجنبية التي تريد أن تساهم بنصيبها في خدمة وتطويره بإخلاص ووفاء، وأن المغرب الحر المستقل الذي ينشده المغاربة اليوم هو أيضا مغرب تتناسق فيه الحضارتان العربية والغربية، وتتعاون فيه الإرادات الصالحة من أهالي البلاد المواطنين وضيوفهم الأجانب على خدمة الحضارة وصيانة السلم وازدهار العمران، فإذا أعانتنا حكومتكم الموقرة على السير في هذا الطريق فإنما تعيننا على التقدم خطوات واسعة في طريق النهوض والكمال والحرية والاستقلال.

"وختاما تجدد الجبهة القومية المغربية لسعادتكم تحياتها الحارة واعتباراتها الفائقة، ودمتم بخير، والسلام.

"حررت هذه المذكرة بتطوان بتاريخ 8 صفر الخير عام 1362 موافق 14 فبراير سنة 1943.

"عن الجبهة القومية للوطنية المغربية" :

الإمضاءات عبد الخالق الطريس - المكي الناصري

حزب الاستقلال

وهذا هو النص الكامل لوثيقة المطالبة بالاستقلال:

إعلان المطالبة بالاستقلال

إن حزب الاستقلال الذي يضم الحزب الوطني السابق وشخصيات حرة[1].

حيث ان الدولة المغربية تمتعت دائماً بحريتها وسيادتها الوطنية، وحافظت على استقلالها ثلاثة عشر قرناً إلى أن فرض عليها نظام الحماية في ظروف خاصة.

وحيث ان الغاية من هذا النظام والمبرر لوجوده هو إدخال الإصلاحات التي يحتاج إليها المغرب في ميادين الإدارة والعدلية والثقافة والاقتصاد والمالية والعسكرية دون أن يمس ذلك بسيادة الشعب المغربي التاريخية ونفوذ جلالة الملك.

---

1 ـ لأول مرة أعلن عن اسم «حزب الاستقلال» وقد تكون من الحزب الوطني الذي سبق أن حله الجنرال نوجيس سنة 1937 وانضمت إلى الحزب شخصيات وطنية أخرى لم تكن من بين أعضاء الحزب الوطني.

وحيث ان سلطات الحماية بدلت هذا النظام بنظام مبني على الحكم المباشر والاستبداد لفائدة الجالية الفرنسية، ومنها جيش من الموظفين الذي لا يتوقف المغرب إلا على جزء يسير منه، وأنها لم تحاول التوفيق بين مصالح مختلف العناصر في البلاد.

وحيث ان الجالية الفرنسية توصلت بهذا النظام إلى الاستحواذ على مقاليد الحكم، واحتكرت خيرات البلاد دون أصحابها.

وحيث ان هذا النظام حاول بشتى الوسائل تحطيم الوحدة المغربية ومنع المغاربة من المشاركة الفعلية في تسيير شؤون بلادهم ومنعهم من كل حرية خاصة أو عامة.

وحيث ان الظروف التي يجتازها العالم هي غير الظروف التي أسست فيها الحماية.

وحيث ان المغرب شارك مشاركة فعالة في الحروب العالمية بجانب الحلفاء وقام رجاله أخيرا بأعمال أثارت إعجاب الجميع في فرنسا وتونس وصقلية وكورسيكا وإيطاليا، وينتظر منهم مشاركة أوسع في ميادين أخرى وبالأخص لمساعدة فرنسا على تحريرها.

وحيث ان الحلفاء الذين يريقون دماءهم في سبيل الحرية اعترفوا في وثيقة الأطلسي بحق الشعوب في حكم نفسها بنفسها، وأعلنوا أخيراً في مؤتمر طهران سخطهم على المذهب الذي بمقتضاه يزعم القوي حق الاستيلاء على الضعيف.

وحيث ان الحلفاء أظهروا في شتى المناسبات عطفهم على الشعوب الإسلامية ومنحوا الاستقلال لشعوب غيرها فيها من هو دون شعبنا في ماضيه وحاضره.

وحيث أن الأمة المغربية التي تكوّن وحدة متناسقة الأجزاء تشعر بما لها وما عليها من واجبات داخل البلاد وخارجها تحت رعاية ملكها المحبوب، وتقدر حق قدرها الحريات الديموقراطية التي يوافق جوهرها مبادىء ديننا الحنيف والتي كانت

الأساس في وضع نظام الحكم بالبلاد الإسلامية الشقيقة.

1- فيما يرجع للسياسة العامة:

يقرر:

أولا: ان يطالب باستقلال المغرب ووحدة ترابه تحت ظل صاحب الجلالة ملك البلاد المفدى سيدنا محمد بن مولانا يوسف نصره الله وأيده.

ثانيا: ان يلتمس من جلالته السعي لدى الدول التي يهمها الأمر الاعتراف بهذا الاستقلال وضمانه ولتوقيع اتفاقيات تحدد ضمن السيادة المغربية ما للأجانب من مصالح مشروعة.

ثالثا: ان يطلب انضمام المغرب للدول الموافقة على ميثاق الأطلسي والمشاركة في مؤتمر الصلح.

2- فيما يرجع للسياسة الداخلية:

رابعاً: ان يلتمس من جلالته أن يشمل برعايته حركة الإصلاح التي يتوقف عليها المغرب في داخله، ويكيل لنظره السديد إحداث نظام سياسي شوري شبيه بنظام الحكم في البلاد العربية الإسلامية بالشرق، تحفظ فيه حقوق سائر عناصر الشعب وسائر طبقاته وتحدد فيه واجبات الجميع. والسلام

وثيقة 11 يناير 1944

الحمد لله

إن حزب الاستقلال الذي يضم أعضاء الحزب الوطني السابق وشخصيات حرة:

حيث أن الدولة المغربية تمتعت دائماً بحريتها وسيادتها الوطنية وحافظت على استقلالها طيلة ثلاثة عشر قرناً إلى أن فرض عليها نظام الحماية في ظروف خاصة ● وحيث أن الغاية من هذا النظام والمبرر لوجوده هما إدخال الإصلاحات التي يحتاج إليها المغرب في ميادين الإدارة والعدلية والثقافة والاقتصاد والمالية والعسكرية دون أن يمس ذلك بسيادة الشعب المغربي التاريخية ونفوذ جلالة الملك ● وحيث أن سلطات الحماية بدلت هذا النظام بنظام مبني على الحكم المباشر والاستبداد لفائدة الجالية الفرنسية ومنها جيش من الموظفين لا يتوقف المغرب إلا على جزء يسير منه، وأنها لم تحاول التوفيق بين مصالح مختلف العناصر في البلاد ● وحيث أن الجالية الفرنسية توصلت بهذا النظام إلى الاستحواذ على مقاليد الحكم واحتكرت خيرات البلاد دون أصحابها ● وحيث أن هذا النظام حاول بشتى الوسائل تحطيم الوحدة المغربية ومنع المغاربة من المشاركة الفعلية في تسيير شؤون بلادهم ومنعهم من كل حرية خاصة أو عامة ● وحيث أن الظروف التي يجتازها العالم اليوم هي غير الظروف التي أسست فيها الحماية ● وحيث أن المغرب شارك مشاركة فعالة في الحروب العالمية بجانب الحلفاء، وقام رجاله أخيراً بأعمال أثارت إعجاب الجميع في تونس وكورسيكا وصقلية وإيطاليا، وينتظر منهم مشاركة أوسع في ميادين أخرى وبالأخص لمساعدة فرنسا على تحريرها ● وحيث أن الحلفاء الذين يريقون دماءهم في سبيل الحرية اعترفوا في وثيقة الأطلنتي بحق الشعوب في حكم نفسها بنفسها، وأعلنوا أخيراً في مؤتمر طهران سخطهم على المذهب الذي يبتغي به القوي سلب الاستيلاء على الضعيف ● وحيث أن الحلفاء أظهروا في شتى المناسبات عطفهم على الشعوب الإسلامية ومنحوا الاستقلال لشعوب منها من هو دوننا في ماضيه وحاضره ● وحيث أن الأمة المغربية التي تكون وحدة متناسقة الأجزاء تشعر بما لها من الحقوق وما عليها من واجبات داخل البلاد وخارجها تحت رعاية ملكها المحبوب، وتقدر حق قدرها الحريات الديمقراطية التي يوافق جوهرها مبادئ ديننا الحنيف والتي كانت الأساس في وضع نظام الحكم بالبلاد الإسلامية الشقيقة،

يقرر ما يلي

أ. فيما يرجع للسياسة العامة: **أولاً**: أن يطالب باستقلال المغرب ووحدة ترابه تحت ظل صاحب الجلالة ملك البلاد المفدى سيدنا محمد بن يوسف نصره الله وأيده. **ثانياً**: أن يلتمس من جلالته السعي لدى الدول التي يهمها الأمر الاعتراف بهذا الاستقلال وضمانه، ولوضع اتفاقيات تحدد ضمن السيادة المغربية ما للأجانب من مصالح مشروعة. **ثالثاً**: أن يطلب انضمام المغرب للدول الموافقة على وثيقة الأطلنتي والمشاركة في مؤتمر الصلح.

ب. فيما يرجع للسياسة الداخلية: **رابعاً**: أن يلتمس من جلالته أن يشمل برعايته حركة الإصلاح الذي يتوقف عليه المغرب في داخله، ويكل لنظره السديد إحداث نظام سياسي شوري شبيه بنظام الحكم في البلاد العربية الإسلامية في الشرق تحفظ فيه حقوق سائر عناصر الشعب المغربي وسائر طبقاته وتحدد فيه واجبات الجميع، والسلام.

الموقعون على الوثيقة:

الحركة القومية (1944)

بسم الله الرحمان الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

"إن الحركة القومية التي تعمل لتحقيق الوحدة المغربية والتي تضم صوتها إلى "حزب الاستقلال" نظراً لما يتمتع به المغرب، منذ أقدم عصوره، من الاستقلال والسيادة الوطنية، ونظراً لأن الحماية التي فرضت على المغرب لم تقم بمهمتها "التمدينية" بل تعدتها إلى الحكم المباشر. ونظراً لأنّ "ميثاق الأطلنطيك" يقرر مبدأ حق الشعوب الضعيفة في تحقيق مصيرها، والتمتع بسيادتها القومية".

ونظراً إلى مبدإ الحريات الأرْبَع التي قررتها الدول الديمقراطية.

تطالب بما يأتي:

فيما يرجع للسياسة العامة:

1 ـ أن تطالب باستقلال المغرب ووحدة ترابه تحت ظل صاحب الجلالة ملك البلاد المفدى سيدي محمد بن يوسف أيد الله ملكه ونصره.

2 ـ أن تلتمس من جلالته السعي لدى الدول التي يهمها الأمر للاعتراف بهذا الاستقلال وضمانه، ولوضع اتفاقيات تحدد، ضمن السيادة المغربية، ما للأجانب من مصالح مشروعة.

3 _ أن تطلب انضمام المغرب للدول الموافقة على وثيقة الأطلنطيك والمشاركة في مؤتمر الصلح.

فيما يرجع للسياسة الداخلية:

4 _ أن تلتمس من جلالته أن يشمل برعايته حركة الإصلاح الذي يتوقف عليه المغرب في داخله، وتكل لنظره السديد إحداث نظام سياسي شوري شبيه بنظام الحكم في البلاد العربية الإسلامية بالشرق تحفظ فيه حقوق سائر عناصر الشعب المغربي وسائر طبقاته، وتحدد فيه واجبات الجميع.

ونص رسالة التقديم بعد التحية المناسبة للمقام:

وبعد، فإنّ الحركة القومية، وهي الهيئة العاملة دائماً في سبيل البلاد، والمجاهدة تحت ظل عرشكم العلوي الخالد، والتي برهنت دائماً على تضحيتها وإخلاصها للعرش والمغرب، والتي عملت كل ما في وسعها في سبيل القضية المغربية والمحافظة على الوحدة، ترفع لجنابكم هاته المذكرة مطالبة باستقلال البلاد وتحريرها تحت ظل عرشكم المفدى وكلمتكم السامية، ضامة صوتها إلى صوت حزب الاستقلال، وراجية من جلالتكم العمل على تحقيق أمل الأمة المغربية، وتبليغ رجائها وإنقاذها من هوة الظلم والاستبداد.

بسم الله الرحمن الرحيم   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

عريضة المطالبة بالاستقلال للحركة القومية (1944)



فهرس

فهرس

الحماية وانعكاساتها

قراءات

إضاءات

وثائق

محاولة تأطير تاريخي